جامعة دمشق
كلية الآداب - قسم اللغة العربية وآدابها

الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

بحث في تطور علاقة الانتاج الروائي بالايديولوجيا

من ١٨٣٠ الى ١٩٨٢

أطروحة لنيل شهادة الماجستير

اعداد
الزاوي محمد أمين

مدير البحث الاستاذ
الدكتور حسام الخطيب

المجلد الاول

السنة الجامعية 1983 - 1984

القسم الثاني :

الرواية الوطنية والايديولوجيا الوطنية

القسم الثالث :

الفهرس العام :

الإهـــداء

الى ذكراك أيتها المجدلية .. أمًّا ثانيـة
وقلباً بحــرًا .

رحلتِ مُبكرة - يا ربيعــة - لنحيا عن
الحنسة .

مــدين لكِ بأول حرف خَبا على دفاتري

اخوك : أمين

مقدمـــة :
======

واقـــع البحـث

يشكل الأدب الجزائرى المكتوب بالفرنسية ظاهرة معرفية تاريخية ، نتجت من جـــراء تلك العوامل التاريخية والاجتماعية والثقافية التي عاشتها الجزائر على امتداد قرن ونصـــف القرن ، وما زالت بعض آثارها مستمرة حتى الآن .

وعلى الرغم من أن ظاهرة الأدب الوطني ذى الرسم الفرنسي ، ظاهرة تشترك فيهـــا أقطار المغرب العربي جميعا (الجزائر – تونس – المغرب ، موريطانيا ...) ، الا أن الجزائر تتميز عن بقية هذه البلدان ، من حيث كثرة ونوعية الانتاج الأدبي (شعـــر – قصة – رواية – مسرح) . ويعود هذا بالدرجة الأولى الى أن الاستعمار الذى عرفتـــه الجزائر كان استعمارا استيطانيا ، هدفه ابادة شعب (ابادة تاريخية وثقافية وعرقيـــة) وتعويضه بجنس بشرى آخر . وأن الجزائر كانت بمثابة مقاطعة فرنسية ، في حين كان المغرب وتونس ، وهما البلدان اللذان ظهر فيهما ، بدرجة متفاوتة ، هذا الأدب المكتوب بالفرنسية ، واقعين تحت نظام " الحماية " وهو اسلوب استعمارى يختلف عن الاسلوب الأول ، اختلافـــا كبيرا .

ونظرا لكثرة هذا الانتاج وغزارته وتميّزه ، فقد ارتأينا أن نقدم دراسة عن جنس أدبي واحد ، هو الرواية ، بوصفها النوع الأدبي الأكثر نضجا والأكثر اهتماما بالواقع الجزائـــرى المستعمر .

يطمح هذا البحث الى تغطية فترة أدبية روائية طويلة ، تمثل عمر الرواية الجزائريـــة ذات الرسم الفرنسي برمته (١٩٢٠ – ١٩٨٢) ، ومن هذا الطموح الذى كان يرافـــق البحث ، واجهتنا عدة صعوبات ، لايمكن لبحث من هذا القبيل وفي هذه الظروف أن ينفـــذ منها :

أولا : ان البحث يمتد على مساحة أدبية وا[illegible] يغطي مايزيد عن مائة رواية كتبهـــا جزائريون ، ناهيك عن الروايات الكولونيالية : أى التي كتبها فرنسيو الجزائر .

ثانيا : يعد هذا البحث تأسيسيا في هذا المجال ، وهو يسعى الى تقديم صـــورة عن الوجه الثاني لأدب وطني ملتزم طالما قارع الجهاز الاستعمارى ، وهو يطمح الى وضـــع هذا المجهود المتواضع بين أيدى القرّاء والباحثين في المشرق العربي الذين لم تتح لهـــم فرصة الاطلاع على جزء هام من أدبهم على الرغم من أنه مرسوم بالفرنسية ، الا أنه قطعة مـــن تراثهم المعرفي .

ثالثا : تفتقر المكتبة العربية الى دراسة عن الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية ، افتقارا تاما ، اذ لم تقدم حتى الآن أية دراسة في هذا المجال . واذا كانت جامعات العالم جميعها (بيّنا ذلك داخل الرسالة) قد اهتمت بهذا النتاج الأدبي المكتوب بالفرنسية ، فان جامعاتنا العربية ، لم تعره حتى الآن أى اهتمام ، والى هذا الفقر والفراغ الأكاديمي ، يرجع كل نقص أو خلل في هذا البحث .

رابعا : عدم توفر الروايات الجزائرية الاندماجية التي نشرت في الربع الأول من هذا القرن ، في المكتبات الجزائرية والفرنسية ، مما اضطرنا الى الاكتفاء بما كتب عنها سواء في المراجع الأدبية أو الصحف التي كانت تصدر آنذاك .

خامسا : نظرا لغياب المراجع في سورية غيابا كليا فقد كنا مضطرين الى التنقل بين باريس والجزائر وهو أمر يقلق الباحث دون شك .

اضافة الى هذه الصعوبات جميعها ، فقد واجهتنا مشكلة منهجية أخرى ، هي : تحديد الحجج والاثباتات للحكم على جزائرية هذا الأدب ، فلم نجد لذلك سبيلا ، سوى القيام بتقديم الرواية النقيضة ، للرواية الوطنية ، ألا وهي الرواية الكولونيالية ونعني بها ، ذلك الانتاج المعرفي — الجمالي الذى كتبه فرنسيون ولدوا أو عاشوا أو مكثوا فترة في الجزائر ، وعبروا من خلال الخطاب الروائي عن وجهات نظرهم التي لم تخرج في هدفها الأساسي عن الموقف الاستعمارى العام .

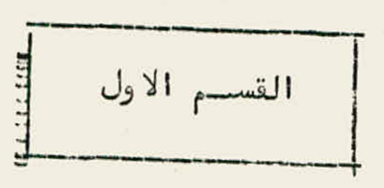
ووجدنا أن الوقوف عند الرواية الكولونيالية بتياراتها المختلفة ، يقدم لنا بشكل واضح الفرق المبين بين أدب وطني وأدب كولونيالي .

اشكاليــة البحــث

وأمام هذه الضرورة المنهجية ، جاءت الرسالة كالتالي :

القسم الأول : تناولنا فيه بنية المجتمع الجزائرى الكولونيالي ، وأجهزته الايديولوجيا الثقافية ، التي افرزت الرواية الكولونيالية بوصفها جزءا من آلية الثقافة الكولونيالية . وحاولنا قدر المستطاع أن نلمس بشكل عام ، ذلك التطور الـ[illegible]ـل في الموقف الجمالي والسياسي ، لهذه الرواية الاستعمارية ، تبعا لتطور بنية المجتمع الكولونيالي من جهة ، وتطور الوعي الاجتماعي والتاريخي الوطني من جهة أخرى ، وقد ميزنا ثلاث محطات أساسية في تاريخ الرواية الاستعمارية هي : " الاغرابية أو مرحلة الاندهاش "

ثم مرحلة " الجزائريانيين " (ALGERIANISTES) وأخيرا ماسمي بمدرسة الجزائر العاصمة (L'ECOLE D'ALGER) وقد سعينا في هذا القسم الى كشف تطور الخطاب الروائي تبعا لتطور الخطاب الايديولوجي الكولونيالي .



القسم الاول

محاولة الاقتراب من

بنية المجتمع الجزائري الكولونيالي

اجتماعيا وثقافيا وروائيا

.../....

القسم الثاني : تناولنا في هذا القسم الوجه الوطني للحقل السياسي والحقل الأدبي - الروائي ، فدرسنا في البداية الأرضية السياسية - الايديولوجية الوطنية التي قامت عليها الرواية الوطنية ، بوصفها نقيضا معرفيا وابداعيا للرواية الكولونيالية ، فوقفنا وقفة عند أهم التيارات الايديولوجيا التي شكلت الحقل السياسي الوطني من : التيار الليبرالي والتيار الاصلاحي والتيار الشيوعي والتيار الوطني . وحاولنا أن نبحث عن هذه التيارات داخل الانتاج الروائي الوطني ، الذى جاء ، مهما كانت اختلافات الرؤى بين الروائيين اثباتا للذات الوطنية والتاريخ الوطني ، اللذين غيبهما الخطاب الروائي الكولونيالي .

ومن خلال العلاقة الجدلية بين منطق السيرورة التاريخية للحقل السياسي والحقل الروائي ، فقد ميزنا عدة اتجاهات داخل الرواية الوطنية المكتوبة بالفرنسية ، ماهي في الأخير الا انعكاس لذلك التنوع الايديولوجي في الحقل السياسي ، فوقفنا عند الرواية الاندماجية والرواية السلفية الدينية والبورجوازية الليبرالية والرواية الوطنية والرواية الماركسية .

القسم الثالث : وهو الذى تناولنا فيه واقع الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية في مرحلة الاستقلال الوطني (١٩٦٢ - ١٩٨٢) ، وقد لاحظنا في هذه الفترة سيلا كبيرا من الروايات بالفرنسية ، لم يشهد الحقل الأدبي والثقافي له مثيلا من قبل ، الأمر الذى اضطرنا الى الوقوف عند أهم هذه الروايات والتي تمثل بحق اضافة نوعية .

وقد درسنا في هذا القسم التحولات التي طرأت على جيل الـ ٥٢/ الأدبي ، أو جيل الرواد ، وخلصنا الى أن محمد ديب هو الوحيد الذى حقق استمرارية عميقة ونوعية من بين جميع روائي جيل الرواد ، فأفردنا له فصلا خاصا تناولنا فيه بالدراسة مسيرته الجديدة في مرحلة الاستقلال الوطني ، وما تميزت به هذه المسيرة الأدبية شكلا ومضمونا .

كما تعرضنا في هذا القسم الى دراسة هموم الجيل الجديد من الروائيين الشباب ، والذى تميز بروح اجتماعية احتجاجية ، وقد خصصنا دراسة مطولة لرشيد بوجدرة بوصفه الروائي الأكثر عطاء وتميزا من بين جميع روائيي جيل الاستقلال الذى يكتب بالفرنسية .

أما الرواية الجزائرية ذات اللسان العربي فلم نتطرق اليها على الرغم من ولادتها القوية والمتأخرة التي جاءت مع مطلع ومنتصف السبعينات ممثلة بشكل أساسي في : الطاهر وطار وعبد الحميد بن هدوقة ، لأنها تستحق دراسة خاصة ، ولأن ظروفها التاريخية والثقافية غير تلك التي عرفتها الرواية الوطنية المكتوبة بالفرنسية .

منهج البحث

ان كل تحليل للأدب لاينظر الى الانتاج الأدبي ، بوصفه جزءا لايتجزأ من مجمل اشكالية سيرورة التطور التاريخي ، وشكلا من أشكال وعي الذات والمجتمع داخل هذه السيرورة ، وجهازا ايديولوجيا مؤثرا سياسيا وجماليا ، هو في النتيجة تحليل قائم على التصور البورجوازى للتاريخ والمعرفة .

من هنا فقد حاولنا الابتعاد عن هذا التصور ، باعتمادنا المنهج المادى التاريخي ، الذى توخينا فيه الاجابة عن أهم الأسئلة والمشكلات المعرفية والجمالية التي كانت تصحبنا طوال مراحل هذا البحث .

وفي اعتمادنا هذا المنهج كنا نسعى الى تحقيق هدفين :

أولهما : تغطية تاريخية لهذه الرواية الوطنية التي أنتجتها ظروف تاريخية معقدة ، أى القيام بدراسة أفقية لكل منتجات الرواية . ثم دراسة النماذج الروائية التي تمثل ظاهرة أدبية وسياسية ، بصورة مفصلة ، أى القيام بدراسة شاقولية .

ثانيهما : عدم الفصل بين الخطاب الاجتماعي ـ السياسي والخطاب الأدبي ، أى رؤية النتاج الجمالي على أنه أحد أشكال الوعي الاجتماعي .

وفي اتباعنا هذا المنهج لم نكن نفصل بين الدراسة الجمالية والمضمونية ، بل اعتبرنا الظاهرة الجمالية ظاهرة اجتماعية في حدّ ذاتها ، وأن الشكل الروائي هو نتاج عملية انعكاس معقدة لبنية المجتمع ، وقد اعتمدنا في ذلك على ماكتبه المنظران : جورج لوكاتش (GEORGES LUKACS) وتلميذه لوسيان غولدمان (LUCIEN GOLDMANN) بالدرجة الأولى .

آفــــاق ...

وعلى الرغم من الطموح والحماس الكبيرين اللذين رافقا البحث مدة أربع سنوات ، وشكلا جزءا هاما فيه ، الا أننا نعتقد أن الرواية الجزائرية ذات الرسم الفرنسي مازالت مثار أسئلة كثيرة وهامة ، لم نجب عنها في هذا البحث ، وانما أملنا أن نكون قد وضعنا علامة على طريق البحث في هذا الميدان الفني والبكر .

واني لواثق ، أنه لولا ، وقفة استاذى ومدير هذا البحث ، الدكتور حسام الخطيب ، الى جانبي في كل محطات هذه الرسالة ، لما كان لها أن تخرج الى المكتبة رغم مشاغله الكثيرة ، فاليه أسمى تقديرى واحترامي .

كما أقدم شكرى الفائق الى أستاذىّ اللذين تكلفا عناء قراءة وتقويم هذا البحث : الدكتور عبد الله الركيبي ، الوزير المفوض لدى السفارة الجزائرية بدمشق ، والدكتور بدر الدين قاسم الرفاعي ، استاذ الأدب الفرنسي في قسم اللغة الفرنسية بجامعة دمشق .

والى الدكتور عمر موسى باشا ، رئيس قسم اللغة العربية الذى لم يبخل علي بأية مساعدة .

١- الاستعمار وجه لأزمة النظام الرأسمالي :

ان الاستعمار ظاهرة تاريخية - اقتصادية - اجتماعية وسياسية ، نتجت في منتصف القرن الماضي (١). وهو شكل من اشكال تطور بنية الاقتصاد الرأسمالي العالمي وعجز هذا النظام عن تلبية المطالب الطبقية للقوى الاجتماعية الجديدة (الطبقة البروليتارية) التي ظهرت كقوة سياسية واجتماعية بعد انتصار الثورة البورجوازية المتنورة ..

هذا التطور الاقتصادي الرأسمالي ، وتأزمه ، والذي بلغ درجة عالية من الحدة واخذت فيه بنية النظام العالمي الرأسمالي تسير نحو الطريق المسدودة ، جعل البورجوازية الفرنسية تتطلع عبر حدودها نحو الشمال الافريقي ، مبتدئة بالجزائر التي كانت بالنسبة لهذه البورجوازية ، تمثل نقطة قوية في هذه المنطقة (٢). ومصدرا غنيا بالمواد الاولية .. وسوقا رخيصة لليد العاملة . ويكفي هنا ان نذكر الكلمات التي تردد صداها في الجمعية الوطنية الفرنسية على لسان الشاعر لامارتين ( ) المعروف (٣) ، حين قال " لعمري ان ذلك لهو الدواء البطولي .. انه تقدير للرجال العظام الذين يقضون على المستحيل .. الذين قضوا على كلمة مستحيل .. ان حياتنا هناك ، ونحن ينقصنا الهواء .. قدموه لنا .. قدموه لفرنسا ." (٤)

ان هذه العبارة في محتواها السياسي الاستعماري ، تكشف بوضوح تام الهدف الرئيسي الذي دفع بالادارة الرأسمالية الفرنسية الى ان تتطلع الى ما وراء البحر .. وقد رأينا المثقفين البورجوازيين ضحايا الايديولوجية الكولونيالية ، من فرنسيين وغيرهم ، يقفون من خلال كتاباتهم وتصريحاتهم الى جانب " حلم فرنسا الرأسمالية " واعتبار الاستعمار ، وسيلة حضارية ، وحقا تاريخيا ، وسوقا انسانيا ، ولعل تغزل لامرتين بـ " السياسيين والضباط والجنود لاقدامهم على فتح الجزائر ليكسون (حسب تعبيره) نافذة هواء جديدة لفرنسا (٥)، لدليل واضح على دور المثقفين التقليديين (٦) في تكريس الفكر والممارسة القمعية والاستعمارية للطبقات الاجتماعية

البالية والمتهاوية في منطق التاريخ .

والثابت من الرجوع الى الوثائق التاريخية (٧) : القانونية والادارية والاعلامية وتصريحات قادة الغزو من عسكريين ومدنيين ، ومن كتابات المثقفين الرأسماليين ، وهم سند الاستعمار وركائزه الايديولوجية . وصانعو فكره وادبياته ، ان " العامل الاقتصادي كان من اهم ما اتفق عليه ارباب الدبلوماسية والتجارة والصناعة في الغزوات التوسعية (٨) ، لقد جاء في مجلة ((٩)) (بريد افريقيا) ما يلي : " ان استغلال هذا البلد (يعني الجزائر) الجديد بالنسبة لفرنسا واوروبا يقودنا ، حتما ، الى اكتشاف الثروة التي بقيت حتى الآن مجهولة لدى البربر ، ومن ثمة سنشيد المؤسسات الصناعية المجهولة حتى الآن في افريقيا . " . ولقد اعتبر بعض قادة العالم الرأسمالي ، استعمار فرنسا للجزائر ردعا للجزائر . . هذا البلد الذى كان يشكل اسطوله البحرى خطرا على اوروبا بأكملها . . فقد صرح رئيس المجلس التشريعي السويسرى بقوله في تموز ١٨٣٠ :

" . . اني اعتبر الاحتلال محاولة ناجحة وظفرة ضد اقوى الدول الافريقية التي كانت ملجأ اللصوصية . . وهذا العمل يتيح عودة الطمأنينة والهدوء الى البحر المتوسط . " (١٠)

ولعل تصريح شارل العاشر (١٧٥٧-١٨٣٦) عن احتلال الجزائر ، لا يختلف عن الاطروحة السياسية ـ الاقتصادية الرأسمالية ، بل هو مركزها ، اذ يقول :
" لاحتلال الجزائر لم آخذ بعين الاعتبار سوى كرامة فرنسا ، ولكن للحفاظ عليها ، فانني لم استشر سوى مصلحتها " (١١)

وحين بدأت اعناق الدول الرأسمالية تشرئب الى ما وراء البحار ، اتبعت في خططها الاستعمارية اسلوبين : " الاسلوب الاول وهو الذى يجعل السكان تحت هيمنتها ، والحكم يكون مباشرا او غير مباشر وهذا الاسلوب الاخير هو الذى اتبعه الانجليز في غزوهم للهند ، اما الاسلوب الثاني فهو احلال الجنس الغازى محل

السكان القدامى .. (وهو ما يمكن تسميته بالاستيطان) ،ولقد اختارت فرنسا في غزوها للجزائر الاسلوب الثاني .. فكانت فرنسا بذلك تسعى لان تجعل من الجزائريين هنودا حمرا ،كما هي الحال في امريكا ،بالنسبة للهنود الامريكيين ."(١٢)

ولتحقيق النتائج الكاملة للاسلوب الثاني ،كان على فرنسا ان تضع خطة شاملة لفرنسة الجزائر واخلائها من سكانها الاصليين (العرب والبربر) ومحاصرتهم في في الجبال والاحراش .

لقد كانت الجزائر عشية الاستعمار " تكوينا اقتصاديا اجتماعيا مركبا ،دون نمط انتاج سائد سيادة واضحة جدا ،وكانت توجد كثرة من الديمقراطيات العسكرية والمشاعات البدائية"(١٣) ،ولكن هذه المرحلة تميزت ببنية محدودة للملكية ووسائل الانتاج (الارض) . فكانت تعطي الاسبقية للعمل المشاعي على التملك الخاص للارض،ومع ذلك فان التمييز القانوني بين اشكال الملكية واضح :"(١٤) ولقد اكد ماركس على هذه الاطروحة بقوله :" بعد الهند ،فالجزائر هي التي تحتفظ بأهم الآثار للشكل العتيق للملكية العقارية ،حيث كانت فيها الملكية القبلية والعائلية غير المنقسمة اوسع اشكال الملكية انتشارا ،وقد عجزت قرون من السيطرة العربية والتركية وبعد ذلك الفرنسية عن تحطيم التنظيم المهني على الدم .. ما عدا الفترة الاخيرة ،ومنذ صدور القانون العام ١٨٧٣ من الناحية الرسمية ... فلقد ظلت استمرارية العلاقات السلالية للانتاج والتي تعّبر عن نفسها في الشكل القبلي والاسرى للملكية"(١٥) سائدة حتى الربع الاخير من القرن التاسع عشر .

لقد كان هدف الاستعمار الاول هو الارض،ولتحقيق ذلك كان على مخططي السياسة الاقتصادية الاستعمارية ،البحث عن كيفية لتدمير قوانين الملكية السائدة في المجتمع الجزائرى ،وايجاد قانون فرنسي بديل عنها،كل ذلك لارساء اساس متين لمستعمرة استيطانية ستكون لها عواقب بعيدة المدى على المجتمع الجزائرى من النواحي ـ السياسية والاقتصادية والثقافية .

فبعد الغزو العسكرى الوحشي الذى وصفه انجلز قائلا :" كل مدينة ،كبيرة

او صغيرة ، ثم غزوها بيتا بيتا . وقد قدمت القبائل العربية والبربرية في الرد على ذلك تضحيات معتبرة ، هؤلاء الذين يمثل لهم الاستقلال الشرف والكرامة . ويعتبرون معاداة الاستعمار مسألة ضرورية وملحة قبل حياتهم .. وقد نال الاهالي العذاب الوحشي والاهانة وهتك الشرف" (١٦) .

وصف بعض الكتاب وقاحة وهمجية هذا الغزو العسكري التي قادها جنرالات الطغمة الرأسمالية في فرنسا قائلين " ان الآذان التي اقتطعها الجنرالات الفرنسيون ، من جثث الجزائريين ... بلغت حجم برميل كبير .. ففي غارة قاموا بها على احدى القرى في الجنوب ، اقتطعوا كل آذان الاهالي .. وخرزوها زوجا زوجا . كان يحملها الجنود الفرنسيون !! واحرقوا كل المستعمرة وسلبوا ما فيها وقطعوا كل اشجار النخيل وافسدوا واتلفوا كل مخزون التمر " (١٧) .

بعد هذا الغزو الوحشي ، بدأت فرنسا بأول حلقة في سياستها الاستيطانية ، وهي اصدار مراسيم وقوانين تنص على مصادرة اراضي المواطنين الجزائريين (قوانين ١٨٤٤-١٨٦٣-١٨٧٣) وتدمير نظام الملكية المحلي ، واعتماد القانون الفرنسي فوق القانون الاسلامي (١٨) الذي كان جاريا به العمل في اوساط الاهالي .

ونتج عن تقنين الملكية الجزائرية بالقانون الفرنسي نزع الاراضي من اصحابها وتحطيم البنية القبلية ، فمنذ مجيء " الفرنسيين الذين احتلوا اراضي (البايليك) وجدنا انفسنا مدفوعين نحو اراض غير مستصلحة في معظمها .. اننا لم نكن قط على هذا البؤس في عهد الاتراك لان القسم الاكبر من السكان كان مستقرا في اراضي (البايليك) ، والتي كانت اعظم ارضها خصبها وأوفرها ربحا .. صحيح انه لم يكن لنا حق التمتع بهذه الارض ، لكننا على كل حال كنا نزرعها .. ان ذلك احسن مما نحن فيه الآن .. " (١٩)

لقد كان البعد الاقتصادي والسياسي للادارة الاستعمارية الفرنسية ، هو تفقير الجماعات الاجتماعية من الاهالي ، وحصرهم في الجبال والاراضي غير الصالحة للزراعة .. وقد " عجلت بهذه العملية الانتفاضات القبلية العديدة التي كانت

(تقابل) بفرض حجوزات على الاراضي كاجراء انتقامي (مخطط) من جانب الفرنسيين" (٢٠).

ولقد رافق هذا القمع الطبقي العسكري ،عمليات مضاربة على العقارات ،أملا في تدمير كل شكل من اشكال التمليك المحلي .. وكان من نتائج عملية تدمير قانون التمليك المحلي الاسلامي ،ان تحول المالكون الجزائريون شيئا فشيئا الى عمال مأجورين ،اما الذين افلتوا من المصادرة فقد بدأوا ينتجون لصالح الاقتصاد الجديد[21] ،وارتبطوا بعجلة التبعية الكاملة لبنية هذا الاقتصاد الذى بدأ يضع اسسه المادية والبشرية وقوانينه وايديولوجيته .

وبينما كان الاهالي " يجردون من اراضيهم ويشهدون تفكك اطارهم الاجتماعي (التقليدى الخاص بهم) كانت الجزائر تعرف هجرة واسعة من طرف الاوروبيين"[22] ولم يكونوا من جنسية فرنسية فقط ،بل كانوا من مختلف الجنسيات ،ولم يمثل الفرنسيون فيهم سوى نسبة النصف اما الآخرون فكانوا من " الاسبان او الكورسيكيين والايطاليين والمالطيين"[23].

قضت الادارة الاستعمارية الاستيطانية أكثر من نصف قرن في طرد الاهالي من المدن والقرى والارياف .. واخلاء الارض" لتملأ الجزائر بسكان من الايطاليين والاسبان " ،ورغم اختلاف جنسيات هؤلاء الوافدين المستوطنين الا انهم التقوا جميعا في مسألة مركزية واحدة هي " الحقد العنصري والاجتماعي على الاهالي"[24].

ومهد الاستعمار اعلاميا لهذه الحملة التفقيرية العنصرية ،بالدعاية الداخلية والعالمية ،وقدمها للرأى العام على انها قضية حضارية وانسانية تتحمل فرنسا " المتحضرة " مسؤولية اقامتها في الشمال الافريقي المتوحش .. فكتب فريد يريك لاكرو الى نابليون الثالث سنة ١٨٦٢ قائلا :

" .. ان الجزء الاكبر من الارض الجزائرية ينتقل فورا بفضل نشوء الملكية ، الناتج عن هذا القرار (قرار الغزو وقانون التمليك ١٨٤٤ ..) من حالة القيمة

البحتة الى حالة القحة الحقيقية .. والملايين تخرج من العدم .. ان الارياف تمتلئ بالسكان ، والمدن تتجمع فيها عناصر التجارة والصناعة" .(٢٥)

ان مخططي السياسة الاستيطانية ، وهم "يشرّعون" قوانين الجهاز الاستعماري الضخم ، كانوا يحسبون حسابات دقيقة لردّ الفعل الاجتماعي والسياسي الذي من المتوقع ان يقوم به الاهالي ، بأشكال مختلفة ، واذا كان الاستيلاء على الاراضي وتجريد الاهالي منها لايخرج عن الاطار الايديولوجي الذي مركزه الاطروحة القائلة بـ " ان التشريع الجديد سيمدن العرب ويصلحهم ويفرنسهم " ، وفرنسا الاستعمارية في كل ذلك كانت تهدف ، كما يقول الجنرال الارمفوض الحكومة ، الى تقليص نفوذ الزعماء (زعماء القبائل والعروش) وتفسخ القبيلة"(٢٦)

وان اصبحت الارض سلعة تجارية تنتقل بحرية من يد الى اخرى ، خاصة بعد صدور قانون ١٨٦٣ والذي اتاح للمعمرين شراءها بعد طرحها في السوق الحرة(٢٧) بعد ما جرد اهلها منها ، كان الاستعمار ، بذلك ، يحفر قبره بيده ، في تفقير الاهالي وتقنين الارض التي هي كل شيء بالنسبة اليهم ، بقانون فرنسي ، واثقال كاهلهم بالضرائب" التي زادت في سنة واحدة (١٨٣٦-١٨٤٠) بثلاثة اضعاف" .(٢٨) اذ كان الاهالي قبل ١٩١٨ مطالبين بدفع الضرائب المباشرة على غرار الضرائب المفروضة على الاوروبيين ، وكانوا بالاضافة الى ذلك مطالبين بدفع ضريبة اخرى تسمى بـ " الضرائب العربية" (LES IMPOTS ARABES) ومطالبين كذلك بالقيام بـ " السخرة " (LES CORVEES) وكانت حتى الضرائب ذات الطابع الاوروبي قاسية على الاهالي أكثر منها على الاوروبيين ،(٢٩) كل هذا ، كان بامكانه ان يفجر الوضع ، بين لحظة واخرى ، وقد تفطن الى هذه الحالة بعض الساسة الاستعماريين ، يقول بعضهم : " بعد امتلاك الارض بصورة نهائية تبدأ اللامساواة ، اذ سيكون الملاّك من ناحية والبروليتاري من ناحية اخرى ، تماما كما هي الحال في مجتمعاتنا المتمدنة ." (٣٠) ، وقد ردد نائب نانسي (Nancy

جماة لرئيس لجنة البحث عن ميلاد ، طبقة كادحة أهلية ، اثر انها تولدت عن نمو الاستعمار الذى قضى على المالكين للارض سابقا ، وبيّن عواقب سيرورة التحول الاجتماعي وقال : " ستفقد والطبقة الكادحة الفلاحية طبقة كادحة عمالية ، فقد اظهر اهل القبائل في جميع مناجم الشمال (بفرنسا) وصناعات مرسيليا وباريس انهم عمال سيملؤون مناجم الونزة (بالجزائر) وستكون لهم طبقة كادحة عمالية بالجزائر في ظرف خمسة وعشرين سنة والتاريخ بيّن ان المشاكل الاجتماعية قوة انفجار لا مثيل لها اذا ما استمدت قوتها من المضاعفات الدينية والضغائن القومية" (٣١).

ورغم هذا التفقير والاضطهاد الاجتماعي والعقائدي الذى ارتكز على أهم وسيلة انتاج يملكها الاهالي وهي "الارض" ، يقول الجنرال بيجو ( ) " ليس في افريقيا سوى مصلحة واحدة نضع يدنا عليها هي المصلحة الزراعية ، وعلى هذا ، لم استطع ان اكتشف وسيلة لاخضاع البلاد سوى الاستيلاء على هذه المصلحة " (٣٢) ، ورغم ان الفرنسيين كانوا ينامون مشردين ويستيقظون ملاكين ، (على حد تعبير احد المعمرين) لقد سافر الى الجزائر سنة ١٨٤٨ حوالي ٢٣٥٠٠ / عاطلا ، فودع رئيس الحكومة الفرنسية الفوج الاول منهم قائلا : " .. المستقبل لكم ، هناك ، ستجدون مناخا صحيا وسهولا شاسعة ، وأرضا خاما وخصبة ملكا لكم ، وليست لاحد غيركم ستحرثونها وترتقون الى حياة مزدهرة وشريفة " (٣٣) . رغم هذا فان نمو الرأسمالية (الكولونيالية) حتى سنة ١٨٨٠ ظل محدودا ، رغم القمع الوحشي للفلاحين الجزائريين" (٣٤) . لكن مع نهاية القرن التاسع عشر ، ومع بداية تمركز المعمرين داخل البلاد اى في كل مناطق الانتاج ، خاصة بعد سنة ١٨٧١ . وكذا بعد تطبيق القانون الجمركي لسنة ١٨٥١ ، ومع بداية مطالبة المعمرين باشغال الري ، وانشاء السدود [illegible] او تحويل المياه في كل انحاء الجزائر ، ومع مكننة الزراعة ، وما رافق ذلك من اتساع الاراضي المزروعة ، وتزايد الانتاج بالنسبة للزراعة الاوروبية (٣٦) ، اضافة الى " حل

البنية الاجتماعية للقبائل ،نتج نمو بروليتارلية ريفية ضخمة .. وكذا الشروط الضرورية للتراكم البدائي لرأس المال الزراعي (٣٧)

وقد افرز هذا القمع الاستعماري الاجتماعي والسياسي ،الذي اطلقه وصممه الجنرال (BUGEAUD) (بيجو) لجنوده : " ان رسالتكم لا تقتصر على مطاردة العرب ،فهذا لا يفيدنا في شيء ،وانما عليكم ،كل في منطقته ،أن تمنعوا العرب من البذر والجني والرعي (...) والاستمتاع بحقولهم " (٣٨) ، تضامنا جديدا بين الجزائريين ،تجاوز الاسرة والقبيلة والطبقة ،اذ تحول صوب المستعمرين ذلك النضال الذي كان من شأن الفلاحين المعدمين وعمال المدن ان يشنوه ضد ملاكي الارض المحليين والبورجوازية المحلية (٣٩) والارستقراطية النازلة من العهد التركي عسكرية ومدنية . كما أحدث قانون ١٨٦٣ القاضي بتوقيف " توزيع البيوت الدينية التي يصرف عليها من اموال " الحبوس " للذين لا مأوى لهم " ،لانها اصبحت ممتلكات خاصة (٤٠) ،تقطعا بين السلالات والقبائل وتفككا في البنية السياسية القديمة ، وبالتالي ادى هذا كله الى هجرات او انتفاضات صريحة .. واهم الهجرات التي حدثت الى الشرق كانت في السنوات : ١٨٣٠ و ١٨٣٢ و ١٨٥٤ و ١٨٦٠ و ١٨٧٥ و ١٨٨٨ و ١٨٨٦ و ١٩١٠ (٤١) نزحت بعض الاسر الى سوريا من تلمسان ،لانهم كانوا يشعرون ،أن لعنة الله تحيق بهم " . (٤٢)

طال الاستعمار بحث بكل الاساليب ،القضاء على اشكال الوحدة السياسية والاجتماعية التي ساهم هو في تكوينها ،يقول برتراند (L. BERTRAND) " .. نحن الذين اعطينا لهم ما يشبه الوحدة السياسية والادارية ،ولو لم نكن هنا ،فالوطن بالنسبة لسكان الجزائر (ALGER) ينتهي عند عتبة العاصمة نفسها ،وخارج ضواحيها سيستقبل بالرصاص .. " (٤٣) وبالفعل لقد كان القمع الاستعماري وسياسة التفقير الشاملة ،هي التي عززت الوحدة السياسية والطبقية بين الاهالي . فلقد وجدت الطبقة الفلاحية التي تتكون من " عمال زراعيين ،خماسين ، مزارعين ،صغار الفلاحين ،الملاكين لقطعة ارض ،الملاكين المتوسطين " رغم عدم تجانسها الاجتماعي ،نفسها امام الخطر الاقتصادي والاجتماعي والعنصري للمعمرين الفرنسيين ،مجبرة على التوحد لمجابهة الخطر الذي يداهمها يوما بعد يوم .. ،فحين كان المجتمع الجزائري يحيث تمركز آليات الاقتصاد الاستعماري الزراعي والصناعي من جهة ،كان يشاهد من جهة ثانية تكاثف وتكتل الاهالي للمواجهة الكاملة (عسكريا ـ اقتصاديا ـ ثقافيا ـ سياسيا) رغم الامكانات والوسائل والكفاءات المادية والفكرية المحدودة جدا .

٢- في البحث عن تكوين مثقفين كولونياليين :

لقد تمّ الاحتلال الاول للجزائر بقوة السلاح ، وانتهى عام ١٨٧١ بنزع السلاح من القبائل ، ويتضمن الاحتلال الثاني قبول : الادارة وترسانة القوانين الادارية والعقارية والمدرسية التي سنتها الحكومة الفرنسية للاهالي من اجل " تحضيرهم ." فالى جانب الاكاديميات الحربية شيدت فرنسا " اكاديميات " اخرى تعرف بأكاديميات العلوم الاستعمارية . لقنت فيها فن التزوير والتخريب وعلم التضليل والتزييف قصد الاستثمار والاستغلال (١) " . اذ لا يمكن ان يتم الاستعمار الاستيطاني الا بالهيمنة العسكرية من جهة والهيمنة الثقافية من جهة اخرى ، فاحداهما ضرورية بالنسبة للاخرى وحتمية .

ولبسط الهيمنة الثقافية كاملة ، كان على المفكرين الاستعماريين ان يخططوا بحذر شديد ، لان الحقل الثقافي هو حقل مهزوز ملغوم ويستطيع ان يفجر صراعات ربما تكون اشد شراسة من الاستيلاء على الارض .

ان الاهالي طلبوا مقابلته (٢) ولم يحدثوه عن حجز املاكهم ، ولا عن فقرهم ، بل قالوا له ، رمموا جامعنا واعطونا مدرسة لائقة ، وامنحوا المعلم مرتبا ، فنحن عاجزون عن دفعه له ، وهذا كل ما نطلب " .

واول ما فكر فيه فقهاء الاستعمار ومؤرخوه وسياسيوه ، هو سد الحاجة الماسة التي وجد الاستعمار نفسه فيها ، هذه الحاجة هي خلق نخبة من المثقفين التقليديين تكون قادرة " على نشر افكارنا في العدل والحضارة والتقدم ، تكون هذه النخبة المثقفة البورجوازية المحافظة والتي ترتبط بنا ارتباطا وثيقا من اجل مساعدتنا على توضيح الخط الذي نسير فيه ، ... هي تقدم لنا ما نريد ونحن نقدم لها ما تريد (٣) .

لم تنشأ هذه الطبقة بوضوح الا بعد ان بدأت الرأسمالية تدخل الزراعة ، وبدأت مظاهر الصناعة تظهر في المدن ، وشرع المجتمع الكولونيالي يأخذ شكله

المحدد في مجالات الحياة الاجتماعية المختلفة : " الاقتصادية ـ الصناعية ـ الزراعية ـ الثقافية .. الخ " فتكونت هذه الفئة محاصرة منذ بدايتها في " اطار التبعية ، تربطها بالبورجوازية الكولونيالية وتشدها اليها في شكل تحالف طبقي لم يكن التناقض غائبا عنه ... وكانت في بدايتها زراعية ـ تجارية .. ثم دخلت فئة منها قطاعات الصناعة (والثقافة) حين دخلها قانون الرأسمال الكولونيالي (٤) . "

ولقد سعى الاستعمار منذ البداية ، ومنذ فرض قوانين التمليك والقوانين الادارية الجديدة ، هو خلق مثقفين محليين من الاهالي (عرب وبربر) ، يكونون ذوي اصول : ارستقراطية ذات ارتباط مع الارستقراطية التركية ، او اقطاعية دينية او بورجوازية من المدن المحافظة (تلمسان ـ قسنطينة ـ ندرومة ـ مازونة .. " يستطيع الاستعمار ان يثق فيها ، وتستطيع بدورها هي ان تقدم له خدمات ، بأن تكون الوسيط بينه وبين الاهالي ، لهدم ذلك الجدار التاريخي (النفسي الحضاري الطبقي) الذي يفصل بينه وبين الاهالي . وقد نجح الاستعمار في هذه الخطة ، لاعتماده اسلوب التوريط المادي ، من جهة واسلوب " الزعامة " الجديدة التي يضع نفسه هو وسيطها ، وتكون هذه الزعامة بديلة عن الزعامة القبلية التي رفضت الاستعمار وقاومته .

ولقد ظل المؤرخون البورجوازيون وعلماء الاجتماع البورجوازيون ، يؤكدون بلهجات مختلفة ان " الثقافة الجزائرية لم يكن لها وجود ، واذا كانت قد وجدت فانها ليست جزائرية ، وانما هي تقليد قام به البربر لحضارات غريبة وردت على الجزائر (٥) "

وحين واجه الاستعمار ثقافة هذه الامة في الواقع الموضوعي، اذ ... من غير المعقول الا تكون لامة ما مهما كانت درجة بدائيتها او حضارتها ، ثقافة ، مهما كانت سمات وثروات هذه الثقافة .

ـ لاحظ الجنرال فالار سنة ١٨٣٤ ما يلي :

" ان العرب يتقنون كلهم القراءة والكتابة وفي كل قرية ... توجد مدرستان ،

اما عدد المدارس فكان يناهز الفي مدرسة كما كانت توجد معاهد وجامعات في الجزائر العاصمة وقسنطينة ومازونة وتلمسان ووهران . ان التعليم في الزوايا الكبرى كان زاهرا ... وكان لكل طريقة دينية عدة مدارس منتشرة في القطر ، اما المواد المدروسة في هذه المعاهد فلم تكن تختلف عن المواد التي كانت تدرس في باقي العالم العربي " (٦) .

واجه الاستعمار ثقافة هذا الشعب في اشكالها المتعددة والمتفاوتة الجودة ، والتي يجمعها خيط واحد هو الطابع الديني الذي نتج من غلبة المدارس القرآنية على الحقل الثقافي يقول صادق هجرس:

" ان المدارس القرآنية كانت عاملا مهما في توحيد البلاد من اقصاها الى اقصاها .. لم تترك المدارس القرآنية والثقافة الكلاسيكية (عامة) الفراغ امام الثقافة الكولونيالية لتخلع الشخصية الوطنية (المحلية) عن الاهالي " (٧) .

وازاء هذا الوضع ، بدأ الاستعمار في تطبيق سياسة " الثقافة المحروقة " على غرار ما طبقه على الارض وهو ما سماها الجنرال الفاشي بيجو " سياسة الارض المحروقة " ..

يقول الرحالة الالماني موريس فاغنر (MAURICE WAGNER) الذي اقام في الجزائر مدة طويلة وذلك بعد احتلالها بست سنوات ، في كتابه " رحلات في ولايات الجزائر " :

" ان جنود فرنسا قد اتلفوا عددا كبيرا من المخطوطات النفيسة التي عثروا عليها في دار ابن جنينة بقسنطينة ." .

ولقد كان تصميم الخبراء السياسيين الاستعماريين يهدف الى تحطيم كل بناء روحي ومادي للاهالي ، فجعلوا لذلك مخططا شاملا للتجهيل ، وضرب الاستعمار حصارا استثنائيا على كل ثقافة مماثلة ، متنورة ، ومارس تجاههما القمع الشامل ، واطلق العنان للثقافة " المحلية " المشبوهة والتي تصب في نفس القناة الثقافية الاستعمارية ،

بل على العكس من ذلك، كان يشجعها ويدعم رجالاتها من اجل تثبيت سلطتهم الايديولوجية والفكرية على الاهالي .

يقول جان بول سارتر :

" ولكننا على كل حال ،اردنا أن نجعل من اخواننا المسلمين شعبا من الاميين ويبلغ عدد الجزائريين الاميين اليوم ٨٠٪ وقد كان الامر يهون لو اننا لم نحرم عليهم استعمال لغتنا ،ولكن الواقع ان من متطلبات النظام الاستعماري ان يحاول سد طريق التاريخ على المستعمَرين ،ولما كانت المطالب القومية في اوروبا تعتمد دائما على وحدة اللغة . فقد حرّم على المسلمين استعمال لغتهم بالذات . ان اللغة العربية في الجزائر لغة اجنبية منذ عام ١٨٣٠ ،انهم ما يزالون يتحدثون بها ولكنها كفت على ان تكون لغة مكتوبة الابالقوة لا بالفعل وليس هذا كل شيء . فالادارة الفرنسية صادرت دين العرب ،لكي تبقيهم في التجزئة ،والتفتت ،وهي تختار رجال الدين الاسلامي من بين عملائها ،وقد حافظت على احط انواع الخرافات التي تفرق بين الناس (٨).

لقد تميز الحقل الثقافي الاستعماري بالاجهزة التالية ،والتي تصب جميعها في قنوات الايديولوجية الكولونيالية وتأخذ منها بالتناوب :

١- الجهاز المدرسي :

لا تخرج سياسة التعليم التي سنّتها القوانين الفرنسية (أكاديميات العلوم الكولونيالية) عن المنطق الادماجي البعيد المدى ،بل تمثل سياسة التعليم هذه (تخريج الكوادر والمثقفين والاعوان) جوهره وحلقته الرئيسية ، التي جرى ثمن عاين نتائجها كثيرا . فبعد اكثر من نصف قرن من الاحتلال ،كان النظام الاستعماري قد ادمج وضع طريقة [illegible] لتوطيد جهاز مدرسي جديد فموسوم (جول فيري) - الصادر عام ١٨٨٣ امدّ الجزائر بمبادئ الجهاز المدرسي الجديد (٩) .

ان دينامية توطيد الجهاز المدرسي الجديد تقوم على تناقض لا يمكن للاستعمار تجاوزه ،ويمكن تحديد طرفي هذا التناقض كالتالي :

ان التعليم يعني تعزيز الاستعمار . . . ولكن هذا التعليم نفسه يضع الاستعمار في خطر ، فتعليم الجزائريين (الاهالي) هو ضرورة بالنسبة للادارة الاستعمارية ، لانه يمثل في الحقيقة اتمام ترسيخ الاستعمار وذلك بغزو الادمغة [١٠] لأنه في نفس الوقت يشكل فجوة عميقة يخلقها الاستعمار في طبيعة تطوره ، اذ ان تكوين نخبة من المثقفين المسلمين يشكل في حدّ ذاته خطرا على وجوده .

ولقد كانت مهمة كل القوانين والمراسيم الفرنسية الخاصة بالتعليم حتى نهاية القرن التاسع عشر هدم واتلاف الجهاز التربوى والديني (المحلي) بصورة مباشرة وذلك بتضييق اسسه المادية والاجتماعية [١١] ، وخلق حصار سياسي حوله .

لذا قال لاومسي استاذ التشريع الجزائري ما يلي :

" لا سبيل انجع لفرنسا من التعليم الابتدائي لتخليص السكان المسلمين من الافكار المسبقة التي تحول بينهم وبين مدنيتنا ، ولرفع مستواهم الادبي والثقافي [١٢] " .

وحري بالذكر ان وجود الاوروبيين في الجزائر والفرنسيين خاصة . مكنهم من ان يجلبوا ويطرق القانون ثقافتهم ، فهم الذين خططوا مناهج التعليم (مرسوم جول فيري) وهم الذين عينوا المدرسين وهم الذين اختاروا الكتب ، وهم الذين طبقوا [١٣] كل هذه الترسانة الثقافية ، يبقى ظل التعليم في اطار الرأسمالية الكولونيالية ، غير ممكن بالنسبة للاهالي وكل الفئات الفقيرة من الاوروبيين انفسهم (رغم الطابع العنصري الذي يطغى على الرأسمالية الكولونيالية) الذين استوطنوا الجزائر ، فالقليل من الجزائريين سيصبح بعد التعليم قوة عمل تستخدم في جهاز الانتاج الرأسمالي الكبير [١٤] . بالاضافة الى ان من اهدى عناصر النظام الكولونيالي حتى ١٩١٩ انه لم يكن يقبل سوى الفرنسيين في الوظيف العمومي ، وقد اكد قانون ٢١ افريل ١٨٥٦ الذى احصى حوالي مائة وظيفة ، حيث لا يوظف فيها الا الفرنسيون ، وقد يستقبل فيها بعض الاهالي اذا حصلوا على تزكية من الفرنسيين ومن " القانون " [١٥]

وقد كانت سياسة التعليم الاستعماري ذات طبيعة عنصرية شأنها شأن الجهاز الكبير الذي انتجها ، والذي تعهد انتاجه هي بدورها . او هكذا كان يأمــل . فالمدرسة الاستعمارية لم تفتح ابوابها للتلاميذ جميعا بدون تميز ،لقد عملـت الادارة الفرنسية بمبدأين كان لهما الدور الرئيسي في نشر " التعليم " في دوائـر ضيقة ،وأول هذيـن المبدئين هو : ان تكون المدارس اكبر عددا واوسع انتشـارا حيث يكثر الفرنسيون خاصة والاوروبيون عامة . والمبدأ الثاني هو ان تكون المـدارس لابناء الفرنسيين وبناتهم اولا ثم لابناء الاوروبيين ثانيا ثم لابناء الاهالي المتورطين (اي الموالين للاستعمار) اخيرا .

ونحن اذا مزجنا المبدأين ادركنا جيدا لماذا كان معدل ممن تتسع لهـم المدارس الرسمية الاستعمارية لايتجاوز في كل المغرب العربي ١٢ ٪ وان كان يبلـغ نحو ٣ ٪ في بعض الاحيان .

فالمدرسة الاستعمارية على سوء شكلها ومضمونها لم تصل الى الجميـع ولذا فالامية ظلت واسعة الانتشار بين فئات كبيرة من السكان بعد سنوات طويلـة من الاستعمار[(١٦)] تتجاوز القرن .

" حين كنا نطالب بفتح المدارس كان يردهم (اي الادارة الاستعماريـة) علينا اننا لسنا اهلا لها لاننا قوم لانقبل لا التربية ولا العلم ،وتكالب الاستعمـار على محاربة الثقافة العربية بغية القضاء عليها ،دون ان يلقننا ثقافته ،فأوصـد في اوجهنا ابواب المدارس العليا ومدارس العلوم التقنية واتهمنا بانه ليست لدينا قابلية ولا كفاءة . "

هذا تصريح احد دعاة الاندماج والذي كان يعتبر فرنسا امه ،وينكر على الجزائر طبيعة الامة والوطن . فاذا كان هذا احساس الاندماجيين من البورجوازيـة الجزائرية الجديدة ،ووكلاء فرنسا داخل الاسر واحياء الاهالي ،فكيف يكون اذن موقف الاطراف الوطنية والتقدمية التي رفضت الاستعمار من اساسه ؟ .

لقد واجه الاهالي المدرسة الاستعمارية بأشكال مختلفة ومتعددة ، فالمدارس القرآنية التقليدية استطاعت ان تحافظ على الاستمرارية وعلى الطابع المحلي للثقافة الاهلية يقول صادق هجرس .

" ان الحفاظ على الثقافة المحلية كان عبر الاساليب البالية جدا ... لقد فهمت جيدا .. لماذا حافظت امي بعناية على " اللوح " الذي كان يقرأ عليه ابي سور القرآن ، وناولتني اياه لاقرأ عليه نفس السور ، ولماذا حافظت على بعض الكتب الصفراء .. ان هذه الكتب كانت تمثل كل الارث الحقيقي الذي يخلفه الاب لابنه بعد وفاته (١٧) " .

فهذا شكل من اشكال المواجهة العنيفة التي عرفتها هذه المدرسة العنصرية وهناك اشكال اخرى : " اذ كان التلاميذ (الاهالي) يقاطعون الامتحانات حين تصادف ايام اعياد هم الاسلامية .. وكانوا لا يخفقون حتى مدابرهم كي يقتلوا كاهل الحكومة الاستعمارية بالمصاريف (١٨) " .

فالمدرسة القرآنية التي كان يرتادها اغلب ابناء الاهالي حتى من كان لهم الحظ بالالتحاق بالمدرسة الفرنسية ، وكذلك جو العائلة والثقافة الاسرية المحافظة ذات النزعة الاستقلالية ، كانت كلها تواجه بعنف المدرسة الفرنسية .

" لا تتعلم اي شيء ، لا تسمع اي شيء مما يقوله لك المعلم (الرومي) ، انها مدرسة الشيطان ، انه يريد ان يجعل منك طفلا ينسى اصله " (١٩) وصية ام لطفلها) .

وعلى المستوى السياسي المباشر واجه الاهالي هذا الجهاز ... فكانت ... هذه المواجهة في سنة ١٨٨٠ اكثر وعيا منها في سنة ١٨٣٠ (٢٠) ، وقد وقعت بيانات ضد السياسة الثقافية الاندماجية (٢١) من قبل مثقفين من الاهالي ، وندد ت بمضمون برامج هذه المدرسة واهدافها ، فكان محمد بن رحال " وجها سياسيا وثقافيا كبيرا خلال المرحلة التي سبقت تكوين الحركة الوطنية في الجزائر ... ويعتبر خصما شرسا لكل دمج ، رغم انه تكون في مدرسة فرنسية (٢٢) .

وبعد قانون ١٨٨٣ جرى هيجان كبير في مدن الجزائر الرئيسية ـ العاصمة تلمسان خاصة . . . ووقعت بها هبتان تحتجان ضد هذا القانون واستمر هذا الموقف حتى سنة ١٩٠٠ (٢٣) . وما صيحة الفزع والاشمئزاز التي غمرت عموم المستعمرة من اقصاها الى ادناها عندما اخذ البرلمان الفرنسي على عاتقه ان يضع مشروعا للمدارس الاهلية " الا شاهدا على الرفض والمواجهة والاحتفاظ بالشخصية المحلية ، والخوف من المسخ الثقافي . . وبادرة من بوادر الوعي العفوي (٢٤) " .

أن السم الذي كان يدس في برامج المدرسة الفرنسية ، والذي كان يطبخ في " أكاديميات العلوم الكولونيالية " سيكون له اثر على جملة من المثقفين الذين سقطوا ضحية هذه السياسة .

فلقد اقتصرت البرامج المدرسية على (التاريخ مثلا) تمجيد لويس الثاني عشر ولويس الرابع عشر وتاريخ " las gaulois) و " لم يكن اى احد من آبائنا شجاعا ليستحق سطرا واحدا في كتاب ما . . هل عاش اباؤنا كالحيوانات ولم يخلفوا اى اثر . . ان ان المفترس الداي حسين ، داي الجزائر قد ضرب القنصل الفرنسي بمروحته . . لقد جئنا الى الجزائر لنخلص البحر المتوسط من القرصنة البربرية ، ان فرنسا دخلت هذا البلد حيث يتقاتل العرب والبربر يوميا . . .
ان آباءنا هم بيجو والجنود الذين غزوا الجزائر والمعمرون الذين ملؤوا البلاد بالخيرات والثروات (٢٥) " .

وقد قنن هذه المواد مؤرخون وعلماء اجتماع استعماريون ، خبراء " اكاديميات العلوم الكولونيالية " ، وساهم فيه كل مثقفي البرجوازية الفرنسية التي بدأت منذ منتصف القرن التاسع عشر تتحسس ضربات الطبقة البرولتارية الصامدة والورثة التاريخية لكل الصراعات البشرية والاجتماعية. وقد قابل الاهالي في كثير من الاحايين هذه البرامج بالتفكه والاستهزاء (٢٧) . .

ورغم ذلك فان الاستعمار من خلال منظريه التربويين ـ السياسيين كان يدرك التناقض الذي تحمله جهاز هذه المدرسة . لذا لكن الاستعمار كان يود دائما خلق

الفرنسية من الاهالي ليجعل منهم اعوانه وليجعلهم وسطاء بينه وبين الاهالي ..
ولذا لم تتجاوز نسبة التلاميذ في المدارس الفرنسية حتى عشية الحرب العالمية
الثانية ١٠٪ ، ولقد اكد رئيس الجمهورية الفرنسية في تصريح له اثناء زيارة الجزائر
قائلا :

" يجب عدم الاكثار من تكوين مثقفين مسلمين ويجب ان يوجهوا قبل كل شيء كيد
عاملة رخيصة ... وبدون ان تكون هذه اليد العاملة ذات تخصص مهني ". (٢٨)

لقد استطاع الاستعمار ان يتسلل ثقافيا بكيفية مدروسة مسبقا الى مدن البورجوازية
التقليدية ، والتي كانت في نفس الوقت مراكز ثقافية مهمة (الجزائر — تلمسان — قسنطينة)
وان يجمع بين صفوفها المدرسين الذين يقومون بتدريس الثقافة المحلية " التي
تخدم الاستعمار ، الى جانب الثقافة الفرنسية الرجعية . وكان الاستعمار في ذلك
يهدف الى تكوين كوادر يمكن الاعتماد عليها في بعض المجالات التي لا يستطيع
الفرنسيون العمل فيها (ولو مبدئيا) او لظروف استثنائية ، قد يفرضها الوضع
السياسي العام .

ثم انتقل فيما بعد الى تكوين مدارس (فرنسية — اسلامية) لتخريج الائمة والقضاة
والمفتين . (٢٩)

واذا كان بعض المثقفين المحافظين ذوي التوجه الوطني ، قد عبروا عن رفضهم
للجهاز المدرسي الاستعماري ، الذي يهدف قبل كل شيء الى دمج الاهالي وتذويبهم
في العنصر الفرنسي (ارضا وشعبا) .

" فيجب علينا تغطية كل اقليم محتل من طرف سكان البلد ... بهذه المدارس
حتى نضع تربيتنا بين ايدي العائلات (المحلية) بحيث لا يتدخل اي عائق بين
تعليمنا واحتواء الفئة المسلمة " . (٣٠)

فان بعضا آخر من المثقفين الذيليين الوسطاء ، وقعوا في شرك الايديولوجية
الاستعمارية التي ما فتئت تنشر مفاهيم للتدليل على " ان كل ما هو ثمين وعريق انما

انما هو ما تبقى من تركة الرومان والمسيحية " وقد انعكست روءية المثقفين
البورجوازيين التي ترى ان : " العربي شخص فوضوي بوهيمي والبربري شخص سلبي
لا شخصية له ، فيما لا يمكنهما خلق ثقافة متطورة يمكنها ان تكون احدى خصائص
الامة (٣١) ، على المثقفين الذين يرتبطون طبقيا باسر كانت لها علاقة مصلحية طبقية المحليين
مع الارستقراطية التركية العسكرية والمدنية . وبأسر اقطاعية دجنها رأس المال الكولونيالي
الذي دخل الزراعة او بأسر بورجوازية تقليدية ذات اسهم في الصناعات التقليدية
او الصناعة المتطورة التي دخلت المدينة ، وهم في الوقت نفسه ، (اي هوءلاء المثقفون)
نتيجة من نتائج المدرسة الاستعمارية فكان هوءلاء المثقفون المشوهون يرون : ان -
الاندماج الثقافي لا يمكن ان يكون ولا ينبغي ان يكون له اندماجا متكاملا : اذ ينبغي
ارسال الطفل العربي الى المدرسة ويجب ان نبعد هذه الشبيبة الناشئة عن الاهالي
الجهلاء والمتعصبين (! ! !) والعاجزين عن فهم فوائد التعليم والحضارة الفرنسية
فبالتعليم نستطيع جعل العربي انسانا مستنيرا واخلاقيا وفرنسيا بشكل خاص (٣٢) (! !)

ولما كانت القوانين الفرنسية لا تسمح بتوظيف الاهالي المثقفين (والمتخرجين
من المدارس الفرنسية) في بعض الوظائف ، فقد اضطر بعض المثقفين (نسبة لا بأس
بها) قبل ١٩٣٩ الى التجنس .. وكان هذا من نتائج المدرسة الفرنسية
ان تدفع باستمرار الانسان الجزائري (كل حسب وضعيته) حتى يجد نفسه
في لحظة تاريخية معينة منفصلا عن الوقائع المحلية والثقافة الوطنية (٣٣) ، باشكالها -
المختلفة والمتفاوتة .

وقد ظلت اللغة العربية محاصرة ، منذ بداية الغزو وحتى قانون ٢٠ سبتمبر ١٩٤٧
والذي اعترف باللغة العربية كلغة تعليم الى جانب اللغة الفرنسية (٣٤) ، ولكن هذا
القانون نفسه كسائر قوانين الاستعمار التي حين تكون صالحة (الى حد ما) ،
للاهالي ... ، فانها ... تقابل بعداء داخل المعمرين انفسهم ، ولقد اوساط
كان موءتمر المستعمرين الذي انعقد في الجزائر سنة ١٩٠٨ ... ردا على بعض
المكاسب الخجولة جدا التي قدمتها فرنسا للاهالي والمتمثلة في قبول عدد قليل

من الجزائريين في المدارس الابتدائية ، فاحتج المؤتمرون ورفضوا وثيقة للحكومة الفرنسية ضمنوها احتجاجهم هذا : " بأن تعليم الجزائريين ينطوي على مخاطر حقيقية في المضمار الاقتصادي بالنسبة الى المستعمرين ، واعرب المؤتمر عن رغبته بالغاء هذا التعليم نهائيا " (٣٤) .

وتراجعت اللغة العربية شيئا فشيئا عن الحياة اليومية وبدأت تأخذ اماكنها على المستوى الثقافي في المساجد والكتاتيب القرآنية والمدارس الحرة التي انشأتها جمعية العلماء المسلمين ، ولكنها حتى في هذه الاركان الضيقة كانت تلاحق من قبل السلطات الفرنسية فصدر في ٨/ مارس ١٩٣٨ قانون لضرب التعليم الاسلامي .. واغلاق المدارس الحرة امام جمعية العلماء . وقد توجه الاستعمار الى اللهجة البربرية (الشفوية) فحاول احياءها كتابة وتقويتها لجعلها حاجزا بين البربر والعرب ، وقد حاول كتابة هذه اللهجة بالحروف اللاتينية ، والف كتاب في تاريخ آداب اللغة البربرية بحروف لاتينية .. كل ذلك من اجل ابعاد البربر عن الوحدة الوطنية التي بدأت تتأكد يوما بعد يوم وتدعمها وتعجل في نموها الممارسات القمعية الاستعمارية الثقافية والطبقية (٣٥) وقد ظلت اللغة العربية في الثانويات في نفس الدرجة التي تتمتع بها اللغات الاجنبية الاخرى (الفرنسية لغة رسمية ، طبعا) فكان على التلاميذ ان يختاروا ما بين اللغات الاجنبية التالية .

" الانجليزية الالمانية الاسبانية الايطالية او .. العربية واضافة الى محاصرة الاستعمار للثقافة واللغة العربية (المحلية) فان الذي ساعد على هذا الحصار هي الاوساط ورجالات هذه الثقافة انفسهم نتيجة لتقوقعهم وفكرهم المحافظ جدا ، وبذلك حرمت هذه الثقافة من مسيرة تطورها الطبيعية فتعرضت لتشويهات مخططة في " اكاديميات العلوم الكولونيالية " . (٣٧)

الروايـــة والأيديولوجيـــا الكولونياليــــة

ان جوهر تطوّر البنية الاجتماعية الكولونيالية وتركيبتها ، تختلف عن جوهر تطـور البنية الاجتماعية الرأسمالية (الطبيعية) ، الا أن الظاهرة التاريخية الأولى هي نتاج البنية الثانية ف " الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية " (لينين) ، وأحسب فروعهـا التي تمثل مصدرا مهما لتغذية السوق الرأسمالية العالمية ب : الموارد الأولية والأيـدي العاملة الرخيصة •

ان الرواية (الخطاب الأدبي) تعتمد " الكلمات " / اللغة / لكي تحـاور " الآخر " حول قول الحقيقة والكشف عنها • أو لكي تقوم بعملية ثورية ، أو بمعنى آخـر لكي " تحرك " ، أو لكي " تورّط " " الآخر " / المخاطب / (أي القارئ) باعتباره شريكا مهما وضروريا (1) ، اذ لايتحقق فعل " الخطاب الأدبي " الا بتوفر هـذا " الآخر " / القارئ / • لأنه طرف مهم في عملية " الكتابة " من حيث تأثيرهـا السياسي والتوعوي والجمالي والتربوي •• واذا كانت الرواية كذلك ، فهي ذات صلـة في ماهيتها (اللغة — الأسلوب — الرصد الاجتماعي — السياسي ••• الخ) بهذا الواقع الذي تولدت عنه ، وشكل من أشكال بنيته الفوقية •

استندت الأيديولوجيا الكولونيالية (الفرنسية في المستعمرات على نظريـة العنصرية ، ذات الطابع العرقي والاجتماعي والسياسي والثقافي والبوليسي ••• الخ ، ورفض أي شكل من أشكال المساواة الاجتماعية ولو كانت شكلية — اصلاحية (مشـروع قسنطينة عام ١٩٥٨) ، والغاء تام لكل ديمقراطية بما فيها الديمقراطية الليبرالية فـي الحياة السياسية والثقافية ••• الخ •

ولقد كانت الصحافة بوصفه آلة ضخمة ، متفوقة وأداته التي تحقق هذه الأبعاد والاطروحات العنصرية القمعية عبر النص / الجمالي — التاريخي — الفلسفي — الديني ••• الخ • اذ وجد في تلك الفترة كتاب عرفوا بمواقفهم المتشددة في تأييـد السياسة الاستعمارية بمفهومها الواسع أفقيا وعموديا ، و " ناضلوا " من أجلهـا ، واعتبروا الاستعمار (الظاهرة التاريخية لأزمة الرأسمالية) شرعية تاريخية وحقوقية ، بل

ونظروا الى الاستعمار باعتباره قانونا ثابتا للوجود الاجتماعي والسياسي ، وأخـــذوا يمجدون بأشكال مختلفة انتاج القرار السياسي الاستعماري الفرنسي في الشمال الافريقي ومدغشقر والهند ـ الصينية ، من خلال الأشكال الجمالية المختلفة والنصوص التاريخيـة والفلسفية .. بل ان بعضهم كان ينادي بوضوح ، بشرعية الاستغلال الرأسمالي الفرنسي لشعوب المستعمرات ، معتبرين هذه الثروة : العقارية والبشرية من حق الجنس المختـار (الفرنسي) وحده ، وقد ذهب الكاتب (ادموند ستين) EDMOND STEEN (١٨٦٨ ـ ١٩٢٨) الى أبعد من ذلك لدرجة وصف فيها الاستعمار بأنه أمـــل شرعي لممثلي الأمة الممتازة في السيادة والسلطة (٢) .

٢ ـ الرواية الكولونيالية داخل الأيديولوجيا .

عرّف لويس ألتوسير الأيديولوجيا على أنها : نظمة Syntese تملك منطقتها ووجودها الحقيقي داخل الصور والأساطير والأفكار والمفاهيم ... وهي تمتلك وجـــودا ودورا تاريخيا على مستوى أي مجتمع كان (٢) .

ولتحقيق خطاب أدبي / روائي / محدد لابدّ من وجود خلفية أيديولوجية عامة ، يرتكز عليها هذا الخطاب (الرواية) ، حتى يتمكن هذا الخطاب من أن يلعـــب دورا ماديا في تكوين اقتصاديّ وسياسيّ وثقافيّ واعلاميّ محدد ، ومن هنا تنبع أهمية السؤال التالي :

كيف يؤدي النتاج الروائي الكولونيالي دوره في الجزائر الكولونيالية ؟

لقد عرّف كارل ماركس الأيديولوجيا على أنها " مثل الهواء ضروري للتنفس " (٤) فهي تمثل متخيل العلاقات بين الأفراد وظروف حياتهم ووجودهم الواقعي / ألتوسير / وهي نتاج الطبقات الاجتماعية التي تعيش صراعا اجتماعيا متواصلا .

ان أيديولوجية الطبقة المهيمنة تستولي على الأجهزة الأيديولوجية للدولة بعـــد صراع ساخن مع أيديولوجيات الطبقات الاجتماعية الأخرى ، وذلك حتى تتمكن من مراقبة هذه الأيديولوجيات التي تمثل مصالح الآخر (النقيض) أي مصالح الطبقة النقيضـــة

السائرة نحو السلطة .

تتحقق الأيديولوجيا ماديا داخل مؤسسات ، وقد حدد التوسير هذه القاعدة المادية (أي الأجهزة الأيديولوجية للدولة التي تحقق فيها الأيديولوجيا وجودها المادي : الديني ، المدرسي ، العائلي ، القانوني ، السياسي ، النقابي ، الثقافي ، والاعلامي ...) (٥) .

يمثل الجهاز القمعي للسلطة (المؤسسة القمعية) أحد الركائز المهمة التي تعتمد عليها الأجهزة الأيديولوجية في تأدية واجباتها المنوطة بها ، اذ هما يشتغلان بتعاون مستمر ، تقوم فيه " المؤسسة القمعية " بمهمة حماية الأجهزة الأيديولوجية للدولة ، وهذا التحالف بين المؤسسة القمعية للسلطة والأجهزة الأيديولوجية للدولة تمليه المصالح الاجتماعية الطبقية والسياسية المشتركة بينهما ، ويهدف الى الابقاء على الهيمنة الطبقية والسياسية ، والمحافظة على هذه الهيمنة لابد من خلق تجانس داخل الأجهزة الأيديولوجية للدولة نفسها .

ان الأجهزة الأيديولوجية للدولة ، هي الساحة التي يظهر عليها الصراع الطبقي بشكله الواضح ، وكذا الصراع السياسي ، اذ أن الطبقة (أو مجموع الطبقات المتحالفة) في السلطة لاتحقق بسهولة القانون داخل الأجهزة الأيديولوجية للدولة الا تحت حماية الجهاز القمعي (المؤسسة القمعية) للدولة . ليس فقط لأن الطبقات البالية المهترئة والذاهبة الى الزوال تشكل أمام صعود الطبقات الجديدة قوة ضخمة ومعارضة ، بل كذلك لأن الطبقات " المستغلة " (بفتح الغين) تبحث بشكل جدي عن وسيلة للتعبير عن جوهر وذلك في صراعها (٦) ولتأخذ مكانها داخل المقاومة والصراع والمواجهة .

٢ - موقع الجهاز الأيديولوجي الثقافي داخل الأجهزة الأيديولوجية للدولة في الجزائر المستعمرة .

نطلق على طبيعة المجتمع الجزائري المستعمر بأنه " تكوين اجتماعي تبعي " Formation. Sociale dependante . اذ أن الجزائر (خاصة) تميزت بما

استعماريا معقدا ، فهي مستعمرة (استيطانية) و (استغلالية) .

وفي هذا المجتمع ذى " التكوين الاجتماعي التبعي " الرأسمالي - الكولونيالي ، يكون عمل الأيديولوجيا من خلال الأجهزة الأيديولوجية للدولة ، أكثر تعقيدا منه في المجتمع الرأسمالي (البسيط) الأوروبي ، أو حتى في مجتمع خاضع لتكون اجتماعي تبعي مستقل فقط ، أى لا يمثل الحالة الثانية وهي " الحالة الاستيطانية " كما هو الوضع في الجزائر الكولونيالية .

ان تطور المجتمع الجزائرى يخضع لتطور وتناقضات الرأسمال الكولونيالي المرتبط بالمتروبول والسوق الرأسمالية العالمية ، المهيمنة .

ولما كانت الجزائر قطعة يملكها المتروبول ، فهي بالتالي خاضعة لنمط تكـوّن اجتماعي تبعي كولونيالي ، فالأيديولوجية المهيمنة فيها هي أيديولوجية المتروبول بكل تناقضاتها ، هذه التناقضات المتمثلة في الصراع بين الأيديولوجية الليبرالية العالميـة والأيديولوجية الكولونيالية - المتروبولية ، وبين هذه الأيديولوجية الرأسماليـة الكولونيالية (عامة) والأجهزة الأيديولوجية الوطنية (الاصلاحية - الثوريـة) الضعيفة .

ان الأجهزة الأيديولوجية للدولة في الجزائر المستعمرة مهما كانت تظهر بين فترة وأخرى بأنها ذات طابع استقلال ذاتي .. أو ذات محتوى ديمقراطي ليبرالي ، الا أنها كانت في جوهرها موجهة مباشرة - هي الأخرى - من قبل المتروبول شأنهـا شأن المؤسسة القمعية (الجيش - العسكر - ... الخ) ويتضح هذا جيدا فـي الجهاز القضائي خاصة .

ان التناقض والغموض والتعقيد الذى تعيشه الأجهزة الأيديولوجية داخل مجتمع ذى " تكوين اجتماعي تبعي " رأسمالي كولونيالي ، ناتج عن كون الفريق المهيمن داخل هذا المجتمع ذى التكوين الاجتماعي التبعي ليس طبقة بمفهومها العلمي ، ويعيش هذا الفريق المتحالف الذى هو عبارة عن تشكيلة اجتماعية كولونيالية مهيمنة ، في اطار هـذه

العلاقة الثلاثية التالية :

١ ـ علاقة استغلالية : متمثلة بوضوح في السيطرة الاجتماعية والسياسية المباشرة على الأهالي المسلمين .

٢ ـ علاقة التبعية ـ الاستقلالية (Dependance-independance) أمام المتروبول والسوق العالمية الرأسمالية .

٣ ـ علاقة صراع طبقي : داخل المستعمرة الاستيطانية (الجزائر) ، مع البروليتاريا الفرنسية والأوروبية بصورة عامة وعموم الأهالي " المبلترين " (Prolitarisés)

وأمام هذه العلاقات الثلاث ، ومن خلالها ، فان الأيديولوجية المتروبولية والكولونيالية تسهمان ضمن علاقتين :

آ ـ علاقة خضوعية Subordination

ب ـ علاقة تنافسية Concurence

وتتخذ أشكالا تاريخية مختلفة حسب طبيعة الظروف العامة التي تعيشها المستعمرة ، من حيث تكوّن الوعي الطبقي والسياسي الوطني عند الأهالي أصحاب الأرض الأصليين .

لقد كان الكتّاب الكولونياليون وفي اطار هذه المعطيات الاجتماعية ـ السياسية المعقدة ، يبحثون عن الأشكال الروائية المناسبة لتمجيد (Exalter) الاستعمار ، ولكي يقدموا الى القرّاء الأوروبيين أو الرأي الأوروبي والعالمي ، من خلال هذا الجنس الأدبي (الرواية) صورة مقبولة عن وعي هذه الطبقة المهيمنة (أو الفريق الاجتماعي المهيمن) لذاتها الابداعية والاجتماعية والسياسية والتاريخية ووعيها لهيمنتها ، ولتحتج في ذات الوقت أمام الجمهور المتروبولي بشخصيتها المتميزة (الجزائرية (١)) .

ولذا كنا نجد الكتّاب الكولونياليين ميالين بوضوح الى كتابة القصة والرواية ، لأن المجتمع الاسلامي في الجزائر عرف أشكالا بدائية لهذا الجنس الأدبي عن طريق الأدب

الشعبي الشفوي (٧) .

ان الرواية الكولونيالية هي ممارسة جمالية (خطابية - نصية) ، تضمن ، في اطار الجهاز الأيديولوجي الثقافي للجزائر الكولونيالية ، تحقيق وجود الأيديولوجيا الاستعمارية الاستيطانية الاستغلالية في الجزائر وذلك من خلال خطابها الأدبي الفني (الرواية) . والملاحظ أن الرواية تمتلك موقعا مهما وحساسا ضمن " الخطابات الكولونيالية " الأخرى الجمالية والتاريخية والفلسفية ... الخ .

٤ - الأيديولوجيا في الرواية :

ان الرواية هي التصوير والتصريح الجمالي ، من خلال الممارسة الأدبية عن الموقف الأيديولوجي للكاتب عن وعي أو بدون وعي (عفويا) .

فالرواية ليست شيئا لسانيا - لغويا (Linguistique) فحسب ، بل هي رسالة (Message) .. انها وسيلة لتوصيل مقولة موجهة ومحددة .

من هنا فالرواية كانتاج جمالي أدبي ذات وجهين في تعقيدها أو تركيبها فهي :

١ - جواب اجتماعي : جماهيري لبعض الأنشطة والممارسات الحيوية في مجتمع ما .

٢ - شكل : لبعض المحاورات الاجتماعية .

يقول ر . بارت (R. Barthes) ، ان الكتابة (Ecriture) تتجاوب مع اختيار العالم أو الفضاء الاجتماعي الذي يقرر ويسعى الكاتب لتقديمه الى قارئه . فالفضاء بمفهومه السوسيو - ثقافي الشامل يفرض طبيعة جمالية (لغوية - اسلوبية ... الخ) معينة .

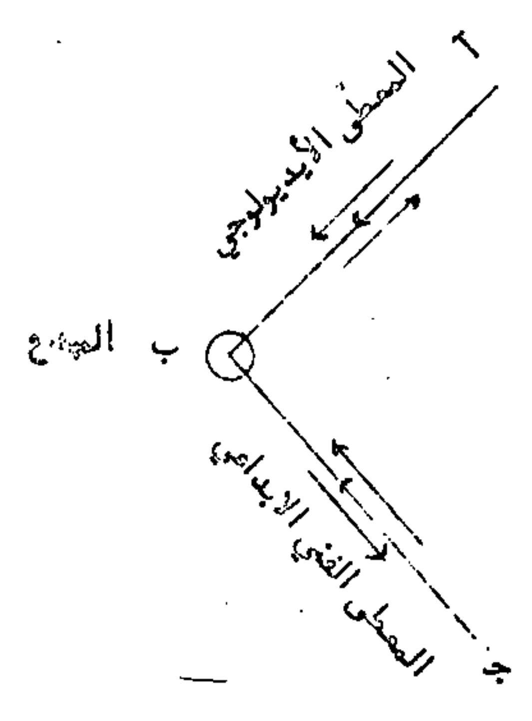
فالرواية (الكتابة) هي " تمثيل وقبل أن تكون علما (Savoir) ، انها جهد للتعبير عن الواقع في طبيعته العميقة ، ولتكشف وتكشف بوضوح بعض الخفايا ، وذلك عن طريق احكام وترتيب للصور الحية .. وسرد حكاية منتقاة (٨) .

يقول لوسيان غولدمان (Lucien - Goldman) ان حقائق موضوعات الابداع الثقافي هي الجماعات الاجتماعية وليس الأفراد ، بذلك فالرواية كخلق هي

الحياة (الواقع الممكن) في المتخيّل الممكن . فمسألة الكتابة هي قبل كل شيء نشاط تغييري قبل أن تكون نشاطا ابداعيا صرفا يقوم به فرد معين (٩) أي الكاتب / المبدع .

ان " الكتابة " هي " ملكية " الكاتب الخاصة ، الا أن هذه " الملكيــــة " أو " العمران " يشترك في بنائه وتشكيله في الواقع المادي (العلاقات الاجتماعية —) المجموعات الاجتماعية ، ثم تحملها (في مرحلة تالية) في متناول هذا الكاتب المبدع .

واذا دققنا النظر في عملية الابداع ، نجد الروائي يمثل نقطة التقاء ضلعــــي زاوية ، يمثل الضلع الأول المعطى الأيديولوجي ويمثل الثاني المعطى الروائي " الفني " . وهما ضلعان أساسيان في الابداع (الكتابة) (١٠) .



ان الرواية (الابداع — الكتابة) في نسقها المتحول لاتمكس ذات النســـق الموجود في الواقع ... التحولات والتحويرات الأدبية هي جزء من عملية الابداع ، وجزء من الخلق ، اذ أن الرواية في ما بنيتها تشكل وجودا قائما ذى نظام أو نسق جديـــد ، يحوي في علاقة دائمة مع نسق / فوضى — الايديولوجيا ، وبذلك تكون الرواية فـــي علاقتها مع الأيديولوجيا ومع الجمال ، متحددة كالتالي : فهي احكام وترتيب وتركيـــب لعناصر الحكاية أو السرد ، عن طريق خطاب أو " رسالة " موجهة نحو الآخـــــر

القارئ (١١) .

لايمكن دراسة الرواية الكولونيالية الا اذا فهمنا طبيعة التشكيل الاجتماعي التيمي - الكولونيالي الذي قامت عليه وفيه ، هذه " الكتابة " ، وأخذنا بعين الاعتبار المحاولات التي مافتئت تقوم بها السلطة الاستعمارية - الرأسمالية المتأزمة من أجل اقامة استعمار ذي طابع خاص ومتميز في الجزائر ، أي تشييد استعمار استيطاني ،

وقد تكفل مسؤولية تطبيق هذه الأطروحة السياسية - الاقتصادية : " الماريشال بيجو " (Bugeaud) الذي سنّ الأساليب والمنهج الرئيسي لسياسة الاستعمار الاستيطاني ، وذلك بتأكيده واعتماده المطلق على المؤسسة القمعية والدعوة الى تقويتها واعطائها الموقع الأعلى في التقنين والتنفيذ .

" لن تكون هناك جزائر - فرنسية بدون استيطان فرنسي "

ثم يقول :

" يجب عليكم أن تستوطنوا ، لأنكم اذا لم تقوموا بذلك فانكم ستكونون مضطرين للاحتفاظ بالجيش الذي قام بعملية الغزو . واذا لم تكن لكم مستعمرة قوية لايمكن البتة سحب جزء أو قسم كبير من هذه القوة العسكرية ، مادامت لم تتكون تشكيلة سكانية قوية عسكريا وشرعية " ! (١٢)

ثم يقول :

" لايمكن فصل الاحتلال أو الهيمنة عن الاستيطان والعكس صحيح " .

ان سياسة " الادماج " ذات المحتوى البرجوازي الشوفيني - العنصري ، هي احدى النتائج أو الحلول التي تستجيب لجوهر السياسة الاستيطانية ، كخطوة نحو تفتيت الخصوصية المحلية من جهة والرد على أشكال المقاومات الجماعية للأهالي ذات الطبيعة الاجتماعية التضامنية .

ولقد كانت السياسة " الادماجية " همّاً من هموم الرواية الكولونيالية وموضوعا من موضوعاتها الرئيسية في مرحلة العشرينات والثلاثينات . وتعتمد اطروحة " الادماج "

في جوهرها السياسي والاقتصادي مقولة " الفرنسة " (FRANCISATION)

فرنسة قوانين التمليك ، واستغلال الأرض في الجهاز السلطي • ونحن نتحدث عن

فرنسة القانون العقاري وفرنسة الادارة ••• الخ فهذا لا يعني أن الفرد (الانسان)

الأهلي ، كان خارج هذه الشبكة ، بل ان سياسة الادماج والفرنسة كانت تهدف

بالدرجة الأولى الى احتواء الانسان ، من خلال تحويل وقلب هذه الوسائل التي تشكل

العلاقات الاجتماعية والشكل الاجتماعي ، ووسائل الانتاج التي لا تنفصل بالطبع عن قوى

الانتاج التي هي " الأهالي " •

من نتائج السياسة الادماجية ، وما خلفته على الساحة السياسية والابداعية ،

ظهور أولى تلك الروايات الكولونيالية والتي سميت : الرواية الأهلانية (le Romans

indigenistes والتي كان همها وضع أول معلم ثقافي للانسان " المدمج " Assimile

وكانت في توجهاتها العريضة ذات اعتماد كبير على مرتكزات ثورة ١٧٨٩ ، وقد غلب

على هذه الرواية طابع المعاناة والتشاؤم والاحباط وفقدان الأمل والمرارة وتنتهي دائما

وفي أغلب الأحيان بحادثة انتحار (١٣) •

لقد كانت الرواية الأهلانية Indigeniste نتاج للواقع الادماجي ،

بكل تناقضاته ، ومحاولة اعادة انتاج هذه السياسة البرجوازية العنصرية ، والبحث بكل

الطرق عن انتاج مثقفين مستهلكين لهذه الاطروحة / أدبيا وسياسيا / وما (فرحات

عباس) الا نموذج واضح لنتائج هذه السياسة وأحد وجوهها المثقفة البارزة •

يقول فرحات عباس :

Si Javais decouvert la nation
Algérienne , Je serais Nationaliste . (14)

(١)

" لو اكتشفت أن هناك أمة جزائرية ، لكنت وطنيا "

وكان هدف الرواية الكولونيالية الأهلانية (Indigeniste) هو التركيز

على ابعاد كل الأساليب الوطنية في حل الأزمات ، واعتماد اسلوب واحد هو : المعالجة والتأكيد على شرعية المعطيات والأنشطة ذات الطابع المشترك : الفرنسي — المرسي أو الاسلامي — المسيحي ، والتي كانت في الواقع وعلى مستوى الممارسة اليومية الفعلية في الحياة العامة (التجارة — الثقافة — الصحافة — التعليم — البنوك ... الخ) تغذى سياسة الادماج وتعطيها مجالا جديدا ، لتدفع بها خطوة نحو التحقيق والتجذر .

يقول الأمير خالد :

" الرجاء منكم أن تتفضلوا بقبول تأسفنا ، فقد أخطأنا ، اذ كنا قد حلمنا كثيرا ، لكننا لم نتوقف يوما قط ، على اعتبار أن فرنسا الغنية بتجارتها وصناعتها ، هي أيضـــا بلد عظيم في تصدير الأفكار التي لايمكنها أن تبقى فقط داخل حدودها الأوروبية . انكم لو لم تأتوا الى هذه الأرض ، فان هذه الأفكار ، أفكار العدالة والتقدم ، والنظـــام والتوازن بين الحقوق والواجبات ، لن تنمو بسرعة على الأرض الافريقية ... لأننا نتحمـل نتائج ماض ثقيل وعقيم . هناك كثيرون منا ، من استطعتم أن تفتحوا عيونهم جيدا علـــى الوضع (١٥) .

تميزت سياسة الادماج بتيارين واضحين ، أحدهما تغذيه قوة سياسية متروبوليـــة ليبرالية ، تعتمد الحوار السيء مع " النخبة " (L'elite) من الأهالي ، الذيـــن هم في المستوى !! والتيار الثاني تغذيه قوة سياسية محلية مستوطنة أوروبية ، ويمكـــن اطلاق اسم " الجزائرياني ALGERIANISTE " على توجهه ، اذ كان يهدف الى ادماج الأشياء (Assimilation des chose) وتحويل (الآخر (L'autre) / الأهلي / الى " الأنا " (Le Meme) الأوروبي من الدرجة الثانية .

اجمالا تبرز أشكال الايديولوجيا الكولونيالية من خلال النص الروائي عبر ثلاثـــة مراحل ، سجلتها الرواية الكولونيالية في منطق تطورها ، ضمن اطار الصراعات الساخنة والمتفاوتة التي عرفتها المرحلة الاستعمارية منذ بداية الاستثمارات الرأسمالية الكولونيالية في المستعمرة وحتى الخمسينات من هذا القرن حيث ظهرت الرواية الوطنية بأشكالهـــا

ورؤاها المختلفة ٠

ويتحدد الصراع الاجتماعي ـ الثقافي السياسي الذي عاشت ونمت في اطـــاره الرواية الكولونيالية محليا وعالميا ، بالمحاور التالية :

١ ـ صراعات بين الجهاز الشامل للاستعمار والأهالي المسلمين ٠

٢ ـ صراعات تعيشها الرأسمالية عالميا ، في مواجهة القوى الاشتراكية العالمية خاصة بعد انتصار ثورة اكتوبر ١٩١٧ ٠

٣ ـ صراعات تعيشها البورجوازية الفرنسية والبروليتارية الفرنسية القوية ذات التاريخ النضالي الاجتماعي والسياسي العريق ٠

اذ في هذا الاطار يمكن تلمس ثلاث علامات بارزة في الكتابة الروائيـــــة الكولونيالية :

١ ـ البحث عن شرق جديد : أو مرحلة " الاندهاش " تمتد من ١٨٣٠ حــــتى ١٩٠٠ ٠ أو رواية الغزو ٠ (Exotisme)

٢ ـ الاستقلال الجمالي : أو " الجزائريانيين " (ALGERIANISTE) تمتد من (١٩٠٠ حتى ١٩٣٥) ٠

٣ ـ مدرسة الجزائر : (L'Ecole D'LGER) تمتد مابين ١٩٣٥ وحـــــتى ١٩٥٠ ٠

ورغم الاختلاف الذي يبدو بين مرحلة وأخرى ، أو بين تيار وآخر ، الا أن التيارات الثلاثة تبقى ملتصقة بمزاج خاص يسجل نفسه داخل أدب المغرب العربي (كـــأدب) خاص بالغائب " (١٦) ٠

ان الرواية الكولونيالية ، والتي هي الوجه الجمالي للاستعمار ٠ كانت خاضعـــة في منطق تطورها العام ، للمقولة السياسية التي ترى ، أن الاستعمار كالأفعى اذا لـــم يغير جلده في كل مرة يموت ، وكذا كانت الرواية الكولونيالية تتغير وفق متطلبـــــات وحاجيات الاستعمار والقوى الرأسمالية العالمية والأدب البورجوازي العالمي ٠ وكانـــت

وكانت في نسق تطورها هذا تعلن بوضوح عن تفسخها وعن نهايتها المحتومة ، شأنهـا شأن البنية الاجتماعية التي أنشأتها .

٥ ـ موقع الرواية الكولونيالية بين القرّاء ؟

ماصدى الرواية الكولونيالية في أوساط المثقفين القرّاء ؟ من الأهالي ؟ ومـــن الفرنسيين ؟

ان تأثير الأيديولوجيا ، ودور الأدب بصورة عامة لايمكن فهمه الا اذا تمكنا مـن معرفة الى من تتوجه هذه الرواية أولا ؟ ثم مانوع وحجم القرّاء الذين يتعاطون هـذه الرواية ؟ .

ان أدبا بدون قرّاء لايقدم أى شيء . ولا يملك شرعية البقاء ، ولا مسوغا لوجـود ، وهو قول في صحراء . فالعملية الأدبية هي قبل كل شيء متوجهة الى الآخر (القارئ) (البعد الثالث) . للاخبار عن موقف سياسي ـ ايديولوجي ـ جمالي ، أو لتعرية موقف ، لادانته أو لتمجيده . ذلك من خلال الذات الابداعية للفنان ، هذه الـذات الابداعية التي هي ليست حيادية قط ، بل هي تعبير والتزام بموقف ودفاع عنه ، سـواء عن وعي أو بصورة عفوية .

لقد كانت الرواية الكولونيالية تضع بين عينيها بعدين رئيسيين هامين ، وهـي تمارس عملها في اطار علاقاتها مع الآخر . (القارئ = البعد الثالث في العمليـة الابداعية) :

١ ـ البعد العالمي : الغرض منه التوجه الى قرّاء العالم ، ـ الفرنسيين منهـم بالخصوص ـ لتقديم صورة عن هذه الأرض وهذا الشعب [بالطريقة الـتي [illegible] يرتضيها الاستعمار نفسه .

ـ انها الأرض الصحراء القفراء ... المشاع ، التي لاتسكنها سوى الوحـوش آكلي اللحوم البشرية .. الخ .

— ان الانسان (الأهلي) الجزائري ، هو انسان رحّال وغير مستقر بالفطـــرة وبالتالي لايملك أي حق في امتلاك الأرض ..

ان الاستعمار جاء الى هذه القطعة الأرضية الافريقية الخالية من السكان ومن أي علامة للحضارة ، من موقف انساني ، أملته عليه طبيعته الحضارية ، آملا في نقل هذه الحضارة أو جزء منها الى هؤلاء " BARBARES " (١٧) المتوحشين من سكـــان الجزائر .. وآملا في تعمير الأرض ، وخلق الانسان المتحضّر (١٨) .

ولقد كانت الرواية الكولونيالية وهي تسعى لتقديم هذه الاطروحات السياسية — الايديولوجية — الثقافية تريد أن تقدم خصوصيتها " الجزائرية " !! التي تشكـــل جزءا من شرعيتها !! الى القرّاء والرأي العام محليا وعالميا .

٢ — البعد الثاني : كان هدف الرواية الكولونيالية ، على المدى البعيد زمنيا وثقافيا ، خلق تراكمات ثقافية رأسمالية كولونيالية ، ذات طابع " محلي " مشـــوّه ، تؤسس في المدى الزمني البعيد " تراثا " محليا للاستعمار ، يكون بمثابة مستـــودع أساسي لتوزيع سلعيّ ثقافي معيّن ، بين أوساط المثقفين والمتعلمين الفرنسيـــين والأوروبيين والجزائريين على التوالي ، خاصة وأنه مع بداية القرن العشرين أي عشيّـــة الحرب العالمية الأولى ، كانت قد بدأت تتكوّن نخبة من المثقفين (الأهالي) ، الذين سعى طويلا لانتاجهم حسب قياساته السياسية والفكرية ، من بين الأوساط الارستقراطيـــة والبورجوازيات المحافظة الأصلية ليكونوا وسطاء بينه وبين الجماهير المحلّية العربيـــة — البربرية .. انهم المثقفون الاندماجيون الليبراليون الذين سيكون لهم فيما بعـــد شأن .. [illegible] الصفوف السياسية والثقافية للحركة الوطنية الجزائرية منـــذ العشرينات ..

رغم هذا التخطيط الذي جهزه خبراء السياسة الثقافية الكولونيالية الفرنسيـــة للجزائر ، فاننا لم نتمكن من الحصول على وثائق تقدّم لنا حجم حضور هذه الرواية بـــين القرّاء سواء في الداخل (أي في المستعمرة) أو حتى في فرنسا نفسها ، وما يمكـــن

تسجيله هو غياب المتابعات النقدية لهذه الرواية في الصحف المحلية والباريسية (١٩) .

ويبقى المرجع الوحيد في تحديد رواج هذه الرواية هي دور النشر . اذ كانت دور النشر ذات السمعة والصيت في السوق الثقافية هي :

١ ـ بلون PLON

٢ ـ أولندورف OLLENDORFF

٣ ـ ألبان ميشال ALBIN MICHEL

فحين تكون الرواية من منشورات هذه الدور الثلاثة ، تكون ذات انتشار ورواج مقبول ، أمّا حين يكون الناشر أو دار النشر داخل المستعمرة فان الكتاب ذو رواج داخلي محلي ، وأن الكاتب له قرّاء في المستعمرة (٢٠) ، أما حينما يكون الانتاج منشورا خارج المستعمرة (أى في باريس في أغلب الأحيان) فيكون ذا صدى في الخارج .

وعلى العموم فان مايمكن ملاحظته ، ونظرا لانتشار الأميّة أن هذه الرواية لم تكن تضع بعين الاعتبار ـ خاصة قبل نضوج الحركة الوطنية الجزائرية عشية الحرب العالمية الثانية ـ القارئ الأهلي ، رغم وجود بعض " المثقفين " من الأهالي بالفرنسية .

ان علاقة الرواية الكولونيالية بالقارئ ، يظل يكتنفها الغموض الى حدّ بعيد ، وتفقد النتائج المستخلصة من دراسة هذه العلاقة الى الكثير من الدقة والتحديد ، نظرا لغياب الوثائق الأدبية والسياسية الهامة حتى الآن ، وربما يكون هذا الأمر في حدّ ذاته (ـ أى غياب هذه الوثائق ـ) جزءا من حلقات المخطط السياسي الثقافي الكولونيالي .

ـ أولا

ـ البحث عن شرق جديد

أو

ـ تيار " الاغرابية " (EXOTISME)

آ - قبل الغزو الفرنسي العسكري للجزائر عام ١٨٣٠ ، سجل لنا مؤرخو الأدب ، وواضعو تراجم وسير الأدباء ، أنه كانت هناك رحلات الى الجزائر من قبل بعض المهتمين بالثقافة والكتابة .. من أصل فرنسي واسباني وانجليزي .. جاؤوا الى هذه " الأرض " الحارة للاطلاع عن قرب على هذا النوع من " البشر " !! وهذه الأرض الافريقية التي ترتبط دائما في مخيلة الأوروبي " بآكلي لحوم البشر " و " الشمس القاتلة " والتوحش والبداهة ... جاءها هؤلاء المثقفون وهم يحملون في رؤوسهم عوالم ونشاءات ألف ليلة وليلة .. وحكايات العشق التي سجلها ابن حزم في كتابه " طوق الحمامة " ... جاؤوا الى جزء من بلاد " المعجزات " والسحر .. فكتبوا مذكراتهم وملاحظاتهم الذاتية والتسجيلية عن هذه الرحلات (١) .

لقد جاؤوا برغبة الاطلاع على افريقيا الهمجية : L'AFRIQUE BARBARESQUE (المصطلح لـ جان ديجو) .

من بين الكتب الطريفة التي تعرضت لموضوع الجزائر الهمجية في فترة من فترات الحكم التركي ، كتاب ألفه " الأب دان " (Le Père DAN) والأب دان هو أحد القسس الاسبان ، كانت الكنيسة قد أرسلته لشراء الأسرى الذين وقعوا في أيدي " قراصنة العرب " وكان ذلك سنة ١٦٣٧ وقد عنون هذا الكتاب بـ " تاريخ الهمجية وقراصنتها " (٢) .

كما كتب ديسفونتين (DESFONTAINE) الذي بعثه لويس XVI عن الجزائر وأهاليها فصورهم ساذجين ، رحّل ، أغبياء ، متخلفين وقراصنة (٣) .

ولا يختلف موضوع واتجاه هذه الكتابة عن موضوع واتجاه كتاب آخر بعنوان " علاقة امانويل أراندا " وهو الولي أراندا الذي يعتقد وقع في الأسر وقضى مدة الأسر في سجون الجزائر حيث كان هناك خمسمائة وخمسون أسيرا يتكلمون اثنين وعشرين لغة (٤) .

كما لا تخرج كتابات " فنتور دي برادي " (VENTURE DE PARADIS) والتي كتبها حوالي ١٧٨١ وأسماها (NOTES SUR ALGER) (ملاحظات عن

الجزائر) ومن الاطار السابق الذى يرسم الجزائر بلاد العجائب !! ويقدّم الجزائري على أنه ذاك المتوحش السافح القرصان .

ولم يكن الكتّاب الفرنسيون وحدهم هم الذين سقطوا في ظاهرة " الدهشة " (٥) والعنصرية والتعصب القومي والديني حيث الأبطال دائما : قرصان مسلم وأسير مسيحي (في أغلب الأحيان) رجل نبيل يسومه هذا القرصان المسلم ألوان العذاب بل ان بعض تلك القصص والكتابات أو في أكثرها كانت موجهة من قبل القسس (الجهاز الديني) ليدللوا للعامة الأوروبية على الخدمات الروحية والمادية التي يقدمونها للشعب و " المضطهدين " خاصة (٦) .

ومهما كانت الدهشة الجمالية لهذه الكتابات ، ومهما كانت " نيّة " الكاتب ، فان أغلب هذه الكتابات ، ظلت وثيقة وورقة رابحة في يد مخططي السياسة الاستعمارية في الشمال الافريقي ، وفي المشرق العربي ، في منتصف القرن التاسع عشر ، اذ قدمت هذه الكتابات وجهة نظر الرجل الأوروبي أو المثقف البورجوازى ، الذى أنتجته البورجوازية في عزّ نجاحاتها بعد الثورة البورجوازية الفرنسية ، وموقفه من الآخر ، الذى هو انسان العالم المتخلف .

ولقد كانت الكثير من هذه الرحلات ، التي قام بها رجالات الثقافة البورجوازية ، في بداية اعلان الرأسمالية عن تناقضاتها وطريقها المسدود ، وذلك عشية انتصارها على الاقطاع وأدائها لواجبها التاريخي ، مدرجة في اطار التخطيط " السياسي ـ الثقافي " للاستعمار والبورجوازية الفرنسية التي ستشرئب برأسها لتسلط جشعها الرأسمالي الـ[illegible] ما وراء البحار [illegible]

ورغم أن طابع هذه الكتابات لم يكن طابعا أدبيا في مايخص الأدوات الفنية المستعملة ، اذ كانت أقرب الى المذكرات أو أدب الرحلات ، أو الكتابة التاريخية بمفهومها البورجوازى ، الا أنها كانت " المقدمة " الواضحة لبداية " الكتابة " البورجوازية الكولونيالية ، عن عالم ماوراء البحر .

ب ـ صاحب الغزو العسكري الفرنسي للجزائر ، سنة ١٨٣٠ ، صعود وانتشار مجد الرومانتيكية في الأدب الفرنسي ، وعلى هذا استطاع هذا الغزو الذي هو جزء من علامات أزمة البورجوازية الشاملة ، أن ينتج على مستوى الأدب ، رواية تمجيد الحرب .. وتمجيد الغزو " مستعيدة مجد نابليون لمصر " (٧) مشحونة بأوصاف رومانتيكية حسـ الدليمة والعادات والفلكلور والحب .

لقد كان الغزو الاستعماري العسكري .. ثم الاستيطاني المجهز والمخطط ، ومن ورائه الأزمة العالمية للرأسمالية ، كفيلة بانتاج أدب كولونيالي متطور نحو أنسـق محدد ، اتصف في بداية انطلاقته بنزعة " عسكرية " : مراسلات ، مذكرات الضباط ، الأعمال والواجبات العسكرية ، اسطورة الغزو !! البطولات العسكرية .. الخ " (٨) .

ولقد كان هذا الأدب ذا نزعة : " البحث عن شرق جديد " ، والتمتع بهـذا الشرق ، وتحويل ثقافته وأرضه وانسانه الى استهلاك أوروبي . ولقد كان الكتـاب الفرنسيون ينطلقون من خلف البحر وفي رؤوسهم " جزائرهم " و " مشرقهـم " الفلكلوري الساحر : " كل مسافر كان يحمل معه من فرنسا جزائره الخاصة ، مصنوعة ومجهزة " (٩) وقد عبّر عن ذلك :(TH. GAUTIER) توما س غوتييه بقولـه :

" بعض جاء لمهمة عسكرية ، وبعض آخر جاء ليتمتع بالشرق " (١٠) .

لقد كانت المرحلة التاريخية ـ الأدبية الممتدة مابين (١٨٣٠ ـ ١٩٠٠) فترة متميزة برغبة جامحة في البحث عن طريق لانتاج أدب ذي جذور تتصل بهـذه المنطقة (١١) التي هي " الشرق " أو " ألف ليلة وليلة " في نظر المثقف الفرنسـي البورجوازي . يقول الناقد : (PETROS BOREL)" بتروس بوريل " في نطاق تناوله بالنقد لقصيدة الشاعر الفرنسي (ANSONE DECHANCEL)(انسـون دي شانسيل) والقصيدة بعنوان "الجزائرية الأولى" (La PREMIERE ALGERIENNE.) ١٨٤٥ :

" هذا الشاعر يمثل بداية انصهار عبقريتين ، وتقاطع عرقين أو أصلين نبيلـين ،
انه خليط الكرم والشجاعة بين العرب والفرنسيين " .

ملامات على مضامين الرواية الكولونيالية " الاغرابية " :

ركزت الرواية الكولونيالية في مرحلتها الأولى ، مرحلة " الاندهاش ... البحث عن شرق جديد " ، على الاشادة ببطولة " العسكرى " الفرنسي وشجاعته واستماتته من أجل الغزو والاحتلال ، واستعادة الهيبة الوطنية التي حاول أن يستهين بها داى الجزائر باهانته القنصل الفرنسي حين ضربه بالمروحة !!! وتفانيه في قمع الانتفاضات الشعبية المتصرمية ، فصوّرت بنوع من الافتخار " فداحة " وقوة القمع الذى تسلطه القوات الفازية البطلة !! على الأهالي الهمجيين والمتوحشين .

كان موضوع " حياة الضباط والجنود " الفرنسيين وعلاقتهم ب " الآخـر " L'Autre أى (الأهلي) موضوعا دائما ومشتركا بين كل الكتّاب ، وعلامة أدبية رائجة أملتها طبيعة الاستعمار في مرحلته الأولى . اذ ركزت رواية " البحث عن شرق " اهتمامها على كل تفاصيل حياة الضباط والجنود وأخبارهم .. حبّهم وشجاعتهم ومغامراتهم (١٢) واعتبرت الرواية " الغزو " الفرنسي للجزائر " نقلة " حضارية وانسانية ، وأشادت ببطولة أولئك الأبطال ! الذين دخلوا العاصمة عام ١٨٣٠ (١٣) واستطاعوا أن يرفعوا العلم الفرنسي على هذه الأرض التي يعتبرونها خالية من الانسان !! (١٤) .

وتقدم لنا رواية الغزو ، انضباط الجندى الفرنسي ، من أجل اعادة الاعتبار للوطنية الفرنسية المهدورة ، ففي قصة : (زواج افريقي) MARIAGE D'AFRIQUE للكاتب " مرسيل فريسكالي " (Marcel Frescaly) الصادرة عام ١٨٨٦ ، يتناول قصة ضابط فرنسي (LIEUTENANT) يعيش واقعة حب مع فتاة كان قد تعرّف عليها في فرنسا ، ثم جاءت لتلتحق به في الجزائر في منطقة الجنوب الوهراني (١٥) ، وتصوّر لنا هذه الرواية — التي يحمل عنوانها دلالة كبيرة — انضباط هذا العاشق والتزامه

داخل الثكنة ، وتربيته وطاعته العسكرية وامتثاله الخلقي للقيادة الاستعمارية واستجابته لها ، والرواية من هذه الناحية تريد أن تقول : أن هذا الجندي المستميت من أجل شرف فرنسا ، هو عاشق كذلك ، الا أن قضية الحب المطروحة في الرواية ماهي الا "لعبة روائية " على الطريقة الرومانتية التي كانت مهيمنة على الانتاج الفني .. وفرصة لتقديم بعض العادات والتقاليد والثقافات المحلية بصورة مشوّهة .

وتبدو الجزائر / الشرق .. في الرواية الكولونيالية الاندهاشية ، تلك البلاد المخيفة .. بلاد المعاطش .. بلاد الوحوش .. والقضاء على هذه الوضعية الاجتماعية — الطبيعية من واجب الاستعمار / اوروبا المتحضرة !! (١٦) كما يبدو الأهالي في صورة " عصابات " وقطاع طرق (١٧) يعترضون سبيل الانسان الأوروبي المتحضر ، يخطفون النساء والأطفال .. ويبيعون البشر ، اذ أنهم قوم قاصرون .. لايمكن أن يساسوا الا بطريقة الشدة والعنف ، ولا تنفذ المبادئ الديمقراطية الى عقولهم ولا يستطيعون تطبيقها لأن مجتمعاتهم لاتعرف غير أحد الأمرين . أما النظام الاقطاعي ، واما الفوضى (١٨) .

ولقد قدمت الرواية في هذه المرحلة " الجزائري " ذلك الانسان الخامل الذى يعيش داخل قوقعة الشعوذة ، تتحكم فيه قوة السحر .. التي هي مرجعه في كل شيء حتى في الشفاء من المرض الجسمي العضوى (١٩) واذا كان هذا الوضع فيه من الحقيقة الكثير ، شأنه شأن أى واقع متخلف تاريخيا ، فان طريقة الطرح والموقف من هذا الوضع سياسيا واجتماعيا لم يكن الا أسوأ منه . فالروائي حين يعرّي هذا " التخلف " لايتخذ موقفا تغييريا انسانيا من ذلك ، بقدر مايتخذ موقفا عنصريا وطبقيا : فالانسان الذى يعيش في واقع متخلف تاريخيا ، لايمكنه الا أن ينقرض في منطق المستعمر ، (الانسان " المختار ") ، ولابد لهذا الانسان " المختار " المتحضر من أن يأخذ مكان (الآخر) ، الأهلي ، ولا يتم ذلك الا بالغاء وجود الثاني ، عن طريق الجهاز القمعي ، وبذلك فالعلاقة في الرواية الكولونيالية لايخلقها طرفان متكافئان ، بل هي

نتيجة صراع قطبين (Le Meme) / الأنا / و (L'Autre) / الآخر / ، وهما متمايزان اجتماعيا وسياسيا ، أحدهما متفوق والآخر منحط وعقيم .

وقد وجد عندنا بعض الكتّاب الفرنسيين ، الذين يعملون بجهد واستماتة من أجل تحقيق مخططات وتعاليم السياسة الاستعمارية ، اذ طرحوا عن طريق النص الروائي ، أحقية فرنسا التاريخية في استيطان واستغلال الجزائر ، اذ اعتبروا أن هذه الأرض كانت حتى قبل الغزو مهدا وأرضا للفرنسيين ، ورثة الرومان (٢٠) الأجداد الأوائل . وأن وجودهم في الجزائر ماهو الا استعادة الحق الذى استلبه العرب والبربر القراصنة .

وان الدور السياسي — الأيديولوجي المنوط بالرواية الكولونيالية في هذه المرحلة ، فرض عليها التميز بطابع " التضمين " المفضوح ، والذى يتخذ طابعا تعليميا مباشرا ، كاعطاء درس كامل في الجغرافيا والتاريخ ، من موقف استعمارى . طبعا (٢١) وذلك للتأثير على الأجيال الفرنسية الصاعدة سواء داخل المستعمرة أو خارجها ، ولتثبيت بعض الاطروحات السياسية الاستعمارية في أدمغتهم ، والمتمثلة في أحقية فرنسا في هذه الأرض . وفي نفس الوقت لخلق تراكمات في الثقافة الاستعمارية . نجد هذا جليا في رواية (La Ferone D'elrarbi " ضيمة العربي " للكاتب ارمون سولينياك : (ADMOND SOLIGNAC) ، اذ أننا نجد بين الحين والآخر انقطاعا في السرد والحكاية ، انقطاعا واضحا في الرواية ، لنستمع الى نوع من المحاضرات في الجغرافيا أو التاريخ الجزائرى (٢٢) من موقف التشويه والتسطيح .

وبذلك نتلمس تأثر البناء الفني الجمالي الروائي ، بالوضع في شموليته ، اذ أن دخول " الخطابية " أو " التدريسية " جاء من طبيعة سلطة الايديولوجيا التبشيرية .

وسيظهر تأثير التبشيرية السياسية — الاستعمارية في العمارة الروائية وبوضوح تام في رواية (الأسلحة الأخيرة) (DBRNIBRBS ARMBS) لنفس الكاتب الاستعمارى (أرمون صولونياك) (A. SOLIGNAC) ، اذ أنها مجموعة من الرسائل

يبعث بها أحد الجنود الفرنسيين اسمه (DUMIROIR) " دوميروار " من الجزائر الى أخيه المعلم بفرنسا ، وتتم قراءة هذه الرسائل على تلاميذ المدرسة ، وتتركز مضامين الرسائل على وصف الجزائر وتتبع الحياة داخل الثكنات ، وتكشف عن معنويات الجنود المرتفعة !! وتصور بالمقابل حياة القبائل المتدهورة ، وأن هؤلاء الجنود جاؤوا الى هذه البلاد لانقاذ هذه " المخلوقات البشرية " من هذه الوضعية المزرية .

وفي هذه المرحلة تناولت الرواية الكولونيالية النموذج " الجزائري " على أنه ذلك المتخلف الذي جبل على هذه الوضعية وهو غير قابل للتطور ، انه " متخلف ، متخاذل ، خامل ، كذاب ، دساس ، خائن " (٢٣) ، وقراءة سريعة لقصة " الطوارق " Le TOUAREG (٢٤) ، تبين ذلك ، اذ تتناول هذه القصة حياة طفل جزائري من بدو " الطوارق " تبناه أحد الضباط الفرنسيين وأدخله المدرسة الفرنسية ، ورغم كل ذلك فان هذه التربية وهذا التعليم لم يستطيعا أن يمحوا عنه عقلية الجزائري المتخلف الموروثة من أجداده .

لقد ظلت الأرض هاجسا كبيرا بالنسبة للمستعمر ، لأنها كانت وسيلة الانتاج الرئيسية والهامة في مجتمع قبلي سلالي ، وكانت هذه الأرض هي المحرك الأساسي لانتفاضات نالأحرية مهمة في تاريخ الجزائر ، اذ كانت أغلب ثورات القبائل ذات محتوى فلاحي - اجتماعي .

واعتبرت الرواية الكولونيالية الانتفاضات الشعبية ذات الزعامة القبلية ، نوعا من الفوضى والخروج عن الطاعة ، وتجاوز القانون (٢٤) ب .

على الرغم من قصر الفترة الزمنية الفاصلة ما بين الغزو العسكري للجزائر سنة ١٨٣٠ والانتفاضة الفلاحية التاريخية عام ١٨٧١ التي سميت بثورة المقراني ، وارزن هذه الأخيرة الاجتماعي والسياسي فانها استطاعت أن تكون علامة بارزة في الرواية الكولونيالية . وشمّا من شموم الرواية في مرحلتها الأولى . اذ اعتبرت هذه الانتفاضة " جنح " وخروج عن " الانضباط " الاجتماعي والقانوني والسلوك الصحيح ، وترسم لنا رواية :

(JULIBTTE et AICHA) (جولييت وعائشة) [٢٥] هذا الموقف من انتفاضة ١٨٧١ التاريخية ، اذ تتبع الرواية سيرة أحد " المستوطنين " وكذا سيرة خادم من الأهالي اسمه " علي " وهو يكرّس كرها عميقا لهذا المعمر ، وفي لوحة أخرى يقدم لنا الكاتب فصولا عن حب ينمو بين عائشة بنت علي ، وابن المعمر ، ومن جهة أخرى هناك شخصية جولييت ابنة أحد أرباب المعمرين القدامى في فرنسا ، التي تحب ابن المعمر هذا (عاشق عائشة) .. ومن خلال نمو هذه الشخصيات تنمو الصداقات والمجازفات .. [٢٦] لتجيء انتفاضة ١٨٧١ فتضع المعمر ومزرعته في خطر اذ يحترق جزء كبير منها ، وتضع الحب بين عائشة وابن المعمر في خطر ، لأن هذه الفتاة من اصول غير متخلفة وغير متحضرة وشريرة ، فيتزوج ابن المعمر " جولييت " ويحاول أن يقتل " عليا " وابنته " عائشة " .

والرواية في خلفيتها السياسية تكشف الفهم الاستعماري القمعي لانتفاضة الفلاحين ، اذ تقدم لنا صورة حيوانية عن الأهالي الذين يمتدون بكل الوسائل على المعمرين . ومهما حاول الكاتب أن يشوه محتوى الانتفاضة ، الا أنها استطاعت أن تغير سير العلاقات بين الشخصيات .

ونظرا للوزن الكبير الذي احتلته انتفاضة ١٨٧١ داخل التاريخ الجزائري ، فانها استطاعت أن تحقق وجودا بارزا داخل الرواية الكولونيالية ، من موقع [٢٧] استعماري .

واذا كان الأدب الجزائري المكتوب بالعربية ، مثلا في " الشعر " خاصة (الفصيح والعامي) [٢٨] ، استطاع أن يسجل أهم الانتفاضات الشعبية في كل الجزائر ويكون بذلك جزءا من تراث ثقافة المواجهة التي ستنمو مع صعود الحركة الوطنية كقوة سياسية فاعلة داخل الساحة الوطنية وخارجها ، فان الرواية الوطنية لم تكن قد ولدت بعد سواء باللغة العربية أو بالفرنسية .

وظلت الرواية كتعبير جمالي — فني تؤكد شرعية الاستعمار في تمليك الأرض ووضع يده عليها ، اذ أن حركة استيلاء " الكولون " على الأراضي الغنية وطردهم للفلاحين

الأهالي الى الأطراف والأحراش ، كانت محط اهتمام الكتّاب الاستعماريين ، من موقف التأييد وتشويه الحقائق التاريخية ، وان رواية " سرّ السعادة " Le secret de Bonheur تكشف لنا كيف تناولت الرواية الكولونيالية مسألة " الاستيلاء على الأرض" (٢٩) ، واغتصابها تحت غلاف الشراء أو القانون !! أو الشرعية التاريخية !! أو الأسس الاقتصادية ـ الزراعية ! وتقدّم " سرّ السعادة " مغالطة تاريخية كبيرة ، اذ تبين احترام الأهالي .. (" .. كل الأهالي يحترمون أي المعمر " (٣٠)) للمعمرين زمن الانزال العسكري الفرنسي الأول في الجزائر واحتفال الأهالي بهذا القدر الالهي .

واذا كانت الرواية الكولونيالية في مرحلة " الاندهاش " ، قد تناولت في بداية طريق تأسيس تراثها الجندي الغازي ، وصوّرته بطلا وشجاعا ومديد شرف الأمة الفرنسية كما قال لامارتين ، فان هذه الرواية قد أدركت في مرحلة تالية أن الحديث عن هذا العسكري وحده لم يعد له كبير شأن ، خاصة بعد أن بدأت مرحلة الاستثمارات الرأسمالية الكولونيالية في الزراعة ، وبدأ تراكم رأس المال الزراعي يتضح في المستعمرة . فانطلقت الرواية لتتناول نموذجا آخر يحل محل " العسكري " ألا وهو " المعمّر " (le colon) متناولة حياته وحبه ، وغرامياته بفتاته وأبنائه وعلاقته مع الأهالي (العدو) ومع السلطات الفرنسية الاستعمارية (المدنية ـ العسكرية) الذي هو جزء منها بأي شكل من الأشكال ، بل هو أداتها الاقتصادية والحلقة التاريخية الطبيعية التي تجيء بعد حلقة " العسكري " .

لقد رسمت صورة " المعمّر " في الرواية الكولونيالية ، (دائما) وجها لوجه مع الأهالي الهمجيين المتخلفين ، الذين يحرّمون حسب معتقداتهم ((مكننة الزراعة ... لأن ادخال الآلة في الزراعة مما يحرّمه الله ... وفي علاقة المعمّر / الأهالي ، يظهر الانسان الجزائري دائما ذلك الشرس السارق الذي يتحيّن الفرصة دائما للانقضاض على المعمّر الفرنسي ليقتله أو ينهبه ، وهو المخادع الماكر الذي لا ثقة فيه أبدا (٣١) في حين يظهر " المعمّر " ذلك الانسان الطيب المتحضر الجاد دائما ، والذي أعاد

الحياة الى الأرض بعد مواتها .. فهو رجل التعب والعمل والورد والحضارة (٣٢) .
(رواية : سرّ السعادة) .

وتتأكد الايديولوجيا الكولونيالية وتتحقق حتى في الشكل الجمالي ولغة الرواية ، اذ عاشت فترة طويلة رهينة الطابع التبشيري والتلقين . وكأنها توجه خطابا الى الجيل الصاعد عن العدو الرئيسي الذى هو الرجل الأهلي / الجزائري / . فكنا نجد مثلا حكاية معمّر تسرد على مسمع الأطفال ، وهم يتمتعون بمآثر هذا الجد الطيب والشجاع :
(مذكرات معمّر : .. Journal d'un colon) . (٣٣) ويتبعون البعد الانساني والحضاري في حياة هذا الجد الذى ترك " باريس " وغامر من أجل احياء بلاد ميتة ، ومن أجل تحضير مخلوقات همّها عداوة المعمّرين والهجوم على ممتلكاتهم ، رغم تفاني الجندى الفرنسي " الشريف " من أجل المحافظة على حياة هؤلاء المعمّرين وعلى استقرارهم النفسي والاقتصادى والسياسي (رواية :
(مغامرات ضابط شاب) (٣٤) . (Avanture d'un Jeune officier)

وتبقى الجزائر والجزائرى في رواية " البحث عن شرق " غائبة تماما ، أعني الجزائر بمفهومها الحقيقي التاريخي ، فالمرأة الجزائرية (الأهلية) التي تقدم داخل نص أدبي روائي كولونيالي ، لاتحمل أى جزء من حقيقتها الانسانية والتاريخية ومن محليتها ، اللهم سوى وصف وتصوير فوتوغرافي لبعض الأزياء في بعدها السياحي الاستهلاكي ، اذ لايمكن تمييز أى امرأة جزائرية يتناولها هذا الكاتب .. [[(٣٥) فهي غائبة كانسان وحاضرة دائما كديكور ، ومتناولة بصورة مسطحة ومفرغة من كل انسانيتها ومبادراتها وثقافتها وأصالتها . (٣٦) ، اذ لم تستطع هذه الرواية من أن تجعل (الآخر) (L'Autre) / الجزائرى / ينطق كجزائرى فعلا ، بكل الروح المحلية ، بل اننا نلمس غربته عن هذه الجزائر ماعدا الاسم أو المحيط الطبيعي (الأرض — المدينة — أسماء بعض الأماكن ...) الذى يعيش داخله (٣٧) على الرغم من أن هناك أخطاء كثيرة حتى في نقل أسماء الأهالي وأسماء الأماكن وبعض العادات أو التقاليد أو الألبسة

ان عجز الرواية الكولونيالية في هذه المرحلة عن تقديم " الآخر " / الجزائري / ناتج عن رؤيتها له من جانب واحد هو الجانب السياحي الفلكلوري / الاندهاشي .

وحين يكون الحب بين فرنسي وجزائرية أو بين جزائري وفرنسية ، فالروائي يسعى من خلال هذا " الحب " الى ابراز وتأكيد الوجه الحضاري في (LE MEME) = (الفرنسي) والوجه الفلكلوري السياحي في (L'AUTRE) = (الجزائري) . وتظهر في هذه العلاقة روح الاشفاق من قبل (LE MEME) = (الفرنسي) على L'AUTRE = (الجزائري) وان هذا الحب ليس حباً حقيقيا ، أي علاقة انسانية متكافئة ، انما هو جزء من " الاندهاش " والمغامرة التي تتملك الرجل الاوروبي المتحضر حيال هذه المخلوقات الغريبة ، كأن يحب انسان وحشا أو جنية !! ؟ . وعلاقة " الحب " هذه تنتهي بمأساة دائما ، اذ أن هذه العلاقة هي جزء من الاستهلاك السياحي ، والبحث عن الأغراب والأشياء المدهشة الفلكلورية في هذا البلد العجيب ، بلاد ماوراء البحر . وتتحكم في هذا الحب " الخوارق " و " الأرواح الشريرة " و " القوى الروحانية " التي هي جزء من الفكر الشرقي والثقافة الشعبية الشرقية ، فالحب مثلا في : Laman gauche = (اليد اليسرى) (٣٨) فيه الكثير من خوارق ألف ليلة وليلة وسيرة سيف بن ذي يزن .. الخ . فهناك الجن والخطف ومبادرات القوى الخفية السحرية .. اذ كانت " العاشقة " (الأهلية) = (L'AUTRE) تختفي عن حبيبها المعمّر Le colon = Le meme مدة ثم تعود الى القصر ، فتقول لعاشقها أن قوة خفية تناديها وتحملها الى الجنوب ، وكان المعمّر / الفرنسي يقول لها دائما : اذا جاءتك أو نادتك هذه القوة الخارقة فلا بد أن تستجيبي لها ، وقد اختفت العاشقة أربع مرات ، لكنها في الأخير تترك المعمّر لتتزوج أحد الرعاة الصحراويين . (٣٩)

بصورة عامة ركزت الرواية في هذه المرحلة من تاريخ الأدب الكولونيالي في الجزائر على الريف ، الصحراء ، الخلاء ، الا أنها وبصورة قليلة ونادرة تناولت المدينة الجزائرية ، وحين ابتعدت عن الصالونات " الباريسية " التي نقلتها الروايات الفرنسية معها الى

الجزائر ، وخرجت من وسط تلك الأحياء الفرنسية الراقية ، أحياء رجال الأعمال والمقاولين الكبار ، ودخلت الأحياء الشعبية ، أحياء الأهالي ، فانها عجزت عن فهم هذه الظاهرة ، وعجزت عن رسم معالم الأحياء الشعبية ، ومن ثم فالرواية لم تر في هذه الأحياء سوى الفوضى والانفجار الديمغرافي والحرام الجنسي ، والسهر .. والفقر الذي سببه الأهالي لأنفسهم لأنهم ليسوا متمدنين ، ولا يفهمون الحياة المعاصرة ، اذ انهم طوارق ورحّل ومتخلفون . (٤٠)

ان الرواية في هذه الحقبة ، اتكأت على الظاهرة التالية : الوصف بدلا من الحديث ، الرسم بدلا من التفسير والتوضيح .. اذ كان الروائيون غير أكفاء للدخول الى عمق الجزائري ، وفك رموز هذه البلاد ذات الحضارة والتراث والتاريخ المختلف عن حضارة وتاريخ وثقافة هؤلاء الكتاب أنفسهم .. وهذه الغربة عن الواقع هي التي دفعتهم الى التركيز على المحيط أكثر من الاهتمام بالانسان . (٤١)

واذا كان طابع " الاندهاش " قد طغى على هذه الرواية نتيجة لغربة الكاتب نفسه عن الواقع بكل تعقيداته ، فاننا سنلاحظ مع المرحلة التالية من تطوّر هذه الرواية ومع تيار (Les ALGERIANISTE) (الجزائريانيين) بداية تأقلم الكتّاب مع الواقع ، اذ أن أغلبهم سيكونون من مواليد هذه الأرض ، وسوف تبدأ الدعوة من خلال النص الروائي الى " فرنسية — الجزائر " وخصوصية هذه الجزائر الفرنسية وتميزها عن باريس الفرنسية ، ومن ثمة أطلق كتّاب المرحلة الثانية دعوتهم الى البحث عن استقلال جمالي يميزهم عن أدب باريس ، رغم ذلك فان الكثير من مضامين الرواية الكولونيالية الاغرابية (المرحلة الأولى) قد انتقلت بشكل من الأشكال الى تيار (الاستقلال الجمالي = الجزائريانيين) كما أن اختلاف التيار الثاني عن الأول في اطار التطور المنطقي للأدب الكولونيالي لاينفي أبدا تأثير الأول في الثاني .

ثانيـــا :

الجزائريانيـــون

أو

الاستقلال الجمالي : ١٩٠٠ - ١٩٣٥

لن أركز على دراسة هذا الأدب الكولونيالي بصورة تفصيلية الا بالقدر الذى تمليه ضرورة البحث من الناحية المنهجية .

ان تجاهل هذا الأدب الكولونيالي الفرنسي الذى ولد في الجزائر خاصة ، واهمال أهمية دراسته يؤدى الى اخفاء العديد من الحقائق التي تكشف وتسهل لنا معرفة الأدب الوطني النقيض لدى التعبير الفرنسي ، والذى كثيرا ماوجّه اليه البعض اتهامات خاطئة وغير واعية ، واعتبروه أدبا فرنسيا وغير جزائرى (١) حتى وضعه البعض في كفة واحدة مع هذا الأدب الكولونيالي لجهل بهذا الأدب الاستعمارى وأيديولوجيته الخطيرة ، وجهل في الوقت نفسه بالأبعاد الانسانية والوطنية للأدب الجزائرى المكتوب باللغة الفرنسية .

استقر الوضع مع نهاية القرن التاسع عشر في المستعمرة ، وكان آخر ماتوجت به المقاومة الشعبية سلسلة مواجهاتها الشعبية وانتفاضاتها ضد الاستعمار هي ثورة المقراني ١٨٧١ الفلاحية والتي عبّرت بالفعل عن بداية ارساء أدوات وأجهزة الاستثمارات الرأسمالية الكولونيالية في القطاع الزراعي خاصة ، وعن حدود الوعي الوطني التقليدى الممكن لدى قطاع كبير من الأهالي خاصة الفلاحين الفقراء والذين يشكلون الأغلبية الديمغرافية في المستعمرة .

فحين استقر الوضع ، اذن ، بدأ الفرنسيون يشعرون بأنهم في ديارهم ، وبدأت المطالبة بالاستقلال المالي للجزائر . ففي سنة ١٨٩٨ انبثقت الجمعية المالية المكلفة بوضع ميزانية المستعمرة الذاتية والمستقلة وابتداء من سنة ١٩٠٠ بدأت الجزائر المستعمرة تستقل نهائيا بميزانية ، كما أخذت الادارة هي الأخرى تستقل خطوة خطوة . (٢)

وبدأت الكتلة الاجتماعية الأوروبية الجديدة الوافدة ترسي تقاليدها في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والمهنية والثقافية .

وبدأ المثقفون الفرنسيون يشكّلون تلك النخبة التي أنتجها هذا الوضع بشروطيته اذ أن كل " مثقف مقيد بنوع من الالتزامية ، فهو انسان جماهير أو انسان جمعي " (٣)

لقد تميّز بالفعل ، مع بداية القرن العشرين ، تشكل مثقفي النخبة الفرنسية الذيـــن يعبّرون عن هذه البورجوازية الكولونيالية المقيطلة التي أنتجتها أزمة الرأسمالية العالمية ، اذ أن كل جماعة اجتماعية لها مثقفوها ، فلقد كان المجتمع الجزائرى الكلاسي ، حافــلا بمثقفيه الكلاسيين الذين يعبّرون عن آفاقه السياسية والجمالية والحقوقية : فقهـــاء — مشرّعين — قضاة — شعراء — خطباء ... الخ .

لقد كانت النخبة الفرنسية المثقفة ومنهم الأدباء بالطبع ، لسان حال ، المجموعـــة المهنية ، المتحكمة بآليات الاقتصاد ونصوص السياسة والجهاز القمعي ... الخ .

مع بداية القرن العشرين كانت آخر قلاع المقاومة الصحراوية تنهار سنة ١٩٠٠ ، أما المدن فقد وضعت تحت رحمة القانون الخاص للادارة المدنية (محاكم قمعية ومحاكـــم جنائية) ، أما الجنوب فكان تحت الهيمنة العسكرية (الادارة العسكرية) .. هـــذه هي معالم الخارطة السياسية والعسكرية للمستعمرة مع مطلع القرن ، وفي هذه الظـــروف المعقدة لم يكن باستطاعة أى أحد أن يرفع اصبعه احتجاجا على احتضار شعب كامل فـي الفقر والجوع والمرض .. في حين كان فيكتور هيجو يتغنى بالحرّية وكان برودون PROUDHON حالما بالعدل والمساواة . وكان جوريس JAURES يغلب القضية الطبقية على المسألــة الوطنية (٤) في باريس .

في هذه الاثناء كانت البورجوازية الفرنسية تولج الجزائر قطعة قطعة ، وتــــزداد استثماراتها الرأسمالية الكولونيالية اتساعا . وكان المجتمع يعيش عملية انقلاب رهيبـــة وسريعة . وبدأ الرأى الفرنسي الاحتكارى يقتنع أن الجزائر هي حقهم الذى لا ينازعهـــم فيه أى نازع . وأخذ نمط الانتاج الكولونيالي يسير نحو النضوج التام ، وبـــــدأت العلاقات الاجتماعية في اطار هذا النمط الانتاجي تتحدد أكثر فأكثر داخل المستعمـــرة نفسها ، أو من خلال علاقة المستعمرة مع " باريس " والسوق الرأسمالية العالمية . فكان الفرنسيون المعمّرون حفاظا على مكانتهم المستقلة ، يحتجون لدى باريس على أنهـــم جزائريون ، ولكي يواجهوا الأهالي كانوا يصرحون بأنهم فرنسيون .

لقد كانت الظروف الاجتماعية والاقتصادية .. قد نضجت بالفعل ، لتعطي أدبا " مستقلا " (٥) وتعلن عن ولادة جيل " جزائري " جديد هو جيل ١٨٩٦ كما سمّاه (غبرييل أوديسيو) (GABRIEL AUDISIO) اذ قال : " انها ولادة جيل لا مجرد نهضة فقط ... لقد حان الوقت لازاحة لويس برتراند (LOUIS BETRAND)(٦) عن الساحة الأدبية والتخلّص من هيمنته الأدبية على الكتاب " ، لقد عجلت سيرورة التمايز الاجتماعي داخل المستعمرة ، سواء بين الجزائريين أنفسهم أو بين الجاليـة الأوروبية أو بينهما معا . اذ ما كادت الحرب العالمية الأولى تندلع سنة ١٩١٤ حتى كان المجتمع الجزائري قد احتد فيه التمايز الاجتماعي (٨) ، من هنا نتجت علاقة حميمة بين تراكم رأس المال الاستعماري وولادة بورجوازية عقارية جزائرية (٩) .

فاذا كانت الرواية بالفعل تمثل العلاقات المتخيلة أو الموضوعية لواقع ما ، فيمكننا أن نكوّن فكرة " جنينية " خلال الخمسين سنة الأولى من القرن العشرين حول طبيعة هذه العلاقة بين الرواية والواقع من جهة وبين عناصر الخطاب الروائي في حدّ ذاته . ان الفعل الكولونيالي ، أو الدور الاستعماري يتوضح ويتحقق في علاقات الاستغلال والاغتراب التي يمثلها النظام الكولونيالي على البلاد المستعمرة . اذ أن هذه العلاقة في حد ذاتها ستنعكس على الخطاب الروائي (الجمال) لتجعله يتماشى مع المنطق الاستعماري ويتجاوب معه . وتقوم الرواية بتقديم هذه العلاقات الكولونيالية في اطار الاطروحة الرئيسية ذات القطبين الأساسيين وهما : (Le Meme) (الأنا) و (L'Autre) (الآخر) ، وتتحقق هذه العلاقة وبوضوح على المستوى اللغوي والنفسي . اذ يظهر قطب العلاقة (Le Meme) (الأنا) هو الفاعل (Sujet) ويظهر (L'Autre) / الآخر / هو المفعول به (Complement)

ان العلاقة الكولونيالية تتسرب الى داخل النص / الخطاب (Discours) لتجعل منه وجها جماليا لماهية هذه العلاقة التي يكون فيها المستعمر سيدا والمستعمر موضوع خطاب ، أي في وضعية الغائب مفرغا من " كيانه " (Son être) أمام

شرعية هيمنة المستعمر أو بحثا عن تشريعها وتقنينها !! اذ يقدّم المستعمر ضمن هذه العلاقة كانسان حقير (INFERIEUR) ونقيضا للمستعمر (١٠) ويبقى أن كلا من هذين القطبين مفروض عليه أن يجد نفسه على كفتي ميزان واحد (١١) ، اذ أن على أحدهما أن يحدد الآخر .

في اطار العلاقة بين المستعمر والمستعمر ومن خلال العناصر الجديدة في هذه العلاقة التي أملتها الظروف الاجتماعية والسياسية داخل المستعمرة أو خارجها مع بداية القرن ، بدأ الكتّاب الفرنسيون يبحثون عن تصوير ذاتهم الابداعية الخاصة بهم والتي تختلف عن الذات الابداعية لكتّاب باريس . فظهر الفنان (فرومنتان) EROMENTIN (١٢) والاكاديمي لويس برتراند (LOUIS BERTRAND) صاحب الرواية التي آثارت ضجة كبيرة والتي عنوانها : (LESANG des RACES) (دم الأعراق) مسكونين بالألوان المحلية ومهتمين بـ " الآخر " (L'Autre) كديكور ، واذا بكتاباتهما تحمل تلك النكهة " الاغرابية " (EXOTISME) مشحونة بالدهشة والاندهاش (١٣) .

ان نظرة الى مؤلفات : لويس برتراند التالية :

١ ـ " دم الأعراق " (١٨٩٩)

٢ ـ " السينا " (١٩٠١)

٣ ـ منافس دون جوان (١٩٠٣)

٤ ـ بيبيت المحبوب (١٩٠٤)

٥ ـ مدن الذهب (١٩٢١) (١٤)

تمطينا المنطلقات السياسية والجمالية للتيار (الجزائرياني) (ALGERIANISTES) والمتمثلة أساسا في التركيز على اعطاء صورة تمريفية لأوروبي الجزائر ، معتمدة على " العرق " خاصة عند برتراند ، مستغلة في وضع ألوان هذه الصورة على اسلوب التحليل النفسي ـ الاجتماعي " للعرق " أو " السلالة " وتغليبه على سائر الظواهر الأخرى

ونلمس هذا جيدا بوضوح في (Le Sang des Races) (دم الأعراق) [١٥] .

ان تيار الجزائريانيين (ALGERIANISTES) يحمل في داخل نتاجاته عـداء حقيقيا وعنصريا للأهالي ، فهو يقدمهم على أنهم لايمكن اصلاح عقولهم ولذلك تكون لديهم هذا الموقف السياسي — الطبقي — العنصري ، كرد فعل على بروز ملامح الوعـــي الوطني الذي بدأ يتشكل بصورة واضحة ومتقدمة عشية الحرب العالمية الأولى وما بعدها . وبدأ الأهالي ينتقلون من الموقف الفروسي الفردي المغامر الى الموقف التنظيمي المبرمج . وان رواية (Laville Au Soleil) (المدينة في الشمس) للكاتـــــب (VANDELBOURG) (فنديلبورغ) ذات المحتوى العنصري المكشوف ، وكذا روايــة (La Brousse qui Mangea L'homme) / الدغل الذي أكل الرجــل / للكاتب (COURTON) / كورتان / وكذا رواية (SIROCB) (السيروكو) / فرديـنـان دوشين) (F.DUCHBNE) ورواية (LACINA) (السينا) للويس برترانـــد ، صورة واضحة على المضمون العنصري الذي تحمله هذه النتاجات الابداعية ، والتي تهدف الى الغاء " الآخر " وتغييبه من على الساحة السياسية والاجتماعية .

ان تناول العادات والتقاليد المحلية التي هي جزء من ثقافة الأهالي الأصليــين في الرواية الجزائريانية ، هو من باب اظهار وكشف التخلف والهمجية في حياة هـــذا الشعب ، وتعرية العقلية البدائية لهذه المخلوقات ، خاصة حين بدأ المجتمع المحلـي يدافع عن وجوده وأحقيته في البقاء [١٦] ولاحت في الأفق بوادر الوحدة السياسيـــة الوطنية ، وأخذ الفرز الاجتماعي والسياسي يتضح بين الأهالي يوما بعد يوم ... وان روايات فرديناند دوشين (FERDINANT DUCHBNE) التالية :

١ — روايات القبائل

٢ — روايات الطوارق

٣ — روايات المدابغ

هي وجه لهذا الغرض السياسي العنصري الذي كانت الرواية الجزائريانية تسعــى

لتحقيقه على مستوى النص الأدبي — الابداعي •

لقد ظل كتاب التيار الجزائرياني (ALGERIANISTES)

أو " الاستقلال الجمالي " يحلمون بانتاج أدب خاص ، هو بمنظور (روبير رانـــدو) (ROBERT RANDAU) (١٧) : أدب يتحدث عن الجزائر بالنفســـة الفرنسية وغرضه من الادماج ، انما هو أن يذوب كيان الجنس " الضعيف " المحلـــي " الأهالي " — العرب — البربر — في وجود الجنس القوي الفرنسي (١٨) ، وفـــي اطار الدعوة والبحث عن هذا الدمج يجب أن تأخذ الادارة الفرنسية بعين الاعتبـــار أوضاع الأهالي المسلمين حتى تستطيع احتوائهم بسهولة •

ويتضح " الاستقلال الجمالي " في هذه المدرسة من خلال التأكيد على وصـــف الحياة اليومية للأهالي أو لهذا المجتمع الجديد التكون ، مجتمع حضارة البحر المتوسط كما كان يحلو لبعض المثقفين تسميته • ان الحوارية التي كتبها راندو (R. RANDAU) بالاشتراك مع أحد الجزائريين (الأهالي) لها دلالتان أساسيتان :

١ — ان هذا التيار الجزائرياني كان يبحث بكل الوسائل لمعرفة خبايا و " خصائص " المجتمع المحلي العريقة ، فاستعان من أجل ذلك ببعض الكتاب وأنصاف الكتـاب المحليين •

٢ — ساعد تيار " الجزائريانيين " على ظهور تيار فرعي داخل الرواية الكولونياليـــة الجزائريانية ، هو التيار " الأهلاني " (Indigéno phile) الذي كان هدفه " ادانة " المستعمر الذي يتجاوز القوانين الادارية أكثر مـــن اللازم لفرض سيطرته المطلقة ، دون أن تكون هذه الكتابات في اتجاه رافـــض للاستعمار ، انها كتابة " اشفاقية " تحاول أن تكشف الفقر والمعاناة الـــتي يعيشها الأهالي ، وفي ذات الوقت تكشف جمال هذا الفقر من موقف بورجوازي رومانتي سياحي متفرج (١٩) •

وتميز ضمن الاتجاه الجزائرياني خط آخر هو الجزائرياني الادماجـــــــــي (assimilationisme - indigenophile) حيث مثل هذا الخط على مستوى المضمون ، الدعوة الى الغاء شخصية الآخر (L'Autre) المستعمر وذلك بواسطة الدمج المدرسي والثقافي (٢٠) .

ويترجم ظهور هذا الاتجاه الابداعي ، في مضمونه السياسي ، صعود قوة أهليـة محلية للمسلمين الجزائريين ، قوة سياسية وثقافية كانت تطالب بالحقوق (الاجتماعيـة - الثقافية) في اطار الدمج (٢١) . وان هذه الدعوة في حدّ ذاتها رغم طابعهـــــا العنصري والقمعي ، فاننا نتلمسها (٢٢) ومن خلال مصائر الأبطال في الروايـــات التي كتبها مبدعوها صعود وعي الجزائريين المسلمين " المثقفين " !! الى حدّ ما .

فاذا كان موت أو انتحار المعلم " فرحات " في رواية " فرحات ، المعلّم الأهلي " (FERHAT, Institeur , indigène) هو نهاية الرواية سلبيا ، فان خاتمـة رواية الكاتب " رونيه كاتالا " (RENE CATHALA) التي كتبت عام ١٩٤٦ ستقدم لنا الأهلي الجزائري بطلا مسيسا وقد عاش زمنا في السجن ، وهو يعلن بوضوح :

" que le temps des bons - Maitres et des eleves appliqué est passé "

" ان زمن الأسياد والعبيد الجاري به العمل قد مضى " .

ان سياسة الادماج التي مافتيء الاستعمار بكل أجهزته الثقافية والقانونيـــة والمادية يبحث لها عن وجوه من المثقفين سواء من الأهالي أو الفرنسيين أنفسهم ليتبنوها ويدعوا اليها ، وكانت (هذه السياسة وهذا التخطيط) كفيلتين بخلق ظروف وملابسات لنمو نوع من الرواية الكولونيالية التي سمّيناها (الادماجية - الأهلانيــــة) (Assimiliste - indigeniste) وكان هدفها الأساسي هو تحقيـــق الايديولوجيا الكولونيالية الادماجية العنصرية ، على مستوى الحقل الثقافي ، وخلق خط متميز داخل الابداع الروائي يدعو ويتبنى هذه الاطروحة السياسية .

هكذا اذن بدأ يتشكل من الانتليجنسيا الكولونيالية مابين ١٩١٩ — ١٩٣٦ تيار أدبي بارز يتزعمه الكاتب روبير راندو ، الذي حدد اطارا لهذه التوجه أو الحركة الأدبية هو اطار " فلسفة القوى " . ويعتبر راندو أكثر النشء بحثا عن استقلال جمالي في أدب المستعمرة . فهو الذي اخترع مصطلح " الجزائريانية " ALGERIANISTE وأطلقه على هذا التوجه في الكتابة الابداعية . ويعد من خلال روايته Les Colons (المعمرون) (١٩٠٧) رأس الخط والممثل الحقيقي للاتجاه الجزائرياني في الرواية الكولونيالية (٢٣) .

يقول لويس برتراند في مقدمة روايته " حديقة الموت "

" لقد فوجئنا قبل كل شيء ، بهذا التشابه المثالي الذي يجمع بين افريقيا الشمالية والمناطق المتوسطية الأخرى " (٢٤) وراندو يوظف هذه المقولة مقدمة للدعوة الى : " احياء الأعراق اللاتينية في افريقيا الفرنسية " . ومن هذه الفلسفة جماعات " الجزائريانية " بطاقة تعريفية وتعني " أوروبي الجزائر " . اذ أن " الأنا " / الأورو — جزائرية / بدأت تتحدد في هذه الكتابة منطلقا من " الوجود الجغرافي " والاجتماعي (المستعمرة) والأخلاقي (فلسفة القوى أو العنف) وعن طريق العنصرية في مواجهة وقمع جماهير المسلمين الفقيرة ذوي الحق الشرعي في الحياة على هذه الأرض. وأخذ الأدب الجزائرياني على عاتقه " مسؤولية " الدفاع عن الحضارة الغربية في وجه الحضارة البربرية المتوحشة !! (٢٥) وقد كان هذا الأدب أو هذه الكتابة من وجهة نظر المثقفين الاستعماريين بحثا عن انتاج أدب " وطني " ، لا مجرد أدب محلي أو اقليمي .

فاذا كانت رواية " النزو " قد قدمت الأهالي / العدو كهمجي ، وأنه كائن غير مهذب ، ومرفوض حضاريا ، وعقيم وذلك قبل الحرب العالمية الأولى ، فان هذا الأهلي أصبح في الفترة مابين الحربين ، خادما طائعا ، يستميت في الدفاع عن سيده المعمر حتى الموت ، وهو ليس أكثر من جزء في الديكور ، نفس الشيء تماما مثل " النخلة "

أو " الصبّار " ، وهو نفس الموقف والاشكالية التي وجدناها في " أدب أمريكا الشمالية " في عرضه وتناوله انسان " الهنود الحمر " أو " الهنود الأمريكيين " (٢٦) .

ان الهدف الذي يجمع كتابات " الجزائريانيين " يعطينا الاعتقاد بـأن الجزائر أصبحت فرنسا وأن الكل قد ذاب في فرنسا " الأم " الكبيرة . (٢٧) .

كان روبير راندو (R. RANDAU) يقول دائما : " يجب على الأدب الكولونيالي أن يكون حماية وشرفا للمستعمرات (٢٨) . فكان بذلك حامل شعار محاربة " أدب الاستراحة " أو " أدب الانتقال " La litterature d'escale

نحين صدرت مختارات " القصاصين الجزائريين " تحت عنوان (افريقيتنا) (Notre : AFRIQUE) والتي شارك فيها كل من الكتاب التالية أسماؤهم :

(شاسيراي)	CHASSERAY
(هاجيل)	HAGEL
(هالير)	HALER
(لوكوك)	LECOQ
(بوميي)	POMIER
(راندو)	RANDAU
(حاج حمو)	HAJC HAMOU
(روس)	ROUSSE
(ستيفان)	STEPHAN ... الخ .

وقد قدم لهذه المختارات القصصية الكاتب : لويس برتراند قائلا :

" .. انها ظاهرة أدبية حقيقية (يعني بذلك ظاهرة الأدب الجزائرياني) .. فلأول مرة ظاهر عرق جديد يسمي ذاته وكل ماكتبت أقلامه منذ خمسة وعشرين سنة قد بدأ

يتحقق .. انها ولادة افريقيا اللاتينية ... " (٢٩) .

ان راندو وهو الوجه الأدبي الواضح المعالم في حركة الجزائريانيين ، كان علـى علاقة متينة بالدوائر الكولونيالية ورجالاتها البارزين ، اذ قام سنة ١٩٢٥ بمهمـة أو بدورة استعمارية في افريقيا السوداء الغربية . اذ لاغرابة في تلك الدعوة التي أطلقهـا في المقدمة التي كتبها للمختارات الشعرية التي جمعها بنفسه لمجموعة من الشعـراء الفرنسيين المقيمين في الجزائر والذين سيشكلون فيما بعد النواة الحقيقية لحركـة " الجزائريانيين " (٣٠) . فضمّن هذه المقدمة طروحاته السياسية — الثقافية الـتي ماهي الا وجهة نظر هذه الحركة الأدبية كاملة . يقول روبير راندو في هذه المقدمة :

" نريد اخراج ثقافة من ترابنا — الوطني " (٣١) .

" Faire sagir du sol natal une intellectualite "

ودعا بوضوح الى فكرة الاستقلال الجمالي :

" Nous . Voulons dégager notre autonomie ésthétique .. Notre recueuil doit être en principe la represeentation la plus actuelle de l'âme berbéresque "

" اننا نريد أن ننتج استقلاليتنا الجمالية .. ان هذه المجموعة يجب أن تكـون بحق الممثلة الأكثر حداثة للروح البربرية .. "

فبالنسبة لراندو ان كلمة " جزائري " (ALGERIEN) تعني ابن وطن صغير يستجيب لفرنسا (٣٢) . وواحد من أبناء الأقاليم الفرنسية الجديدة .

ان التيار الجزائرياني في الرواية الكولونيالية كان يحامل الجزائريين الأهالـي ، وحتى أولئك الذين كانوا يؤمنون بالاندماج داخل فرنسا " الأم " ، بطريقة أبويـة ، فيها المملم (Le Mem) أي الفرنسي وفيها (التلميذ)(L'Autre) = أي الأهلي . ويتجلى هذا جيدا في كتابات راندو خاصة بوصفه أكبر ممثلي هذا التيار . وعلى الخصوص في كتابه " الجزائريانيين " (Les ALGERIANISTES) " (١٩١١) ، وفي

روايته " الأب مارتان " (Le pere MARTIN) (١٩٣٦) اذ يظهر لنا مــــدى العظمة والافتخار التي تتملك الفرنسي البورجوازي حين يتحدث الى أحد الأهالـــي ، لالشيء الا لأن هذا الفرنسي من عرق " قوي " ، وتركز رواية " الأب مارتان " بشكـــل واضح على رجاحة العقل والتفكير والذكاء عند هذا الأب ، هذه الرجاحة التي تستمـــد قوتها من أصوله الفرنسية القوية والنبيلة ، (٣٤) .

الكتّاب الكولونياليون " المتسلمون " :

اننا نذهب في تحديد هوية الأدب ، اعتمادا على مقياس قال به مالك حداد ، وهو : ان الجنسية الأدبية ليست اجراء قانونيا ، وليست من اختصاص رجل القانون ، بل هـي من اختصاص المؤرخ " (٣٦) ، فما يفصل بين الجزائري وغيره أدبيا هو اختلاف الرؤيـــة كما أشار اليه الدكتور عبد الله الركيبي (٣٧) وأكد ذلك الباحث والروائي التونسي ألبيـر ميمي في أكثر من مكان في مؤلفاته (٣٨) .

لقد صادفنا في دراستنا للرواية الكولونيالية ، نماذج من الكتّاب الفرنسيـــين أدرجناهم في هذا الفصل ، على الرغم من أنه قد يبدو للدارس الذي يتناول الأدب من موقف شكلي أن ضم هؤلاء الكتّاب الى هذا الفصل هو جناية عليهم .

ان الموقف السياسي داخل العمل الابداعي ، هو وحده الذي يحدد هـــذه المسألة ، وقد اعتبرنا كل أدب ذا نزعة استعمارية أو توجه استعماري أو استيطاني أدبا كولونياليا . لكن " المشكلة " التي تصادف الباحث في هذا الحكم هو أن بعض هؤلاء الكتّاب من الفرنسيين كانوا قد أعلنوا اسلامهم .. واعتبروا أنفسهم جزءا من قطاع الأهالي المسلمين ... الخ . ان التعامل مع هؤلاء الكتّاب يتطلب حساسية فائقة ، ووعيا حادا يقوم على أساس واحد هو التعامل مع الابداع الذي أنتجوه ، ومدى تجاوب هذا النتاج مع طروحاتهم الداعية " بالانتماء الى الفئات الأهلية الفقيرة المسلمة " هذه الطروحات التي

غلب عليها الطابع الرومانتي والسياحي الذي يظهر التعاطف المشروط مع الأهالي المسلمين الفقراء دون موقف سياسي وطني واضح • بل يتخذ هذا التعاطف في أغلب الأحيان طابع " الاشفاق " البورجوازي ، والمتعة الفلكلورية ذات النكهة الشرقية الخرافية •

هناك ثلاثة نماذج واضحة تحقق هذه الظاهرة من الروائيين الفرنسيين وهم :
(ايتيان ديني) (ETINNE DINET)
والروائيتان : (ازبيل ابراره) (ESABELLE EBERHAROT) (١٨٧٧ـ١٩٠٤)
والكاتبة " سلاف " (SLAVE) المولودة بجنيف والتي أسلمت واتخذت لها اسما مذكرا هو : السي محمود (SIMAHMOUD)

ان هؤلاء الكتّاب الذين " أسلموا " أو " تمسلموا " كانوا أكثر خطرا على المجتمع من أولئك الذين احتفظوا بصورتهم الحقيقية ، اذ أن مجتمعا مفتعرا يهيمن عليه التخلف والفكر الظلامي قابل للتأثر بسهولة حين تمرر اليه الأيديولوجيا الكولونيالية عن طريق العقيدة الدينية (الاسلام في حالتنا) التي يؤمن بها والتي هي جزء من حياته اليومية •

وللوصول الى الكتابة عن عادات وتقاليد المجتمع الأهلي المعقدة ، والتي لم يكن تناولها سهلا أو تكنها بسيطا بالنسبة لهؤلاء الكتّاب الفرنسيين ، فقد كان بعضهم يتخذ له مثقفا وسيطا ، من الأهالي ، (بينه وبين الأهالي) •• اذ لم يكن باستطاعة هؤلاء الكتّاب الاعتماد على تجاربهم الحياتية الضيقة والسطحية بين الأهالي • من هنا فقد وجدنا الكاتب " المتمسلم " ايتيان ديني (E.DINET) يشرك الكاتب الأهلي " سليمان بن ابراهيم " في كتابة روايته " خضرة " (KHADRA..) (١٩١٠) (٤٠) •

تتناول رواية " خضرة : راقصة أولاد نايل " ، قصة مغامرات فتاة من " أولاد نايل " يبيعها والداها الى أحد المشايخ في شكل زيجة زواج ، تهرب الفتاة من منزل زوجها بعد أشهر لتتجه الى " الجلفة " (اسم مدينة جزائرية) ، فتسقط في حبائل حب

أحد الرجال الرحّل ، ويحبّها هذا الأخير (اسم العاشق : بن علي) الا أن أمهـا تلحق بها لتعيدها الى " بو سعادة " (مدينة جزائرية) ، وتدفع بها الى العمل في ملهى لأن ذلك يدرّ عليها مالا كثيرا ، يتعرّض " بن علي " لاهانات كثيرة من قبل رجال المنطقة ، فيأخذ " خضرة " ويقصدان مدينة " قرارة " فتكون رحلتهما عبر الصحـراء صعبة ومخيفة . بعد ذلك يبدأ " بن علي " العمل في التهريب ، فيلقى عليه القبض ويحكم عليه بالسجن . في هذه الأثناء لاتجد " خضرة " من يواسيها ويصدّ عنها نوائب الدهر ، فتتجه الى " غرداية " (اسم مدينة جزائرية) ثم " ورقلة " (اسم مدينـة جزائرية) ومنها الى " بسكرة " (مدينة جزائرية) ، متنقلة من ملهى الى آخر .. وفي الأخير تعود مرة أخرى الى " بو سعادة " ، لتلتقي بعاشقها " بن علي " هنـاك ، حيث تدبر له مكائد تودي بحياته ، وحين يغتال " بن علي " تصاب " خضرة " بالجنون فتفقد عقلها . (٤١)

ان الرواية في غرابة أحداثها ومفاجآتها أقرب الى جوّ الروايات التي تتنـاول الحياة في المدن الرأسمالية العريقة ، حيث الملاهي والحياة الاستهلاكية . من هنا فان الكاتبين لم يأخذا من الواقع الجزائري سوى الاطار : أسماء الأشخاص وأسماء المدن ، أما روح الرواية وطبيعتها ومنطقها فكل ذلك من نتاج مجتمع غير هذا المجتمع المتخلف . وحتى قضية " النخاسة " المعاصرة التي تعاني منها المرأة في المجتمعات الرأسماليـة الاسلامية التبعية ، لم تطرح في هذه الرواية على انها ظاهرة " لاانسانية " بقدر ماكان الكاتبان يبغيان من ورائها تقديم " ميلودراما " بورجوازية ، في اطار تغريب الأحداث وتضخيمها .

ان هؤلاء الكتّاب " المتسلمين " كانوا محظوظين جدا ، اذ كانوا يحصلون على كل مساعدة يرغبون فيها من قبل " الأهالي " (- المثقفون الوسطاء خاصة -) فقط لكونهم " متسلمين " . وكثيرا ماكانت هذه المساعدات ، من معلومات وأخبار ... الخ تحوّل الى الادارة الاستعمارية !! اذ كثيرا ماكانت فرنسا تستغل هؤلاء المثقفـين

(من بينهم الأدباء) " المتسلمين " في صانع جهاز مخابراتها القمعي .

حالة ايزابيل ابرار : من خلال ماطرحناه في القسم النظري ، حول ماهية الأدب الكولونيالي والكاتب الكولونيالي ، نتناول الكاتبة " ايزابيل ابرار " وروايتها " المتشرد " (Le TRIMNDEUR) ، كنموذج واضح وجلي ، يمثل بحق التوجه الفكري والسياسي للأدباء - أو المثقفين - الفرنسيين " المتسلمين " .

لقد اختلف النقاد حول أدب ايزابيل ابرار ، اختلافا واضحا ، وهذا الاختلاف في حد ذاته يعكس جانبا من أوجه الخطر الذي كان يمثله هذا الأدب ذو التوجه " الاسلاموي " ، اذ عدها بعضهم واحدة من كتاب التيار " الجزائرياني " أو ماسميناه كذلك " تيار الاستقلال الجمالي " ، واعتبر بعض آخر أدبها " أدبا جزائريا - وطنيا " ، ومرد ذلك أن (ابرار) اعتنقت " الاسلام " ، في حين اعتبر فصيل آخر أدبها " اسلاميا " .. ووضعها آخرون في خانة " الأدباء المعادين للاستعمار " (ANATICOLONIALISTE) وتناولها فريق آخر على أنها واحدة من الكتاب الروائيين الكولونياليين (٤٢) .

خلفت ايزابيل ابرار رواية واحدة هي : (المتشرد) (TRIMADEUR)(٤٣) كتبتها عام ١٩٠٢ ونشرتها في جريدة " أخبار " (AKHBAR) ذات التوجه السياسي الاستعماري المعروف(٤٤) ، مسلسلة ، ثم جمعها صاحب الجريدة : فيكتور بروكوند : (VICTOR BARRUCAND) وقدم لها ونشرها العام ١٩٢٢ (٤٥) .

البطل في الرواية هو : ديمتري (DIMITRI) شاب من اصول روسية ارستقراطية ، أمه ارستقراطية غير مسلمة ، يظهر هذا البطل حساسيته منذ البداية ، للفقر والاضطهاد الذي يعاني منه الشعب الروسي ، وأمام هذه الوضعية الاجتماعية المزرية ، يبدأ ديمتري " ثوريا " ، رافضا للوضع القائم .. وفجأة يتحول " البطل " من اشتراكي طوباوي الى " فوضوي - مثالي " داعيا أكثر الى حرية الفرد ، اذ من وجهة نظره لكي تتوفر الحرية لابد من رفض كل الروابط وتمزيقها ، ولكي يكون (الفرد) حرا يجب

أن يكون مشردا . حتى يحقق كل أبعاده في الحرية (٤٦) . ويرتبط ديمترى بعلاقــة مع احدى العاهرات ، لأنه يرى أن حياته يجب أن تكون مع المشردين واللقطاء .. ومن أجل تحقيق " الحرية " يرفض ديمترى أن يكون " فردا من أجل الحركة الاجتماعيـة " . بمفهومها التاريخي الشامل . بعد ذلك يسلك ديمترى طريقه (ص ١٤٩) باتجـــاه " سويسرا وفرنسا " ليعيش حياة التشرد ، ويبدأ في اكتشاف البحر المتوسط ، بنفـس الطريقة التي اكتشف بها جمال البحر الكاتب : لويس برتراند : (انه الطريق الكبـــير الذى يؤدى الى كل بلدان الأحلام) ، ينزل ديمترى بمدينة (مرسيليا) ، واذا بهذه المدينة محطة فقط يسمع بها نداءات افريقيا الاسلامية من خلال الآفاق البعيدة ، يعتقـد ديمترى أن تحقيق أحلامه المتمثلة في تخليص البشرية من الآلام والأحزان في افريقيا لابـد لها من أن تمر عبر دم أحد رجال البوليس ، وبالفعل يقتل ديمترى في مظاهرة ، أحـد رجال البوليس ، وليتخلص من متابعة العدالة ينخرط في صفوف الفرقة الأجنبية La legion الفرنسية بالمستعمرة . ومن " وهران " يتجه الى هضاب " سعيدة " فيشعر أنه يستعيد هضاب بلاده الروسية التي خلفها وراءه هناك مابعد البحر . يبدأ ديمترى التفكير فـي قناعات جديدة ، فيخلص الى أن السعادة ليست في النضال ، انما في تحقيق اللذة في الآلام والأحزان :

" يجب أن تسكروا من منابع أخرى ، ابحثوا عن الحياة في كل الجهات ، فـــي اللذة ، وفي الآلام ، انها هناك ... " .

(ص : ٢٢٧) . (ترجمة شخصية) .

يشعر ديمترى أن سعادته تتحقق في الانضمام والاختلاط بالشعب الجزائـري ، فيتعلم العربية في مدة أربعة أشهر ، ويصبح تلميذا وصديقا لأحد المثقفين المسلمـين من الأهالي ، ومن خلاله يكتشف " الاسلام = الشرق " .

" في كل مساء يرتاد أورشانوف المقاهي العربية ، عند " زهرة " أو في المنـازل البيضاء في القرية السوداء ، انها نشوة شرق موهوب .. فالعالم العربي الذى كـان

بالنسبة اليه مغلقا في الأيام الأولى ، بدأ ينفتح له شيئا فشيئا . ان أورتانوف الفريسي الهارب ، يدخل في ديكور الألوان والعطور . (ص ٢٥٨)

(ترجمـــة شخصيـــة)

ثم تضيف الرواية على لسان ديمتري معلنا عن موقفه من الاسلام = الشرق ، وهو رأي يعكس رؤية الروائية نفسها من الاسلام ويطرح في نفس الوقت ضياع الكاتبة وتلقها .

" انني لست من أية عقيدة ، واذا كان لابد من اتخاذ واحدة فاني لن أعتنق سوى الاسلام . "

(ترجمـــة شخصيـــة) . (ص ٢٥٩)

وأخيرا يبدأ ديمتري الشغل عند أحد المعمّرين واسمه السيد موري (MORET) وهو فيكتشف الفقر والاضطهاد المسلطين على عامة الأهالي فيذكره ذلك بوضعية مجتمعه الأصلي الذي تركه خلف البحر . يبني خيمة ويبدأ فصول قصة غرام مع خادمة سيده التي تدعى " طاطاني " (TATANI) . لكن " بن بوزيان " يتقدم لخطبة " طاطاني " ويتزوجها ، ومن ثمة تبدأ فصول الخيانة الزوجية مابين " طاطاني " و " ديمتري " الى أن يكتشف بن بوزيان هذه الخيانة فيقتل زوجته الخائنة ، ويعود ديمتري مرة أخرى ليتطوّع في الجيش الأجنبي في المستعمرة .

ويتضح لنا في آخر الرواية أن الكاتبة تريد أن تؤكد على فكرة أساسية هي : أن لا أحد يعرف كنه القوة الحقيقية التي تسيّر هذا العالم .

كيف تتحدد الايديولوجيا الكولونيالية داخل رواية " المتشرد " ؟ :

من خلال فصول الرواية جميعها نلمس أن الكاتبة ايزابيل تقدّم بطلها " مسيحا " أو نبيا " جديدا " .. انه الخلاص البشري ، ونلمس في تطوّر هذه الشخصية وملابسة حياتها جزءا كبيرا من السيرة الذاتية للروائية نفسها وكذا من سيرة أخيها اوغستان [(٤٧)] ان هذا " النبي / الخلاص " وهو يكتشف العالم ويكتشف الفقر والاضطهاد فهو يخرج بنتيجة هي جزء من الموقف العام داخل الرواية : ان السعادة ليست في النضال

بل في الأوجاع والأحزان ..

وان التناقضات التي يعيشها البطل (ديمتري) بين تفكيره وطموحه من جهـــة وممارساته والتزاماته من جهة أخرى هي قطعة من تناقضات الروائية نفسها وكل شريحـــة الأنتيليجنسيا الفرنسية . اذ أن البطل يحلم بـ " الحرّية " المطلقة ، المتحررة من كـــل أشكال القيود الاجتماعية ، الا أننا نجده يلتزم مع أكبر جهاز قمعي هو " الجيـــــش الفرنسي " في الجزائر . ونشعر وكأن هذا الجهاز القمعي يمثل " الخلاص " بالنسبـــة لديمتري اذ أنه يعود اليه مرتين : في الأول هربا من العدالة بعد أن قتل شرطيا وفي المرة الثانية بعد أن يكتشف أمره في حالة خيانة شرف مع زوجة " بن زيان " ("طاطاني" عشيقته سابقا) . فالجيش هو الحامي والمدافع عن أمثاله .

وحين تقدّم الكاتبة ايزابيل الجيش الفرنسي ، فانها تقدّمه متجانسا ومتناسقا وذا معنويات مرتفعة ، وأنه يشكل أسرة واحدة متعايشة في حبّ وسلام ، وبذلك تسقط الرواية عن الجيش الفرنسي كل طبيعته وممارساته " القمعية " وهمجيته .

أما موقفها من المدنيين الفرنسيين (المعمّرين) / أي البورجوازية الكولونيالية / فهو موقف سطحي جدا ، ومتعاطف ، يتناقض مع تعاطفها (الشكلي) مع الأهالـــي الفقراء . فهي حين تصوّر زوجة المعمّر السيد " موري " (MORET) ، تقدمها فـــي شكل سام جدا ونبيل ، ومن اخلاصها وسموها هذا أنها تعتبر الأهالي الفقراء المسلمين بشرا من درجة منحطة .

" Pas Mechante , Mais considerant sincerment Les indigénes comme une RACE inferieur "

" انها ليست شرسة ، لكنها تعتبر وباخلاص أن الأهالي ، عرق حقير " .

(ترجمـــــة شخصيـــــة)

ان التعاطف الذي تحمله ايزابيل في كل مناسبة تجاه الأهالي الفقراء ، لايعدو أن يكون تعاطفا بورجوازيا ، ذا بعد سياحي . وان هذا التعلق الموجود بـــــين

الكاتبة والأجواء المحلية ، هو جزء من شغف الغربي (الأوروبي) بالشرق (ألف ليلة وليلة) ، انه حب يملوه البحث عن اكتشاف الانسان الفلكلوري البدائي ، لاشباع رغبة سياحية ولاطفاء نار المتعة .

فالتعاطف لم يكن تعاطفا حاسما ، ولم تكشف ازبيل أبدا الدواعي الاجتماعية — السياسية لهذا التعاطف ، وبالمقابل لم تتمكن من تعرية (— ولم تكن ترغب في ذلك —) الممارسات الهمجية التي يقوم بها الاستعمار داخل الجزائر ، واعتبرت أن كل مايلحق بالمسلمين الفقراء من جوع ومرض ... الخ هو من فعل قوة سحرية خفية ... وان مايصيب هؤلاء الأهالي مكتوب وقدر لا دخل لأي أحد في ذلك .

ورغم أن الكاتبة تدعي حبها وتعاطفها مع الأوساط الأهلية ، الا أننا نلمس دائما وبوضوح ذلك " الاحساس القوي الذي يهيمن على أولئك الفرنسيين الذين عاشوا في الجزائر ... احساس بالوحدة والغربة والضياع .. فهم في كل كتاباتهم يقومون بعملية البحث عن أنفسهم داخل هذا المجتمع .. (٤٨) .

ولا تخرج الكاتبة " ايزابيل ابرار " عن هذه الحالة ، فهي لاتفكر في الجزائر وفي الأهالي بقدر ماتفكر في نفسها ، فهي حين تفكر في " الأهالي " تكون في ذات الوقت تفكر في مصيرها وتبحث عن حقيقة ذاتها (٤٩) لا أكثر ولا أقل ، فما يهمها هو مصيرها هي أولا وأخيرا .

آخـر المطـاف :

بدأ تيار " الجزائريانيين " يتقهقر ويتضاءل في الفترة مابين / ١٩٣٥ ــ ١٩٣٧ على الرغم من ظهور رواية (Le CAFE MAURE) (القهوة المربية) للكاتب شـارل كورتان (CH. COURTIN)(من مواليد بليدة عام ١٨٨٥) سنة (١٩٣٩) ، وحتى اذا كان تيار الجزائريانيين يرغب ويحاول أن يمتد الى مابعد ١٩٤٥ فان ذلك كـان مستحيلا ، اذ أن طروحاتهم السياسية والجمالية تجاوزتها الأوضاع العامة بالمستعمرة ، وبذلك كانت الظروف لصالح ولادة تيار جديد سيكون أكثر تجاوبا مع تعقيدات المرحلـة سياسيا واجتماعيا ، وبذلك كانت سنة ١٩٣٦ سنة فارقة في الخطوط العامة للوضـع السياسي بالمستعمرة ، ومن هذه السنة بدأت ملامح تيار أدبي جديد تتشكل فكانـت ولادة (مدرسة الجزائر) (ECOLE D'Alger)

لقد كان : الجزائريانيون : (Les ALGERIANISTES) يرغبون في انتاج أدب خـاص بهم ، أدب " وطني " ، لكن الحقيقة كانت غير ذلك ، اذ أن كتاباتهم لم تحقـق أى شيء من ذلك ، اذ أن شخصيتهم الأدبية كانت تتمثل نقدا في رسم نشاطاتهم كأوروبيين داخل المستعمرة " الجزائر " ، وهو الشيء الذى لايمكن له أن يحقق أدبا وطنيا .

وعلى العموم لم يتمكن كتاب التيار الجزائرياني التخلص من الاطار الفرنسي ، فـي الوقت ذاته لم يستطيعوا أن يلونوا أدبهم بألوان أصيلة محلية أو بجملة ذات مذاق محلي ليمطوا أدبا محليا أصيلا .

ان تيار الأدب الجزائرياني لايعدو أن يكون استمرارا وتنويعا على مقولة الكاتـب المنصرى " لويس برتراند " حين قال :

" ان الأوروبيين وهم يستوطنون الجزائر لايقومون سوى باسترجاع أرضهـم ، أرض أجدادهم الرومان " (٥٠) .

ولقد ظل فضاء الرواية الجزائريانية يدور حول معادلة " الأنا " الفرنسـي و " الآخر " الأهلي ، كالتالي :

" الأنا " = الفرنسي —— الآخر = الأصلي

اللاتيني أو المتوسطي —— المسلم

المتحضر —— الهمجي المتوحش

المهدد —— المبدد

الايجابي —— السلبي .

ثالثا :

مدرسة الجزائر L'ECOLE D'ALGER

(١٩٣٥ ـ ١٩٥٠)

بينما كانت الادارة الفرنسية الاستعمارية تحتفل بالذكرى المئوية لغزو الجزائر ، كانت الأحزاب الوطنية قد اشتد عودها (حزب الشعب ـ نجم شمال افريقيا ـ الحزب الشيوعي ـ ... الخ) ، وقد وصلت طروحات بعضها الى المطالبة بالاستقلال الوطني .. في حين كان بعضها الآخر مترددا مازال يدور حول اطروحة الاندماج : " الجزائر الفتاة ـ الاندماجيون ... الخ " .

ويعد المؤتمر الاسلامي الذي انعقد سنة ١٩٣٧ علامة فارقة في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية ، في مسيرتها نحو التجذر ونحو الالتفاف حول برنامج عمل سياسي وطني موحد . وفي خضم سخونة الوضع السياسي داخليا ، وكذا شبح الفاشية الذي بدأ يقلق المتجول منذ العام ١٩٣٢ ، وهو الأمر الذي دفع التيارات اليسارية الى التكتل تحت اطار " الجبهة الشعبية " ، وفي الجزائر بدأت " الجبهة الشعبية الفرنسية " تضم الى صفوفها مجموعة من الانتليجنيا الأوروبية[1] ، ومن هذه الانتليجنيا ذات التوجه اليساري بدأ ينمو جيل من الأدباء ، على المستوى السياسي والعملي (كامسيو أوديسيو ... الخ) كان مؤمنا باطروحات الجبهة الشعبية ، أما على المستوى الجمالي فكانت الدعوة واضحة في رفع فكرة " المتوسطية " (نسبة الى البحر المتوسط) (MEDITERRANEE) وقد عرفت هذه الأفكار رواجا كبيرا بين المثقفين من المستوطنين خاصة ، ومن دعاة الاندماج من الأهالي الليبراليين ، اذ أن مجلة " المتوسطية " (MEDITERRANEA) (١٩٢٥ ـ ١٩٣٠) والتي كانت لسان حال دعاة هذه الفكرة ، قد اشتهرت وذاع صيتها في فرنسا وفي بلدان الشمال الافريقي كله ، بل [illegible] المستعمرات ماوراء البحر الفرنسية .

ومن بداية ١٩٣٥ نلمس بوضوح تبلور تيار أدبي في الجزائر[2] واضح الملامح الجمالية والسياسية ، اذ ترتكز كل هذه الكتابات اهتمامها على البحر والشمس الافريقية والمتوسطي ، واصطلح على تسمية هذا التيار باسم : (مدرسة الجزائر) E. D'ALGER . وسوف تتمركز أحداث الروايات التي كتبها روائيو هذه المدرسة في المدن الساحلية

كرواية الطاعون لألبير كامو مثلاً تجرى أحداثها بوهران .

ان سياسة " المكان " في الرواية تكشف الكثير من خلفياتها الفكرية وأبعاد مضامينها . ونظرة سريعة الى تطور " المكان " كبعد مهم داخل الرواية الكولونياليـة في الجزائر تكشف لنا أزمة الرواية الكولونيالية من جهة وتصيرها التاريخي الذى هو مصير البنية الاجتماعية – الاقتصادية التي ولدت في ظلها ونمت . نجد أن كانت مرحلة " البحث عن شرق " أولى مراحل الرواية الكولونيالية تؤثر الحديث عن " الصحـراء " وجمالها والتغني بالفلكلور ، كاستجابة للفكر البورجوازى الغازى الباحث عن الترفيـه والتسلية ومغامرة رأس المال . انتقلت جغرافية " الحديث " أو " الخطاب الروائي " عند " الجزائريانيين " الى المدن الزراعية والمستوطنات الجديدة وحياة المعمريـن الزراعيين رواية " المعمرون " : لروبير راندو ١٩٠٧

(Les Colons) : (ROBERT RANDAU 1907)

فمع هذا التيار بدأت جزائر " ألف ليلة وليلة " و " الصحراء المتيهة " و " الأعـراس الغريبة " تختفي ، وبدت في الرواية حياة الصالونات الجديدة ، تلك الصالونات التي أخذت من صالونات باريس عاداتها ، ولعل " المكان " الذى هو جغرافية وفضـاء الرواية عند الجزائريانيين كان وجها لتمركز الرأسمال الزراعي وبداية الاستثمـارات الزراعية الرأسمالية في الجزائر حتى الثلاثينات من هذا القرن . ومع مدرسة الجزائـر سوف نجد هؤلاء الكتاب يتجهون جغرافيا في خطابهم الروائي شيئا فشيئا نحو الشمال . نحو شاطيء البحر ، وفي هذه النقلة الى الساحل كأنما كانوا يعلنون عن رحيلهم المنتظر الى ما وراء البحر ، وفي أقوالهم أغنية عن البحر والشمس الافريقية والسماء الساطعة :

" يهبط من السماء نور مدهش ، البحر ، في أسفل ، بلا تجعيدة واحـدة ، وبابتسامة أسنانه الزرقاء . أنا واقف في مهب الريح ، تحت الشمس التي تلف جانبا واحدا من وجهي ، أنظر الى هذه الساعة الفريدة تنساب دون أن أقدر على النطق بكلمـة واحدة " (٣) .

" ودخل الى الماء ، وغسل من على جلده الصور السوداء القبيحة التي خلفهـا عليه العالم . وفجأة ، اشتم رائحة جلده تولد من جديد من حركة عضلاته . ربما لـم يشعر أبدا باتفاقه مع العالم الى هذا الحد . باتفاق عدوه مع عدو الشمس . وفي هـذه الساعة اذ كانت السماء تفيض بالنجوم ، كانت حركاته ترتسم على وجه السماء الكبير الصامت اذا حرّك ذراعا ، رسم الفضاء الذي يفصل هذا الكوكب النجمي عن ذلك الذي يبدو أنـه يختفي أحيانا ، وجرّ في وثبته حزما من النجوم ، وذيولا من السحاب . هكذا مـاء السماء وهو يضربها بذراعه ، والمدينة من حوله تبدو كأنها معطف من القواقـع الوضّاءة " (٤) .

" قامت الحرب . أين هي الحرب ؟ ... الحرب ليست في هذه السماء الزرقاء فوق البحر الأزرق ، أو صرير الزيزان ، أو أشجار السرو فوق التلال ، ليست في وثبـة النور الشابة ، هذه في شوارع مدينة الجزائر " (٥) .

" أي معنى لأيامنا غير ذلك وغير الدرس الذي يعطيه لنا التل (يقصد تـل تروفيل الجميل) : ميلاد وممات وبين الاثنين ، الحزن والجمال " (٦) .

" تلال من الرمال تمتد وحشية نقية إ عيد ماء الصباح السوداء جدا ومـاء الظهر الصافية جدا وماء المساء الدافئة المذهبة . صباحات طويلة فوق تل الرمل بـين الأجساد العارية وظهور ساحق ... هنا كان الشباب . هنا الشباب . ولا أريد شيئا ، وأنا في الثلاثين ، سوى السعي وراء هذا الشباب . ولكن ... " (٧)

" في ليل الجزائر ، يتردد صدى نباح الكلاب ، في فضاء أكبر عشر مرات من فضاء أوروبا . وهكذا يتحلى بحنين مجهول في هذه البلاد الضيقة . انه لغة اسمها اليـوم وحدي ، في ذاكرتي " (٨) .

" لي قصة مع هذا البلد ، أي لدي أسباب لحبه وأسباب لكرهه وعلى العكـس ، أحس تجاه الجزائر بهوى لا يقمع واستسلام للذة الحب . سؤال : أيستطيع المرء أن يحب بلدا كما يحب امرأة " (٩)

" مقال عن البحر

البائس لاوطن له • كنت أعلم أنا بوجود البحر ، لذا عشت وسط هذا الجو القاتل

هكذا يستطيع من يتحابون ويفرق بعضهم أن يعيشوا في الألم ، لكنهم لايعيشون في

اليأس ، مهما قالوا ، لأنهم يعلمون بوجود الحب • " (١٠)

" مابعد الظهيرة ، والشمس والنور يفيضان في حجرتي والسماء زرقاء متجسمة

وأصوات أطفال تتصاعد من القرية وخرير الفسقية في الحديقة ••• وها هي ساعات

الجزائر تعاودني منذ عشرين عاما •• " (١١)

" سيملأ البحر زنزانتي في اللحظة الأخيرة ، اذا قدّر لي أن أموت في جوف

سجن بارد ، وأنا مجهول من العالم • سيأتي ليرفعني فوق نفسي ويساعدني على

الموت بلا حقد " (١٢)

لقد انتقل الأدب الكولونيالي مع مدرسة الجزائر الى موقف " التأمل " و "الذوبان"

في الطبيعة والشغف بها والتحسر والبكاء على هذه الشمس وعلى هذا الساحل الكبير ذى

الرمال الذهبية •

ولعل كتابات غبرييل أوديسيو (١٣) عن البحر هي غاية في تجسيد الفكرة التي

طرحناها سابقا ، فقد كتب كتاب أسماه : " شباب البحر المتوسط " ١٩٣٥ •

(JEUNNESSE DE La MEDITERRANEE 1935)

وكذا (Le Sel De LAMER) (ملح البحر) ١٩٣٦

في روايته " شباب البحر المتوسط " يقف غابرييل أوديسيو موقف النقيض لاتجاه

الجزائريانيين [illegible] عن الجزائر " المستوطنة " وليست الجزائر

" المغزوّة " (Conquise) والمملوءة دما • وتمثل الجزائر بالنسبة لاوديسيو

وكافة كتاب مدرسة الجزائر بأنها : " مزيج ، أو كيان في طور التأثير والتأثر ، وهذا

المخاض أو الخليط هو الذى سينتج " الجزائرى " انها عبارة عن تجمّع أعراق وأصول

ساحلية مختلفة لحّمت (CIMENTEE) بالثقافة الفرنسية " وكان أوديسيو يدافع

بكل ما أوتي من قدرة محاججة عن هذه الاطروحة التي ترى في الجزائر : مقاطعة من المقاطعات الفرنسية (١٤) .

تعدّ مدرسة الجزائر تطورا للرواية الكولونيالية التي كتبها " الجزائريانيون " ، وفي نفس الوقت وجها لأزمة الرواية الكولونيالية بصورة عامة ، وايذانا بنهاية هذا الأدب الذي هو غريب عن واقع الأهالي الذين يمثلون أغلبية سكان المستعمرة والذين بدأوا يضرقون الأقلية الاوربية ديمغرافيا يوما بعد يوم .

وعلى الرغم من أن مدرسة الجزائر هي شكل من أشكال تطوّر الأدب الكولونيالي فرضته جملة من العوامل الاجتماعية — الاقتصادية — السياسية المستجدة على ساحة المستعمرة مع بداية الحرب العالمية الثانية ، الا أنها كانت تعارض تيار "الجزائريانيين" في " اقليمية " و "استعمارية" ، اذ كانت كتابات مدرسة الجزائر ردّ فعل ضد هذه الاقليمية ، فحاولت أن تعطي الرواية الكولونيالية ذلك البعد " العالمي " و "الانسانوي" ، وأن ترفض حتى أن تكون " مدرسة " أدبية ، لتتجاوز التميعة والتناقضات الجمالية والسياسية التي تسيطر في أغلب الأحيان على المدارس الأدبية ، فيصحى الانتاج الأدبي الذي ينتمي الى هذه المدرسة انتاجا " مسبق الصنع " (PREFABRIQUE) لكن مأساة مدرسة الجزائر تكمن في كونها لم تتمكن من التخلص من ثقل أسلافها الجزائريانيين . لقد كانت تعارض — على المستوى النظري — اطروحاتهم ومفاهيمهم دون أن تقيم مكانها خطابا جديدا ، اذ ظل محل الحديث عن المستعمرة قائما ، لكن الذي أحدث في هذا الخطاب عند " مدرسة الجزائر " هو ذلك التحوّل من بذاءة اللسان عند الجزائريانيين الى حديث مأساوي أو محتشم تحت ضغط التناقضات الموضوعية (١٥) المحلية (داخل المستعمرة) والعالمية (الحرب العالمية وانتشار الفكر والايديولوجيا الاشتراكية في أوروبا الشرقية خاصة والغربية) .

على العموم لم تبتعد مدرسة الجزائر كثيرا في جوهر اشكالياتها انتاجاتها العامة عما كان سائدا في مضامين انتاج تيار الجزائريانيين ، على اختلاف في تمجيد الغـزو والاستيطان ، الا أن المسألة الوطنية لم تظهر في هذه المدرسة كذلك (١٦) . اذ لـم يبرز الحديث عن جزائر مستقلة استقلالا سياسيا كاملا كما سنرى ذلك مع الرواية الوطنيـة بل الذي كان مطروحا في سوق أفكار الفرنسيين ونتاجاتهم الفنية هو : " جزائـــر فرنسية " ، حيث تتحقق " المحبة " !! وحيث لايكون شعار ١٧٨٩ مجرّد كلام فــارغ لايجد حقيقته في الواقع الملموس لحياة الأهالي اليومية (١٧) .

أول من أطلق مصطلح " مدرسة الجزائر " على هذا التيار الأدبي الذي بدأت معالمه تتحدد أكثر فأكثر هو " غابرييل أوديسيو " بعد أن كان " البير كامو " قـــد أطلق عليه مصطلح : " مدرسة الشمال الافريقي للآداب " (Ecole Nord - AFRICAINE des lettres) ويقول ألبير ميمي (ALBERT MEMMI) الروائي والباحث الأدبي التونسي - عمّـا يسمّى " بالحركة الأدبية لشمال - افريقية " (Mouvement litteraire Nord AFRICAIN) أو / مدرسة الجزائر / مايلي : ماهي في الحقيقة سوى فرع فرنسي .. فاذا كنت (روبلس) (ROBLES) أو جون روى (JULES . ROY) أو (ROSFLDES) روسفيلد / جزائريـــين (شمال افريقيون) مولدا وزمانا ، فانهم في الوقت نفسه ذوي قدر ومصير باريسي ، طال الزمن أم قصر ، فطموحهم الطبيعي والشرعي ، سيكون أحد طموحات الكتّاب الفرنسيين " (١٨)

ويرى جون ديجو : (JEAN DEJEUX) : ان هذا الأدب لايمثــــل ... مدرسة ... الا نوع من الشعور (المتوسطي) (MEDITERRANEENNE) يختلف عن شعور السكان الأصليين في الشمال - الافريقي ، لقد تكلموا كثيرا عـــن " جمالية الشمس " وعن " أدب الشمس " (LITTERATURE De SOLEIE) (١٩) وابتعدوا كثيرا عن جوهر الواقع الاجتماعي - السياسي المتميز للجزائر (الوطن الأم كما يدعون) .

لذا وجدنا هؤلاء الكتّاب يتزحلقون على الواقع الاجتماعي ، ولم يتمكنوا أبداً من فهم الواقع المحلّي وتحليله تحليلاً علمياً ، وبذلك ظلّوا على " السطح " لم يروا في هذه " الأرض " سوى : بلد الشمس المشرقة والسماء الساطعة ومزارع الزيتون والكروم الممتدة على مدى البصر ، والبحر الهادئ أحياناً ، الهادر أحياناً أخرى ، بلد الشمس والهواء النقي والداهية الجميلة ، ولم يخرج أبطال روايتهم عن اطار الصورة التي رسمها " البير كامو " ، وهي ذلك " الانسان " القلق " " اللامبالي " " الغريب " ، الذي لايعرف ماذا يعمل وماذا يريد .. يحب ويكره يقتل ولا يعرف لماذا ؟ (٢٠) . ولم يبصر هؤلاء الكتّاب في الأهالي سوى ذلك الانفجار الديمغرافي و " اللاتنظيم " . وقد أولى الكاتب والروائي " مارسيل موسى " وهو أحد أعلام " مدرسة الجزائر " البارزين ، ومن مواليد الجزائر بشهادة تاريخية تبين ذلك " الحوار الأصم " Dialogue-sourd بين الكتّاب الفرنسيين " المتجزئرين " وبين الواقع العام لهذه المستعمرة ، يقول مارسيل موسى وهو الذي عاش في الجزائر عشرين سنة :

" .. انه لم يستطع معرفة الجماعات العربية واليهودية ولم يكتشفهم الا في باريس من خلال كتابات محمد ديب ومولود معمري وألبير ميمي " (٢١) .

ان شهادة مارسيل موسى تلخص الجهل التاريخي الاجتماعي الذي كان يغرق فيه الكاتب الفرنسي للواقع الجزائري وأوضاع الجماهير المسلمة الفقيرة (العربية والبربريــة) والمفقرة . ويعد هذا التصريح اعترافاً (— في الوقت نفسه —) يضع الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية في جانب والأدب الفرنسي المكتوب على أرض الجزائر المستعمرة في جانب ثان ، ولكل منهما همومه واهتماماته وتوجهاته الجمالية والسياسية .

ففي الوقت الذي كان فيه المجتمع الجزائري يغلي بالأحداث عشية الحرب العالمية الثانية ، وكانت الحركة الوطنية الجزائرية قد سجلت حضورها الفعلي سياسياً وتنظيمياً وكانت الطبقات الفقيرة تنتظم وتشعر بمسؤوليتها التاريخية : اذ لاحظنا في مدينـــة (NEMOURS) (نمور) (سابقاً) " الغزوات (حالياً) ، تأسيس لجان محلّيــة

للعمال والفلاحين ، وفي " ندرومة " تم انشاء لجان محلية للمزارعين والبستانيين وصغار التجار والمعلمين والطلاب وطلبة المدارس الدينية " الطالبة " ، وفي " سهدو " انتخب الجبليون وقائد الحلفاء من قبائل " أولاد نهار " لجانهم ، كما لاحظنا تضامن العمال الزراعيين بوهران وسهدى بلعباس وبجاية مع اضرابات عمال السكك الحديدية ...

ومع بداية ١٩٤٥ تولد الارتباط بين الحركة الوطنية " المدينية " الجزائرية في مجملها وطبقة الفلاحين والعمال الزراعيين بانتشار الايديولوجيا الوطنية على قدر ضيق في الأرياف ، وبدأ تشكيل وتنظيم الطبقة الفلاحية (— التي ستقوم على عاتقها ثورة نوفمبر ١٩٥٤ —) داخل الأحزاب والنقابات (٢٢) الوطنية .

في هذه الأثناء نذلك (— وهو زمن رواج وسلطة مدرسة الجزائر أدبيا —) كانت البورجوازيات الكولونيالية تستخدم السلطة المدنية والعسكرية لحماية وتكريس مصالحها الاستثمارية الرأسمالية ، في ذات الوقت كانت تمارس هيمنتها الاعلامية عن طريق الصحف والكتب وسائر وسائل الاتصال ، فتنظم مؤتمرات ومهرجانات حول " الجزائر الجميلة " . وأهم احتفال من هذا النوع ذاك الذى أقيم بمناسبة احتفالات مرور قرن على الغزو . (٢٣)

فاذا كانت السلطة الاقتصادية " البورجوازية الكولونيالية " والسلطة السياسية — العسكرية : (العسكر والادارة) تحتفل في مهرجانات ومؤتمرات " بالجزائر الجميلة " ، فلم تكن مدرسة الجزائر بعيدة عن ذلك اذ أنها هي الأخرى كانت تحتفل أدبيا بـ " جزائر جميلة " جزائر الشمس والبحر والضوء والخمر ، ولم يكن يشغل بالها مايجري في أوساط الجماهير الكادحة الجزائرية على المستوى السياسي والاجتماعي ، بل ظلت بعيدة عن ذلك . يقول ألبير ممي : (A. MEMMI) : تمتاز مدرسة الجزائر بذوق الاعتراف الانفعالي الهيامي والقوة في حب الشمس والذرة وطعم القدر .. هذه هي الخصائص التي ميزت كتابيين أوديسيو الذى لايملك أية علاقة بالشمال الافريقي غير هذه الشمس وهذا الطعم " (٢٤) .

وان كان المجتمع الجزائرى يعيش في منعطف حاد سياسيا واجتماعيا في أربعينات هذا القرن ، فلم يكن يهم كتاب " مدرسة الجزائر " أو يلفت انتباههم من كل ذلك ، سوى ، هذه الشمس وهذا البحر الأزرق الجميل .

ان ماكان ينعكس من الأحداث السياسية والاجتماعية الأهلية ، على نتاج هؤلاء الكتاب ، لاينعكس، لكونه حدثا تاريخيا قد يقلب موازين القوى في المستعمرة أو يغير من وضعية هؤلاء الأهالي ، وانما كانت كل حركة من هذا القبيل تنعكس على نتاجات هؤلاء بوصفها حركة تشوه صورة الشمس وزرقة السماء ورغوة أمواج البحر . وبالتالي تفسد عليهم لحظات التأمل البهيجي واشباع النفس من جمال هذا الساحل وهذه الأرض .

وحتى أن هؤلاء الكتاب حين توجهوا الى دراسة الأوضاع الاجتماعية للمستعمرة " كالاضرابات " مثلا في رواية (L'ACTION)(العمل) لـ (روبلس B. ROBLES أو كالأخلاق والتأكيد على الكرامة الانسانية كما هي الحال في Les auteurs de la Ville (مرتفعات المدينة) لـ (روبلس) (ROBLES) كذلك أو كالاغتراب في "الغريب " لألبير كامو (A. CAMUS) ، فان هؤلاء الكتاب رغم دعوتهم في كثير من المرات الى التنديد بواقع مزر وسيء والنداء ، الا أنهم لم يعترفوا مطلقا بالمقابل الذى هو الموقف الوطني (٢٥) بوصفه الحل النهائي للمأساة الاجتماعية والسياسية ، ولذا فقد أطلق بعض النقاد على هذه الرواية ، مصطلح " الرواية السوداء " Le ROMAN Noir أو رواية " القنوط " .

من هنا يظل أدب " مدرسة الجزائر " أدبا فرنسيا شكلا ومضمونا ، أنتجه واقع المستعمرة في طبيعة تناقضاتها وسيرورة تطورها الاجتماعي ـ السياسي . ولا يمكن أبدا اعتباره أدبا جزائريا (٢٦) .

ويمكن ردّ أدب " مدرسة الجزائر " الى حضيرة الأدب الفرنسي للأسباب التالية :

آ ـ ان هؤلاء الكتاب يدّعون الانتماء الى الجزائر لامن حيث أنها الوطن الأم ، وانما من حيث أنها وطن ثان أو امتداد لفرنسا ، أو احدى مقاطعاتها الجميلة

والمتميّزة ٠

ب — ان معرفة هؤلاء الكتّاب ، من خلال الانتاج الأدبي (٢٧) للانسان "الجزائري" محدودة ، بل وقاصرة ، وفي أغلب الأحيان لاتتعدّى معرفتهم حدود الـ المسـم الفرنسي الذى يعيشه الفرنسي داخل المستعمرة ، وقد لانجد أى أثر (— الا مايشبه الظل —) للجزائرى الأصيل في هذه الكتابات رغم أنها تدور في مدن جزائرية محفوفة بالأحياء التصديرية الشعبية الخاصة بالجزائريين ونضرب مثـالا على ذلك : برواية " الطاعون " (La PESTE) لكامو ، فأحداث الروايـة تجرى في مدينة " وهران " الساحلية :

" وقعت تلك الحوادث المثيرة التي يتألف منها هذا التأريخ في سنـة ١٩٤؟؟ في مدينة وهران ، وقد أجمع الناس على أن تلك الأحداث التي تخرج عن حيّز المألوف لم تقع في المكان المناسب لها ، فمدينة وهران تبدو في الواقـع مدينة عادية لمن ينظر اليها لأول وهلة ٠ اذ أنها ليست أكثر من مديرية فرنسيـة على الشاطىء الجزائرى " (٢٨) ٠ انهم لايرون في هذا المجتمع سـوى الفرنسيين ٠ اذ يجعل ألبير كامو من مدينة وهران بحياتها وحركتها : " أشبـه ماتكون بـ ليون أو باريس ، ويحرمها من خصائصها الجزائرية " (٢٩) ، اذ كـان معظم اهتمام هؤلاء الكتّاب منصبّاً على تصوير حياة الفرنسي في الجزائر ولـم ينتبهوا للجزائرى الا من جانبه الفلكلورى السياحي ، أو على أساس أنه مخلـوق غريب يثير مظهره التعجب والتساؤل ٠

لم يعانِ هؤلاء الكتّاب ماعاناه المثقف الجزائرى بصورة عامة والأديب بصورة خاصـة من أمثال " محمد ديب ، مولود فرعون ، مالك حداد ، كاتب ياسين ٠٠٠ الخ " من صراع حضارى وازدواجية لغوية وصعوبات في بلوغ الثقافة الفرنسية نفسهـا ٠ اضافة الى هذا الجانب الثقافي — الحضارى ، لم يكن الفرنسي يعيش كمـا يعيش الجزائرى يتحمّل الفقر واحتقار المعمّر له ، وغير ذلك ، مما تحمّلـه

الجزائري في ظل الاحتلال .

د — اللامساواة بين " الكتّاب الجزائريين " والكتّاب الفرنسيين قانونيا واداريا واجتماعيا ، اذ نتيجة لهذا الوضع قام بين هؤلاء وأولئك جدار قانوني واداري اسمنتي (٣٠) .

هذه أهم العوامل التي يمكن الارتكاز عليها في نفي " الجزائرية " عن هذا النتاج الأدبي ، وبالتالي ضمّه الى صف الأدب الفرنسي ، يقول :

(روبلس) : ان الروائيين — (يعني روائيي مدرسة الجزائر —) لم يصنعوا أبطالهم أو شخصياتهم الأدبية : لا لاتينا ولا عربا ولا بربرا ولا يهودا لكنّها نماذج " متوسطية " (MEDITERRANNEENS) (٣١) .

ان اهتمام " مدرسة الجزائر " من خلال بعض كتاباتها بالطبقات الفقيرة أو المتوسطة ، يعود الى الانتماء الطبقي لهؤلاء الكتّاب أنفسهم اذ كان — روبلس وكامو — من أوساط اجتماعية فقيرة ، بالنسبة الى المعمّرين ، لامقارنة مع السواد الأعظم من الأهالي الجزائريين ، من هنا فقد كان هؤلاء الكتّاب ، وهم يطرحون ظاهرة الفقر أو الاضطهاد ، انما يقومون بطرح همومهم أمام الكولون وأهل المتروبول قبل أن يطرحوا هموم (الآخر) (L'Autre) الذي هو " الأهلي " .

وفي كتابات " مدرسة الجزائر " يمثل (الأنا) (Le Meme) = الفرنسي ، حاضرا دائما من (١٩٣٥ — ١٩٥٠) في حين يظل (الآخر) L'Autre = الجزائري ، غائبا عن الخشبة التاريخية أدبيا طوال هذه الفترة ، وحين يذكر ، لايكون ذلك الا عن طريق (الأنا) (Le Meme) ، الذي يحدد شكله وموقعه حسب مايوفي بحاجاته ومصالحه .

أمام المقدمات السابقة نستنتج أن كتابات " مدرسة الجزائر " ، ماهي الا استمرار للكتابة الكولونيالية السابقة ، ويأخذ هذا الاستمرار شكله وطابعه وبعض من مضامينه في اطار الحلقة التاريخية التي يعيش خضمها الأديب / المثقف داخل المستعمرة

أو على المستوى العالمي . ولقد مثلت بالفعل كتاباتهم في عمقها وفي شكلها أزمـــة الرأسمالية الكولونيالية ، فما الشعور بالغربة الذي يهيمن على هؤلاء الكتاب ، وكــذا شبح الخوف الذي نلمسه بين كل كلمة وأخرى (٣٢) وبين كل فقرة وأخرى بدءا مـــن عناوين الروايات : " الغريب " (L'ETRANGER) " سوء تفاهـــم " (Le Malentendu) لألبير كامو و " الرجـــال الحــــدود " (JEAN BRUNE) - لجان برون

الخ ... الا انعكاس لتمزق البنية الاجتماعية الكولونيالية كلها واشراف هذه البورجوازيـــات على التفسخ والنهاية .

يقول ألبير ميمي :

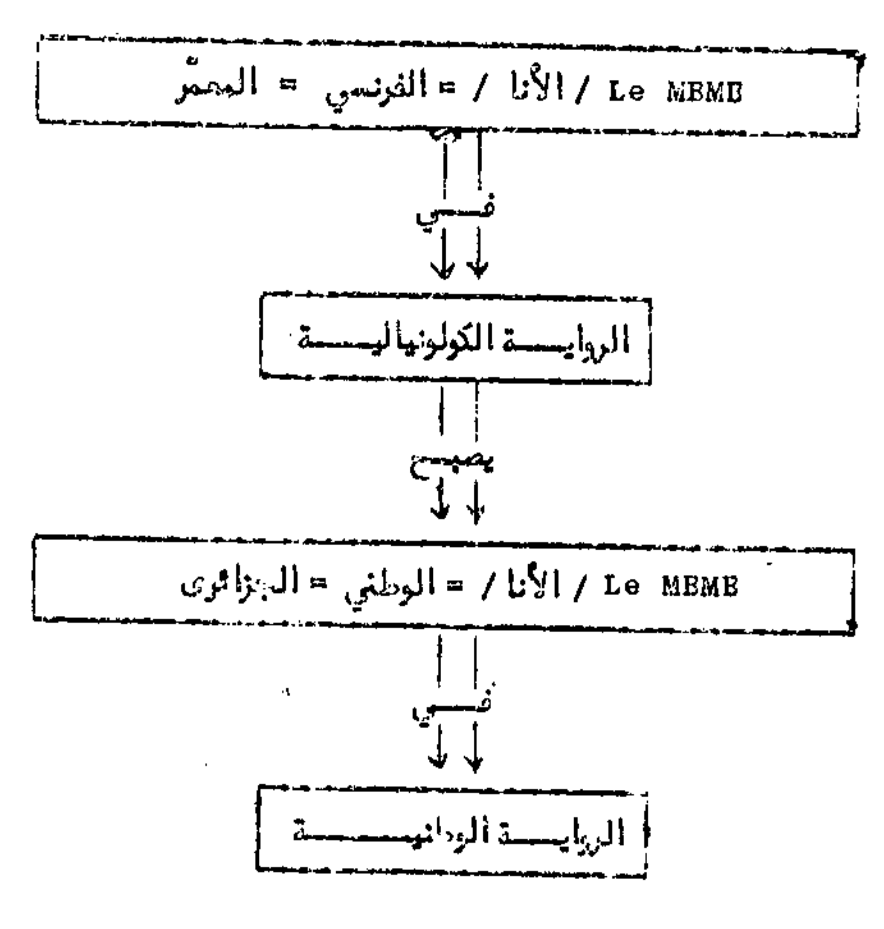
" عندما أصبح التاريخ على عجلة من أمره في السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الثانية ، أصبحت الحياة صعبة ، وبالنسبة للمغتربين أصبحت قاتلة في أغلب الأحيان .. فكانت فكرة العودة تثير لدى بعضهم مخاوف اقتلاع جديدة ... لقد هجروا بلادهم منذ زمن بعيد فلم تعد تربطهم بها أية صداقة حية ، فجميع أبنائهم ولدوا في المستعمرات، وفيها دفنوا أمواتهم ولكنهم يبالغون في تصوير تمزقهم ، اذ كانوا قد نظموا عاداتهـــم اليومية في المدينة المستعمرة ... ان غربتهم في الحقيقة ، هي غربة اقتصادية ، غربـــة " الأثرياء الجدد " الذين يخشون الفقر " (٣٣) .

لم تستطع الانتاجات الروائية لمدرسة الجزائر أن تكون جوابا عن الحاجة الوطنيـــة في الكتابة الابداعية ، ولم تكن مؤهلة ولا باستطاعتها ذلك ، اذ لاحظنا أن القضيـــة الوطنية لم يستطع [illegible] المستوى السياسي [illegible]) حتى اليسار الفرنسي تفهمهـــا بشكل عميق ، وهو مادفع الحزب الشيوعي الجزائري الى الاستقلال بتنظيمه الخـــاص ، كاستجابة أساسية للمسألة الوطنية ، اذ لايمكن معالجة الطبقي (— في مرحلـــــة استعمارية —) دون ايلاء الوطني أهمية كبرى والعكس صحيح . وقد انعكس غمـــوض المسألة الوطنية على ابداعات روائيي هذه المدرسة ، على الرغم من أن أغلبهم كـان ذا

اتجاه يساري ، الا أنهم في الحقيقة السياسية لم يكونوا سوى بورجوازيين صغار أوروبيي العادات والتكوين ، كثيرا ما اتضحت تناقضاتهم الفكرية وذبذبة مواقفهم السياسية كجوهر في تفكير وممارسات البورجوازية الصغيرة ، ويعد ألبير كامو / الوجه الأدبي البارز في هذه المدرسة ، مثالا واضحا على ذلك ، اذ كان في البداية عضوا في الحزب الشيوعي الفرنسي (P.C.F) ، وجاء انفصاله عن هذا الحزب نتيجة للمواقف التي كان اتخذ هذا الحزب خاصة مع بداية الثلاثينات لصالح المسألة الوطنية ، وترى / آن دورانو / : أن الدافع الحقيقي لانفصاله عن الحزب هو اعتقاده بأن سياسة الحزب أصبحت تميل الى : التخلي عن شعوب تعتبر ، بدون شك ، فرنسية المشاعر ان لم تكن فرنسية العنصر (٣٤).

ان الضجة التي أحيط بها " ألبير كامو " على أنه رجل العدالة والانسانية ، لابد من اعادة النظر فيها من جديد ، وتقويمها تقويما هادئا وبعيدا عن كل انحياز ، اذ كيف يقف كاتب أحيط بهذه الضجة موقفا سلبيا من المسألة الوطنية ، على الرغم من أنه كان أدرى الجميع ، بمشاكل الأهالي الاجتماعية والسياسية ، اذ عهد اليه الحزب الشيوعي الفرنسي الدعاية له داخل صفوف العرب (٣٥) .

حين اندلعت الحرب الوطنية الجزائرية في فاتح نوفمبر ١٩٥٤ ، كانت " مدرسة الجزائر " قد استنفذت كل ما عندها ، وبدأت تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وذلك بصعود بديل وطني قوي في الرواية " الحمامي - فرعون - ديب - معمري - حداد - كاتب ياسين - آسيا جبار - الطيب جمري ... الخ " (٣٦) ، استطاع هذا الانتاج البديل أن يكون ايذانا لافلاس أدب مدرسة الجزائر افلاسا نهائيا ، اذ ستقوم هذه الرواية الوطنية بقلب الأطراف الأساسية في معادلة الكتابة الكولونيالية ، حيث أصبحت كالتالي :



وكذا أصبح :

L'AUTRE /الآخر = الأهلي = الجزائر = الهمجي

فـــي

الروايـــة الكولونياليـــة

يصبح

L'AUTRE / الآخر = الفرنسي = المعمّر = الهمجي

الروايـــة الوطنيـــة

ورغم أن تيار " مدرسة الجزائر " كان يعلن عجزه ونهايته ، الا أنه واصـل عطاءاته " الابداعية " ، اذ عاد الكتّاب الفرنسيون ليؤكدوا عبر النص الروائـي " جزائريتهم - الفرنسية " وشرعوا في عملية البحث ، المملوء بالقلق والخوف ، فـي الماضي لتقديم شهادات تثبت أنهم من هذا البلد ! (فكتب (جان برون) J.BRUNE روايته : (الرجال الحدود) Les Hommes Frontieres عام ١٩٤٩ وكذا روايـة " اندريه روسفيلدر " (ANDRE ROSFELDER) (نهاية الورشـة) (Fin De Chantier) وكتب ج . جالونو (G.GALUNAND) رواية " اللبن " (EL. L'BEN) سنة ١٩٥٨ وكتبت : أ . ستومف (B. STUMPH) العام ١٩٥٨ روايـة " عميقة هي جذورنا " (PROFON Sont nos RACINES) (٣٧).

وفي هذه الكتابات جميعها كان التأكيد الرئيسي على أحقية الفرنسيين في وطنهم " الجزائر " الذي هو جزء من الأم الفرنسية ! . وامتلأت هذه الكتابات بالخوف علـى فقدان هذه الأرض التي عاشوا فيها ودفنوا فيها أمواتهم ... وخلقوا فيها ذكرياتهـم ، ونستشف من هذه الكتابات جميعها ، أن هؤلاء الكتّاب انتقلوا من موقع " الهجوم " الى موقع " الدفاع " ، عن الوجود (الأدبي والاستيطاني - الجغرافي - السياسي - الاجتماعي ... الخ) . فمع " الجزائريانيين " كانت الرواية في موقع " الهجوم " ، ولم تكن مقولة " الجزائر - الفرنسية " محل نقاش أو أخذ ورد ، بقدر ما كانت محـلا للدعم الايديولوجي / الأدبي .

مع نهاية الحرب العالمية الثانية ، التي توّجتها ذاكلوا انتفاضة ٨ ماي ١٩٤٥ المظلومة والتي ذهب ضحيتها /٤٥/ ألفا من الشهداء ، والتي أكدت تجذر الوعـي الوطني ، نحو الحرية والعدالة الاجتماعية والاستقلال الوطني . بوصفها علامة بارزة علـى المستوى السياسي - الثقافي في تاريخ الجزائر المعاصر ، فهزمت على مستـوى العمل السياسي والثقافي طروحات المثقفين الفرنسيين ، وكذا بعض المثقفين الجزائريين

الليبراليين (قايد بن شريف - حاج حمو عبد القادر - ولد الشيخ محمد - علـي بلحاج - زناتي - جميلة دبيش - .. الخ) (٣٨) . واستطاعت أن تحطم مفهوم " الادماج " الذي تبنته بعض كتابات مدرسة الجزائر الأولى ، وبدأت تتضح معالـم هذه الهزيمة بالعودة الى الحديث عن البحر والشاطئ والضوء والشمس والخسـوف والذكريات والغربة - (كتابات البير كامو (٣٩) وغابرييل اديسيو .. -) وانتقلـت الرواية من عالم التحليل الواقعي (- بروئية استيطانية -) الى التقوقع حول الذات والتأمل في المصير .

وبقدر ما كانت الحركة الوطنية تنمو كان المثقفون الفرنسيون يشعرون أكثر فأكثـر بالغربة في كتاباتهم ، وبقدر ما كانت الايديولوجيا الوطنية تتصاعد وتتمركز داخل الحياة اليومية داخليا وعلى المستوى السياسي عالميا ، كانت هذه الكتابات الفرنسية تجسـد نفسها محاصرة في ركن .. فتشرع في الميل نحو استدرار العواطف والسقوط فـي المأساوية والسوداوية والتأمل في الطبيعة بدلا من الانسان ، وانتاج مايسمى بالأدب الأسود (LALITTERATURE NOIRE) أو " أدب القنوط " الـذى ساهمت في تشكيله ظروف تاريخية معقدة ، تجاوزت الكاتب نفسه (كامو - جول روى - روبلس) .

وحتى في المرحلة التي تلت استقلال الجزائر في العام ١٩٦٢ ، فان نتاجـات هؤلاء ، الروائية استمرت من خلف البحر ، بعد أن رحلوا جميعا عن أرض الجزائـر ، وظلت صورة " الجزائر " - جزائرهم - التي تسكنهم قائمة في كل رواياتهم على شكل فجيعة (٤٠) أو في قالب ذكريات حزينة ، وأصبح حنينهم الى " أرض الميعاد " حنينا كبيرا ، فبينهم وبينها مساحة واسعة من اليابس والماء .. انه الحنين والوجد الـذى سببته الهجرة .. (٤١) وأذكر تمثيلا لاحصرا مثالا لهذه الكتابات (C'étaient nos FRERES) (١٩٦٠) (لقد كانوا اخواننا) للكاتب : (أ. جوان) (A. JUIN)

ان الواقع كان أكبر من مستوى ادراك وتصوّر هؤلاء المثقفين ، اذ لم يكونوا في مستوى فهم الحقيقة التاريخية وسيرورة تطوّر المجتمع ، والعوامل الموضوعية لتطوّر هذا المجتمع ، ولذا وجدنا أن " الاستقلال " كان بمثابة خيبة أمل بالنسبة اليهم ، فلم يكونوا يتوقعون أن يجدوا أنفسهم خلف البحر بين عشية وضحاها ، وهذه الوضعية تكشف شيئين مهمين :

أولا : عدم تمكن هؤلاء الكتاب من فهمهم لا للواقع الجزائري ولا لتطوّر الحركة الوطنية الجزائرية •

ثانيا : قوة احكام حصار الهيمنة الايديولوجية الكولونيالية على المستوطنين وتغييب الحقيقة التاريخية عنهم •

وحتى مطلع السبعينات واصل الكتّاب الفرنسيون الذين عاشوا في الجزائر أو ولدوا فيها ، كتاباتهم عن الجزائر مستعيدين ذكرياتهم عن أرض " الأجداد " !! وأرض " الصبا " و " الغرام " !! فقد كتب غابرييل أوديسيو (L'OPERA FABULEUX) سنة ١٩٧٠ (الأوبرا الأسطورية) ، وكتب جان بوميي (JEAN POMIER) (CHRONIQUES D'ALGER) (وثائق الجزائر) ١٩٧٨ ، وكتب " جول روى " — أحصنة الشمس (Les Chevaux De Soleil) ١٩٦٨ وكتب " جان دانيال " (J. DANIEL) (Le Temps qui reste) (ماتبقى من الوقت) سنة ١٩٧٢ وهي عبارة من سيرة ذاتية ، وكتب ايمنويل روبلس : (E. ROBLES) مذكراته وسيرته الذاتية بوهران في كتاب "موسم عنيف" (Saison Violente) عام ١٩٧٤ • (٤٢)

هكذا اذن ظل هؤلاء الكتاب بعيدين عن الواقع الوطني ، ولم يفكر أحد هم في جزائر مستقلة ، ولم يكونوا يؤمنون بصمود الايديولوجيا الوطنية الجزائرية ، ولقد صنّف ايمانويل روبلس (E. ROBLES) سنة ١٩٥٤ ، والثورة الجزائرية على وشك الانطلاق ، والحركة الوطنية في قمة نضجها السياسي ، والأدب الوطني ذو التعبير

الفرنسي ، قد بدأ عطاءاته الروائية الخالدة ، اذ لاحظنا صعودا مكثفا للانتاج الوطني في هذا الميدان : علي الحمامي في رواية " ادريس " سنة ١٩٤٨ ومولود فرعون فـــي روايته " ابن الفقير " سنة ١٩٥٠ ومحمد ديب في روايته " البيت الكبير " ١٩٥٢ ، ومولود معمري في روايته " الربوة المنسية " سنة ١٩٥٢ ، وكذا مولود فرعون فـــــي روايته " الأرض والأم " سنة ١٩٥٣ ، والطيب جمري في روايته " السباق الى النجدة " سنة ١٩٥٤ ... الخ (٤٣) .

.. بمايلي: " لايوجد في الجزائر أدب جزائري حقيقي ، لأنه لاتتوفر لهـــــذه الولادة أو لهذا الأدب العناصر الأساسية : اللغة ، العرق (La RACE) الأمة (NATION) (٤٤) . ان تصريح ايمانويل روبلس هذا ، فيه الكثير من المغالطة والكثير من الجهل ، وهو يحوي في الوقت نفسه موقفا سياسيا من المسألـــة الوطنية ، وينطبق هذا الموقف على كل كتاب مدرسة الجزائر .

ان تناقضات أدب " مدرسة الجزائر " ، وكل الأدب الذي كتبه فرنسيو الجزائر ، كانت تعبيرا عن تناقضات البنية الاجتماعية ـ الاقتصادية الكولونيالية كلها وافلاسهـــا ووصول أدبها الى الطريق المسدود ، بعودته الى الحنين والشمس والبحر والتأمـــل التقوقعي وابتعاده عن حماسة الاطروحات الاستعمارية التي بدأت تنهار أمام ضربـــات الحركة الوطنية ثم المقاومة المسلحة بعد ١٩٥٤ ، وهذا الافلاس والهروب الى " البحر والذكريات " واستهلاك ماتبقى من الأيام الكولونيالية " الجميلة " !! المعلقة فـــي الذاكرة ، هو في ذات الوقت ايذان بنهاية البنية الثقافية الكولونيالية ووصولها الـــى الباب المسدود، واعلان عن سقوط تلك البنية الاجتماعية ـ الاقتصادية والسياسية الـتي أنتجت هذا الأدب وطورته .

خاتمـــة :

ان نهاية الأدب الكولونيالي هو نهاية الجزائر الكولونيالية ، واذا كانت الجزائر قد نالت استقلالها بعد حرب تحريرية خالدة ، وأنهت من فوق أرضها الوطنيـــــة الاستعمار الفرنسي ، وأنهت بذلك الأدب الكولونيالي هو الآخر من فوق أرضها كانتساج جمالي لنمط الانتاج الكولونيالي ، فان هذا الأدب بقي محافظا على ممثليه جان بوميي (J. POMIER) وجون بليكري (J. PELEGRI) و ج ، روى ... في فرنسا .

لقد تمت اعادة نشر الأدب الكولونيالي في سلسلة " وهكذا اذن [" تحت اشراف " ر. بكري " (R. BACRI) ، الذى كتب في توضيح اعــادة نشر هذه السلسلة مايلي :

" أعيد نشر هذه السلسلة ، لأن جزائر أبي قد ماتت ، لكنني أنا الابن ..... والأبناء عليهم واجهات تجاه آبائهم .. " (٤٥)

وما اعادة النشر هذه الا وجه للحصار الأيديولوجي الاقتصادى الثقافـــــي الاستعمارى الذى تحاول البورجوازية الفرنسية ، من خلال الشركات المتعـــــددة الجنسيات أن تفرضه على البلدان النامية والحديثة العهد بالاستقلال .

واذا كانت الرواية الكولونيالية قد تغيرت وتطوّرت من مرحلة تاريخية اجتماعيـــة معينة الى مرحلة أخرى ، وذلك أمام ضغط صعود الأيديولوجيا الوطنية ، فان جوهـــر الموقف السياسي والأيديولوجي الذى حملته رسالتها ، لم يتغير الا بقدر ماتفرضه طبيعة تطوّر البنى الاجتماعية والاقتصادية الاستعمارية ، على المستوى المحلّي أو العالمي .

وبذلك ظلّ طرفا المعادلة قائمين منذ البداية وحتى النهاية ، محمّلين بصــراع خفي ، وهما كالآتي :

" الأنا " الفرنسي = الحضور .

" الآخر " الأهلي = الغياب .

هوامش واحالات القسم

الاول

==============

هوامش واحالات : - بنية المجتمع الكولونيالي :

١ - ميمي ، ألبير - صورة المستعمر والمستعمر - ترجمة : جيروم شاهين - مقدمة جان بول سارتر - دار الحقيقة - بيروت - ط : ١ - ١٩٨٠ - ص : ٢٨

٢ - كانت الجزائر تملك أكبر اسطول بحرى في منطقة البحر الأبيض المتوسط في القرون الوسطى .

٣ - هو الشاعر المعروف ألفونس دو لامارتين (١٧٩٠ - ١٨٦٩)

٤ - خفير ، د . سعاد محمد - الأدب الجزائرى المعاصر - منشورات المكتبة العصرية - صيدا - بيروت ١٩٦٧ - ص : ٢٤

٥ - سلمان ، د . نور - الأدب الجزائرى في رحاب الرفض والتحرير . دار العلم للملايين - بيروت - ط : ١٩٨١ - ص : ٢٩

٦ - غرامشي ، أنطونيو - فكر غرامشي - مختارات / ٢ / دار الفارابي - بيروت ١٩٧٨ - ترجمة : تحسين شيخ علي .
ينظر مقال : تشكل المفكرين ص : ١٥٧ وما بعدها .

7 - Kaddache,Mahfoud - Histoire du nationalisme algerien , questional et politique Algerienne - 1919 - 1951 - tome1 - send - Alger 1980

٨ - الأدب الجزائرى في رحاب الرفض والتحرير - د . نور سلمان (م . س) ص : ٢٧
صرّح الجنرال "جيرار" وزير دفاع لويس فيليب بما يلي : "ان ذلك التصميم على المحافظ على الجزائر يعتمد على أسباب هامة قد تتصل اتصالا وثيقا بالوضع في فرنسا نفسها ، وليس فقط في فرنسا ، بل في أوروبا كلّها . ان وجود سوق جديدة لبضائعنا ولفائض سكاننا ووجود مورد لمنتجات أخرى جديدة غريبة عن أرضنا ومناخنا لهو شيء لا يمكن التغاضي عنه ومن أهميته ، ولم تكن السيطرة على تونس ، اذن ، سوى سبب هام للحفاظ على المستعمرة الكبرى . وللحفاظ على الجزائر ، تلك المستعمرة ؟ يجب أن تتمتع فرنسا بمركز قوى مائم في تونس (" .

9 - Le caurier d'Afrique N°1 et 2: صحيفة نصف اسبوعية ، صدرت في ٢ أفريل ١٨٤٥ بمدينة الجزائر ، وكان شعارها : الجزائر فرنسية - ينظر كذلك : تاريخ الصحافة في الجزائر - الزهير سيف الاسلام ، ش . و . ن . ت - الجزائر - بدون تاريخ ص : ١٠٨ .

10 - Valenci , Lucette : Le Maghreb avant la prise d'Alger (1790 - 1830) - Flammrion - Paris 1969 - P:112 .

11 - Jeanson , Collette et Françis - L'Algerie Hors la loi - le seuil - Paris 1955 - P:29.

12 - La revue Alg.1974 - Numero special sur "Le roman colonial" P.P: 34 - 35 .

13 - Taguia , Mohamed - L'Algerie en guerre .D.P.U. Alge - 1981 .

١٤ - الأزرق ، مغنية - نشوء الطبقات في الجزائر - دار الوحدة - بيروت ١٩٨٢ - ص : ٢٠٤

١٥ - جغلول ، ع. القادر - تاريخ الجزائر الحديث - (م.س) من مقال كتبه : فرانلز سنة ١٨٥٧

16 - 17 - TAGUIA , Med - L'Algerie en guerre - P:20 -- P:20 .

١٨ - نشوء الطبقات في الجزائر - مغنية الأزرق - (م.س) - ص : ١٦٨ .

١٩ - وولف ، ايريك - الحروب الفلاحية في القرن العشرين - ت: أكرم الرافعي - دار الحقيقة بيروت - ١٩٧٧ - ص : ٢٠٩ .

تعليق : بين (١٨٣٥ — ١٨٣٦) أنشئت أول مستوطنة زراعية أوروبية في (بوفاريك) — الجزائر ، وهي أول محاولة لتطبيق مايسمى "بالاستعمار الرسمي" ومعناه أن تتولى الدولة الاستعمارية توزيع الأراضي على المهاجرين الأوروبيين مجانا بعد أن يتم الاستيلاء عليهـــا ونهبها من أصحابها : الأهالي الجزائريين (ت : الزاوى أمين) .

٢٠— نشوء الطبقات في الجزائر (م . س) ص : ١٩٨ .
تعليق : القانون الذى أصدره الجنرال بيجو عام ١٨٤٤ والقاضي بمصادرة أراضي القبائـــل المتمردة (العاصية) مثل تلك التي انضمت الى الأمير عبد القادر .. وبهذا الاسلوب تــم الاستيلاء على معظم الأراضي الزراعية (نصف مليون هكتار) . (ت : ز . أمين) .

٢١— المرجع نفسه : ص : ١٩٨ .

٢٢ — ٢٣ — الحروب الفلاحية في القرن العشرين — (م.س) — ص : ٢١٧ .

٢٤ — كتب أناتول فرانس الكاتب الفرنسي المعروف مايلي : — " .. وهكذا احتفظ الأوروبيون مــن الأجناس الأخرى بأغلبية في الجزائر الى أن تدخلت فرنسا بواسطة التشريع سنة ١٨٨٩ ، فحاولت ادماج الأوروبيين في الجنسية الفرنسية من جهة والحد من الهجرة للعناصر غــــير الفرنسية من جهة أخرى ، ويقضي هذا المرسوم بأن كل مولود أوروبي في الجزائر يحصل علـى الجنسية الفرنسية مالم يطلب عند بلوغ سن الرشد الاحتفاظ بجنسيته الأصلية .
يراجع — صلاح العقاد — المغرب العربي — المكتبة الأنجلو مصرية ١٩٦٦ — ص : ١٤٧

٢٥ — الحروب الفلاحية — ص : ٢١
تعليق : " .. وجد المستشرقون قوة في الشريعة الاسلامية مبررا شرعيا لتأييد هذا القانون ، ففي الفقه الاسلامي أحكام تعرف باسم (احياء الأموات) وبمقتضى هذه الأحكام يجــــوز للسلطان وضع يده على الأرض التي لا تستغل استغلالا كافيا ، وللدولة الاستعمارية الـــتي حلت محل السلطان الحق في وضع يدها على هذه الأملاك .

٢٦ — ٢٧ — ٢٨ — المرجع السابق ص : ٢١٠ — ص : ٣١٣ — ص : ٢٠٦ .

29 - Kaddache , M-Histoire du mationalisme Alg. PP : 34 - 35 .

٣٠ — الحروب الفلاحية — ص : ٢٠٩ .

٣١ — جوليان ، شارل أندرى — افريقيا الشمالية تسير — الدار التونسية للنشر و "سنيد" الجزائر ١٩٧٦ — مترجم — ص : ١٢٩ .

٣٢ — الحروب الفلاحية — ص : ٢٠٧ .

33 - Les Français et les oeuvres indigènes en Alg. Publ. du comiténat.. métropolitain du centenaire en Algerie-Alger-1930-P:100 .

٣٥ — بن أشنهو عبد اللطيف — تكون التخلف في الجزائر محاولة لدراسة حدود التنمية الرأسمالية في الجزائر : ١٨٣٠ — ١٩٦٢ — ش . و . ن . ت — الجزائر ١٩٧٦ — ص : ١٠٦ — ص : ١٠٧ .

٣٦ — فرحات ، عباس — ليل الاستعمار — مطبعة فضالة المغربية — المحمدية — ترجمة : أبو بكر رحال — ص : ٩٥ . ينظر كذلك : تكون التخلف — ص : ١٠٦ .
تعليق : "تعد الفترة مابين (١٨٧١ — ١٨٨١) أنشط فترات الهجرة ، فقد ارتفع عدد المستوطنين من ٢٤٦ ألف الى ٣٧٦ ألف أى بمعدل ١٣٠ ألف سنويا ... فبعد ضـــم الألزاس واللورين الى ألمانيا في معاهدة فرانكفورت ، ترك عدد كبير من سكان هاتـــين المقاطعتين ديارهم ، لأنهم فضلوا أن يعيشوا في ظل النظم الديمقراطية الفرنسية ... فوجدت الحكومة الفرنسية في الجزائر المهجر الطبيعي الذى تستطيع أن تعوض به أهـــل الألزاس واللورين عمّا فقدوه من أملاك ، فنظمت لهم مراكز زراعية ومستوطنات ، وقد رحلت

هذه الأسر الى الجزائر على نفقات الحكومة وقد بلغ عددها ١٠٨٣ أسرة .. واقتطع من جرّاء ذلك دفعة واحدة ...٢٦٣٩٠٠ هكتارا أعطيت لهؤلاء من مجمل ... ألف هكتار "

٣٧ ـ نشوء الطبقات في الجزائر ـ ص : ١٩٨ .

38-Belloula,tayeb-les Algeriens en France-SNED-Alger-1965 - P: 17

٣٩ ـ نشوء الطبقات في الجزائر ـ ص : ١٩٨ .

٤٠ ـ الحروب الفلاحية ـ ص : ٢١٢ .

41-Lacheraf,M. - L'Algerie nation et societé-SNED - 1978 - P:179 .

٤٢ ـ افريقيا الشمالية تسير ـ شارل أندري جوليان ـ ص : ٥٢٧ ـ "ان مدينة الجزائر وحدها ، فقدت أكثر من ٣٠ آلاف نسمة .. " ـ ينظر : ليل الاستعمار ـ فرحات عباس ـ ص : ١٠٠ .

43 - Kaddache -M. L'Algerie nation et societé - P : 52 .

٤٤ ـ الأدب في رحاب .. د . نور السلمان ـ ص : ٣٦ + ٣٧ .

45 - Taguia M. L'Algerie en guerre . P : 21 .

هوامش واحالات : البنية الثقافية الكولونيالية وأجهزتها الأيديولوجية :

١ ـ فرحات عباس ـ ليل الاستعمار ـ حرب الجزائر وثورتها ـ ترجمة أبو بكر رحال ـ مطبعة فضالة المحمدية ـ المغرب ـ من المقدمة .

2 - Turin - Yronne - affrontements culturels dans L'Algerie colonisée (1830 - 1880) B. Maspero Paris 1971 PP:32 - 33 .

ذكر ذلك "كاريت" والي قسنطينة سنة ١٨٥٠ في تقرير رفعه الى الحاكم العام .

3 - La revre Algerienne - P.P: 45 + 46 . ـ عدد خاص بالرواية الكولونيالية

٤ ـ عامل ، مهدي ـ مقدمات نظرية (م.س) ص : ٢٨٧ ـ ٢٨٨ .

5 - La coste, Yves - les sources de la litterature Alg. dans la nouvelle critique - Nomero special: "La culture algerienne"1959.

٦ ـ ليل الاستعمار ـ فرحات عباس ـ ص : ٦٠ ـ وتاريخ الجزائر الحديث الثقافي في جزئين ـ د . أبو القاسم سعد الله ـ سنيد ـ ١٩٧١ .

7 - Hadjeres. Sadek. culture independance et revolution(1880-1980).

٨ ـ سارتر ، جان بول ـ عارنا في الجزائر ـ ترجمة : عائدة سهيل ادريس ـ دار الآداب ص : ٢٢ .

٩ ـ ١٠ ـ ١١ ـ تاريخ الجزائر الحديث ـ دراسة سوسيولوجية ـ ع. جغلول ـ دار الحداثة ١٩٨١ ـ ص : ٧٥ ـ ص : ٧٧ ـ ص : ٧٦ .

١٢ ـ افريقيا الشمالية تسير ـ ش . أ . جوليان ـ ترجمة : مجموعة من المفكرين التونسيين الدار التونسية للنشر و ش . و . ن . ت ـ الجزائر ١٩٧٦ ـ ص : ٥٢ .

١٣ ـ ١٤ ـ محاضرات الموسم الثقافي ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦ ـ وزارة الثقافة ـ سورية ـ ص : ٢١١ ـ ٢١٢ .

15 - Kaddache M. Histoire de Nationalisme - PP : 34 + 35 .

١٦ - محاضرات الموسم الثقافي (م . س) - ص : ٣١٥

voir - Culture, idependance et revolution-Hadjeres P: 30

"كانت هناك شهادة ابتدائية خاصة بالأهالي وشهادة أخرى للأوربيين "

17-18-19 - Culture , idependance ... P: 16 - PP : 26 - 30 - 24

20 - Y. Turnic - Affrontements culturels - PP : 61 + 62 .

٢١ - بيان ١٨٦٧ الذى وقعه ثلاثون شابا مثقفا من ندرومة ينتمون الى عائلات عريقة في المدينة ، من بينهم : محمد بن رحال (١٨٥٧ - ١٩٢٥) .

٢٢ - ٢٣ - ع . جغلول - تاريخ الجزائر الحديث - ص : ٦٣ - ص : ١٠ .

٢٤ - والى ماقبيل الحرب العالمية الثانية ، لم تتحسن الحالة ، اذ من بين ٥٠٠،٠٠٠ طفل يتراوح سنهم بين السادسة والرابعة عشر كان ١١٠،٠٠٠ فقط يجـــدون مقاعدهم في المدارس ، وذلك بعد مايزيد عن قرن من الاستعمار .
انظر : افريقيا الشمالية تسير - ش . أ . جوليان - ص : ٥٥ .

25 - S. Hadjeres - Culture independance et revolution - P : 20 .

٢٦ - نقتطف من أفكار المؤرخين الاستعماريين مايلي : -
يقول الدكتور بوديشون في كتابه "خواطر عن الجزائر" سنة ١٩٤٥ : "لايهم فرنسا أن تخرق في سياستها الاستعمارية المعايير الأخلاقية وقيمها ، ولكن الذى يهمنا قبل كل شيء ، تأسيس مستعمرة نملكها بصفة نهائية وننشر على شواطئها البربريـــة المدنية الأوروبية ، ومن البديهي أن أقصر الطرق لبلوغ غايتنا هو نشر الفزع والرعب . وأن نبلو السكان باستهلاك الكحول ونشر الفساد وبث عقارب النزاع والفوضى بينهم " .
ويقول الكاتب "فاران" في كتابه "هل تصبح الجزائر فرنسية ؟ " : - "يجب علينا أن نستولي شيئا فشيئا ، بدون هوادة ولا شفقة على جميع مواقعهم ومراعيهم ، ونثقل كواهلهم بضرائب مرهقة حتى تتعذر عليهم الحياة ، فلا يجدون مايسدون به رمقهم ، فيصبحون حينئذ بين أمرين لاثالث لهما : اما أن يثوروا واما أن ينخرطوا في جيش فرنسا للدفاع عنها " .
ويقول عالم اجتماعي هو "شارل فورى" : - "يجب أن نبعث الى هناك جماعات ضخمة من الأوروبيين ، ان في استطاعة فرنسا أن تبعث دون أن تنهك قواها أو ترهق نفسها ، بأربعة ملايين نسمة ، ثم تبعث أوروبا ماتبقى .. " .
ويقول المؤرخ والمفكر الاستعمارى (كريتيان) في كتابه "الجزائر الفرنسية" : - اذا اعتصم هؤلاء الأوباش بكهوفهم افعل مافعله كافينياك بقبيلة "الصباحة" ، عليك بخنقهم بالدخان كالثعالب . "
ويقول المؤرخ (فونيتي) في كتابه "تحقيق في كهوف الدهرة" : - "فعندما سدت كل الأماكن التى لاتفلت أية فريسة من قبضته فسد باب الكهف بالبناء على ٥٠٠ عربي منهم عدد كبير من الرجال والأطفال لم ينزل أحد سواى الى الكهف ، ولخصت هذا في تقرير سرى حررته ببساطة ، لابديع فيه ولا شعر ولا عاطفة ، ودفعته الـــى "الماريشال بيجو" على الرغم مما يقوله أصحاب البر والمعروف ، فانني أعتقد بـــأن الغاية تبرر الوسيلة " .
ويقول المؤرخ (روول بيرجو) : - "العربي لايسكن الا الخيمة ، وما قصر الحمراء الا هندسة فارسية " ، ويرى أن العرب في الجزائر هم عنصر غاز متوحش يستحق احتقار كل متحضر .
ومن بين هؤلاء المؤرخين والمثقفين "اندريان بير بروجر" ، أحد علماء عملة الغزو ، كان رئيس تحرير جريدة (المعرن الجزائرى - (le moniteur algerien
أول جريدة استعمارية في الجزائر (يراجع الجزء الخاص بالصحافة) +

وكذلك المؤرخ المنصرى "ليون غلبيير" . ولقد كتب "جورج موريل "في (الاكسبريس
— L'express) ، وكان عضو المنظمة الفاشية في الجزائر ، قائلا : —
"تسألونني هل أومن بالديمقراطية ، أقول لكم بأننا لاتهمنا ديمقراطيتكم ، أما لم
من ديمقراطية ، اننا نتقيؤها ، ألا ترون أين تغضي بنا هذه الديمقراطية ثمانية
ملايين من (الراتون — Ratons) قذرين أميين يتحدثون فرنسا ، ترى ...
ففي حالة الربيع لا يمكن لنا أن نمتطي قطارا لأنه مكتظ بهم ، ولا يمكن أن نسبح في
البحر يوم ١٥ (غشت — Août) لأنه غاص بأولئك العمال المتقمصين بالمدنية ،
انتظروا قليلا حتى نأتي أنا ورفاقي من الجزائر ، ويكون ذلك قريبا ان بقينا موضع سخرية
وازدراء ، وسترون حينئذ ماذا نفعل بديمقراطيتكم . ان بلهاء مثلكم يجدون أنفسهم
يقرأون مايكتبه أولئك "البيكو" (كلمة تقال احتقارا للعرب) " .
وهناك العديد من الأسماء التي ولدت من رحم أكاديميات العلوم الكولونيالية ، وساهمت
فيها بنشاط وفعالية . نذكر منها في الأخير (بايو دو سان مارتان
— Baillon de saint Martin) الذى رشح نفسه للالتحاق بالجيش
الغازى كمؤرخ مكلف بتحرير نشريات الجيش بقيادة العامة — انظر الزبير سيف الاسلام
— تاريخ الصحافة (م . س) ص : ٦ .

٢٧ — افريقيا الشمالية تسير — ش . أ . جوليان — ص : ٥٢ .

28 - S. Hadjeres - Culture, independance - P : 20 .

٢٩ — ستوتي بتول — الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية — رسالة دبلوم الدراسات المعمقة
بجامعة وهران (على الستانسيل) ص : ٢٦ .
— ثم يجيء ، قانون يوليو ١٩٥١ القاضي بتحويل هذه المدارس الى مدارس للتعليم
المزدوج — Bilingue .

٣٠ — تاريخ الجزائر الحديث — ع . جغلول — ص : ٧٨ .

31 - La°coste, yves - les source de la litterature Alg. P: 31 .
سبقت الاشارة الى هذا المرجع — من بيان جامعي لأكاديمية الجزائر عام ١٨٨٧
ص : ٤٧ .
انظر كذلك : — ع . جغلول — تاريخ الجزائر الحديث — ص : ١١١ .

32 - S. Hadjeres - Culture, independance . P : 26 .

٣٣ — الابراهيمي ، أحمد طالب — من تصفية الاستعمار الى الثورة الثقافية ١٩٦٢ —
١٩٧٢ — ش . و . ن . ت الجزائر — ١٩٧٩ — ترجمة : د . حنفي بن عيسى
ص : ٢٦٢ .

٣٤ — الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية — الجزائر — دمشق ١٩٦١ — ص : ١٤ .

٣٥ — وما هي أكاديمية العلوم البربرية (الكولونيالية) تابعة لأكاديميات العلوم الكولونيالية ،
تعود مرة أخرى لاثارة الفوضى في الجزائر وبث روح تفتيت الوحدة الوطنية ، وما
أحداث سنة ١٩٨٠ — ١٩٨١ الآ جزء من مسلسل استعمارى ثقافي — سياسي —
توجهه الرأسمالية الفرنسية والامبريالية العالمية ضد الوحدة الوطنية الجزائرية .

36 - S. Hadjeres - Culture, independance ... P : 22 .

٣٧ — الركيبي ، الدكتور عبد الله خليفة — القصة الجزائرية القصيرة — الدار العربية —
ليبيا — تونس ١٩٧٢ — ص ص : ١٨ — ١٩ .

٣٨ — من رسالة كتبها القائد العام للحملة ، الى الأمير بولينياك ، ذكرها الزبير سيف
الاسلام في كتابه — من تاريخ الصحافة الجزائرية — ص : ١٢ .

هوامش واحالات : ـ الرواية والايديولوجيا الكولونيالية : ـ

1 - Larevue Algerienne .. N° 1 - 1974 .

المجلة الجزائرية عدد : ١ ـ السنة ١٩٧٤ ـ عدد خاص بالرواية الكولونيالية .

٢ ـ عن د . سعاد محمد ـ الأدب الجزائري المعاصر ـ منشورات المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت ١٩٦٧ ـ ص : ١٠٦ .

٣ ـ ٤ ـ ٥ : المجلة الجزائرية ـ العدد السابق ـ ص : ١٢ ـ ص : ١٣ ـ لقد تعرضنا بنوع من التفصيل لهذه النقطة في قسم البنية الثقافية الكولونيالية .

٦ ـ سنشمل البحث في هذا حين الحديث عن الايديولوجية الوطنية وأشكال مواجهة الصراع في الفصل القادم .

٧ ـ ٨ ـ ٩ ـ ١٠ ـ ١١ : المجلة الجزائرية ـ عدد خاص ١٩٧٤ ـ ص : ٢٣ ـ ص : ٢٣ ـ ص : ٢٨ .

١٢ ـ نص خطاب بيجو باللغة الفرنسية " Il faut colonier parceque vous ne pouvez pas conserver en Afrique L'armée qui aurait fait la conquête et qui serait necessaire pour la conserver, sivous n'y avez pas une colonisation puissante vous ne pouvez retirer la plus grande partie de cette armée qu'en établissant en population fortement et Militairement constituée . "

مأخوذة من المجلة الجزائرية العدد الخاص بالرواية الكولونيالية ـ ص : ٢٣ .

13 - A - Tre-phemus: Ferhat instituteur indigène - Alger - 1935 .

١٤ ـ جريدة (التفاهم ـ Entente) المؤرخة ب : ٢٣ فيفري ١٩٣٦ .

١٥ ـ المجلة الجزائرية ـ عدد خاص ـ ص : ٤٧ ـ من نص كلمة الأمير خالد باللغة الفرنسية : veuillez nous excuser si nous nous sommes trompés , si nous avons trop esperé , mais Jamais nous n'avons cessé de considerer que la France , riche pas son commerce et son industrie était encore un grand pays déxportateur d'idée qui ne pourait limiter son liberalisme à son territoire européen .

Si vous n'etiez pas venus à nous , ces ideés de justice de progrés , D'ordre et d'equilibre entre les droits et les devoirs n'auraient peut - être pas Germées si vite enterre africaine Nombreux sont ceux d'entre nous à qui vous avez auvert les yeux "

١٦ ـ علوش ، سعيد ـ الرواية والايديولوجيا في المغرب العربي ـ دار الكلمة ـ بيروت ط : ١ ـ ١٩٨١ ـ ص : ١٧ .

١٧ ـ ان كلمة (BARBARE) تعني المتوحش ، الهمجي ، أما كلمة (Berbère) فتعني العرق أو الأصل (أمازيغ) أي سكان المغرب العربي الأصليين .

١٨ ـ المجلة الجزائرية ـ العدد الخاص ـ ص : ٦٢ ـ ٦٣ .

١٩ ـ استعملنا كلمة " باريس " للتدليل على الصحف التي تصدر داخل فرنسا كلها .

٢٠ ـ ٢١ : المجلة الجزائرية (م . س) ـ ص : ٨٢ ـ ص : ٨٣ .

ب ـ هوامش واحالات : البحث عن شرق جديد
أو : الافرابية (EXOTISME)

1 - Dejeux , Jean - la litterature Algerienne Contemporaine . P.U.F 1979 - PP : 9 - 10 .

2 - DAN, le père - Histoire de Barbarie et de ses corsaires .
يراجع كذلك كتاب سعاد خضر ـ ص : ٩٣ .

3 - Dejeux Jean - la litterature ... P : 10 .

٤ ـ الأدب الجزائرى المعاصر ـ د . سعاد خضر ـ ص : ٩٣ .

٥ ـ كان هناك كتّاب اسبان وانجليز من بينهم الكاتب (دى هايدو) والذى ألف كتابا سمّاه (طوبوغرافيا وتاريخ الجزائر العام) ـ topoghrafia y istoria general de Alger .
والرحالة الانكليزى (M.th. Shaw) الذى ترك كتابا وهو من أهم كتبه تحت عنوان (أسفار (Voyages

٦ ـ الأدب الجزائرى ـ د . سعاد محمد خضر ـ ص : ٩٤ .

٧ ـ ينظر كذلك " الرومانسية في الأدب الأوروبي : بول فان تيغم
وزارة الثقافة السورية ـ (في جزئين) ١٩٨١ ـ ترجمة : صياح الجهيم .
La litterature algerienne ... P : 14 .

٨ ـ ٩ ـ ١٠ ـ ١١ : المرجع السابق ـ ص : ١٤ ـ ص : ١٤ ـ ص : ١٤ ـ ص : ١٦ .

12 - taillard , charles - L'Algerie dans la litterature Française, éssai de Bibliographie Methodique et raisonnée Jusqu' à L'année 1924 . Librairie ancienne Edouard champion 1925 - P:42.

١٣ ـ مثال : رواية (علي الثعلب ـ Ali renard) أو رواية (غزو الجزائر ـ La conquête d'Alger) ـ صدرت هذه الرواية سنة ١٩٣٢ وهي للكاتب (أوزيب دوسيل ـ Euseb de selle) وهي تتناول غزو مدينة الجزائر من قبل الجيش الفرنسي ، وشخصيات الرواية شفافة وأغلبها حقيقية ، والرواية تمزج المحاولة بالدعب على غرار الرواية الرومانتية التي كانت في أوج انتشارها في أوروبا وفي الأدب الفرنسي خاصة .
voir : L'Algerie dans la litterature Française . ch. taillard - P : 60 .

ينظر كذلك : الرومانسية في الأدب الأوروبي ـ فان تيغم .

١٤ ـ ١٥ : المرجع السابق ـ ص : ٤٤ .

١٦ ـ اذكر من الروايات التي تناولت هذه الحالة بصورة واضحة : (بلد العطش ـ Pays de la soif) ـ ١٨٦١ (بلد الخوف Pays de la peur) ١٨٦٢ ـ للروائي (أ . دو كوند روكور ـ A. de Gondrecourt)

١٧ ـ اذكر من بين الروايات التي تناولت هذه الحالة بصورة واضحة ومكشوفة :
أ ـ (عصابة الجزائريين ـ Bandits Algeriens) لفانسان أوت ـ vincent Huet) صدرت عام ١٨٩٨ .
ب ـ (قطاع الطرق ـ Les coupeurs de route) صدرت عام ١٨٦٦ .

١٨ ـ افريقيا الشمالية تسير ـ ش . أ . جوليان ـ ص : ٤٤

19 - Contes drolatique Algeriens - Michel Jice - 1895 .

٢٠ - صدرت رواية (زوجة العربي — La Femme d'el ARABI) للكاتـــب (أرمون صولينياك — ARMAND Solignac) سنة ١٨٥٦ :
تتناول الرواية وضعية أحد الفرنسيين المسيحيين الذين كانوا يسكنون الجزائر ابان الغزو، وترحيبه البالغ بالضباط الفرنسيين في الجزائر — أرضهم .. ويقدم لهم معلومات عـــن ناحية وهران ، تفيدهم في احكام الحصار على الأهالي ، وتكشف في الوقت نفسه عـــن موقف استعماري ، أن هذه الأرض حين دخلها الضباط الفرنسيون الشجعان .. لـــم يقوموا سوى باعادة قطعة أرض الى أمها فرنسا وأبنائها الروم .

21 - L'Algerie dans la litterature Française - P : 61 .

22 - Ibid - P : 61 - (Dernières armes de voligeur " DUMIROIR "
(آخر أسلحة الجندى —
رواية ثانية للكاتب " صولينياك ، تعكس التوجه نفسه الذى سارت عليه روايته السابقـــة (زوجة العربي) — صدرت عام ١٨٦٣ .

23 - L'Algerie dans la litterature Française - P : 42 .

٢٤ — آ — رواية : (الطوارق — Touareg) للكاتب (ألبير فيرمي — A. Fermé)
صدرت عام ١٨٩٥ ضمن مجموعة قصصية بعنوان (ثقب الرحى Le trou du moulin)
— تتناول رواية (زوجة القائد — La femme du caïd) للكاتـــــب (أ. بيرتي — A. Berthet) الصادرة عام ١٨٦٠ ، في مقاطع كثيرة ، الحديث عن معركة ايسلي الشهيرة ومقاومة الجيوش الفرنسية الباسلة للقبائل الخارجة عن القانـــون والتي انضوت تحت قيادة " بوحمزة " الزعيم الجزائرى .

٢٥ — رواية (جوليت وعائشة — Julliette et Aïcha) للكاتـــــب (أ. فيلا كروس — A. Villacrosse) صدرت عام ١٨٧٦ .

26 - La revue Algerienne (سبقت الاشارة اليه)

٢٧ — من الروايات التي تناولت انتفاضة الفلاحين ١٨٧١ التاريخية التي قادها " المقراني " ومن بعده " حداد " ، التي كانت ذات محتوى اجتماعي عميق ، اذ أكدت بالفعل أزمة البورجوازية الفرنسية وتناقضاتها وبداية انتكاسها وصعود البروليتاريا والفلاحين الى الصراع الاجتماعي التاريخي كقوة أساسية صدامية ، هي :
A) Julliette et Aicha - Villacrosse - 1876
B) Scouvenirs d'un colon 1881 (مذكرات معمر) ... Lellu (ب . ليلو ...
تتبع الرواية الأخيرة من خلال مذكرات أحد المعمرين الحياة العسكرية في الجزائر ، وكذا الوقوف عند وصف الصحراء وجمالها .. وتتعرض الى حياة الكولون أى الطبقة البورجوازية الزراعية الكولونيالية ، فتدخل الى طرح همومها اليومية ، ثم تطرح " الشغب " و " سوء الأخلاق " و " التخلف " الذى هو من صفات الأهالي الذين قادوا انتفاضة ١٨٧١ ، والتي هي كما يرى الكاتب تعكير للجو العام الذى تعيش فيه البلاد (تحت تغييـــــ الجزائر — ١٨٧١ —

c) Sous les Palmiers d'Algerie- EDGAR la selve(Bônne عنابـــة)
تتناول هذه المجموعة من الحكايا التي يربطها خيط واحد ، وقوف باخرة على شاطئ مدينة " عنابة " (Bônne سابقا) وعلى متنها مجموعة من الرجال المصابين بوباء الكوليرا ، أغلبيتهم من الجزائريين . والحقيقة أن الكوليرا في الرواية ماهي الا " وباء " الانتفاضة .. يبرنا الكاتب شيئا فشيئا ليبدأ في الحديث عن وباء ثورة ١٨٧١ الفلاحية . ويوضع أولئك المحجوزين في الباخرة تحت الاقامة المشددة ، خوفا من انتشار الوبـــاء ، مدة ثلاثة أيام .

١٨٦٧ (هـ. لورو ـ Hugurs leroux) ـ (سيد الساعة ـ heure D)(le maître de l'
وهي عن حياة زعيم انتفاضة ١٨٧١ الشيخ محمد المقراني .

٢٨ ـ يقول الجنرال (أوجين دوماس ـ Eugène Dumas) وهو مستشار للدولة الفرنسية ومدير شؤون الجزائر المستعمرة في كتابه الصادر عام ١٨٨٥ بعنوان (تقاليد وأعراف جزائرية ـ Moeurs et coutumes Algeriennes) مايلي : ـ "لم تحتل مدينة "جزائرية" ولم تقم معركة ولم يحدث حدث مهم الا وأنشده بعض الشعراء الجزائريين" .
انها شهادة واضحة لجنرال فرنسي يعترف فيها بالدور الذى لعبه الشعر الجزائري منذ بداية الغزو الفرنسي للجزائر .
ينظر كتاب : الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير ـ د. نور السلمان ـ ص : ١٨٥ وما بعدها (م. س) .

29 - (Le secret du bontieur (سر السعادة ـ
(BRNEST Feyjeau ١٨٦٤ (ارنست فايدو ـ

30 - L'Algerie dans la litterature Française p : 43 .

31 - (Le colon d'Algerie - (معمر الجزائر ـ
(EliB Berthet ١٨٧٢ (ايلي بيرتي ـ
تناولت رواية "معمر الجزائر" هذه وصفا لحياة المعمرين في ضيعاتهم ومزارعهم الجميلة والسعية ، والصالونات الفرنسية الجديدة التي بدأت تنشأ في المستعمرة بعد استقرار الوضع في الجزائر وبداية الاستثمارات الرأسمالية الكولونيالية ، وفي الوقت نفسه يبين الكاتب ذلك الخوف الذى يجتاح المعمرين "الطيبين" من جراء عيشهم في محيط يتكون من هؤلاء الأهالي الفلاحين الشرسين ، خاصة وأن الرواية كتبت في مرحلة حرجة اقتصاديا مرت بها المستعمرة وهي فترة القحط مابين ١٨٦٦ ـ ١٨٧٠ .
Voir aussi - L'Algerie dans la litterature Française p:30 .

٣٢ ـ رواية (رواية مستصلح الأرض ـ Le roman d'un defricheur) للكاتب (ليون بيني ـ LBON Beynet) صدرت عام ١٨٦٢ رواية ترسم "المعاناة" والنقال "الذى خاضه المعمرون الأوروبيون "لخدمة" الجزائر . ضد قساوة الطبيعة وقساوة البشر !! ونلاحظ في الوقت نفسه ، من خلال علاقة حب بين ابنة المعمر وأحد الضباط الارستقراطيين ، الارتباط الوثيق والمصير الواحد الذى يجمع الكولون (الجهاز القمعي الاستغلالي الاقتصادي) بالجهاز القمعي العسكرى عن طريق العشق والحب .
للكاتب الروائي رواية أخرى بعنوان (مآسي الصحراء ـ Les drames du desert) ١٨٦٦ ، تتناول حياة الأهالي الجزائريين على الحدود الجزائرية المغربية ، الا أن الكاتب رغم محاولته رسم عادات وتقاليد هؤلاء الأهالي الا أنه في الأخير جعل هؤلاء الأهالي يتكلمون بمنطقهم ، وأوجد ناهم يتحدثون كفرنسيين .
Voir : L'Algerie dans la litt. Françaiee - P : 32 .

33 - Journal d'un colon - E. De launay du DBZBN 1891 -
يوميات معمر ـ دولوناى دو دوبزن ١٨٩١

34 - Aventure d'un Jeune officier en AFrique - Adolphe Pecatier 1864 .
تتناول هذه الرواية موت أحد الضباط الفرنسيين حين غادر الثكنة في مهمة "شريفة" وانسانية "اذ ذهب ليخلص أحد اخوانه المعمرين وابنته اللذين تعرضا لهجوم من قبل الأهالي الهمجيين الشرسين !!
Voir : L'Algeri dans la litt. FRAN. P : 52 .

35 - (Les Femmes d'Alger نساء الجزائر) (Lucie MAX لوسي ماكس)
نلاحظ أن هذه الكاتبة بقيت على السطح في طريقة تناولها لموضوع المرأة الجزائرية ، ولم تكن هذه المرأة في واقع الأمر سوى ديكورا . وكثير ما نجدها تتحدث بمنطق المرأة الفرنسية وهذا دليل على أن الكتاب ومنهم "لوسي ماكس" صاحبة الرواية هذه : لم يتمكنوا من فهم واقع المرأة الجزائرية وظلوا بعيدين عنها .
يقول (شارل طايلار Ch. Taillard) عن الرواية في كتابه :
(L'Alg. dans la litt. Fran.) مايلي :
" On ne sait pas éxactement qu'elle femmes d'Alger L'auteur a voulu presenter, europeennes ou indigènes " - P : 52 .

37 - a) le colon-A.G. Mallessart 1845
b) les seCrets des robes maurices (Ary le blons) 1904 .
يقول شارل طايلار عن الرواية : " Ceux qui sont Algeriens N'agissent pas et ne parlent pas en tant qu' algeriens "
ويقول شارل طايلار في (م٠ س) ص : ٥٠ = " Ni Alger, ni L'Algerie n'y sont étudiées dans leurs moeurs et dans leur nature " .

38 - a) la main gauche =guy de Maupassant(Allouma) هي مجموعة قصصية صدرت عام ١٨٨٩ ، فيها قصة "علومة" : تتناول ماأشرنا اليه داخل البحث .
b) MBRYBM : Camille Perier 1863 -
تتناول هذه الرواية ، وقائع من قصة حب بين فتاة صحراوية وأحد الضباط الفرنسيين الذي أشرف على تربيتها ، ثم تهرب هذه الفتاة الى الصحراء بحثا عن حياة وسط الأهالي الصحراويين الا انها لاتستطيع ذلك "لتخلفهم ودناءتهم" !!! فتعود لتتزوج من الضابط الفرنسي الا أنها تقتل على يد أحد عشاقها الصحراويين . هذه القصة قريبة في اشكالياتها من قصة (موباسان) السابقة .

39 - L'Algerie dans la litterature Française - P : 52 .

40 - trois dames de la kasba - pierre loti - 1884 .

41 - La litterature Algerienne - J. Dejeux - P : 14

هوامش واحالات : — التيار الجزائرياني (Algerianiste)
========== — "الاستقلال الجمالي"

١ — من هؤلاء الباحثين الذين اعتبروا الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية غير جزائري : د . ع . المالك مرتاض ، د . عثمان سعدي . ولم تكن لديهم أية حجة في ذلك سوى أنه مكتوب بلغة غير اللغة العربية ، ولم يراعوا الظروف التاريخية التي كانت تمر بها المستعمرة ، والحصار الذي كان مضروبا على التعليم باللغة العربية . سيجيء الحديث عن هذا الموضوع في فصل قادم .

2 - Merad. GHANI - la litt. Alg. déxpression Fran. P. OSWALD - Paris 1976 - PP : 25 - 26 - 27 - 28 .

٣ — غرامشي : تأليف أنطونيو بوزوليني — ترجمة : سعيد كرم — المؤسسة العربية للدراسات والنشر — بيروت — ط : ١ — ديسمبر ١٩٧٧ — ص ص : ١٨٥ — ١٨٦ .

4 - 5 : GHANI - Merad - PP : 25 - 28 . PP : 25 - 28 .

6 - Delamri Rabah - L'oeuvre de louis Bertrand (Miroir de l'ideologie colonialiste. O.P.U. 1980 - PP : 2 - 3 - 4 .

لويس برتراند : كاتب روائي كولونيالي (١٨٦٦ — ١٩٤١) عاش فترة كبيرة في الجزائر وهو عضو الأكاديمية الفرنسية وصاحب المقولة الاستعمارية الشهيرة عن تمجيد دخول الجيش الفرنسي الغازي : — انهم ، وهم يدخلون افريقيا لم يفعلوا شيئا سوى استعادة ولاية كانت قد فقدت منذ العصر الروماني ، وانهم كورثة يستعيدون حقوقهم ضد الاسلام". وقد لعب لويس برتراند دورا كبيرا في نشر الايديولوجيا الكولونيالية داخل المثقفين خاصة، والتنظير لها .

٧ — تكون التخلف في الجزائر — عبد اللطيف بن اشنهو (م . س) — ص : ١١٠ .

٨ — ٩ : المرجع نفسه — ص : ٢٢٣ — ٢٢٢ .

10 - La revue Algerienne - N° Special sur le roman colonial 1974 - PP : 101 + 102 .

١١ — صورة المستعمر والمستعمر — ألبير ميمي — تقديم : جان بول سارتر — ترجمة : جيروم شاهين — دار الحقيقة — ط : ١ — تموز ١٩٨٠ — ص : ٣٨ .

12 - (Bugene Fromentin - أوجين فرومنتان) 1820 - 1876 . a)" un été dans le sahara"1857. b)"une année dans le SAHEL" 1858 .

13 - GHANI MERAD - la litt ... PP: 25 - 28 .

١٤ — ان أهم الأعمال الروائية للويس برتراند ، هما الروايتان التاليتان : (دم الأعـراق — le sang des races) ويمكن تلخيص أحداث الرواية كما يلي : "يتتبع الروائي حياة بطل رئيسي هو رفائيل من أصل اسباني يعمل حوذيا في "باب الوادي" احدى ضواحي العاصمة يكثر فيها الدهماء ويزدحم الخلق من الاسبان خاصة . ومن خلال البطل رافائيل نعرف حياة هذه الأسر الأوروبية وفصولا من حبها داخل العاصمة الجزائر أو في "المدية" . ويصور لنا لويس برتراند المصاعب التي يتلقاها رافائيل في هذه المهنة، التي تفرض عليه التنقل راجلا من العاصمة حتى "الأغواط" ، ومنها الى "غرداية" "يسوق أغناما . . . "وتكثر في الرواية المطاردات ذات الطابع العنصرى العرقي والمناقشات والجدل الذي يخفي خلفه آراء الكاتب العنصرية الاستعمارية — أما الرواية الثانية فهي (السينا — la Cina) — وتتناول في اطارها العام قصة حب بين (فليسيان Felicienne والشاب ميشال بوترى — Michel Botteri) يجتاز العاشقان أزمة بين أزمة المنافسات الانتخابية ، اذ ينافس ميشال أحد الشباب المتحمسين واسمه (كارميلو — Carmelo) وفي جو هذه المنافسات ينتقل ميشال وعشيقته الى الشاطىء الجميل القريب من العاصمة (تيبازا — TIPAZA) حيث يملك مساحة أرض واسعة . وتكثر في الرواية شخصيات تحيط بالعاشقين من اسبان ومالطيين ويهود وايطاليين .
وتكشف خلفية الرواية من موقف استعماري ، طبعا ، التفريق الذى مارسه الاستعمار داخل الشعب الجزائرى ، حين أعطى حقوق المواطنة لليهود واستخدمهم لحماية مصالحه في الجزائر ضد مصالح الشعب الجزائرى نفسه — واقتطف من الرواية هذه الفقرة للتدليل على خلفية الكاتب الاستغلالية العنصرية : —
" . . فالعمال لم يعودوا يعرفون كيف يعيشون ، لقد أفسدتهم الحياة السيئاة للسنوات الثلاثين الأخيرة عندما بدأت المستعمرة تعطي وتبني اقتصادها وثقافتها ، اذ أصبحوا يحصلون على مايريدونه ، تماما مثل رجالات الأعمال " .
voir : la revue Algerienne N° S. le roman colonial

15 - L'oeuvre de Louis Bertrand - Belamri RABAH .

١٧ — أهم أعمال روبير راندو : (١٨٧٣ — ١٩٥٠)
آ — (المعمرون — les colons) سنة ١٩٠٧ .
ب — (الجزائريانيون — les Algerianistes) سنة ١٩١١ .

جـ — (كاسار البربري — Cassard le berbère) سنة ١٩٢١

د — (الاستاذ مارتان — le Professeur Martin) سنة ١٩٢٦

هـ — (في أرياف الحديقة — Dans les campagnes du Jardin) سنة ١٩٣٣

١٨ — الرواية الجزائرية ذات التعبير الفرنسي ١٩٤٥ — ١٩٦٢ — ستوتي باتول (غير مطبوعة) (م . س) .

١٩ — من كتاب هذا الاتجاه (ايزابيل ابيرار — Esabelle Eberhardt) (١٨٧٧ — ١٩٢٤) — من مؤلفاتها :

آ — (في الظل الدافيء للاسلام — Dans L'ombre chaude de l'islame) ١٩٠٦ .

ب — قصص جزائرية — (Nouvelles Algeriennes — ١٩٠٥

جـ — ملاحظات سيرة — (Notes de route — ١٩٠٨

د — المياوسون — les Journaliers . وسنتعرض لها في فقرة خاصة من خلال روايتها : (التسكع — Trimadeur)

20 - Isabelle Eberhardt - trimadeur -

ومن كتاب هذا الاتجاه كذلك (هنري دي مونتيرلان — Henri de Monterlant — 1935 (il ya encor du paradis)

(وردة الصحراء — la rose de sable) ١٩٣٢ — ظهرت كاملة عام ١٩٦٨ .

٢١ — أقصد الاتجاه السياسي الليبرالي الذي كانت تمثله أحسن تمثيل (حركة الجزائر الفتاة — les Jeunes Algeriens)

٢٢ — مثال رواية (فرحات المعلم الأهلي — Ferhat instituteur indigène)

لـ (ألبير تريانفوموس — Albert trimphemus) ١٩٣٥

وللكاتب كذلك (فندق سرسو — Hotel de sersou) ١٩٦٥ .

وأذكر روايتي (روني دي كارتالا — René de Carthala)

آ — (حديقة السهول العليا — Le Jardin des Hautes plaines) 1945

ب — (احمرار المساء — Rouge le soir) 1955

23 - Revue Algerienne - N° Special - P : 91 .

٢٤ — نص الفقرة بالفرنسية كما وردت في المقدمة : —

" On a été Frappé, avant toute chose de la similitude parfaite qui existe entre L'afrique du Nord et les autres regions Mediterraniènnes " .

25 - La revue Algerienne N° special.

26 - CHANI MBRAD - PP : 25 - 28 .

27 - Dejeux Jean - la litt. Alg. contemporaine - P : 32 .

28 - La revue Algerienne - N° S.

29 - Dejeux Jean - La litt. Alg. Contem. P : 29 .

٣٠ — صدرت هذه المجموعة عام ١٩٠٦ بعنوان (المنتخبات الجزائرية — Antologie Algerienne) شارك فيها كل من الشعراء :

(راؤول جينيلا — RAOUL GENELLA)

(ألبيرتروست — ALBERT TRUSTE)

(ادموند غويو — EDMOND GOYOU)

(ليولو — LEOLOUPS) ... الخ .

وفي سنة ١٩٢٠ صدرت مجموعة شعرية أخرى أشرف على جمعها (لويس لوكــــــوك — Louis Lecoq) ١٨٨٥ — ١٩٣٢ — وقدم لها (روبير راندو Robert Randau) ١٨٧٣ — ١٩٥٠ ضمت ١٣ شاعرا وهي ذات أهمية تفوق أهمية المجموعة الأولى .

31 - 32 : Dejeux, Jean - la litt. Algerienne - P : 29 .

33 - 34 : Ibid - P : 31 - P : 31 .

35 - Dejeux Jean - Situation de la litterature Magh. de L. Franc. Appreche Historique , approche critique 1920 - 1978 - O.P.U Alger. 1982 - P : 10 .

٣٧ — الركيبي ، د . عبد الله — القصة القصيرة — ص : ٢٤٣ — ٢٤٤ .

38 - Memmi Albert - Anthologie des écrivains Meghrebine - 2éme édit - PP : 12 - 14 .

39 - GHANI . MERAD - PP : 25 - 28 .

٤٠ — رواية (خضراء ، راقصة أولاد نايل Khadra la danseuse de auled Nqil) للكاتب (اتيان ديني Etiènne dinet)
ولد بباريس في ٢٨ مارس ١٨٦١ — أسلم عام ١٩١٣ واتخذ له اسما هو (نصر الدين) سنة ١٩٢٦ توفي بباريس سنة ٢٤ ديسمبر ١٩٢٩ — عاش جل حياته بين مدينــة بوسعادة والأغواط وكان رساما من المدرسة الرومانتية تأثر في لوحاته كثيرا بالمنا‍ــــــر الطبيعية في المناطق التي عاش بها .

41 - L'Algerie dans la littèrature Franc. P :41 -(taillard.ch.)

٤٢ — الرواية الجزائرية ذات التعبير الفرنسي . بتول ستوتي — ص ص : ١٠ — ١١ .

٤٣ — العدد الخاص — ص : ١٨٤ La revue Algerienne (م ١٩٣٠)

٤٤ — نراجع للفصول الأولى من هذا المبحث حول الجهاز الاعلامي الكولونيالي .

45 - Taillard. ch. - L'Algerie dane la litt. Française ... p:

٤٦ — اعتمدنا في تلخيص الرواية على :
آ — العدد الخاص بالرواية الكولونيالية .
ب — l'Algerie dans la litt . Franc.

٤٧ — العدد الخاص بالرواية ... (La revue Algerienne) (سبقت الاشارة إليه)

٤٨ — ٤٩ : الأدب الجزائري المعاصر — د . سعاد خضر — ص : ١٠٣ — ص : ١٠٣

50 - L'oeuvre de louis Bertrand - B. Rabah.

هوامش واحالات : (مدرسة الجزائر — L'ècole d'Alger)

1 - GHANI, MERAD - PP : 25 - 28 .

2 - Dejeux, Jean. la litterature Alg. P : 35

3 - Camus, Albert - Carnets 1962 - 1964 - Volume 1 - P : 32 .

٤ — ٥ — ٦ : المرجع السابق — ص : ٦٢ — ص : ١٦٥ — ص : ٢٠٢ .

7 - 8 : Camus , Albert - carnets 1962 - 1964 volume 2 -P:27 - P : 57 .

9-10-11-12: Ibid - PP : 73 - 290 - 303 - 344 - 345 .

١٣ - غابرييل أوديسبو كان صديقا لتيار الجزائريانيين ، نال الجائزة الأدبية عام ١٩٢٥ عن كتابه : -
(trois hommes et un minaret)
(ثلاثة رجال ومنارة -

14 - Dejeux. J - la litterature Algerienne ... P : 36

15-16: la revue Algerienne - Numero special - le roman colonial .

17 - Ghani MERAD - PP: 25 - 28 .

18 - Memmi Albert - Anthologie ... P : 38 .

19 - Dejeux. J. la litt. Alg.. P : 38

٢٠ - د . سعاد خضر - الأدب الجزائري المعاصر - ص : ١٥٣ .

21 - J. Dejeux - la litt. Alg... P : 43 .

22 - Djeghloul - A.E.K. - 8 études sur l'Algerie - cahiers de C.D.S.H. N° 7 - 1981 - ORAN - PP : 150 + 151 .

٢٣ - تكون التخلف في الجزائر - عبد اللطيف بن اشنهو - ص : ٢٩٢ .

24 - Memmi Albert - Anthologie .. PP : 11 + 12 .

25 - La revue Algerienne - N° Spec .

٢٦ - د . سعاد خضر - الأدب الجزائري المعاصر - ص : ١١١ .

٢٧ - تعتبر المقالات الصحفية التي كتبها ألبير كامو من منطقة القبائل ونشرها في Alger + Republicain) ذات أهمية بالغة في فهم الوضع الاجتماعي الذي تعيشه هذه المنطقة ، وربما يعود السبب في ذلك الى توجه الجريدة نفسه ، وبذلك تعد مقالاته الصحفية أهم من كتاباته الابداعية من ناحية مضامينها وموقعها السياسي .

٢٨ - كامو ، ألبير - الطاعون - ترجمة : د . كوثر عبد السلام البحيري - مراجعة : محمد القصاص وزارة الثقافة والارشاد القومي - مصر - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - ص : ٣ .

٢٩ - ابراين ، كونر كروز : ألبير كامو - ترجمة : عدنان كيالي - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - ط : ١ - أيار ١٩٧٢ .

٣٠ - يراجع :
آ - تكون التخلف في الجزائر - بن اشنهو - ص : ٢١٣ .
ب - يقول ستوتي : الرواية الجزائرية (م . س) ص ص : ٦ + ١٠ + ١١ .
ج - الموقف الأدبي (مجلة) ع : ٨٢ - ١٩٧٨ .

٣١ - العدد الخاص - بالرواية الكولونيالية - la revue Algerienne

٣٢ - الحروب الفلاحية في القرن العشرين - ص : ٢١٧ .

٣٣ - صورة المستعمر والمستعمر - ألبير ميمي - ص : ٣٥ - ٣٦ .

٣٤ - ٣٥ : ألبير كامو - كونر كروزا وبراين - ص : ١٤١ - ص : ٧
كنا نرغب في دراسة ألبير كامو دراسة مفصلة الا أننا وجدنا ذلك يبعدنا عن جوهر بحثنا .

36 - Dejeux. J. situation de la litt. Magh. PP:190 - 191 .

37 - Dejeux.J. La Litt Alg... P : 49 .

38 - Dejeux . J. Situation ...

PP : 187 - 189 - 190 .

٤٠ ــ من أمثال ماري أديب ، آن لوريش ، بيير لوسكور ، بن سوسان وغيرهم .

41 - 42: Dejeux,J. la litt. Alg... P : 49 - P : 50 .

43 - A) Dejeux. J. - Situation PP:190 + 191

b) bibliographie methodque de la litt . Alg. de L. Franc. 1945 - 1977 - PP : 4 - 8 - 49 - 50 .

٤٤ ــ من نص كلمة (ر. بكرى ــ R. BAKRI) وهو من عائلة يهودية غنية كانت على علاقة متينة بالاستعمار ــ لمقدمة سلسلة :(et Alors / et voilà)

Cette collection je la redige parceque L'Algerie de papa , elle est morte , que moi je suis son fils et que les fils Yz'ont le devoir au nom du père d'evoquer la carrière au nos ainés y seront plus , et deuxième complet retrouver la poussière et la trace de leur vertu à tous ceux qui z'ont fait L'Algerie de debarquement de sidi ferruch à tamanrasset

(ملاحظة : النص بالفرنسية منقول حرفيا)

" ... اني أكتب هذه السلسلة ، لأن جزائر أبي ماتت ، وأنا خلفه ، وعلى الخلف واجب نحو الأب واقتفاء السبيل الذى سار عليه أسلافنا . وأما الهدف الثاني فهو استعادة أثر أولئك الذين نزلوا بالجزائر من (سيدى فرج) حتى (تمنراست) ... " .

القسم الثاني

ـ الرواية الجزائرية المكتوبة

بالفرنسية قبل الاستقلال

===========

.../...

تيارات الحقل الايديولوجي الوطني وأثرها على نمو وتطور الرواية الوطنية

============

========

======

====

==

لا يمكن فهم وفك رموز الرواية الوطنية . . من حيث ولادتها وتطورها كمنعطف تاريخي مع نهاية الحرب الكونية الثانية . ولا فك رموز نصها وخطابها الادبي ونسقها الجمالي من حيث كونها معادلة فنيا ، الا اذا كنا نملك روية صلبة وواضحة لحقل الايديولوجيا الوطنية ، التي بدأت تنمو بسرعة في صراعها مع الايديولوجيا الكولونيالية (صراع الوجود والنقيض) من جهة ، وفي صراعها الداخلي ، كون هذه الايديولوجيا ـ في حد ذاتها ـ غير متناسقة ، اذ تنشط في داخلها نزعات وتوجهات تتناقض وتتقاطع .

ان الادب من حيث هو خطاب اجتماعي وسياسي ونص جمالي ابداعي . . يحقق الايديولوجيا ويعريها . . فالايديولوجيا الادبية تعرى الايديولوجيا الوطنية ، داخل النص الابداعي ، مجسدة في جملة من رموز الحياة وعناصرها التي هي : الانسان ، الابطال ، المكان ، الحبكة ، الزمن ، . . . الخ .

منطلقا من هذه الخلفية ، وجدنا من الضرورة المنهجية ، قبل كل شيء تحديد نمو وتطور وتفرع وتفرخ الايديولوجيا الوطنية التي هي فلسفة وتصور الآخر (المستعمر) في الحياة وروءيته وحلمه وتقييمه لعناصر الواقع في صراعها وسكونها . . هذه الرؤية او التصور الباحث دائما عن دحض روءية " الأنا " التي هي (المستعمر) ـ المستوطن الذى يملك سلطة سياسية واقتصادية على اجهزة ايديولوجية متطورة تنتج بوصفها روءيته للحياة والمجتمع والناس حسب التطور المنطقي للاستعمار .

ان البحث عن ايديولوجيا وطنية ، هو جوهر البحث عن الموقع التاريخي ـ الثقافي ـ السياسي ـ الحضارى للاخر (المستعمر) وهو جزء من قوة الرفض والامكان التي يملكها هذا (الاخر) للرد ، وكذا لتثبيت الوجود ، وتحديد ملامح واقع تاريخي وحضاري شاط ، ... في الوقت تكذيب وتفنيد للايديولوجيا الكولونيالية .

ان الايديولوجية الوطنية هي تشييد جماعي قام به المثقفون العضويون للشعب الجزائرى بكل فئاته : بورجوازية (صغيرة ـ متوسطة ـ كبيرة) والطليعة من ابناء الفلاحين الكادحين ، وكذا طليعة العمال في المهجر . . . والمثقفون التقليديون المحافظون . . لقد قاموا جميعا بما يسميه غرامشي بالاصلاح ـ الثقافي ـ الاخلاقي داخل اجهزة سياسية وثقافية وايديولوجية سادت وتواجدت داخل المجتمع المدني والسياسي الجزائرى المستعمر . (١)

ان الايديولوجيا الوطنية جاءت لتحدد طبيعة وحدود العلاقة مع الأنا "المستعمر، في اطار تطور بنيات هذا الجهاز الاستعماري اقتصاديا وسياسيا وثقافيا : وهي في ذات الوقت جاءت نتيجة وجوابا لتطور مستوى الصراع الذي تخوضه الفئات المستعمرة من الامة الكادحة او المكدحة ضد ترسانة الاسلحة الايديولوجية والاقتصادية والقمعية العسكرية المتطورة للنظام الكولونيالي ضد استقرار هذا النظام في هذه المستعمرة . ونضج هذا الصراع وتطوره كان يتحقق عبر اشكال مختلفة : تنظيمات سياسية تقليدية او عصرية او عبر خطابات ايديولوجية (مواثيق ، بيانات) ... الخ) او فنية (الرواية نموذجا) .

وقام الوضع الاستعماري بصورة طبيعية ، على ترسانته القمعية واجهزة العنف التي لها " الحق " الاعلى في التدخل في كل لحظة لتنصيب الوجود الاستعماري وترسيخه ... ولتنظيم المستلزمات السياسية للسيطرة . وتتعدد اشكال الاستثمار المباشر او غير المباشر للجماهير الفقيرة ، اذ يشغل العنف باشكاله المتعددة مكانا حاسما في هذه السيرورة .. فيغدو داخل بنيات استعمارية استيطانية مؤسسة ذات رسالة محددة !! فيعمل جاهدا في سيرورة تفكك العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية السابقة وانشاء علاقات اخرى جديدة ، ويعتمد في تحقيق اهدافه على الايديولوجيا الكولونيالية لتحجيم حركة السيرورات الاجتماعية .
يقول الجنرال بيجو :

" قبل ان يتمكن المستوطنون من ان يطلبوا من الارض الزيت والقطن والتبغ والحرير .. وغيرها ، وقبل ان يتمكن العربي من ان يعطي الهنا : الزيت والجلود والحبوب والمواشي والشموع والترمز والاصواف وغيرها من منتجات الجزائر الداخلية يجب ان تتم السيطرة بواسطة القوة وان تصان بواسطة السياسة " (٢) .

ان قراءة هذا النص في اطاره التاريخي ، ومن خلال طبيعة بنية الهرم الكولونيالي اقتصاديا وسياسيا وحضاريا ، تكشف الطبيعة الهمجية الاستغلالية لرأس المال الكولونيالي وتكالبه من اجل الربح والوجود حضاريا عن طريق الدائس كل القيم الانسانية .. موظفا الجهاز القمعي المتطور ، نقطة مركزية ورئيسية في تحقيق سياسته .

ان هذه الاطروحة السياسية التي يقدمها نص الجنرال بيجو في منتصف القرن التاسع عشر ، بقيت في جوهرها قائمة حتى آخر نفس للاستعمار في المستوطنة المغلوبة

على امرها (الجزائر) ،على الرغم من اختلاف الشكل الذى تتلبسه وتختفي فيه حسب طبيعة الظرف التاريخي ، وتبعا لتطور البنيات الاجتماعية ، وتطور الوعي الاجتماعي العام .

* فالاستعمار مثل الافعى اذا لم يغير جلده يموت ! !

ان وضعية القمع والتفقير والتكديح الجماعي التي هي سمة من سمات الاستعمار وواحدة من خصائصه الاساسية التي يقوم عليها وجوده ، والتي تحفظ كيانه وتحقق موارده الاقتصادية والسياسية ، وان هذه " الخاصة " الاساسية التي يبنى عليها ويعظم فوقها في نهاية الامر ، اذ ان وضعية القمع والقهر والتفقير تفرز موضوعيا واوتوماتيكيا وعيا مضادا هو وعي المستعمر المستقل المقهور .

نتيجة لذلك فان كل وعي وطني ، تحدده وتعمقه وتشحذه عوامل داخلية وعالمية ولذا فقد ساهمت في بلورة الوعي الوطني جملة من الظروف يمكن تلخيصها فيما يلي .

١- كل وعي وطني هو نتيجة موضوعية وتاريخية للعلاقات الكولونيالية الجائرة والقامعة ، وللممارسات الطبقية لبنيات النظام عبر كل مراحله التاريخية (في ازدهاره وازمته) خلال القرن وثلث القرن الذى بقي فيه على ارض الجزائر .

٢- هجرة الجزائريين الى فرنسا ، هروبا من التكديس والتفقير والقمع ، اذ سيكون لهذه اليد العاملة المهاجرة الفضل في احتضان وولادة اول تنظيم سياسي (نجم شمال افريقيا في ١٩٢٦) . وتمثل الطبقة العاملة الجزائرية المهاجرة والتي تنزل غالبيتها من جذور فلاحية ، رصيدا بشريا وسياسيا كبيرا للحركة الوطنية ، ومن ثمة للحرب التحريرية ، فقد قفز عدد العمال المهاجرين من الجزائريين من ٥٠٠٠ خمسة آلاف) عام ١٩١٢ الى ٩٢٠٠٠) اثنين وتسعين الفا) عام ١٩٢٣) . (٢) .

٣- تعتبر ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى ١٩١٧ في روسيا عاملا هاما في اذكاء نار البحث عن الحرية والاستقلال ، وتحطيم اسطورة القوى وزحزحة الامبريالية في كثير من نقاطها الستراتيجية اقتصاديا وامنيا وتتويج سلطة العمال والفلاحين ، ومنذ نجاح

هذه الثورة بدأت في حماية وتطوير ومساعدة الثورات في الخارج ، المتمثلة في حركات التحرر الوطنية في العالم المستعمر ، يقول فرحات عباس:

" يمكن ان نصرح بدون ادنى تردد بأن روسيا واقطار الشرق كانت لنا رحمة انزلتها السماء على الاقطار المستعمرة ، نعم لولا وجود الدول الاشتراكية وقوتها ، لبقينا نتخبط في الثرثرة الاستعمارية الجوفاء .." (٤)

٤- تأسيس الحزب الشيوعي الفرنسي (P.C.F) عام ١٩٢٠ والذي سيكون له تأثير كبير على الطبقة العاملة الجزائرية في مصانع ومعامل الرأسمال الفرنسي ، وكذا دوره البارز في احتضان وتوجيه الحركة الوطنية الجزائرية التي تكونت اغلبها في فرنسا ، نحو البحث عن الحرية والخبزة والسلام . وبعد ذلك سيكون له دور داخل حدود المستعمرة نفسها من خلال قيادته للطبقة العاملة الاوروبية المستوطنة في البداية ، ثم القوى العاملة الاهلية في مرحلة تالية ، وتحويل هذه القوة الاجتماعية المنبثقة الى قوة سياسية (تنظيمات - نقابات) منظمة وذات روءية واضحة ومحددة ، ثم سيكون مدرسة يتخرج منها اغلب المناضلين الوطنيين واليساريين " مصالي الحاج ، بن الاكحل ، حاج علي عبد القادر .. " وغيرهم

٥- الحرب الكونية الاولى (١٩١٤-١٩١٨) التي شارك فيها الجزائريون الى جانب القوات الفرنسية ، والتي عن طريقها استطاعوا ان يتفتحوا على العالم ، ويعرفوا كيف يكافح البشر على هذه الكرة الارضية الصغيرة من اجل اوطانهم ومن اجل كرامتهم ومن اجل العدالة الاجتماعية فوق هذا الكوكب ، وبالفعل كانت هذه الحرب مدرسة اخرى تخرج منها فوج كبير من المناضلين الذين سيكون لهم دور كبير في توجيه وتعميق [illegible] الحركة الوطنية [illegible]

يقول نائب وهران بمجلس الشيوخ " مارسال سان جرمان "

" قام الاهالي بواجبهم نحونا ، واستحقوا المجازاة ، ولكن هل من الضروري ان نلتجيء من اجل ذلك الى اجراءات التهور ؟! "

ولا يختلف تصريح " فيزو " عن سابقه حين قال ، موجها حديثه للاهالـــــي الذين بدأت بوادر الوعي السياسي التحرري تلعب في عقولهم !! بعد الحـــــرب مباشرة : " ابنائي لا تشتغلوا بالسياسة ، اثروا قبل كل شيء ان الثروة تأتي بالحرية" (٥)

ان حرب (١٤ — ١٩١٨) اوضحت نقاط الضعف في الاقتصاد الجزائري ، وخاصة فيما يخص ارتباطه الوثيق بالرأسمالية الصناعية الفرنسية ، وفي الجزائر (المستعمرة) تميز الوضع بالمضاربة وارتفاع الاسعار ، ونقص الاجور ، مما اثر واثقل بصورة خاصـــة كاهل الشرائح الاكثر فقرا ، وخاصة الشرائح المسلمة حيث تتفشى ظواهر البروليتاريا الرثة (. . .) ولما كانت الجزائر مرتبطة بالسوق العالمية الرأسمالية مباشـرة ، فانهـا كانت مـؤهلة لان تعيش بأي شكل من الاشكال الازمة التي يعيشها العالم كله فــــي المرحلة التي تلت الحرب ، والذي زاد الطين بلة هو الجفاف الذي اكتسح المستعمرة عام ١٩٢١ (. . .) وهكذا بدأت المجاعة تهدد الجزائر ابتداء من سنة ١٩٢٠ . . وبدأت ظاهرة البطالة واضحة ، فأوقفت الكثير من المؤسسات والشركات برامجها ورمـت بالعمال في الشوارع وازقة الاحياء القصديرية . . وهكذا تفشت المجاعة ورفع الاهالـي الشعار الى ممثليهم :

" اعطونا نأكل . . بأي ثمن " (٦)

ففي الاغواط والجلفة اجتمع المعدمون في ساحة المدينة مطالبين " المساعدات" (le ravitaillement) وتعرضوا للقمع والاهانة والطرد من قبـــل البوليس الفرنسي واعوانه ، ورغم ذلك ظلت الادارة الاستعمارية تتجاهل الوضع المتفاقـــم وعلى الرغم مـــن ان المجاعة اصبحت واقعا ملموسا ، وكتبت صحيفة " الاقدام " ما يلي :

" ها هو اللاامن يخيم . . . الاهالي لايجدون ما يسدون به رمقهم . . اننـــا سنشاهد سقوط ضحايا عديدين من جراء هذه الازمة " . ونشرت الجريدة نفسها قائمة بأسماء ضحايا المجاعة من الاهالي . . . الضحايا بالجملة !! (٧)

حين قرر كلمنصو (G. Clemenceau) مكافأة الجنود الجزائريين الذين حاربـوا الى جانب القوات الفرنسية ، بل في طليعتها ، في هذه الحرب ، لاقـــى نقدا سافرا من قبل الاوساط الرأسمالية الكولونيالية الاوروبية في المستعمرة (٨)

ان هذه " الحالة " وملابساتها ، كانت تنير الطريق امام هؤلاء العائدين من الحرب ، انهم مقهورون ، وانهم انصاف البشر ، ولذا كان لا بد من البحث عن تغيير في ميزان القوى والغاء كل هذه البنيات الاجتماعية الكولونيالية الجائرة .

٦- النقط الاربعة عشر التي اطلقها الرئيس الامريكي " ولسون " ، والتي تتضمن في بنودها الدعوة الى احقية ومشروعية " تقرير المصير " وحق كل الشعوب في الحرية والاستقلال .

٧- ملحمة القائد الريفي : عبد الكريم الخطابي ، في شمال المغرب ، ضد الجيش الاسباني والفرنسي والملكي التابع ، هذه الحرب التي استطاعت ان تبين للعالم المقهور ان الشعوب الضعيفة والمقهورة قادرة على التضحية والتصدي وقادرة على كتابة تاريخها وهي مستعدة للتضحية في سبيل الحرية والاستقلال والكرامة . وقد كان لهذه الحرب صدى كبيرا داخل الجزائر المستعمرة وربما ستضعه الحركة الوطنية نصب اعينها . وقد تجلى تأثير هذه الحرب وملحمة الخطابي على الاوساط الاجتماعية والسياسية الجزائرية في النداء الذي وجهته النقابات الجزائرية الى الاهالي يدعوهم الى الاضراب احتجاجا على الحرب الهمجية التي تشن ضد الزعيم عبد الكريم الخطابي في الريف المغربي (٩)

٨- بروز حركة النهضة العربية في المشرق العربي ، ذات الطابع الديني الاسلامي والتي قادها جمال الدين الافغاني ومحمد عبده .

٩- تشكل علائم للحركة التحررية الوطنية والقومية في العالم العربي : انتفاضة الدروز ضد الفرنسيين بقيادة المرحوم سلطان باشا الاطرش . سوريا . . . الخ

١٠- بروز تركيا الجديدة وانتصار مصطفى كمال على السيطرة الاوروبية .

١١- استرجاع بولونيا وتشيكوسلوفاكيا استقلالهما وبداية تدهور الامبريالية وفقدان مراكزها في اوروبا وآسيا .

اننا نعرف ان مجموع البنى الاقتصادية التي تشملها سيرورة الافقار تولد اشكال وعي اجتماعي مجذرة ، بفعل الظروف العنيفة والوحشية التي تفرز على الشرائح الاجتماعية الاهلية الفقيرة، وتتخذ حركة التفسخ داخل البنى المفقرة والفقيرة اشكالا اجتماعية .

كل هذه العوامل مجتمعة ،كانت طلقة الوعي الاولى لبداية تطور الوعي الوطني في المستعمرة وخارجها ،بين الاوساط العمالية الاهلية التي هاجرت الى المتروبول، بحثا عن الخبزة وهروبا من سياسة العصا والتفقير والبلترة .

لقد تربت الطبقة العاملة الاهلية الجزائرية ،ونمت في كنف الحركة العمالية والشيوعية الفرنسية صاحبة التاريخ العريق في النضال ضد رأس المال وعصبته .

وكانت الطبقة العاملة الجزائرية مؤهلة بفعل ظروفها الفنية ان تنجب الحركة الوطنية الجزائرية . وذلك لظرفين رئيسيين :

أ ـ علاقتها المباشرة والمصيرية مع الحركة العمالية والنقابية والشيوعية الفرنسية ، مما ادى الى تطور وعيها الطبقي السياسي . فبدأت هذه الطبقة تتقدم في مظاهرات واضرابات الى جانب الطبقة العاملة الفرنسية ،وشرعت في بناء وتشييد تقاليدها النضالية مستلهمة النضالات التاريخية والانية للطبقة العاملة الفرنسية .

وعلى الرغم من "ان العمال الاهالي لم يكونوا يتقاضون نفس الاجور التي يتقاضاهـا العمال الاوروبيون ،بل كان الفرق يصل في بعض المرات حتى الضعف (في المستعمرة وفي المتروبول) [illegible] ،فقد بدأ الاهالي يشاركون في الاضرابات التي يقـوم بها الاوروبيون ،وبدأت عدوى الاضراب نتيجة للاوضاع الاجتماعية المزرية تزداد وتتسع وتنتشر . . وبدأ الاهالي يضربون حتى في المؤسسات التي يشتغلون فيها لوحدهم ". (١٠)

ب ـ وهي تعيش على ارض المتروبول ،كانت هذه الطبقة تدرك واقعها الصعب والمر ،اذ انها طبقة عاملة و "مستعمرة" في ظل نظام رأسمالي / رأسمالي كولونيالي .

وهكذا خرج مناضلون من صلب هذه الطبقة العاملة ،وتسربتها التاريخية فـي الصراع مع رأس المال المتروبولي اساسا ،ورأس المال الكولونيالي : حاج علي عبد القادر مسعدون ـ شابيلا ـ مصالي الحاج ،وكلهم كانوا اعضاء انذاك في اللجنة المركزيـة للحزب الشيوعي الفرنسي .

ومن صلب هذه الحركة العمالية بدأ هؤلاء كطليعة ثورية يبحثون عن تنظيم يؤطرون به نضالاتهم الوطنية والطبقية الرامية الى استقلال بلادهم ،والفنـاء

الرأسمال الكولونيالي الهمجي ، وبذلك اسسوا في مارس عام ١٩٢٦ اول حركة سياسية عصرية ومنظمة هي " نجم شمال افريقيا " وينص احد بنود هذه المنظمة على ما يلي :

" ان المنظمة لها هدف اساسي هو : تنظيم النضال من اجل استقلال بلدان شمال افريقيا الثلاثة ، وهي تندد وترفض وتناضل ضد الاضطهاد الكولونيالي ، وتلتزم بالدفاع عن الحقوق المادية والمعنوية والسياسية والاجتماعية لسكان شمال افريقيا " (١١)

واذا كان الواقع الجزائري لم يستطع افراز تنظيم سياسي محكم ومصري منذ قرن من الاستعمار ، فان هذا يرجع الى عدة عوامل :

- تفجير الخريطة الاجتماعية الطبقية جذريا واحباط المقاومة الريفية الفلاحية ذات الوعي الوطني التقليدي من قبل ترسانة الاسلحة الكولونيالية وجيشها المنظم والمجهز .

- غياب التراكم الرأسمالي الكولونيالي ، وكذا انتفاء الصناعة المتقدمة التي من شأنها ان تطور وتنمي طبقة عاملة من الاهالي الجزائريين .

- العداء الذي ظهر ولمدة طويلة بين الطبقة العاملة المسلمة الجزائرية والطبقة العاملة الاوروبية والذي كان يدعمه رأس المال الكولونيالي ، لانه كان يدرك ان في تلاحم هذه القوى الاجتماعية تكمن نهايته ، فأجج بين هذه القوى الاجتماعية المقهورة العنصرية والصليبية .

ورغم الصمت الذي ساد منذ اخماد آخر ثورة ذات حجم جماهيري هام : ثورة المقراني (١٨٧١) الا ان الارياف لم تصمت بل اخذت ثوراتها وانتفاضاتها تبحث عن شكل يتجاوز الطرق " الفروسية " التي طبعت المقاومة الريفية ، وبذلك تكونت " عصابات الشرف " كان همها الا تترك المستعمر يعيش في استقرار وطمأنينة ، وقد تكونت عام ١٩١٧ " جماعة الارهابيين الشرفاء " مهمتها اغتيال كل فرنسي او جزائري موال للاستعمار (١٢) . وبدأت حرب الاعصاب ضد " الصالونات " الباريسية التي انتقلت الى ما وراء البحار .. الى الجزائر .

ففي ١٩٠٢ - ١٩٠٣ قاوم سكان الهقار والطاسيلي الدخول الفرنسي الى هذه المنطقة .

١٩٠٨ : - سجلت هجمات في الهدنة (HADNA) والمليزمة ( ) .

١٩١٠: بدأت حركة ضد التجنيد الاجباري الذي من العديد من المقاطعات :
قسنطينة - تيارت - وهران .. الخ

١٩١٤ : حمل بنو شقران (قرب معسكر مقر الامير عبد القادر) السلاح ، ورفضوا التجنيد ، ودخلوا في حرب مع السلطات الفرنسية. وفي الشمال القسنطيني هوجمت ضيعات تابعة للمعمرين في منطقة " ادوغ وسوق هراس ".

١٩١٥ : - قاومت زاوية السنوسية بعض فيالق الاستعمار في ضواحي جنات في الصحراء .

١٩١٦ : وقعت معارك في الاوراس ضد التجنيد الفرنسي وهوجمت الفيالق الفرنسية لتخليص المجندين .

١٩١٧-١٩١٨ : انتفض طوارق الهوقار في المناطق بين تامنراست وورقلة وحطموا بعض حاميات الجيش الفرنسي واستولوا على معداته الحربية ، مما جعل الحكومة الفرنسية تبحث بقوة احتياط لردع الانتفاضة تحت قيادة الجنرال (لابرين)

وفي ١٧ جويلية ١٩٢٠ خرج اكثر من ثلاثة الاف من الاهالي للتظاهر في مدينة سطيف ، وحاصروا متاجر الاسرائيليين ردا على مقتل احد الاهالي المسلمين وساعدت الفروسية (LA CAVALERIE) المدينة وبدأ الحديث عن وجود تنظيم سياسي يقود ذلك (١٤)؛ ومن هذا الواقع خرجت " عصابات الشرف " (١٥) ورغم ان القادة والحكام كانوا يعطون اوامر للاهالي بالقاء القبض على هؤلاء " الخارجين " عن القانون !! الا ان هؤلاء كانوا يجدون عند هؤلاء الاهالي الملجأ والمخبأ والمأكل والحماية والدليل .

وفرضت السلطات الفرنسية على الاهالي " رخصة " حين يرغبون في التنقل من مكان الى آخر داخل الجزائر وظل هذا القانون سائرا حتى الحرب الكونية الاولى . (١٦)

ان الفشل في تشكيل تنظيم سياسي حتى هذه الفترة يعود اولا الى غياب ذلك التصور الوطني المعاصر الذي يجمع القبائل تحت لواء واحد وفرع واحد ...

ولم يتحقق هذا التصور الا بعد ان تم تكسير الامة كلها ، وبدا تراكم الرأسمال الكولونيالي يتفسخ ، انذاك بدأ الجميع يشعرون بضرورة القيامة .. وحتمية الانتفاضة

ضدّ الوضع وضد انفسهم وذلك في اطار تنظيم محكم عصرى ، لا في اطار مقاومة " فردية " عفوية ذات طابع " لصوصي " او ثأرى " لاجدوى من ورائها في ظل طبيعة المرحلة المعقّدة .

والشيء الاخر الذى اخر ظهور الحركة الوطنية الجزائرية ، هو : تلك الهوة السحيقة التي خلقها الاستعمار بين النخبة المثقفة من ابناء " البورجوازية . المتوسطة والارستقراطية " الاهلية وبين الاهالي الكادحين الذين بدأوا يشعرون بضرورة البحث عن خلاصه في مثقفين طليعيين وفي تنظيم طليعي يحقق حلمهم السياسي والاجتماعي والحضارى .

وبالفعل بدأت الادارة الاستعمارية ، صاحبة الحساسية المفرطة تتحسس ، ظهور قوة وطنية سيكون لها شأن في تغيير الخارطة الاجتماعية والسياسية ، وقلب بنيات الجهاز الكولونيالي برمته ؛ اذ في سنة ١٩١٣ نشر ناشر فيمدينة قسنطينة ، كتابا عن زحف الوطنية العربية في العالم،صور فيه المسلمين الناكرين لكل وفاء والذين لا تؤثر فيهم سوى القوة والقمع ، لانهم جنس منحط ، فاخرج منه ثلاث طبعات في اقل من ثلاثة اشهر ، بالرغم من ان المصريين ليسوا بطبيعتهم قرائين " (١٧)

ان هذا الكتاب من خلال ما جاء فيه وكذا الاستقبال الذى حظي به في الاوساط الاوروبية الكولونيالية ؛ يدل على ان المثقفين البورجوازيين الاستعماريين بدأوا يدركون مدى عمق القبر الذى حفره الاستعمار لنفسه منذ قرابة قرن من الزمن ، ويكشف في ذات الوقت " الحساسية " القوية !! عند الاستعمار واجهزته القمعية والايديولوجية " حساسية " هدير امواج " الايديولوجية الوطنية التي سترمي ا به الى ما وراء البحر الازرق !!

يؤكد شارل روبير اجيرون (Ch. R. AGERON) ان علائم الايديولوجيا الوطنية قد بدأت تظهر باشكالها العفوية في نهاية القرن التاسع عشر : هناك بعض " الدفاتر العربية " او " المذكرات العربية " وجهت الى لجنة التحقيق (Senat) سنة ١٨٩١ وكانت ذات نفس متطور .. يقترب من الطرح الوطني (١٨)

وبنهاية الحرب العالمية الاولى سوف تتبين ملامح التنظيمات الوطنية ، وفي الفترات التالية نقدم محاولة لفرز اهم اتجاهات هذه الحركة الوطنية لان ذلك سيساعدنا

على الوصول الى فهم تلك القوة الروائية التي دخلت بها " الرواية " الجزائريـــــة حقل الكتابة الابداعية العالمية ، اذان الادب : من وجهة نظرنا ومن خلال المنهج المادي التاريخي الذي نحاول ان نسير على هديه في فصول هذا البحـــــث ، انعكاس مادي للواقع الموضوعي ، كواقع تاريخي في شكله بالذات وحيث يسعى التحليل العلمي لضبطه ، وهذا لا يعني ان ـ المادية التاريخية ، تدعو الى عملية اختصار " الادب الى الاخلاق او الدين او السياسة . . الخ . (١٩) بل رؤيته فـــــي اطار كينونته " الابداعية " ذات العناصر الداخلية المستقلة ، والخاضعة لنظــــام مستقل ، ويرتبط من خلال هذه الاستقلالية بطبيعة الواقع الذي انتجه .

١- التيار الليبرالي - الاندماجي - او دعوة " الدخول الى البيت الفرنسي ".

بتعمّق العلاقات الكولونيالية في الجزائر وتناقضها ونضجها وتفسخها .. وكذا نمو شريحة البورجوازية الوطنية الهجينة داخل آليات الاقتصاد الكولونيالي ، تدفق الآلاف من الجزائريين ذوى الاصول الريفية الى المدن من جراء سياسة التهجير والقمع ومصادرة ما تبقى من الاراضي والاستيلاء عليها ، وهروبا من المجاعة الرهيبة التي اجتاحت البلاد بعد الحرب الاولى مباشرة ، وعلى اثر هذه الحركة بدأت مدن " الصفيح " و " الزنك " الاهلية تنبت بشكل فجائي على اطراف المدن الجزائرية ذات الطابع الفرنسي - والتي تسكنها الاقلية الاوروبية ورافق ذلك ارتفاع في المواد الغذائية وعدم تجاوب ذلك مع امكانيات الدخل الفردي . . . وسجلت الرأسمالية الكولونيالية الصناعية ركودا تدهور من جرائه الامن الغذائي والصحي والاجتماعي وارتفع مستوى البطالة فبلغ فيلاوساط الاهلية نسبة ٤٧٪ .

وبدأت البورجوازية الصغيرة من المثقفين الجزائريين المتنورين تعاني من قمع البورجوازية الكولونيالية على المستوى الثقافي والسياسي ، فكانت ، هذه القوة الاجتماعية ، بحثا منها عن العلم تلتجيء الى الزوايا حيث تنبت الخرافات ويزهر الفكر الظلامي هروبا من :

١- ممارسة القمع الحضارى التراثي المجهز بترسانة الاسلحة الايديولوجية - الكولونيالية ومؤسساتها المتطورة ، ضدّ الثقافة والتراث العربي الاسلامي والبربرى

٢- عنصرية التعليم ، وتعميم الجهل على الاهالي اذ لاحظنا ان مؤتمر المعمرين الذى انعقد في ٢١/ مارس ١٩٠٨ دعا الى الغاء التعليم الابتدائي بالنسبة للاهالي ، على الرغم من ان هذا الحظ " العاثر " لم يكن سوى من نصيب فئة قليلة جدا وعلى تلك التي تنزل من الاوساط البورجوازية او الارستقراطية . (٢٠)

وبدأت السلطات الفرنسية تبحث عن وسطاء من المثقفين الذين رضعوا حليبها ليؤدوا رسالة الوساطة السياسية بين الادارة الاستعمارية والاهالي .

فأمام هذا الوضع كانت فرنسا تستعد لاستقبال نمو بورجوازية صغيرة او متوسطة تخدم مصالحها الايديولوجية والسياسية والاقتصادية ، وتتكون هذه البورجوازية من المثقفين البورجوازيين الاصلاحيين والموظفين والمهنيين والتجار فشكلوا تنظيمهم السياسي سمي : " المنتخبون الجزائريون " .

" كان المنتخبون خصوصا ، من اصول بورجوازية ، : اطباء - محامين ومعلمين تكوّنوا في المدرسة الفرنسية عرفوا من تجربتهم وفي نموّها عقم حركتهم واحسوا بالاحتقار العنصرى الذى يظهره زملاؤهم الاوروبيون تجاههم داخل الهيئات المنتخبة " (٢١) .

وسوف تكون حركتهم السياسية جزءا من الجهاز الكولونيالي العام ، ولولبا في آلة السياسة الاستعمارية في العشرينات و " طبعة " اهلية لهذه السياسة التي تطالب بتحسين وضعية الاهالي داخل الجهاز الاستعمارى .

وآلياته الاقتصادية والسياسية والعسكرية وفي ظل دفعه الاستعمار الحضاري .

وقد تميزت حركتهم هذه بالابتعاد عن كل طرح وطني ثوري ، وخاصة ما كانت تطرحه " نجم شمال افريقيا " و " الحزب الشيوعي الجزائري " اذ كان هذان التنظيمان يعبران بصدق عن طموحات الجماهير الجزائرية الكادحة والتواقة الى الاستقلال والحرية ولو بكثير من الغموض والتفاوت والالتباس (٢٢)

ان حركة المنتخبين الجزائريين " وكذا " الجزائر الفتاة "(٢٣) LES JEUNES ALGERIENS والاحزاب التي اسسها فرحات عباس " الاتحاد الشعبي الجزائري " و " الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري " و " احباب البيان والحرية " ، كانت كلها حركات ذات توجه اصلاحي سطحي بورجوازي ، وتعبيرا اساسيا عن مصالح النخبة البورجوازية التجارية ومثقفيها " المتمصرنين " ، و " ستناضل " هذه الحركة بهذه الرؤية الاندماجية داخل الجهاز الكولونيالي حتى عام ١٩٥٦ .

لقد كانت حركة الشبان الجزائريين التي ابتدأت سنة ١٩٠٦ تحت قيادة " الامير خالد " (٢٤) ذات رسالة اندماجية ، فقد حملبرنامجها السياسي مطالب خجولة كانت ترفع الى الادارة الاستعمارية ، وهي تقر بحق الاستعمار في الوجود وتطالب بتحسين الوضع والاندماج في ظل الهيمنة الكولونيالية . وكانت هذه الحركة تعكس بشكل من الاشكال صورة النهضة الاصلاحية في الشرق في نهاية القرن التاسع عشر .

وعلى الرغم من محاولة تجذير مطالب حركة الشباب الجزائريين بعد نفي الامير خالد الى مصر سنة ١٩٢٣ والتي منها دخل الى باريس عام ١٩٢٤ ، الا ان هذه المطالب ظلت في اطارها البورجوازي الليبرالي الاصلاحي . ومن هنا بدأ الامير خالد يتجاوز حركة (الشباب الجزائريين) ، الى افق آخر وبذلك كون " نجم شمال افريقيا " ، وبدأ يطور رؤيته السياسية للوضع الاستعماري خاصة بعد أن اتصل بالحركة العمالية والشيوعية الفرنسية ، الشيء الذي ساهم في شحذ وعيه السياسي ووصوله الى الاقتناع بان المطالب لا تحل الازمة ، بل القضاء على بنيات الاستعمار برمتها ، ذلك هو الحل الصحيح ، والشرط الوحيد لبناء امة جزائرية ووطن جزائري ، وهو ما جسده البرنامج السياسي " لنجم شمال افريقيا " والحزب الشيوعي الجزائري ،

ظلت برامج الحركة الاندماجية تتلخص في :

" الغاء الاحكام الاستثنائية .

الغاء وابطال قانون " الاهالي " (INDIGENAT) والمساواة بين الفرنسيين والجزائريين .

التمثيل البرلماني للمسلمين .

اعطاء فرصة للتجنيس العام كما حدث بالنسبة لليهود الجزائريين .

ولقد كان المنتخبون او " النخبة " الجزائرية يؤكدون باستمرار ولاءهم لفرنسا ، ويهاجمون بدون هوادة " المتطرفين " .. من دعاة الوطنية ، " نجم شمال افريقيا " والحزب الشيوعي الجزائري .

يقول : " آيت حمدي " رئيس وفد " القبائل "

واحد المنتخبين في البرلمان الفرنسي :

" ان الجزائر لم تكن ابدا امة او وطنا ، منذ الفينيقيين وحتى ايامنا هذه " .. لقد كانت مستعمرة ثرية مستغلة من قبل مختلف الشعوب التي فرضت سيطرتها عليها . واليوم لا جدوى سوى ان اقارن الجزائر باحد هؤلاء الايتام الذين تحتضنهم دور الرعاية العمومية ، والتي بعد كل ما عرفته من مآسي وويلات ، وجدت اما راعية وحنونة ، والتي تبناها نهائيا (اي فرنسا) ." (٢٥) .

ولم تخرج " جمعية الطلبة المسلمين للشمال الافريقي " التي تكونت عام ١٩١٩ ، عن اطروحات (الشبان الجزائريين) او " فدرالية المنتخبين المسلمين الجزائريين " اذ ان هذه الفئة التي حظيت بالوصول الى مدرجات الجامعة ، لم تكن في الحقيقة الطبقية ، سوى تلك النخبة سليلة البورجوازية الجزائرية الهجينة والاسر الارستقراطية المدينية على وجه الخصوص .

وقد حدد [illegible] الجمعية الطلابية هذه توجهاتها السياسية وورقة عملها :

" انها تهدف - اي الجمعية - الى جمع شمل الطلبة الاهالي ، وهي تساعدهم على دروسهم وتسهل لهم ذلك بالوسائل المذكورة في المادة الثالثة .

ان الجمعية هي جمعية لا سياسية ، تهدف الى ابعاد الطلبة عن السياسة ." (٢٦)

ان اغلب الجمعيات والحلقات التي تشكلت عقب الحرب العالمية الاولى ،كانت ذات طموحات اندماجية ليبرالية تقودها البورجوازية الاهلية المدينية : مثال : " حلقة اقطاب الجيجلي " التي تكونت عام ١٩١٩ والتي كانت اجتماعاتها تنتهي بترديد النشيد الـ " مارسياز " وباطلاق شعارات في السماء :

ك " عاشت فرنسا !! "

لقد كان هدف هذه الجمعيات تأكيد اطروحة واحدة اساسية من خلال جميع نشاطاتها الا وهي : " الدخول الى البيت الفرنسي " والعيش تحت سقف فرنسا المتحضرة صاحبة العطور والزهور !! "

يقول الدكتور بن جلول : وهو اسم بارز واحد اعلام سياسة الاندماج :

" نطالب بالدخول الى البيت الفرنسي حيث نقدم خدماتنا من اجل انجاز ما تبقى من العمل " (٢٧)

ويعكس النص السياسي الذي خرج به مؤتمر " فيدرالية المنتخبين المسلمين الجزائريين " الذي انعقد بتاريخ ١١/٦/١٩٢٧ الملامح السياسية وحدود الافق السياسي والمطلبي للمنتخبين .

آ ــ تمثيل الجزائر في البرلمان .

ب ــ المساواة في الاجور والتعويضات داخل المناصب الادارية المعطاة للاوروبيين والمسلمين .

جـ ــ الغاء نظام الاهالي (CODE D'INDIGENAT) (٢٨) .كما جاء في القانون الداخلي لفدرالية المنتخبين الجزائريين لعمالة قسنطينة : في جوان ١٩٣٠ ما يلي :

" توحيد جهود الممثلين المسلمين وتنسيقها ،لعمالة قسنطينة في مختلف المجالس كالمندوبيات المالية والمجالس العامة للدولة وجعلها من اجل الدفاع عن مصالح السكان الذين انتخبوهم والتعاون مع السلطات العمومية وتنويرها حول حاجيات السكان المسلمين ." (٢٩)

نلاحظ من خلال برنامج ــ الشبان الجزائريين " وكذا " فيدرالية المنتخبين المسلمين الجزائريين " و " جمعية النخبة المسلمين للشمال الافريقي " و " الحلقات الخاصة " للتجار والموظفين واعيان الدولة " ذلك الالتفاف حول نقطة واحدة اساسية

وجوهرية في سياستهم الا وهي : التأكيد على " الدخول الى البيت الفرنسي ! ! "
والحفاظ على مواقعهم الطبقية تحت سقفهم الاسمنتي المنون ! ! ويعكس هذا الاجماع
على هذا التوجه وهذا المطلب السياسي الاندماجي ، التجانس في الانتماء الطبقي
لهذه الشريحة الاجتماعية ربيبة فرنسا الاستعمارية ، والتي ما فتئت تنمو بين آليات
ودواليب عجلة الاقتصاد الكولونيالي المعقد ، و امام ما كانت تبديه الشرائح
الاجتماعية الاهلية الفقيرة والمقموعة من خلال تنظيماتها السياسية الوطنية الثورية
الجديدة : نجم شمال افريقيا والحزب الشيوعي الجزائري . . كانت تعلن خوفها
على فقدان مواقعها الاقتصادية والسياسية ووجاهتها .

يقول فرحات عباس ، في مقالة يرد فيها على الذين " اتهموه " ! ! بالنزعة
الوطنية . تحت عنوان " فرنسا هي أنا ! ! "

" رأي معروف . الوطنية هي هذا التصور الذي يدفع شعبا ما الى العيش داخل
حدوده الترابية ، الشعور الذي خلق مجموعة من الامم .

لو استطعت اكتشاف " الامة الجزائرية " لكنت وطنيا ، ولن اخجل وكأني ارتكبت
جريمة . ان الرجال الذين ماتوا من اجل الوطن كانوا دائما شرفاء ومحترمين . وحياتي
لا تقدر ولا تساوي اكثر من حياتهم ، ولكني لن اقوم بهذه التضحية : ان الجزائر
كوطن خرافة ، لم اكتشفها بعد ، سألت التاريخ ، سألت الاموات والاحياء وزرت المقابر
ولا شخص حدثني عنها (. . .) اننا لا نبني فوق الرمال (. . .) اننا نربط مستقبلنا
نهائيا ، بالعمل وبالمجهود الفرنسي في هذا البلد "

ثم يقول في مكان آخر :

" ان جيلنا هو من الناحية الفكرية فرنسي ، على الرغم من انه احتفظ بدينه ولغته
واعرافه ، وهو فوق كل شيء لا يتصور اي اطار للحياة في الاطار الفرنسي " (٣٠)

ان قراءة في هذين النصين لفرحات عباس تؤكد لدينا الاصرار الذي كانت
" تناضل " به النخبة البورجوازية من اجل تسييج مصالحها الطبقية والسياسية التي ترتبط
بوجود الاستعمار وآلياته . وكان هذا الاصرار والتأكيد يزداد وقاحة وشدة كلما
لاح في الافق عمق وجماهيرية الاطروحة الوطنية الثورية : التي كانت تطرحها : النجمة
والحزب الشيوعي الجزائري .

لقد جاء مؤتمر " بلوم - فيوليت ، ١٩٣٦/١١/٣٠ ليقر للاهالي شرعية بعض الممارسات المحدودة ، المصنفة تصنيفا استعماريا وطبقيا ، وبعض الحريات والاعمال والحقوق السياسية كتلك التي يتمتع بها المستوطنون الاوروبيون ، بدون ان يترتب عن ذلك اي تعديل في نظام احوالهم الشخصية او في حقوقهم المدنية (٣١)

ولقد تأكدت الطبيعة الطبقية والعنصرية لهذا " المؤتمر " من خلال ما صدر عنه من برامج ومقررات ، وقد عبرت عن ذلك النتائج التي اعطاها على مستوى الواقع ، اذ لم يتجنس من الجزائريين من ١٨٦٦ - ١٩٣٤ سوى (٢٥٠٠) مواطنا جزائريا (٣٢) ، وعلى الرغم من ذلك فقد عارضت الرأسمالية الكولونيالية العنصرية نتائج هذا المؤتمر ، حيث عقد المعمرون مؤتمرهم في : ١٩٣٧/١/١٤ وعارضوا بالاجماع مقررات مشروع بلوم فيوليت الاندماجي (عدا صوتين) .

لقد جاء هذا المؤتمر ونتائجه ومقرراته تأكيدا وحلا وسطا لما بدأت تعانيه البورجوازية المتروبولية من ازمات في علاقاتها مع البورجوازية الكولونيالية العنصرية ، وردا على الحماس الوطني الثوري الذي بدأ يتأكد يوما بعد يوم خاصة بعد المؤتمر الاسلامي الجمهوري الذي انعقد في ١٩٣٧ وشارك فيه " الحزب الشيوعي الجزائري - وجمعية العلماء المسلمين ، والبرلمانيون : ونجم شمال افريقيا " .

اذن جاء مشروع (بلوم فيوليت) ليؤكد الدور الحضاري المزعوم لفرنسا ، والبحث عن اشاعة قيم المساواة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية وتجسيد الرسالة التحضيرية . . لفرنسا ، والدعوة الى تبني الثقافة (الحضارية للاهالي الجزائريين) القروسطية والتقليدية والانفتاح الى العالم الحر .

وقد " ناضلت " ! البورجوازية الاندماجية الجزائرية بصبر من اجل المواطنة الفرنسية ومن اجل العالم " الحر " . . الخ ، وقد طمحت هذه الافكار الليبرالية فيما بعد .... وبعد التحاقه بجبهة التحرير الوطني حين التحق فرحات عباس بالثورة سنة ١٩٥٦ بعد ان اقتنع بضرورة النضال المسلح من اجل تسيير مصالح طبقته ، يقول فرحات عباس وهو الذي ظل مدافعا عن السياسة الاندماجية : " وتظهر هذه السياسة (الاندماج) امام عيون الجميع كهدف مستحيل ، وواقع وهمي وحيلة ولعبة خطيرة في صالح الإستعمار " (٣٣) .

ومع تحول الاندماجيين او الفصيل المتنور منهم الى الثورة التحريرية ، فقد بات مؤكدا نشوب صراعات بين القوى المختلفة داخل الجبهة .

التيار الاصلاحي الديني
- من اجل انتاج مثقفي الاستمرارية

بدأت النهضة في الجزائر متأخرة بالنسبة الى بلدان المشرق العربي ، اذ كان التعلم محاصرا وكانت اللغة العربية في المنفى والاعتقال ، وقليل جدا هم المثقفون الذين كانت تتاح لهم الفرص وتساعدهم اوضاعهم الاجتماعية على الهجرة الى المشرق طلبا للعلم والمعرفة،وكانت القلة القليلة من هؤلاء الذين يرحلون ، تعود الى هذا الوطن لاداء الواجب العلمي والمعرفي الثقافي وللمساهمة في خلق ما يسمى ب " مثقفي الاستمرارية " الحضارية وكذا خلق " ثقافة صدامية تواجه الثقافة الاستعمارية " .

ان العزلة التي ما فتئت تعيشها الجزائر عن باقي دول " المشرق العربي " ، جعلت من " الاسلام " ذي طابع جزائري . . اذ ظل الاسلام " الجزائري " محاصرا جغرافيا : بالبحر واوروبا من جهة وبالكتلة المغربية والصحراء الكبيرة . . واخيرا بتونس التي كانت الثقافة فيها لا تزال متحجرة وجنينية (٣٤) من جهة اخرى .

واذا كانت النهضة العربية في المشرق العربي قد تميزت بطابع ثقافي (الادب - الدين . .) فانها كانت في الشمال الافريقي منذ بدايتها ذات طابع سياسي .

يقول " ديسبارمي "

" دفعة وطنية ، مدّ ثوري سياسي بخلاف اخلاقي وديني اصلاحي ، وكذا ولادة ادبية وعلمية " (٣٥)

ففي تونس وتحت سقف جامع " الزيتونة " الكبير، كانت تنمو حركة اصلاحية في نهاية القرن التاسع عشر ، وتنضم اليها طلاب علم من الجزائر باعداد كبيرة ، من بين اعلامها الشيخ عبد الحميد بن باديس .

ولقد كانت تفد على جامع " الزيتونة " بعثات علمية تحت اشراف اوساط ثقافية او تجارية ، من اصول وطنية او اصلاحية ذات نزعة اصالية وحنين الى التراث ، وقد ضمت هذه البعثات شخصيات سيكون لها وزن في الحركة الوطنية الجزائرية : الشيخ ابراهيم افتيش، وابو اليقظان وقاسم بن الحاج عيسى ومندي زكريا (الشاعر المعروف) .

ظهرت اولى علامات النهضة الجزائرية بعد الحرب العالمية الاولى وكان الامير خالد رائدها . فبدأت الصحف والمجلات تظهر : (ذو الفقار ظهرت ١٩١٣)

والتي كان منحاها الايديولوجي - السياسي كالتالي :

" الدفاع عن السنة المحمدية ، ومحاربة البدع المضللة التي تجر المسلمين والمسلمات الى الهاوية " (٣٦)

وظهرت صحيفة " المنتقد " في نوفمبر ١٩٢٥ وكانت هي الاخرى ذات نفس اصلاحي . وبدأت اسماء مثقفين جزائريين تلمع في ذاكرة المهتمين بالثقافة المستعمرة وخارجها : الطيب العقبي - ابو اليقظان - مفدي زكريا - الامين العامودي - مبارك الميلي - وغيرهم. وظهرت مطابع : كمطبعة " ابن خلدون " في تلمسان ، و " الثعالبية " بالجزائر العاصمة و " النهضة " بقسنطينة . وانشأت بالتالي اندية ثقافية مدعمة ماديا من قبل البورجوازية المدينية الجزائرية ذات التوجه الديني .

حين شعر مثقفو العربية الذين ظلوا مشتتين، بانهم بدأوا يجدون مبتغاهم الثقافي والسياسي (الرؤية للتغيير) في النهضة الاصلاحية الدينية والاخلاقية ، تكتلوا حولها . ووجدت هناك مجموعة اخذت مسؤولية هذه النهضة الدينية على عاتقها : عبد الحميد بن باديس ومن سموا بجماعة " الشهاب " : الشيخ البشير الابراهيمي - مبارك الميلي - احمد توفيق المدني - الشاعر محمد العيد آل خليفة - الطيب العقبي (٣٧)

واذا كان الطابع الديني - الاخلاقي هو الايديولوجيا الغالبة او الطاغية على ظاهر حركة النهضة الجزائرية ، فان هذا التوجه لا يخلو من اطروحات سياسية ، اذ لا يمكن ابدا رؤية الدين واللغة او البحث عنها او ممارستها خارج السياسة والوطن .

وبالفعل فقد شرع بعض المثقفين الجزائريين في عملية البحث عن الدين في السياسة والسياسة في الدين ، فكتب محمد سعيد الزواوي بن زكريا ، كتابا اسماه (اوضح الدلائل على وجوب اصلاح الزوايا ببلاد القبائل) ، وعلى الرغم ان هذا الكتاب لا يحتل مكانة كبيرة في الفكر والرؤية والتحليل ، الا انه بالنسبة للمفكرين الجزائريين الاسلاميين في ذلك الوقت وكذلك بالنسبة لواقع الثقافة آنذاك يعد علامة بارزة (٣٨)

وشرع هؤلاء المثقفون في البحث عن الوطن في الكتابات التاريخية : فكتب : مبارك الميلي كتابا في تاريخ الجزائر اسماه : " تاريخ الجزائر في القديم والحديث " صدر الجزء الاول منه في قسنطينة العام ١٩٢٨ وصدر الجزء الثاني كذلك بقسنطينة العام ١٩٣٢ ، ونشر احمد توفيق المدني كتابه " كتاب الجزائر " عام ١٩٣٠ (٣٩)

وحين شعر الاستعمار بهذا المد الثقافي المحلي الذي يحاصره ، ويحاصر اطروحاته التي ما فتئ يبحث لها عن ركائز طيلة قرن كامل (١٨٣٠-١٩٣٠) ، بدأ بتشديد

الحصار حول هؤلاء المثقفين ، وحتى لا تجهض الادارة الاستعمارية مشروع النهضة فقد صرح ابن باديس بما يلي (موجها كلامه للمثقفين الجزائريين) :

" لتكن مخلصا لمبادئك السياسية ، لانك لا تملك سياسة اخرى ، غير تلك التي تسندك الى فرنسا واداء الواجبات المفروضة على كل ابنائها ، والعمل لتنال حقوقك ، لتكن مخلصا لفرنسا " العدل ـ الحرية ـ الاخوة ـ" (٤٠)

رغم ذلك شرع الاستعمار في ملاحقات المدارس التي يؤسسونها والعمل على غلقها وممارسة القمع الثقافي والسياسي والمادي والعسكري عليها . وامام هذه الممارسات القمعية التي تعرضت لها البورجوازية الجزائرية الحضرية ذات التوجه الاصلاحي الديني ، لم تقاوم سوى البورجوازية القسنطينية والجنوبية ، في حين التزمت البورجوازية المدينية الاخرى بالصمت ، او هاجرت خارج البلاد الى سوريا او الحجاز . اما البورجوازية القسنطينية فقد حافظت على مصالحها الاقتصادية وتقاليدها الثقافية وقيمها الحضارية والاخلاقية المغروسة بقوة في اعماقها (٤١) .

وانتهى هؤلاء المثقفون التقليديون باعلان اطارهم السياسي الذي سيجمع اطروحاتهم الاصلاحية عن المسألة الوطنية . لقد كان الاعلان عن اطار " جمعية العلماء المسلمين الجزائريين " نوعا من الاستجابة للنداء الذي اطلقته صحيفة " الشهاب ") في ٢٦ نوفمبر ١٩٢٥ والذي دعت فيه الى تكوين " حزب ديني محض " (٤٢)

ولقد صادف الاعلان عن تاريخ تأسيس " جمعية العلماء المسلمين الجزائريين " (٥ ـ مارس ـ ١٩٣١) تاريخ الاحتفالات الاستعمارية بذكرى مرور قرن على دخول فرنسا الى الجزائر .

ولدت جمعية العلماء المسلمين تحت رعاية ، وفي كنف البورجوازية الجزائرية ، اذ ان اول من تناولها بالرعاية وموّلها هو البورجوازي الجزائري المعروف " عمر اسماعيل " ، وقد اعلن هذا الاخير انه يكافىء الشخص الذي يدعو الى تكوين هذه الجمعية ويضع لها اسباب : الف فرنك ، وتعهد كذلك بدفع الف فرنك اخرى لحساب الجمعية فور تكوينها (٤٣) وبذلك تكونت الجمعية على اساس واضح : ان انها ليست جمعية سياسية (المادة /٣/ من ميثاق الجمعية) بل انها جمعية دينية مهمتها العودة الى منابع الفكر الاسلامي في القرآن والسنة المحمدية .. والنهل من تقاليد الاجيال الثلاثة الاولى في الاسلام (٤٤) .

ويؤكد الباحث الجزائري مصطفى الاشرف قائلا :

" ان تكوين هذه الجمعية من قبل الانتلجانسيا القسنطينية ، يعني استمرارية وتواجد وحضور تقاليد وطنية حقيقية وثقافية وسياسية ،راسخة في هذا الوسط الاجتماعي المتعلق بلغته وطابع حياته ومجتمعه " (٤٥) .

ومن قراءتنا الايديولوجية جمعية العلماء ، وذلك من خلال النصوص والتصريحات والمواثيق،وصحافتها التي كان يطلقها زعماؤها ومفكروها ومنظروها،نجد ان هذه الجمعية كانت ذات مواقف متذبذبة حيال الادارة الاستعمارية الفرنسية ، ونجيء هذا التذبذب من :-

١- طبيعة الفكر الاصلاحي نفسه ، خاصة اذا كان الفكر يعيش في كنف آليات استعمار بنى تقاليده " القومية والثقافية والاقتصادية " فهو لا يستطيع - من حيث كونه اصلاحيا - ان يكون سوى ذلك الفكر الذي يعالج الامور بسطحية ولا يحاول ان يفهم جدلية التاريخ كوحدة تناقض وتطور .

٢- تنازعت قيادة جمعية العلماء منذ لحظة تكوينها ، اختلافات وتقاطعات " وتناقضات املتها ارتباطات هذه العناصر القيادية بالادارة الاستعمارية او معاداتها لها وكذلك الانتماءات الطبقية لهذه القيادة وطموحاتها المختلفة ، وغياب برنامج " سياسي " واضح . وامام هذه الاختلافات بدأ كل واحد منهم يفسر النص القرآني حسب ما يطمحه موقفه الشخصي والطبقي من السلطة او من الجماهير المسلمة الفقيرة ، او من البورجوازية الجزائرية ، ومن خلال ذلك يمكن تمييز التيارات التالية داخل نسق ايديولوجيا " الجمعية ":

١- تيار محافظ رجعي مرابطي غير سياسي ، كان يقوده داخل الجمعية : الشيخ الطيب العقبي : السكرتير العام المساعد للجمعية يقول الشيخ العقبي :

"تركوا السياسة جانبا .. ابعدوا عنكم الاكاذيب والخرافات (يقصد بذلك مواقف الاتجاه : الوطني والشيوعي الذي كان يدعو الى استقلال الجزائر) ... كونوا ابناء مخلصين ومتخلقين تجاه فرنسا ، امام كل الذين يحاولون فصلكم عنها . اذا كانت الادارة قد صادرت مرة بعض منشوراتكم ، فانها لن تكرر مرة ثانية ... انها تعتبركم كأبنائها الاخرين .. ابناء الجزائر ، بمعنى ذلك مساوون للفرنسيين " (٤٦)

ويقـول كذلك :

" ان القرآن قد سنّ قواعد كثيرة في هذه المسألة (المسألة الوطنية) ،اذ ان الله يقول : انه هو الحاكم الاوحد .. وانه يجعل الملك والقيادة بين ايدي امة من الامم يختارها . ويأمرنا ان نلتفت الى عبر التاريخ ،وان نستجيب للاوامر حتى وان كانـت صادرة من اقوام غير مسلمة ... وفي حالة ما اذا كان شعب مسلم تحت سلطة شعب آخر يجب عليه ان يكون مطيعا ومستجيبا اوامر هذا الحاكم .. خاصة عندما يكون هـذا الحاكم يعامله معاملة عدل وانسانية (يقصد فرنسا) ! " (٤٧)

ويقـول :

" منذ الحرب العالمية الاولى وانا اهرب من السياسة ولا زلت مستمرا في هـذا الهروب حتى يوم القيامة " (٤٨) .

ان السياسة بمفهوم العقبي هي معاداة فرنسا ، اما ان تقدمها وتؤيد صلاحياتها في خنق البشر واضطهادهم فهذه ليست سياسـة !!!

يقـول :

" ان السياسة لا تؤدي الى اي شيء " (٤٩)

ان المسألة الوطنية كانت مجهولة عند الشيخ العقبي ، بل كانت محط عداء بالنسبة اليه ،اذ كان تفكيره ظلاميا وغيبيا لا يحاور الواقع ولا يقرأه ،بل يهرب منه كل الهـروب .. (على حد قوله اعلاه) .

وقد جرّته مواقفه الفكرية هذه الى الانفصال عن الجمعية ومحاولة تصديعها من داخلها ومن قيادتها ،وذلك اثناء ازمة ١٩٣٦ حين اتهم بالاشتراك في اغتيال مفتي العاصمة ، املا في افشال المؤتمر الاسلامي الجبهوي الذي ضمّ : العلماء والشيوعيين والليبراليين ونجم شمال افريقيا ...

" لقد كان هذا الشخص (العقبي) جهريا عنيفا حنبليا (دوغمائيا) ،الشيء الذي جعل الكثير من المنخرطين في الجمعية يتركونها ." (٥٠)

وقد استطاعت الجمعية ان تتخلص من العناصر (العقبية) سنة ١٩٣٨ ،ويرجع الفضل في ذلك الى المرونة السياسية واللاصدامية التي يتمتع بها ابن باديس . وبدأت الجمعية تضم اليها الجيل الثاني من الشباب .. (٥١)

٢- تياراصا لي سلفوى قريب من " الاخوان المسلمين " كان يقوده الازهري الشرقي الشيخ : مولود الحافظي .

ان البورجوازية الجزائرية بدأت تبحث عن طريق لقتل ابنها العاق . . فقد شرعت البورجوازية الجزائرية في رفض " الجمعية "،خاصة طروحات جناحها الوطني المتنور، حين بدأ يميل الى الخط الوطني الاصلاحي ، وكذا الخط الجبهوي السياسي (المؤتمر الاسلامي). وتقترب هذه الجمعية من الجماهير المسلمة الفقيرة في المدن والارياف ،وعلى هذا ستتحرك البورجوازية . . فيقوم " السيد " عمر اسماعيل الذي كان له الفضل في تأسيس الجمعية وتمويلها ، وهو رئيس اللجنة الدائمة للجمعية في العاصمة ، بالانفصال عنها ، ويكون مع مولود الحافظي " تيارا متخلفا ظلاميا سيدخل في معركة سياسية مع جمعية العلماء ، ويهاجمها بل ويوشي للادارة الاستعمارية بكل اعمالها ذات التوجه السياسي الوطني الاصلاحي . وما دام هذان الرجلان من قيادة الجمعية فقد كانا على علم بأمور داخلية كثيرة وهامة وقد استغلت الشرطة الفرنسية هذا الانقسام لصالحها لكي تحطم هذه الجمعية التي بدأت تغزو البلاد من شرقها حتى غربها .

ودعا عمر اسماعيل الى اجتماع ضم بعض رجالات الزوايا الظلاميين . . ولكن " الباديسيين " لم يقفوا مكتوفي الايادي بل واجهوا ذلك وحصل اول صدام بين التيارين في ٢٣/٥/١٩٣٢ بنادي الترقي بالعاصمة . (٥٢) وفي هذه الفترة طرد المرابطون وطرد " مولود الحافظي " من الجمعية فانحاز بوضوح الى السلطة الفرنسية وبدأ في مهمة مساعدتها على خنق حركة العلماء والتجسس عليهم ، وفي الاخير اسس " مولود الحافظي " مع عمر اسماعيل جمعية اخرى هي : " جمعية علماء السنة الجزائريين " بتاريخ ١٥/٩/١٩٣٢ واشتغلوا بالتعاون مع الاستعمار صحيفة لهذه الجمعية هي صحيفة " الاخلاص " لتدخل معركة طويلة مع صحيفة " الشهاب " (٥٣) ، وقد عقدوا مؤتمرهم في ١٥-١٧ افريل عام ١٩٣٥) لتوجيه الضربة للعلماء المسلمين ، وطرحوا انفسهم اوصياء على الثقافة الجزائرية الاسلامية وعلى اللغة العربية . (٥٤)

٣- تيار نقابي مطلبي : يمثله توفيق المدني

٤- تيار وطني اسلامي اصلاحي يقوده : العربي التبسي والامين العامودي اللذان دفعا حياتهما فداء للوطن .

يقول : الامين العامودي وهو شاعر جزائري معروف :

" اننا خراف .. يريد احد الذئاب اصطيادنا .. لكن الرعاة يحرسونها .. ان الذئب لم يصل بعد ..."(٥٥)

هذه هي التكتلات والتوجهات داخل جمعية العلماء المسلمين والتي جعلت طابع التذبذب يغلب على مواقفها .

لقد عابت الحركة الوهابية الكثير من ممارسات وافكار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يقول ابن باديس :

" نحن قوم مسلمون جزائريون في نطاق مستعمرات الجمهورية الفرنسوية فلاننا مسلمون نعمل على المحافظة على تقاليد ديننا التي تدعو الى كل كمال انساني ونحرص على الاخوة والسلام بين شعوب البشر (...) ولاننا جزائريون نعمل للم شعب الامة الجزائرية واحياء روح القومية في ابنائها وترغيبهم في العلم النافع والعمل المفيد حتى ينهضوا كأمة لها حق الحياة والانتفاع في العالم وعليها واجب الخدمة والنفع للانسانية .

واننا نحب الانسانية ونعتبرها كلا ونحب وطننا ونعتبره منها جزءا ونحب من يحبه ونحب من يحبها ويخدمها . ونبغض من يبغضها ويظلمها " (٥٦)

اهداف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين :

١- الدفاع عن اللغة العربية ،وقد كان هذا عنصرا مهما في البرنامج الثقافي للجمعية وقد جمعت مدارس الجمعية ما بين ٢٤، (-٢٥، (حوالي ٣٠٠٠٠ تلميذ جزائري ، على الرغم مما جابهته من مشاكل من قبل الادارة الاستعمارية من غلق وملاحقة المدرسين ، والمضايقات السياسية والمادية ... الخ

يقول محمد تقية :

" كانت حركة العلماء الثقافية والدينية كفيلة بمضمونها الحديث العصري ،المرتبط بتاريخ اراد المستعمر محوه بايقاظ وعي الشباب : كالكشافة الاسلامية ،وتوجيهه نحو النشاط السياسي داخل حركة التحرر الوطني " (٥٧)

٣- دعت الجمعية الى الحريات الدينية وفصل الدين عن الدولة . ورغم انها كانت تدعو الى تعليم اللغة العربية ، فقد كانت الجمعية تحرص كل الحرص ان لا تعطي "للعروبة" مضمونا خارجا عن المضمون الثقافي . وهي تدعو الى الابتعاد كل البعد عن الفهم العنصري الذي من شأنه ان يمزق اجزاء الوطن" (٥٨)

٤- على الرغم من مهادنة الاستعمار ، فقد وقفت جمعية العلماء خاصة جناحها الوطني المسيس ، ضد الاندماج الثقافي الذي كانت تدعو اليه البورجوازية الجزائرية المتكونة في المدارس الفرنسية ، ولخطر سيلان لعاب هذه البورجوازية على الاندماج ، مقال فرحات عباس "فرنسا هي أنا" (وقد اشرنا اليه سابقا) .. وقد كتب الشيخ عبد الحميد بن باديس مقالا بعنوان "كلمة صريحة" ردا على فرحات عباس يكذب فيه اطروحاته السياسية الخطيرة قائلا :

"اننا فتشنا في صحف التاريخ وفتشنا في الحالة الحاضرة ، فوجدنا الامة الجزائرية المسلمة متكونة موجودة كما تكونت ووجدت كل امم الدنيا ، ولهذه الامة تاريخها الحافل بجلائل الاعمال ولها وحدتها الدينية واللغوية ، ولها ثقافتها الخاصة وعوائدها واخلاقها بما فيها من حسن وقبيح ، شأن كل امة في الدنيا .

ثم ان هذه الامة الجزائرية المسلمة ليست هي فرنسا ، ولا يمكن ان تكون فرنسا ، ولا تريد ان تصير فرنسا ، ولا تستطيع ان تصير فرنسا لو ارادت . بل هي امة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها ، وفي اخلاقها وفي عنصرها وفي دينها ، لا تريد ان تندمج ، ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة والذي يشرف على ادارته السيد الوالي العام المعين من قبل الدولة الفرنسية" (٥٩) .

كما ان جريدة "الشهاب" ردت على الروائي الكاتب "الجزائري" ذي النزعة الاندماجية : رابح زناتي صاحب جريدة "الصوت الاهلي" الاندماجية ، والتي كانت تدعو الى التجنس ، وتروج لدور فرنسا "التحضيري" !! وفي ردها على بعض اراء هذه الصحيفة قالت الشهاب :

"ان المتجنسين ينتمون الى جماعتنا الاثنية ، احبوا ذلك ام كرهوا ، نحن مشدودون اليهم دائما بواسطة رابطة الدم حتى وان كانوا هم يريدون قطع هذه الروابط (...) اننا نعرف زناتي الذي انكشفت حقيقته (...) فبعد ان يذوقوا (اي المتجنسون)

مرارة المهانة والذل ، قد يدركون حقا المستقبل ، وكل الاشاعات المغرضة التي تروج للتجنيس آنذاك يتداركون امرهم " (٦٠) وقد اصدرت الجمعية فتوى دينيـــة في ١٩٣٨/١/٣ اوت تحرم التجنس والاندماج الديني والثقافي . وقد عاشت الجمعيـة اول حلقات التصادم وخيبة الامل مع المنتخبين الجزائريين في جوان ١٩٣٦ حين رفع المنتخبون عارضة الى الحاكم العام " الجنرال جول كارد " (JULES CARDE) يوضحون فيها موقفهم مما يسمى ب " جمعية العلماء المسلمين الجزائريين " اذ اكـدوا ان هذه الجمعية هي عبارة عن عصابة من المرتزقة الجهلة ، الذين يمصون بأمـوال وعقول الاهالي ولا يملكـون اية ثقافة او علم يخول لهم تحقيق ما يدعونه . وطالبت المعارضـة من الحاكم العام عدم استقبال هؤلاء " الدجالين " وعدم الاخذ بآرائهم ، فهـــم لا يمثلون الشعب الفرنسي ، من سكان الجزائر المسلمين ! ! (٦١)

ويتحدد مفهوم " الامة الجزائرية " في نسق ايديولوجية جمعية العلماء المسلمين من :

١ـ عنصر " الامازيغ " (البربر) الذي احتفظ بوجوده قبل الاسلام في وجـــه حملات الاحتلال الاجنبي فأكد اصالته . واقرت الجمعية بوضوح " الخصوصية " الاثنيـة للبربر كعرق .

٢ـ عنصر العرب الذي امتزج بالامازيغ في ظل الاسلام ، لا فرق بين هؤلاء جميعا يقول ابن باديس :

" ان ابناء يعرب وابناء امازيغ اتحدوا بواسطة الاسلام منذ اكثر من عشرة قـــرون ، وعلى امتداد هذه القرون ، لم يكفّوا على ان يكونوا متلاحمين اكثر بعضهم ببعض في السراء والضراء (. . .) فهم يشكلون منذ العصور الخالية عنصرا اسلاميا جزائريا : حيث الام هي الجزائر والاب هو الاسلام " (٦٢)

وظلت جمعية العلماء في اطار ايديولوجيتها الاصلاحية تؤمن بأن " الامـــة الجزائرية " رغم حضورها ، ونمو عناصر تكوينها ، فانها ليست في مستوى تسيير امورها المصيرية يقول ابن باديس :

" ان الامة الجزائرية امة ضعيفة متأخرة ، فنرى من ضرورتها الحسنة ان تكون في كنف امة قوية عادلة متمدنة لترقيتها في سلم المدنية والعمران ، ونرى هذا في فرنســـا

التي ربطتها بها روابط الوّد والمصلحة . فنحن نخدم للتفاهم بين الامتين ونشرح للحكومة رغائب الشعب الجزائري ، ومطالبها بصدق وصراحة بحقوقه ولا نرفع مطالبنا ابدا لاحد غيرها " (٦٣) .

لم تدخل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الميدان السياسي بصورة واضحة الآ في سنة ١٩٣٦ حين دعت الى المؤتمر الاسلامي .

وكان هذا التحول طبيعيا اذ ان الجبهة الشعبية التي حكمت فرنسا في هذه الفترة اطلقت في حدود ما يمكن ان يقوم به جهاز استعماري ، الحرية الصحافية والاعلامية والثقافية ، وعادت التنظيمات للممارسة السياسية بنوع من الوضوح . وعلى هذا لاحظنا ان الجمعية بدأت تتحول من مجرد جمعية دينية ثقافية خيرية الى حزب سياسي ، على الرغم من ان المادة الثالثة من ميثاقها الاساسي تمنع التدخل في اية مسألة سياسية .

وظلت الجمعية في حدود امكانياتها النظرية والفلسفية تطور اطروحاتها السياسية والاجتماعية خاصة بعد ان بدأت علاقاتها مع الشيوعيين في مايو ١٩٣٦ .وقد انعكست هذه العلاقة في الصحف الكولونيالية فبدأ الاستعمار يبحث عن نقطة ضعف لضرب كل برنامج وطني مشترك بين فصائل الحركة الوطنية الجزائرية ، فشرعت الصحافة تصف علاقة " العلماء " بالشيوعيين بأنها علاقة مع " الكفار " والملحدين " وذلك املا في تفتيت القاعدة المسلمة التي تملكها جمعية العلماء المسلمين ولتحطيم كل برنامج اجتماعي سياسي جزائري وطني موحد (٦٤).

وعلى الرغم من هذا النضال وهذا التطور الذي طرأ على الجمعية ، خاصة موقف الجناح النقابي السياسي الوطني فيها ، الآ ان الوطنية كأيديولوجية لم تتحدد لدى الجمعية بوضوح ، خاصة في صورتها السياسية والاجتماعية ، اذ ان الجمعية ، كانت لها رؤية غامضة عن تطور الرأسمالية الكولونيالية ، وتطور البنى الاجتماعية في المستعمرة ، وتوسع وانتشار الفكر الاشتراكي في العالم (٦٥) .

لقد ظلت الجمعية تراوح في مكانها الايديولوجي السياسي ، رغم تطور الحركة الوطنية الاخرى ، وقد تطور ونضج الوضع الاستعماري ، حتى سنة ١٩٥٦ ، حيث اصدر الشيخ البشير الابراهيمي رئيس الجمعية ، الذي خلف ابن باديس بعد وفاته سنة ١٩٤٠ ، من

التي ربطتها بها روابط الودّ والمصلحة . فنحن نخدم للتفاهم بين الامتين ونشرح للحكومة رغائب الشعب الجزائري ، ونطالبها بصدق وصراحة بحقوقه ولا نرفع مطالبنا ابدا لاحد غيرها " (٦٣) .

لم تدخل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الميدان السياسي بصورة واضحة الا في سنة ١٩٣٦ حين دعت الى المؤتمر الاسلامي .

وكان هذا التحول طبيعيا اذ ان الجبهة الشعبية التي حكمت فرنسا في هذه الفترة اطلقت في حدود ما يمكن ان يقوم به جهاز استعماري ، الحرية الصحافية والاعلامية والثقافية ، وعادت التنظيمات للممارسة السياسية بنوع من الوضوح . وعلى هذا لاحظنا ان الجمعية بدأت تتحول من مجرد جمعية دينية ثقافية خيرية الى حزب سياسي ، على الرغم من ان المادة الثالثة من ميثاقها الاساسي تمنع التدخل في اية مسألة سياسية .

وظلت الجمعية في حدود امكاناتها النظرية والفلسفية تطور اطروحاتها السياسية والاجتماعية خاصة بعد ان بدأت علاقاتها مع الشيوعيين في مايو ١٩٣٦ . وقد انعكست هذه العلاقة في الصحف الكولونيالية فبدأ الاستعمار يبحث عن نقطة ضعف لضرب كل برنامج وطني مشترك بين فصائل الحركة الوطنية الجزائرية ، فشرعت الصحافة تصف علاقة " العلماء " بالشيوعيين بأنها علاقة مع " الكفار " والملحدين " وذلك املا في تفتيت القاعدة المسلمة التي تملكها جمعية العلماء المسلمين ولتحطيم كل برنامج اجتماعي سياسي جزائري وطني موحد (٦٤) .

وعلى الرغم من هذا النضال وهذا التطور الذي طرأ على الجمعية ، خاصة موقف الجناح النقابي السياسي الوطني فيها ، الا ان الوطنية كأيديولوجية لم تتحدد لدى الجمعية بوضوح ، خاصة في صورتها السياسية والاجتماعية ، اذ ان الجمعية ، كانت لها رؤية غائمة عن تطور الرأسمالية الكولونيالية ، وتطور البنى الاجتماعية في المستعمرة ، وتوسع وانتشار الفكر الاشتراكي في العالم (٦٥) .

لقد ظلت الجمعية تراوح في مكانها الايديولوجي السياسي ، رغم تطور الحركة الوطنية الاخرى ، وقد تطور ونضج الوضع الاستعماري ، حتى سنة ١٩٥٦ ، حيث اصدر الشيخ البشير الابراهيمي رئيس الجمعية ، الذي خلف ابن باديس بعد وفاته سنة ١٩٤٠ ، من

القاهرة التي استقر بها منذ بداية الخمسينات ، بيانا يؤيد فيه الثورة المسلحة ويدعو فيه اعضاء الجمعية الى الالتحاق بجبهة التحرير الوطني .

مما جاء في البيان :

" ان هناك استحالة لحل القضية الجزائرية حلا نهائيا وسلميا ، ما لم يعترف علانية وبلا رجعة بالوجود الحر للامة الجزائرية وشخصيتها الخصوصية وحكومتها الوطنية وجمعيتها التشريعية الحرة ." (٦٦) .

٤- محاربة النزعة المرابطية الظلامية الخرافية المرتبطة مع كبار المالكين والاقطاعيين والعناصر النبيلة المرتشية المرتبطة مع الاستعمار .

كتب ابن باديس قائلا :

" المرابطون حيوانات الاستعمار الدجنة ، فهم اليد التي تنفذ الاوامر المشؤومة والجسر الذي يفتح له الطريق، وما انفكوا يناقضون الله في ظهورهم بمظهر الانفة امام الشعب والعبودية امام المستعمرين والرؤساء الاداريين الطغاة " (٦٧) .

وقد شنت الجمعية حربا طاحنة ضد الائمة الرسميين الذين كان اغلبهم (او كلهم) ، اعضاء في جهاز المخابرات الفرنسية القمعية .

خلاصة :

========

شارك العلماء في " المؤتمر الاسلامي (الاول والثاني) ٣٦، ٣٧ ١٩، ١ ، مطبقين بذلك سياسة تحالف وطني الى جانب الشيوعيين والليبراليين ، مطالبين بتطبيق مشروع - " بلوم فيوليت " الاندماجي - الاصلاحي ، وذلك في زمن سلطة الجبهة الشعبية في فرنسا، رافضين التجذر الثقافي والايديولوجي والديني واللغوي ، على الرغم من ان المصريين ، اي البورجوازية الكولونيالية وقفت ضد مشروع " بلوم فيوليت " واجهضته . ولقد كان مشروع بلوم فيوليت " على الرغم مما جاء فيه . . . في ظل الجبهة الشعبية التي بدأت تشعر الوسط الجزائري داخل المستعمرة بنوع من الليبرالية ، خطوة اولى نحو تهيؤ المناخ السياسي لمطالب اكثر عمقا .

وعلى العموم لقد كان للجمعية دور كبير في شحذ الوعي الوطني ، ورفع ميزان القوى الاخلاقي لدى الاهالي ، خاصة ما فعلته شخصية عبد الحميد ابن باديس ، (والجناح اليساري الاسلامي داخل الجمعية .) وتأثيره في الاوساط الفلاحية المسلمة الفقيرة

بأسلوبه السياسي والايديولوجي المرن والواضح والجمهوري الديمقراطي . ولقد كانت جنازته تظاهرة وطنية كبيرة ، اكدت ان الشعب الجزائري يحمل حبا كبيرا لهذا الرمز الذي هو " الثقافة التقليدية " بما فيها من عناصر " الايجاب " و " التخلف والسلب " ، لكنها تبقى ثقافة مضادة للاستعمار، كجهاز اقتصادي وثقافي قمعي استغلالـــــي مرتبط مع الامبريالية العالمية .

وعلى الرغم من تأثير الجمعية داخل الاوساط المسلمة الفقيرة تأثيرا شعبيا حماسيا ، الا ان تأثيرها السياسي الكبير كان داخل الاوساط البورجوازية الاسلامية المتعلمة والجماهير المدينية التي لم تمسها تأثيرات فصائل الحركة الوطنية الاخرى الاكثر تجذرا في فهمهـــــا المسألة الوطنية (٦٨).

ان ايديولوجية جمعية العلماء ، كانت تهدف منذ ١٩٣٥ تقريبا (خاصة بجناحها الوطني الاسلامي) الى البحث عن سبل ربط المسألة الوطنية بالدين ، لكن هـــذا الربط كان في كثير من المرات غير متجذر وغير مطروق في اطار برنامج سياسي واضح ، وعلى الرغم من " شعبيتها " ، وهو الشيء الذي جعلها تتخلف عن ركب الحرب التحريرية ، وهذا ناتـج على ان الفكر الاصلاحي لا يملك ادوات تحليل نظرية ، يستطيع بواسطتها فك تعقيدات مرحلة تاريخية ، كمرحلة الجزائر المستعمرة ، (ما بعد الحرب العالمية الثانية خاصة). ولذا لاحظنا تأكيد ابن باديس الواضح على الحفاظ والدفاع على " الملكية الخاصة ، وهذا الدفاع هو جزء من التفكير الاصلاحي الديني وهو جزء من انعكاسات الجذور الطبقية لهذا الزعيم نفسه ، يقول ابن باديس عن الملكية الخاصة :

" هي جزء من البدن ، (يجب على الانسان ان يدافع) عنها كما يدافـــع عن جسده " (٦٩)

وحين كانت الحركة الوطنية بفصائلها الاخرى تدعو الى " الحرب المسلحة " ، اعتبرت هذه " الجمعية " هذا الموقف هـ ـــدامـــــا ، وان الذين يروجـــون له مجرمون .

ان الاستقلال الذي نرغب فيه لا يتعلق ابدا بالاستقلال الذي يحلم به " خصومنا المجرمون " اي الاستقلال بالنار والدم ، ان الاستقلال سنناله بمرور الزمن وبمساعدة فرنسا " .(٧٠)

ان اهم عمل قامت به الجمعية هو خلق حاجز نفسي في وجه التجنس والتفرنس والاندماج ، وهو عمل قدم للثورة رجالا وجنودا يملكون حصانة نفسية ضد الايديولوجية الادماجية .

= = = = = =

٣ التيار الشيوعي
من الخبز الى "الحرية

١ــ يعد العمل الجماعي من اقدم خصائص التكوين الديمغرافي ــ الاقتصادي الزراعي في الجزائر، وهو احد السمات الاساسية للنشاط الحياتي لدى شعب المستعمرة. فحين وجدت هذه الامة الكادحة نفسها امام علاقات كولونيالية معقدة ومجهزة تجهيزا مكينا بآلاتها القمعية ،كان لزاما على ابنائها المفقرين ان يتكاتفوا اكثر، لان العمل الجماعي هو الدرع الوحيد لحفظ الكيان من الذوبان والموت امام "غول" الاستعمار برأسماله الاقتصادي والثقافي الجشع .

ونظرا للطابع الزراعي للمستعمرة ،فقد استطاع الريف الجزائري ان يخلق تقاليد تاريخية-اقتصادية ــ زراعية للعمل الجماعي ،لان هذا القطاع كان اكثر القطاعات الحيوية اهمية بالنسبة للاستعمار ،وكان اكثرها تعرضا لهتك التقاليد والاعراف الفلاحية ــ الاجتماعية السائدة." ومن اهم تقاليد العمل الجماعي الفلاحي "التويزا" التي هي نموذج تاريخي عريق للتعاون الفلاحي الريفي تدرب عليه الفلاحون من اجل التغلب على عقم عمل الفرد في مواجهة التفقير والتكديح الاستيطانيين الاستعماريين ،ولقد كانت "التويزا" تقليدا عمد اليه الفلاحون من اجل التغلب على الحاجة الى وسائل الانتاج (المحراث ــ البغال ــ الحصير .. الخ) او "القوى العاملة" خاصة بعد ان بدأ الاستعمار في العشرية الاولى من القرن العشرين تجنيد ابناء الفلاحين في صفوف قواته اجباريا .

" امام هذا كان المجتمع الجزائري في بنيته العامة ــ الاقتصادية ــ البشرية حقلا خصبا لزرع افكار عن العمل الجماعي ،والعدالة الاجتماعية ،ومن خلال هذه المقدمة سوف ندرس، كيف بدأ بتشير الافكار العلمية (الماركسية اللينينية) في هذا المجتمع، ثم كيف بدأت تعطي ثمارها داخل البروليتاريا الجزائرية ،ومن ثمة الدور الذي قامت به طليعة البروليتاريا ممثلة في حزبها الماركسي اللينيني "الحزب الشيوعي الجزائري" باعتباره جزءا لا يتجزأ من الحركة الوطنية الجزائرية في نجاحاتها ونكساتها عبر تلك الفترة الطويلة من النضال" (١٢٠ (١ــ ٤ــ ١٩٥٤)) ،ومن ثم كيف كانت لهذه الافكار آثارا هامة وواضحة في الاعمال الروائية لكتاب كانوا جنودا مجندين داخل هذا التنظيم الوطني الذي يشكل جزءا بارزا في رقعة تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية منذ انطلاقتها وحتى سقوط وانهيار آليات الاستعمار السياسية والعسكرية والاقتصادية .

١ــ شرع الحزب الاشتراكي الفرنسي (الحاكم حاليا)،حين انشأ تنظيمه داخل المستعمرة (الجزائر) عام ١٩٠٨ ، في الاهتمام بالمسألة الاهلية ،اذ اتضح من خلال ادبياته السياسية ــ الاعلامية وبرامجه وخططه (٧١) انه يبعد عن طريق

في اتجاه خرن القوى المسلمة (الاهالي)، فشرع في الدعوة الى تحسين الاوضاع المادية للاهالي خارج الاطروحة الوطنية ،اي تحت سقف الاستعمار .

ـ "..ان حزبا جديدا تكون في الجزائر ،هو الحزب الاشتراكي والذي سيعالج مسألة الاهالي "على ضوء النظرية الاشتراكية ،وسيبحث على اي مستوى ،وبأية وسيلة لتحقيق ذلك ،ان الاشتراكية تستطيع ان ترفع الوعي المادي والاخلاقي للبروليتاريا الجزائرية "(٧٤)

لقد بدأ الفقر الذي يجتاح الامة الجزائرية وينهش ابناءها (الاهالي) يقلق الاشتراكيين ،ولكن هل درست هذه الوضعية من قبل ماركسيين مخلصين ؟...

ان النزعة الاصلاحية التي ظهرت بها ادبيات الحزب تجعلنا نشك في ذلك،فلقد تجاهل الحزب الاشتراكي القضية الوطنية الجزائرية (٧٣) وركز نشاطاته السياسية وبرامجه على بعض المطالب الاصلاحية في اطار الاستعمار والتي لاتمت للطرح الماركسي بأية صلة . وقد اعلن الاشتراكيون في فرنسا مرة ،ملتقين في ذلك مع الموقف الليبرالي الفرنسي ، والطبقة الفرنسية "النبيلة " و "اسر الصالونات الفرنسية"،بأن فرنسا لم تقم بغزو "اخلاقي "!! اذ كان من المفروض عليها كبلد متحضر ان تقوم بهذا الدور ."(٧٤)

ان النهضة الوطنية التي كانت تعيشها بلدان المشرق ،عشية الحرب العالمية الاولى ،دفع بالاممية الشيوعية الى الاهتمام اكثر فأكثر بالمسألة الاسلامية ،وتسليط الضوء على البلدان الاسلامية الرازحة تحت نير الاستعمار . فبعد انتصار ثورة اكتوبر ١٩١٧ تكونت بموسكو " لجنة تحرير الاسلام " سنة ١٩١٨ ،وفي السنة التي تلتها ان في العام ١٩١٩ اسس لينين " المحافظة الخاصة بشؤون المسلمين " وكذا اكاديمية خاصة بالعلوم الاسلامية والفكر الاسلامي ،وفي السنة نفسها عقد مؤتمر المنظمات السياسية الدينية الاسلامية في (KAZAN) (كازان)،اصدر في ختام المؤتمر فتوى اعتبر فيها الجمهوريات السوفياتية صديقة المسلمين وحامية الاسلام ووزعت مناشير في الجزائر تحمل نص هذه الفتوى (٧٥).

اما في المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية الذي انعقد في: ٢٣/٧ حتى اوت ١٩٢٠، والذي رحب بدخول وانضمام احزاب شيوعية جديدة الى الاممية، فقد اكد لينين على المسألة الوطنية وقضية الاستعمار بشكل واضح :

"يجب التمييز التام والجذري بين الشعوب المستغلة (بفتح اللام) والشعوب المستغلة (بكسر اللام) .. وضرورة مساندة ومساعدة هذه الحركات الوطنية التحررية، ولا بد ان تكون هذه الحركات غير معارضة ولا تعوق تكوين منظمات فلاحية وعمالية وشيوعية" (٧٦)

كما اكدت شروط الانضمام الى الاممية الشيوعية ضرورة الموقف المعادي للاستعمار ومساندة الحركات التحررية الثورية بكل وضوح، وقد طرح السيد انور خوجة (ANVER KODJA) سنة ١٩٢٠ امام مؤتمر الاممية مطالب الشعوب التي يمثلها قائلا :

"... انني اعلن امامكم، بأن التنظيمات الثورية في المغرب والجزائر وتونس ومصر ... التي اوفدتني ممثلا لها، ... توافقنا ... تدرك جيدا، انه حين توضع كل الوسائل الثورية في يد هذه الحركات فانها تستطيع ان تحطم اسنان كل الوحوش المفترسة وتجعلها مشلولة .." (٧٧).

وقد كتبت صحيفة (صدى وهران) عن تأثير الفكر الشيوعي والثورة الاشتراكية في روسيا، على الوضع في الجزائر وعلى البروليتاريا الاهلية خاصة قائلة :

"بعض الاهالي استطاعوا غناء النشيد الاممي ورفع العلم الاحمر، اننا نلاحظ ان الدعاية للنظرية البولشفية قد راجت في الجزائر ..."

وفي مداخلة الحزب الاشتراكي الفرنسي امام الاممية الثالثة اكدت نوايا هذا الحزب وعدم قدرته على فهم وتحليل المسألة الوطنية، واكدت في ذات الوقت ابتعاده عن الاطروحات الماركسية والغوص في الاطروحات الاصلاحية الليبرالية :

".. على الامبرياليين مغادرة المستعمرات، هذا لا يعني ابدا : غادروا التراب الجزائري، لان الاصول والاعراق ممتزجة هنا، وهناك ارتباط اقتصادي.

ان هذه المقولة او هذا الخطاب في لهجته ومضمونه لا يختلف عن قول الجنرال فيوليت ؛ حين نزل الى الجزائر في ٢٧/ مارس/ ١٩٢٥ معلنا بدء الاحتفالات بالذكرى المئوية للاستعمار " :

" اننا نحتفل بالذكرى العظيمة .. العلم الفرنسي يغطي الجزائر ويحميها ويدعوها الى الحضارة والحياة الجديدة المتحضرة ... "

ويواصل ممثل الحزب الاشتراكي قوله امام الاممية الثالثة :

" ان سنة ١٩٣٠ ليست سنة ١٩٢٠ ، ان الامر يتعلق بتحرير المستعمرات من الاساليب الامبريالية وليس مغادرتها .. "

الحزب الشيوعي الفرنسي والمسألة الوطنية

يقـول ستالين :

" الاستعمار هو اوقع استثمار ممكن ، وافظع اضطهاد واكثر خلوا من الانسانية استثمار واضطهاد مئات الملايين من سكان المستعمرات الشاسعة والبلاد التابعة ، نهـب الارباح الخارقة، هذه هي غاية هذا الاستثمار وذلك الاضطهاد ، ولكن الاستعمـار باستثماره هذه البلاد ، يكون مرغما على ان يشيد فيها السكك الحديدية والمعامـل والمصانع ، ومراكز الصناعات والتجارة ، وتكون النتائج المحتومة لهذه السياسة ظهـور طبقة من العمال الكادحين (البروليتاريين)، ونشوء مثقفين من اهل البلاد الاصليين ويقظة الضمير الوطني " (٨٠) .

على هذه الاطروحة بدأ الوعي الوطني يتشكل، ويتعزز ويشتد ، وبدأت قوافـل المثقفين الوطنيين تجيء معبأة بالوعي الصحيح ، ومشكلة روءيتها وايديولوجيتهـا وثقافتها ذات الارتباط المباشر مع تربة هذا الوطن وشمّ جماهيـره . ونظـرا لشمولية الفكر العلمي وارتباطه بالطبقات المسحوقة، نلاحظ نمو مجموعات واسعة مـن المثقفين الجزائريين (روائيين - كتاب - صحفيين) داخل هذا الفكر وانعكاس ذلك على اعمالهم الفنية (الرواية). وسيكون للحزب الشيوعي الفرنسي والحزب الشيوعي الجزائـري فيما بعد تأثير على هوءلاء المثقفين وعلى ابداعاتهم مباشرة ، ومن هنا رأينا ضرورة تتبع اهـم المحطات التاريخية لهذا الفكر الشيوعي وعلاقته بالمسألة الوطنية ,التي هي جوهـر القضية في مرحلة الاستعمار السياسي والعسكرى والاقتصادى، ان الاستعمار بمفهومـه التقليـدي .

في موءتمره الاول بمرسيليا عام ١٩٢١، كان الحزب الشيوعي مترددا في طرح المسألة الوطنية بصورة واضحة، لكنه شكل لجانا ومجموعات سياسية للدعاية ضد الاستعمـار، وكلفها بدراسة ظاهرة الاستعمار كظاهرة اقتصادية تاريخية وحلقة من حلقات ازمـة البورجوازية العالمية والنظام الرأسمالي عامة .

كان الشيوعيون يسعون رغم كل شيء الى جر الاهالي الى اعتناق الافكـار العلمية، وقد وجدوا في الوضع المأساوي الذي تعيشه غالبية الاهالي الفلاحية والعمالية التي سكنت اطراف المدن (الاوروبية: وهران - الجزائر العاصمة . .) وشكلت علـى

جوانبها احياء فقيرة لا تتوفر فيها ادنى حدود الحياة الانسانية ، (جدوا هذه الحالة) مدخلا وطريقا الى اقتحام صفوف هذه البروليتاريا الاهلية ، وقد استطاعوا ان يكسبوا بعض الاهالي على الرغم من الدعاية التي كانت تطلقها النخبة البورجوازية الجزائرية والتي تعتبر " الاسلام " و " البولشفية — الماركسية " امرين مختلفين تماما بل متناقضين ولا يلتقيان ابدا . (٧٦)

وفعلا ، بدأت الحركة العمالية والنقابية الفرنسية تخلق حلفاءا السياسيين بفعل العمل الحزبي المنظم (عمال السكك الحديدية) وبدأ العمال الاهالي يستجيبون لنداءات الاحزاب التي يقودها الحزب الشيوعي سواء داخل المستعمرة او في المتروبول .

في اول مايو / آيار ١٩٢٠ بوهران كانت المظاهرات التي نظمها الاهالي بمناسبة عيد العمال مسلحة بالهراوى وقد خرج المتظاهرون رافعين الاعلام الاسلامية الى جانب الاعلام الحمراء . .

" مسلحون — يحملون بأيديهم هراوى الحاسدات (..العلم الاحمر يرفرف فوق الرؤوس . اقتحموا المدينة وهاجموا العمال الفرنسيين الذين لم يلبوا نداء الاضراب . . "

وبدأت الحلقات الشيوعية تتسع وبدأت اطروحاتها السياسية تمس المسألة الوطنية والوضع الاجتماعي في حقيقة مأساته ونجل في سنة ١٩٢٠ دخول مجموعة من المثقفين الاسبان الشيوعيين للعمل الدعائي السياسي ضد الاستعمار والدكتاتورية .

وبدأ جلد الاستعمار يتحسس الوضع الجديد الذي ساد الوسط الاهلي من جراء نتائج عمل الحزب الشيوعي والحركة العمالية في الجزائر وبدأت السلطات الاستعمارية في محاصرة العمل السياسي الشيوعي وقمع وملاحقة المناضلين الماركسيين والنقابيين . . اذ حوكم الشاب (" بوردلة " لكونه شارك في مؤتمر الشبيبة الشيوعية الذي انعقد في سانت لوسون ( ) . وكذا اتخذت السلطات الاستعمارية احتياطات ضد الطالب البولوني " تشيفيكلينسكي ( ) لانها عثرت على مجموعة من المناشير البولشفية في حوزته . . .

وفي هذه الفترة سجلت انخراطات العديد من الاهالي في الحزب الشيوعي ، فكتبت (صدى الجزائر) سنة ١٩٢٢ بمناسبة احتفالات فاتح ماي ،عيد العمال :

" الفان من المسلمين يتظاهرون تحت الراية الحمراء ... "

ومن اجل تشمير وتفريغ الافكار الماركسية اللينينية في الاوساط الجماهيرية البروليتارية الاهلية فقد تكونت في ٢٢ مارس ١٩٢٥ الجبهة الجزائرية للحزب الشيوعي الفرنسي من المناضلين الاوروبيين وعدد قليل من المسلمين ،وذلك بهدف احتضان نضالات البروليتاريا الاهلية ضد الرأس مال الكولونيالي واحتضان نضالاتها الوطنية ضد الاستعباد الاستعماري وتأطير مبادراتها السياسية والمطلبية في منظمة سياسية صلبة ايديولوجيا وتسليحها بالفكر الاشتراكي العلمي " (٨٠) .

كتب مارتينيير انه منذ سنة ١٩٢٢ ،عثر البوليس الاستعماري " على منشورات الانضمام الى الحركة الشيوعية العالمية في منطقة القبائل ،وهذه المنشورات ،التي كانت مطبوعة بمرسيليا ،كانت مدحا للينين ونظامه " ..

وفي وهران "نادى عمال الموانئ " بالاضراب احتجاجا على السياسة الفرنسية المعادية للثورة الاشتراكية في روسيا ،وفي قسنطينة قام عمال السكك الحديدية (بسابوتاج)-تخريب ، اسفر عن خسائر مادية ومكلفة .

وقد بدأ الاستعمار يدين التعاون " البلشفي - الاسلامي للقضاء على نظامه ، واكد الكاتب الانجليزي :" وورشام " في اوائل سنة ١٩٢٢ اعتماد الشيوعيين توظيف الدين كايديولوجيا ،وحاولت فرنسا الايقاع بين الشيوعيين والمسلمين . (٨١)

وفي وهران جرت استعراضات كبيرة ،اخطب زعماؤه الوان وتكلموا بالعربية في خطبهم امام الجماهير ،مما يدل على ان الكثير من المشاركين كانوا جزائريين ،اما في " سوق اهراس " فقد اتخذت الاستعراضات شكلا عنيفا وذلك بمناسبة الاحتفالات بعيد العمال الفاتح من ماي ١٩٢٠ .

وفي سنة ١٩٢٥ بدأت مطاردة الشيوعيين من الجزائر من قبل الحاكم فيوليت باعتبارهم معارضين ومجرمين ،حين تثبت تجريدتهم (الصراع الاجتماعي) محيية جنود الريف المغربي قائلة " ايها الاهالي ،لاتنسوا ان كل رصاصة تنطلق

من فوهة بنادقكم تحمل في طياتها امال الحرية " (٨٢) ، ولم يخف الجنرال فيوليت جهدا في التخلص من معارضيه من الشيوعيين " معتبرا كل لون احمر شعارا للشيوعيين وكل ظل شبحا شيوعيا " (٨٣)

وقد عرقل فيوليت نمو الحركة الشيوعية في الجزائر بعد الوقت بقمعه لها قمعا واضحا فالتزمت العمل السرى ولجأت الى فرنسا (٤٤) .

هكذا وفي ظل هذا القمع واصلت الافكار العلمية نموها وتكاثرها تجاوبا مع طبيعة الواقع الجزائري في تعقيده وحركيته وخصوصيته ، فدخل الحزب الشيوعي في حرب مع الاستعمار ، اذ كتبت (الراية الحمراء) في فبراير عام ١٩٢٧ " يسقط الاستعمار يحيا استقلال الجزائر " (٨٥) كما ادانت الجريدة التمثيل البرلماني الكاذب والاستعمار الذي يحبط القوة الوطنية ويفتتها ، فتم توقيف جريدة الحزب (الصراع الاجتماعي) من مارس ١٩٣٠ حتى فبراير ١٩٣١ .

وفي فرنسا بدأ الحزب الشيوعي الفرنسي تجنيد الجزائريين الى صفه ومن بين اولئك : حاج علي عبد القادر ، محمد بن الاكحل ، وقد دخل حاج علي الانتخابات على منطقة باريس سنة ١٩٢٤ ، وهما اللذان (اى حاج علي وبن الاكحل) اسسا فيما بعد التنظيم الوطني " نجم شمال افريقيا " (٨٦) .

وعشية الاحتفال بالذكرى المئوية للاستعمار ، كان الحزب الشيوعي يشن حملة شعواء ضد الاستعمار والامبريالية الفرنسية ، وعندما وصل الرئيس الفرنسي الى الجزائر لاحياء هذا الاحتفال الصقت مناشير بالعربية والفرنسية تندد بهذه المناسبة وكان الحزب الشيوعي وراءها .

وقد اتهم الكولون الامير خالد بالتعاون مع الشيوعيين وانه عميل لهم ، وسخروا من خلفائه واشاروا بهزء الى انه بعد فشله في ان يكون خليفة الاسلام في افريقيا ، حاول ان يكون : المهدي المنتظر للبلشفية في افريقيا الشمالية وسموه : طرقيا يريد ان يقود اتباعه ومريديه الى " زاوية لينين " .

وفي سنة ١٩٢٤ ، طالب الكولون الحكومة الفرنسية باجراءات مناسبة لانقاذ مصالحهم من " الخطر " الشيوعي واقترحوا ما يلي :

١- " على السوفيات ان لا يفتحوا قنصلياتهم في الجزائر وتونس والمغرب .

٢- مراقبة تامة للمناشير .

٣- وجوب تخليص الاهالي الجزائريين من الملشفية التي ستكون بالنسبة اليهم مثل افكار " المهدي المنتظر " الثورية .

٤- تكوين لجنة للدعاية والعمل من اجل افريقيا الشمالية هدفها ابقاء المصالح الاستعمارية ومحاربة الشيوعية . "

وقد استعمل الكولون عبارة " ضد الشيوعية " وهي عبارة مشهورة رددها وزير الداخلية الفرنسية موريس سارو (MAURICE SARRUT) في ٢٢ / / افريل ١٩٢٧ .

" LE' COMMUNISME VOILA L'ENNEMI ! " (٨٧)

وحين عقد نجم افريقيا مؤتمره الاول في باريس (ديسمبر ١٩٢٤) .. كان رد الفعل من قبل الكولون سريعا وساخرا ، فقد سموهم بـ " جنود الجيش الاحمر " مشيرين بذلك الى التأثير الشيوعي في صفوفهم وافكارهم ، كما اطلقوا عليهم اسم " انكشارية الحزب الشيوعي " (٨٨)

كما طالب الكولون من الادارة الاستعمارية ايقاف جريدة " الاقدام " لانها خطيرة وشيوعية .

ولم يكن هذا التخوف الاستعماري من الشيوعية بدون مبرر، بل كان الاستعماريون يدركون جيدا ان هذه الافكار حين تدخل الى الجزائر وتستوطن هذه الرقعة وتجد لها اصحابها من تربة البلاد الاصلي، سوف تفجر الوضع وتقلب كل معادلاته الحالية ، وكانوا يدركون في ذات الوقت ان هذا ليس بالامر الصعب او المستحيل ، ان هذا التخوف والرعب من الافكار العلمية جزء من ازمة النظام الاستعماري .

وقد انتقل مرض التخوف من " بعبوع " الشيوعية من الاوساط الاستعمارية الى الاوساط الفلاحية البسيطة الاهلية في اطار استراتيجية خطط لها الاستعمار وجند لها مثقفيه ووسائله الاعلامية ومؤسساته القمعية " (٨٩)

٣- الشيوعيون والاقتراب من المسألة الوطنية:
من الاستقلالية الى البحث عن تعريب الحزب
او الاقتراب من الخطر

ادرك الشيوعيون داخل المستعمرة جيدا تطور الوعي الوطني، لكنهم لم يكونوا في مستوى انزال هذا الوعي الى العمل السياسي كتكتيك ثوري ؟ وفي هذا كتبت " الصراع الاجتماعي " لسان حال الحزب الشيوعي في ٣٠/ افريل ١٩٢١ :

" ان هناك نهضة وطنية في وعي الاهالي ."

ولم يستطع الحزب الشيوعي هضم العمل الوطني واستقلاليته، اذ وقف الشيوعيون الاوروبيون ضد النداء الاممي المؤرخ ب ٢٠/ماي /١٩٢٢ والداعية الى تحرير كل من : الجزائر وتونس والمغرب، وضرب الامبريالية الفرنسية في مواقعها الحية (٩٠) واعتبروا ان اية ثورة تقوم بها القوى الاجتماعية الاهلية في الجزائر قبل ان تقوم ثورة في فرنسا الصناعية البورجوازية الرأسمالية ما هي الا ضرب من الحماقة والخطر ..." وامام هذا الموقف الاصلاحي المتردد الذي تبنته الشيوعية الاوروبية، فقد هاجم (الطاهر بوصفة) (٩١) في المؤتمر الخامس للاممية الشيوعية سنة ١٩٢٢، الحزب الشيوعي الفرنسي، الذي يعتبر ان ثورة البولتاريا الفرنسية هي الوحيدة الكفيلة بتحرير المستعمرات .

ومن هنا بدأ الحزب الشيوعي الفرنسي يصحح من خطواته تجاه المسألة الوطنية ويقترب اكثر فأكثر نحو مسألة تعريب الحزب الذي بدأ يعيش نوعا من العزلة السياسية داخل الجماهير الكادحة .

وقد صحح مؤتمر الحزب الشيوعي الفرنسي الذي انعقد بالجزائر بتاريخ : ١٩٢٣/١/١٤، موقفه من مقرراته التي خرج بها في مؤتمر مرسيليا، والذي اعتبر ان الاهالي في ... واسوا في ... تقبل الفكر الماركسي اللينيني، وانهم على المستوى السياسي لا يشكلون وزنا . (٩٢)

وبدأت حلقات العمل الشيوعي المشتركة بين الشيوعيين الفرنسيين والشيوعيين الجزائريين تتسع وتكثر وتثمر، وبدأ الحديث عن مناضلين من الاهالي . وقد عثرت السلطات الاستعمارية في حوزة " منور عبد العزيز " حين عودته الى الجزائر عن برنامج العمل الشيوعي الخاص بالمستعمرات .

وطور مؤتمر جانفي ١٩٢٤ للحزب الذي انعقد بليون (LYON) موقفه اكثـــر تجاه المسألة الوطنية من الناحية الايجابية . وفي السنة نفسها قدم ممثل الحزب الشيوعي الفرنسي السيد جيلبو (GUIL BEOU) الى الاممية الشيوعية انتقـــادات لحزبه تجاه المسألة الوطنية والاستعمار وسجل الأخطاء التي ارتكبها في حــــق اهالي المستعمرات .

ثم خطا الحزب خطوة اخرى نحو الامام ،اذ بدأ في اصدار صحيفتــــه (الصراع الاجتماعي) (LUTTE SOCALE) بالعربية (١٣) ،وظهرت داخل قيادات الحزب شخصيات عربية او بربرية من الاهالي ،من الاكحال ـ حاج علي عبد القـادر .. الخ ،وقد شجب الحزب في مقرراته استقلال المستعمرات .

".. اننا نشدّد على هذه الضرورة في كل كبريات تظاهراتنا ..." (١٤) .

طالب الحزب الشيوعي الفرنسي الاحزاب الشيوعية الاوروبية الاخرى : الانجليزية - البلجيكية ... لتوحيد وتنسيق جهودها من اجل خلق جهاز للدعاية والتحريض السياسي ضدّ الاستعمار ،حتى تتمكن الشعوب التي تعيش الهيمنة الاستعمارية من الدفاع عن حقوقها .

وحين قنبلت دمشق من قبل الفرنسيين ،وحطت الدروز السلاح في وجه الاستعمـار الفرنسي تحت قيادة سلطان باشا الاطرش ،وقف الحزب الشيوعي الى جانب استقـلال سوريا .

وقبل الثلاثينات بدأت مقولة لينين تتأكد عن افريقيا الشمالية :

"هذه الارض ستكون مباركة بالثورة" (١٥) .

وفي سنة ١٩٢٦ وجه الحزب الشيوعي تقريره الى الاممية الشيوعية يشير فيـــه الى ان الحزب ما زال يحتوي في المغرب العربي على الاقلية الاوروبية او الفرنسية .

وفي سنة ١٩٣٢ طالب الحزب الشيوعي الفرنسي في مؤتمره السابع ان يكون الشيوعيون الجزائريون ممثلين باستقلال في الاممية الشيوعية (١٦)

اهم معالم تطور الحركة العمالية والشيوعية في الجزائـــــر

تكاد تكون تجربة الحركة العمالية والشيوعية في الجزائر ، ابرز حركة علـــى المستوى السياسي والاقتصادي ، لانها كانت تمس في برنامجها الشامل رصيدا بشريا كبيرا ، هو القوة الحية والاساسية التي يقوم عليها النظام الرأسمالي الكولونيالي ، كالطبقة العاملة الفرنسية والاوروبية والاهلية وحثالة هذه الاخيرة . من هنا تأتـــي اهميتها ، وحين كان اغلب المثقفين الوطنيين ينتمون الى القاعدة الفقيرة او الحرفيـة التقليدية مهضومة الحقوق ، مسلوبة السوق ، كان طبيعيا ان تجلب هذه الحركـــة اليها رصيدا هائلا من "الانتلجنسيا" الاهلية ، خاصة مع نهاية الحرب العالميــة الاولى " .

ويمكن تصور اهم معالم هذه الحركة العمالية والشيوعية في تاريخها كالتالي :

آ — مرحلة سيادة الافكار الاجتماعية الديمقراطية بخصوص المساواة الوطنيـة ، استمرت من ١٩٢٤ — ١٩٢٦) ، وتعتبر هذه المرحلة من انسب المراحل واهمها ، اذ كانت الحلقة الاساسية والرئيسية في بداية غرس واستثمار الافكار الديمقراطيــة والوطنية والعدالة الاجتماعية . (٦٧)

ب — المرحلة الثانية، خطا فيها الحزب خطوات نحو الامام ، ممارسة وتحليلا للواقع الكولونيالي ، وتوجها نحو خلق ذلك الجدل بين التحرير الاجتماعي والتحرير الوطني ، وتوجت بانعقاد اول مؤتمر سري للحركة العمالية (الاهلية) في الجزائر سنة ١٩٣٠ وامتدت هذه المرحلة حتى عشية تكوين الحزب الشيوعي الجزائري المستقل سنة ١٩٣٥ .

ج — مرحلة تأسيس الحزب الشيوعي الجزائري في اطار الجبهة الشعبية المناهضة للفاشية في اوروبا وفرنسا ، وقد برزت بعض الافكار الاصلاحية داخل الحزب واستمـــرت سياسة التعبئة داخل قيادة الحزب حتى نهاية الحرب العالمية الثانية حيث بــــدأ الحزب يأخذ خطا جذريا فيما يخص المسألة الوطنية بعد ان دقت حوادث ٨ ماي ١٩٤٥ اجراس الثورة .

تعتبر الحركة الشيوعية والوطنية في الجزائر جزءا لا يتجزأ من حركة التحرر الوطني هذه هي الحقيقة التي لا يمكن لاحد ان ينكرها ، مهما كانت مؤامرة الصمت والانكـــــار

التي جوبه بها الشيوعيون ابان الثورة التحريرية الوطنية ، وما زالوا يجابهون بها حتى الآن ، ويروق لها اليمين والبورجوازية الجديدة بجزء من اجل تحويل مسيرة الثورة وصرفها عن عمقها الاجتماعي الذي كان الفلاحون المعدمون يمثلون وقودها الرئيسي

ان تحليل طبيعة الحركة الشيوعية في الجزائر وتقلب الافكار داخل جهاز الحزب يعود لطبيعة تركيبة الحزب القيادية (اعضاء اوروبيون)، وللعلاقات المعقدة والمرئية والمتناقضة في بعض المرات بين الحزب الشيوعي الجزائري والشيوعي الفرنسي والاممية الشيوعية، وهذا التناقض يجد ظله في اطار غياب تحليل دقيق حول المسألة الكولونيالية والحركات الوطنية غيابا جزئيا او كليا .. (٦٨)

. . . / . . .

٥- ممارسة سياسة الحزب الشيوعي الجزائري

ركز الحزب الشيوعي الجزائري في سياسته على المحاور التالية :

١- لا للادماج ... نعم للاستقلال ، اذا اعتبر الشيوعيون الاعلان الادماجي فكرة استعمارية اساسها قتل شعب كامل والقضاء عليه ، تقول جريدة " الصراع الاجتماعي " ١٩٢٧/٣/٨ .

" - اننا لانريد اندماجكم ،اننا نقول انه لا يبقى لشعب اي شيء اذا ما اجبر على ترك تقاليده وحضارته ولغته في مقابل انتمائه لشعب آخر .. "

وكان الشيوعيون يعتبرون ان هناك امة مضطهدة من قبل امة اخرى هي الامـــة الفرنسية اذ لابد من النضال من اجل الاستقلال الوطني .

تقول (النضال الاجتماعي) في عددها ١٩٢٤/٦/٦ ":لن نكف عن المطالبـــة بالاستقلال الكامل للشعوب المستعمرة تحت اي حكم امبريالي كان،وسنناضل من اجل مطالبها البسيطة حتى ولو لم تكن تشطل اي مطلب شيوعي " (٩٩) اذ اعتبر الشيوعيون ان الاستقلال بالنسبة لعبيد المستعمرات هو المرحلة الاولى نحو الاستقلال الاجتماعي والسياسي .

كتبت " النضال الاجتماعي في عددها ١٩٢٨/١/٦ :

" - ان شعار الشغيلة الاوروبية والجماهير الاهلية ان يكون الاستقـــــلال الجزائر راية النضال المضاد للامبريالية من اجل تحرير بروليتاريا هذا البلد .. " .

وقد شن الحزب الشيوعي حملة شعواء ضد البورجوازية والاقطاع الاهلي واعـــوان الاستعمار من المثقفين التقليديين المعصرنين الذين كانوا يجرون دائما جر الاهالـي والجماهير المعدمة الفقيرة الى الايمان بفكرة الادماج ،وقد اتهمت " النضال الاجتماعي" وهاجمت الشيخ العقبي " لسياسته المضللة للجماهير الفقيرة المسلمة والتي تصب في اناء الاستعمار (١٠٠)

كما هاجم الحزب سياسة المنتخبين الاصلاحية الاستعمارية .

وهكذا كان الشيوعيون يخاطبون الجماهير المسلمة الفقيرة بلغة " الوطنية = الاستقلال " ثم بتصريحات الحزب كضرورة وطنية ومهمة ملحة .

المسألة الوطنية وتعريب اللسان

تجاوز لينين الاطروحة التي ترى ان الشعب الجزائري متخلف من الناحية الاجتماعية والثقافية وقاصر وغير قادر على تأسيس دولة – عصرية واشتراكية متقدمة .

يقول لينين :

" يتعين على جميع الاحزاب الشيوعية ان تقدم مساهمة فعلية لحركة التحرر الثورية في هذه البلدان ، وفضلا عن ذلك فان شكل هذا الدعم ينبغي ان يناقش مع الحزب الشيوعي في البلد المعني إن وجد ، وان واجب تقديم انشط المساعدات يقع بالدرجة الاولى على عاتق عمال البلد الذي يحتفظ بحالة تبعية استعمارية او مالية ما ."(١٠١)

كان تعريب الحزب الشيوعي ذا بعدين :

آ – عجز الحزب باطاراته الاوروبية على الدخول الى الاوساط الفلاحية الفقيرة من الاهالي (عرب – بربر)، فتشكل حوار شبيه (بحوار الطرشان) بين الحزب والشغيلة والفلاحين المفقرين من الاهالي .

ب – تطور نضالات الفلاحين الاهالي بصورة عفوية ، وبداية تبلور طبقة عاملة جزائرية في مدن الضفيح وداخل المدن الصغيرة ، وكذا تطور الوعي الوطني بصورة عامة ، مما اضطر الملتقي الجهوي للحزب الشيوعي في اكتوبر ١٩٣٢ الى اعادة النظر في تركيبة القيادة الحزبية ، وترك المجال مفتوحا امام الاهالي الى قيادة الحزب ، حتى تستطيع الافكار الماركسية اللينينية ان تدخل صفوف الكادحين [illegible] الفقراء [illegible] وتتأطر نضالات الفلاحين العفوية في اطار سياسي محدد وضمن برنامج يهدف الى تمهيد الطريق نحو الاستقلال الوطني – الاجتماعي .(١٠٢)

كما ان تعريب الحزب كان مفتاحا آخر للحوار مع فصائل الحركة الوطنية الاخرى اذ دعت الجبهة الجزائرية للحزب الشيوعي الفرنسي ، حتى قبل تعريب الحزب الى ضرورة التعاون مع الاحزاب الوطنية الاخرى (نجم شمال افريقيا – العلماء المسلمون – المنتخبون ... الخ " من اجل فضح الرأسمالية الكولونيالية وتأكيد المسألة الوطنية .

يقول بارتيل (BARTHEL) وهو المكلف بتنشيط الجبهة الجزائرية للحزب الشيوعي الفرنسي :

" ان الامة الفرنسية ليست امة شعب الجزائر، انها امة غريبة عن شعب الجزائر انها الامة المضطهدة (بكسر الهاء) ، هي امة الامبريالية التي ألحقت بهـا الجزائر عن طريق الحديد والنار وطوتها تحت عبوديتها .من هنا .. يجب على كل الخلايا ، اعتبار عملها الاساسي حاليا هو التقدم عن طريق الجبهة الموحدة المضادة للامبريالية ... يجب ان تكون هناك جبهة تجمع كل عناصر البروليتاريا الاهليـة والفلاحين الاهالي والبورجوازية الصغيرة الحضرية والبورجوازية الوطنية الاهليـة الاصلاحية الذين،تبعا لشخصيتهم،يعتبرون معادين للامبريالية." (١٠٣)

كما طالبت الاممية الشيوعية في مؤتمرها السابع بالعمل الجبهوي مع الاحـزاب الوطنية الاصلاحية .. وهذا ما حصل بالفعل في الجزائر اذ تمخض عن انعقـاد المؤتمر الاسلامي (١٩٣٦) والذي ضم الشيوعيين والمنتخبين والعلماء والنجم على مائدة واحدة ، وكان برغم المناورات الاستعمارية،خطوة هامة نحو بناء وحدة الحركـة الوطنية ، وايذانا في الوقت نفسه عن نضج هذه الحركة الوطنية وثراء تجربتهـا السياسية والتنظيمية .

وعلى اثر تعريب الحزب في سنة ١٩٣٥ ، بدأت ارساليات المناضلين الجزائريـن من اطارات الحزب،لتتكون في مدرسة الاطارات بموسكو .

وكان تعريب الحزب يهدف في هذه المرحلة الى :

١- تكوين قيادات جزائرية شيوعية في ارض الوطن وبين اهاليه ، والتحدث بلغتهـم لكسب امكانية انتشار الافكار الاشتراكية داخل صفوف الجماهير الفقيرة المسلمة .

٢- تدعيم الخط الوطني المناهض للاستعمار وتكريس الاطروحات الوطنية الثوريـة المضادة للامبريالية والمنادية الى الاستقلال على طريق جبهة مضادة للامبرياليـة، بالتعاون مع الاحزاب والمنظمات الاخرى الوطنية .

٣- تكوين جبهة مضادة للفاشية وتدعيم النضال العالمي المناهض للفاشية .

وبعد ان عقد الحزب مؤتمره الاول في ١٩٣٧/٤/٢٥ بدأت جماهيـر المثقفين تدخله وبدأت القاعدة الجماهيرية للحزب تتسع داخل اوساط الاهالي .

وحين تعرب الحزب بدأ يستقطب مناضليه من داخل صفوف الاحزاب الوطنية الاخرى

بوعلام خلفه – صادق هجرس – عمر اعديق . . . وبدأ يصدر منشورات باللغة العربية ك " الجزائر الجديدة " ، يقوم بحلقات توعية ابان شهر رمضان في الدشور والدواوير مع المزارعين والفلاحين .

لكن بين فترة (١٩٣٧ – ١٩٤٥) كان الحزب يراوح في مكان " الاصلاح السياسي " كانعكاس لغياب تحليل صحيح داخل برامج الاحزاب الشيوعية الاوروبية من مسألة الاستقلال الوطني والقضية الاستعمارية .

ونتيجة الحرب العالمية الثانية والتي توجتها حوادث ٨/ ماي ١٩٤٥ التي ذهب ضحيتها الاف المواطنين الجزائريين والتي عمت البلاد كلها من خراطة واسطيف حتى تلمسان . . " اصدر الحزب بيانه المعروف ببيان جوان ١٩٤٦ القاضي بدعوة الى تشكيل " جبهة وطنية ديمقراطية جزائرية " من كل فصائل الحركة الوطنية (١٠٤) ويعتبر بيان " جوان ٤٦ " هو قراءة عميقة للحركة الوطنية الجزائرية ونقدا ذاتيا لمسيرة الحركة الشيوعية والعمالية في الجزائر وحدا فاصلا في تاريخ الفكرة والممارسة الشيوعية في الجزائر .

وبدأ بعض الفرنسيين ينسحبون من الحزب امام طروحات الحزب الجديدة والواضحة حول " الاستقلال " ، وبدأت الانتلجنسيا الجزائرية ذات النفس الوطني والتقدمي تدخل صفوف الحزب ، وبدأ الكتاب والروائيون يلتزمون داخل هذا التنظيم الذي استوعب اغلبية المثقفين الوطنيين الثوريين والكتاب محمد ديب – كاتب ياسين – بشير حاج علي – هنري علاق – عبد الحميد بن زين وغيرهم .

يقول : ايمانويل سيفان

" ان الجيل الجديد من الاطارات الشيوعية بخلاف اسلافهم يتميز بتكوين وطني . . . قبل ان يتحولوا الى الماركسية ، انها وطنية تعلمت في المدرسة والعائلة (١٠٥) وقد تخلى الحزب من اجل تجذير مواقفه عن افكار موريس طوريز السكرتير العام للحزب الشيوعي الفرنسي ، والتي ترى ان الامة الجزائرية هي امة مكونة من عشرين عرقا وجنسا وهي على طريق التكوين (١٠٦)

وقد رد الحزب الشيوعي الجزائري على هذه الافكار بالفكرة التالية في دحض افكار طوريز :

٧ـ الحزب الشيوعي الجزائري والثورة الوطنية المسلحة

قال الشيخ عبد الحميد بن باديس : " لن ننسى ان الحزب الشيوعي كان اول الاحزاب التي اتخذت موقفا ذكيا وانسانيا من المستعمرة " (١٠٩) .

في المؤتمر السادس للحزب الشيوعي في فبراير ١٩٥٢ كان الحديث يدور حول :

" ضرورة النشاط الموحد فوق التراب الوطني من اجل جزائر حرة ومستقلة "

كما دعا الحزب الى مناقشة مؤسسات الدولة الجزائرية ووضع دستور وقوانين لها (١١٠)

واكد في ذات الوقت على :

" ان تحرير الجزائر لن يكون عمل رجال او حزب او تجمعا معزولا ، بل سيكون عمل كل الشعب الموحد " (١١١)

وحتى قبله في المؤتمر الخامس دعا الشيوعيون الجزائريون الى فكرة : انشاء : جبهة معادية للامبريالية من اجل الاستقلال الوطني " (١١٢) ، ورفعوا شعارهم المعروف : سنصنع من الجزائر بلدا حرا وسعيدا " (١١٣)

وقبل انطلاق الحرب الوطنية بسنة واحدة فقط اي في سنة ١٩٥٣ دعا الشيوعيون مرة اخرى الى تكوين : " جبهة وطنية ديمقراطية جزائرية " مهمتها تحمل مسؤولية الوضع الجديد الذي آلت اليه المستعمرة ، من اجل تأطير ذلك الرفض الجماهيري الذي بدأ يتبلور شيئا فشيئا مع بداية السنوات الاولى التي تلت الحرب العالمية الثانية . (..) ان هذه الاحداث

" وكانت ثورة الفاتح من نوفمبر لم يفاجئ الحزب الشيوعي الجزائري بالحرب ، انما فوجئ بتوقيتها كبقية الاحزاب الوطنية الاخرى ، يقول بيان في نوفمبر ١٩٥٤ الصادر عن الحزب الشيوعي الجزائري ما يلي :

" يرى المكتب السياسي للحزب الشيوعي الجزائري : (..) ان هذه تجد اسبابها واصولها في سياسة الاضطهاد الوطني الاستعمارية وخنق الحريات والاستغلال وتوابعها من عنصرية وفقر وبطالة التي اجبرت الدوائر الرسمية على الاعتراف بها وبوجودها . ويرى المكتب السياسي ـ بناء على هذا ـ ان المسؤوليات العميقة المترتبة عن هذه الاحداث تعود كلية الى الاستعماريين ، ويذكر ان القمع لم ولن يحل المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يفرضها امام العالم التطور الذي لا رجعة فيه لحركات التحرر الوطنية .. " (١١٤) .

ويقول صاحب كتاب : " حملة الحقائق " رغم ما يؤخذ على مواقفه التحليلية في هذا الكتاب ما يلي :

ان العرب والبربر لا يشكلون عرقا من العشرين عرقا بل يعتبرون العرق الوحيد الذي يكون البنية العرقية والاثنية والثقافية للشعب والامة الجزائرية اما الرومان والفينيقيون والبزنطيون فما هم الا غزاة واستعماريون ، كالاتراك والفرنسيين (١٠٦)

جاء في بيان الحزب الشيوعي الجزائري الصادر عن مؤتمره الخامس سنة ١٩٤٦ - ما يلي :

" حتى سنة ١٩٤٦ لم يكن للحزب تقييم صحيح لقوة الحركة الوطنية ، كان توجيهه مغلوطا وبالتالي وجد نفسه معزولا عن الحركة الوطنية " (١٠٨)

وعلى هذا النقد الذاتي دخل الحزب الشيوعي الجزائري بقوة صفوف الحركة الوطنية الجزائرية ، باطاراته العربية والبربرية برغم رفض بعض الوطنيين الرجعيين له ، بحجة انه حزب روسي وانه لا يتبنى الاسلام !!! " وبدأ الحزب استعمال اللغة العربية في الدعاية والتنظيم والكتابة السياسية ، وكان توجه الحزب جبهويا بان ظهر ذلك في المؤتمر الاسلامي (٣٦ / ٣٧) وكذا في " الجبهة الجزائرية للدفاع واحترام الحريات " التي تكونت من : الشيوعيين ، العلماء والمنتخبين والوطنيين الشعوبيين ضد تزويرات الانتخابات التي كانت تقودها البورجوازية الكولونيالية واعوانها من بورجوازية كمبرادورية .

" بالنسبة للجزائر اتخذ الحزب الشيوعي الاممي موقفا واضحا، وكان المنظمة الوحيدة التي طالبت بالاستقلال منذ عام ١٩٥٤ ..." (١١٥)

وفي دورة سرية عقدها الحزب في ٢٠ حزيران ١٩٥٥ قرر الانضمام الى الكفاح المسلح، فكونت مجموعات عسكرية للالتزام بالعمل المسلح، سميت هذه المجموعات " المقاومون من اجل الحرية " التي اندمجت في سنة ١٩٥٦ في جبهة التحرير الوطني بعد الاتفاق بين جبهة التحرير الوطني والحزب الشيوعي الجزائري (١١٦) وفور دخول الشيوعيين الى الحرب منع نشاط الحزب كلية داخل المستعمرة وعاد الى العمل السري واغلقت جريدته :

" الجزائر الجمهورية " في نفس الفترة .

شارك مناضلوا الحزب في معركة الجزائر التي هي واحدة من اعظم المعارك في تاريخ الثورة الجزائرية واعدم الكثيرون من قياداته واعتقل الاخرون (الدكتور حجاج شبوى) ولوسيان هنوي علاق وموريس اودان حتى القي القبض عليهما (١١٧)

وبعد عطاء جهيد قام به الشيوعيون داخل الثورة الوطنية ظهرت دلائل على دورهم الفعال الايديولوجية الاشتراكية العلمية داخل مواثيق الثورة : ميثاق السومام ميثاق الجزائر - وفي البرامج الاقتصادية الاجتماعية في مرحلة الاستقلال الوطني .

==========

التيـــار الوطـــني :

لعبت القوى الاجتماعية الجزائرية في المهجر ، دورا رئيسيا في وضع اللبنـــة الأولى لمفهوم الوطنية كتيار سياسي وتنظيمي ، وكانت في ذات الوقت هي العامـــل المركزي في تطويرها .

على الساحة السياسية والنقابية الفرنسية ، بدأت مع مطلع القرن العالـــمي تتشكل جمعيات ومنظمات فرنسية وعالمية ، أخذت تتحسس القيمة التاريخية للقـــوى العاملة في المهجر ، كرصيد بشري ووطني مناهض للاستعمار والاستغلال . وبذلك شرعت هذه التنظيمات في اقامة ندوات وحلقات توعية حول " مفهوم الاستعمـــــار " و " مفهوم الوطنية " و " العلاقة بين الاستعمار والامبريالية " و " علاقة الاستغـــلال الطبقي بالاستغلال الوطني " .. الخ .

واستطاعت هذه التنظيمات السياسية ك Feleration anarcheste - (الفيدرالية الفوضوية أو فيدرالية التعاون الطوعي)(١١٨) أن تخرق الجـــدار الذي كان مضروبا حول الطبقة العاملة الجزائرية ، وأن تحاول قدر الامكـــان فـي البداية محاربة الفكر العرقي والصليبي الذي كانت تواجه به هذه الطبقة سواء فـي علاقتها مع المتروبول أو حتى مع الرأسمال الكولونيالي في الداخل ، وتقويم العالـــم على أساس اجتماعي واضح الأطراف : " مضطهِد " و " مضطهَد " .

" انهم ليسوا " الرومي " انهم " الأخوة " الذين بدأوا يشحنون العمال بقوة الرفض : ضدّ " السلطة " و ضد " الامبرياليين " وضدّ " الاستعماريين " وضــــــدّ الاضطهاد الاجتماعي الذي يعانون منه " .

وكثرت الندوات والملتقيات التي كانت تقيمها هذه التنظيمات لصالح الطبقـــة العاملة المستوردة من طرف الرأسمال الفرنسي ، وكان من أبرز الندوات التي أقامها "الاتحاد العالمي للمستعمرات" Union Intercolonial هي الندوة التي أحياها الأمير خالد حفيد عبد القادر الجزائري سنة ١٩٢٤ .

كما استطاعت مجموعة من المناضلين الوطنيين من داخل هذا الاتحاد اصدار مجلة (PARIA) (المنبوذ) ، موجهة الى العمال المهاجرين الآتين من كل المستعمرات وقد كانت تحت ادارة الزعيم الفيتنامي " هوشي مينه " والمناضـــل الشيوعي الجزائري " حاج علي عبد القادر " .

لقد كان الحزب الشيوعي الفرنسي أكثر الأحزاب الفرنسية اهتماما بالطبقـــة العاملة المستوردة ، وقد تنبه منذ البداية الى مسألة هامة طالما أرقت المناضلين ، وهي الدعوة الى : نبذ ورفض كل تصادم بين الطبقة العاملة الفرنسية والطبقة العاملة

المستوردة ، لأن هذا الصدام المفتعل هو في الأخير لصالح الرأسمال ، وهو الوحيد الذى يجني من ورائه أرباحا ، ودعا الى ضرورة العمل الجماعي – الطبقـــــي التاريخي .

ولتأكيد هذه الاطروحة فقد أعد الحزب الشيوعي الفرنسي برنامجا غنيـــا للدعاية داخل الطبقة العاملة الشمال افريقية ، فأخذ يصدر صحفا باللغة العربيـــة ليوزعها بين العمال كـ "الشباب" و "الافريقي" ، كما كانت جريدة "الانسانيـــة" (L'Humanité) تسعى جاهدة لترسيخ تقاليد العمل الطبقي الجماعـــي الفرنسي – الجزائرى (١١٦) .

وبهذا بدأ العمال المهاجرون ينتظمون داخل "اتحاد الشغيلة" وعيا منهم بالمصير المشترك للطبقة العاملة ، وشعورا منهم بضرورة التكيّف النضالي مع المرحلة .

حزب "نجم شمال افريقيا" : (L'ELOILE NORD AFRICAINE)

بدخول الأمير خالد الى فرنسا بدأ اتصالاته مع مصالي الحاج (عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي) وعبد القادر حاج علي (عضو اللجنة المركزيـــة للحزب الشيوعي الفرنسي) وعبد العزيز منور ، وبعض رجالات الثقافة والسياســـة الافريقيين – الشماليين . ثم توطدت علاقته مع الشيوعيين الفرنسيين ، اذ وجـــد في اطروحات هذا الحزب في مايخص "المسألة الوطنية والاستعمار" روحا واقعيـــة . وقد استغل الشيوعيون الجزائريون شخصية الأمير خالد سليل الأمير عبد القـادر ، لما تحويه من رمز تاريخي وروحي شعبوى بالنسبة للشعب الجزائرى ، من أجل توعية الطبقة العاملة المستوردة ، واثارة حماسها الوطني ووعيها السياسي والاجتماعـي ، فكانوا يقيمون له ندوات ومحاضرات داخل أوساط المهاجرين .

وبدأ التفكير في تأسيس حزب وطني على أساس ديمقراطي ، بقاعدة من الطبقة العاملة من كل الشمال الافريقي المتواجدة في المهجر ، وبالفعل تكـــوّن أول تنظيم سياسي بعد الحرب العالمية الأولى بأنفاس ديمقراطية وثورية وشيوعية ، هـو التنظيم الذى سمي بـ "نجم شمال افريقيا" .

يقول عنه مصطفى الأشرف :

"كان ن . ش . افريقيا حركة تحوى في داخلها عدة تيارات وايديولوجيـات (...) ماركسية سطحية ، نزعة جزائرية عاطفية مفعمة بالحنين الى الوطــن ، ونزعة اسلامية مزوّقة "(١٢٠)

ويقول المؤرخ الجزائرى محمد تقية :

"ظهرت نجم شمال افريقيا نتيجة للمناقشات التي جرت بين الحركات والأحزاب

الشيوعية العالمية في سنوات ١٩٢٠ حول المسألة الوطنية والاستعمار ، ونتيجة لهيمنة لتأثير المجتمعات المستعمرة وتوقانها الى التحرر . . . واستجابة للنداء الذي أطلقته الشيوعية العالمية ، والتي دعت فيه الى خلق العديد من التنظيمات التي تهدف الى ربط وتعميق مختلف حركات التحرر الوطنية ، التي نمت من وسط الأزمة الامبريالية ، ويجب أن تكون هذه التنظيمات عبارة عن هياكل استقبال ومحايدة للشيوعيين والوطنيين والديمقراطيين . . . وأن يتم العمل بانسجام بين كل الممثلين لمختلف الطبقات والشرائح الاجتماعية وبروية وحدوية وجمهوية"(١٢١)

وكذا بدأت الايديولوجية الوطنية تتحدد على المستوى النظرى كما على المستوى السياسي ، كتب حاج علي عبد القادر مايلي :

"ان تحرر الأماني (. . .) لن يكون سوى عمل الجزائريين ، وواجبهم هم أنفسهم "ان البورجوازية الجزائرية تستطيع أن تواصل نومها ، فالقوى العمالية الأهلية ، التي تربي بها الرأسمالية الأوروبية في المراكز الصناعية ، تملك من جميع هذه المصانع ، تربيتها الطبقية "(١٢٢) .

وقد وضع "نجم شمال افريقيا "على رأس أهدافه هدف الاستقلال الوطني ، وان النحو الوطني الذى انتهجته "النجمة " جلب اليها منذ البداية قاعدة شعبية واسعة أكثرها غير مسيس) ، وجلبت معها في الوقت نفسه ملاحقات وقمع بوليسي وحشي . وهكذا أعلنت محكمة "السين "بتاريخ /٢٠/ نوفمبر ١٩٢٩ حل "نجم شمال افريقيا "ولكن الحزب واصل نشاطه تحت اسم آخر هو "نجم شمال افريقيا المجيدة " (La Glorieuse étoile Nord-Africaine) ، بقيادة مصالي الحاج (١٢٣) ، وقد أرسلت "النجمة "رسالة الى المنظمة الدولية تستنكر فيها احتفال فرنسا بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر (١٢٤) ، مجددة مرّة أخرى دعوتها الى الاستقلال والتحرر وتقرير المصير . وزعمت "النجمة "حوالى اكتوبر [illegible] أن لها /[illegible]/ منخرط ، خاصة في الجزائر حيث لم يكن لها تأثير يذكر . وقد بدأت الحملة السياسية للنجمة في الجزائر في ٢ أوت ١٩٣٦ ، باجتماع ضم /١٠٠٠٠/ من الأهالي بالملعب البلدى بالعاصمة ، وفيه نادى مصالي الحاج باستقلال شمال افريقيا ، واستمرت بسلسلة من المحاضرات خاصة في القطاع التلمساني حيث مسقط رأس مصالي ، وهكذا تم تأسيس ثلاثين فرعا للنجمة بالجزائر (١٢٥) .

ونتيجة لنشاطات "النجمة "المكثفة والمعادية للاستعمار بشكل واضح وعلني ، فقد تم حلها في سنة ١٩٣٥ وتشكلت على أنقاضها منظمة "الاتحاد الوطني لمسلمي

شمال افريقيا" (L'union National des musulmans Nord-Africains)
وفي سنة ١٩٢٧ حلّ هذا الاتحاد مرّة أخرى ليقوم مكانه تنظيم آخر هو "أصدقاء الأمة" (Les amis d'el ouma) ، وفي السنة ذاتها تكوّن حزب الشعب الجزائري .

لقد تميز برنامج "النجمة" على الصعيد الديني بالأخوّة والوحدة الاسلاميتين ، وأكد ذلك نوابها بالمؤتمر الاسلامي الاوروبي المنعقد بجنيف في ١٢ سبتمبر ١٩٣٥ ، وعلى الصعيد الاجتماعي شهرت بـ "القانون الأهليّ الشنيع :code d'indigenat وبسيطرة الفرنسيين على الثروات الاقتصادية التي ينبغي أن تسترجعها الدولة الجزائرية، وبـ "اغتصاب الأملاك الكبرى التي استأثر بها الاقطاعيون المتحالفون مع المحتلين ، والمعمرون والشركات المالية ، والتي ينبغي تسليمها الى الفلاحين ، والبحث بالحق النقابي وبالقوانين الاجتماعية وتوسيع القرض الفلاحي ،وعلى الصعيد الثقافي البحث بالاعتراف باللغة الوطنية كلغة رسمية وباستعمالها في التعليم ، كما دعت الى احداث برلمان وطني منتخب انتخابا حرّا مباشرا ، يقوم بدوره بدون ميز عنصري ولا ديني (١٢٦).أما على المستوى السياسي فقد أعلنت "النجمة" في بيانها الصادر بتاريخ ٢٢ ابريل ١٩٢٧ مايلي :

"ان نجمة شمال افريقيا ، تقوم بحركة نشيطة ، من أجل اثبات حق الجزائر وكل الشعوب الأخرى في تقرير مصيرها ، وهذا وفقا لتصريحات الرئيس ولسون والمبادئ التي ناضل من أجلها الشعب الجزائري والفرنسي جنبا الى جنب من سنة ١٩١٤ الى ١٩١٨ "(١٢٧) .

كما أعلن أحد قادة النجمة قائلا : "اننا نريد أن نكون السادة المالكين لوطننا الذي أخذتموه منّا بقوة السلاح . ان الجنود المسلمين يجب أن يكونوا جنودنا لا جنودكم "(١٢٨) .

لقد بدأت "النجمة" نضالها في البداية على أسس واضحة سياسيا واجتماعيا ، بقيادة ذات توجه ماركسي ، الا أنها شرعت في التحول ، مباشرة بعد أن تسلّم رئاستها مصالي الحاج ، الى الفكر الاصلاحي والرومانتية الثورية خاصة بعد أن التقى مصالي الحاج بشكيب ارسلان ، وجمعية العلماء المسلمين وخاصة التيار اليميني فيها الذي يقوده الطيب العقبي .

وبدأت الأصول الدينية تظهر على فكر الزعيم الوطني ، اذ أن مصالي المولود في ١٦ ماي ١٨٩٨ بتلمسان يعد أحد أتباع الطريقة الدرقاوية ، التي تعتبر أنها الدارة الدينية ، ويرجع اسمها الى شريف ادريسي توفي سنة ١٨٢٣ (١٢٩) .

وبذلك ستبدأ زعامة مصالي الحاج الفردية في قيادة النجمة حتى حلّها سنة ١٩٣٧ وتحويلها الى حزب مصرّح به قانونيا هو حزب الشعب الجزائرى ابتداء من ١١ مارس ١٩٣٧ .

حزب الشعب الجزائرى والطرقية السياسية :

ان حزب الشعب الذى جاء على أنقاض " نجمة شمال افريقيا " لم يستطع انقاذها تارا لكون القيادة ظلت هي نفسها ، وظل مصالي الحاج وهو أب الزعامة الوطنية ، مفتونا بالزعامة الفردية للحزب ، وفي بداية نشاطات الحزب السياسية فتح جبهة ضد المؤتمر الاسلامي الذى جمع " العلماء والشيوعيين ، والمنتخبين " سنة ١٩٣٧ ، ونصب نفسه أبا روحيا ودينيا ، فأعلن أن العلماء أصبحوا لعبة بين يدى الشيوعيين (١٣٠) ورفض كل عمل جمهوى من شأنه أن يعمق الوعي الوطني ويطور المفاهيم الوطنية حسب منطق تطور الوضع داخل المستعمرة .

ان المواقف التي أعلنتها المصالية التي أصبحت تشكل تيارا سياسيا مستقلا ، (خليط بين الاسلام والوطنية والمرابطية) ، والداعية من موقع الفردية في الزعامة الى معاداة الفصائل الوطنية الأخرى،هو الذى جعل جريدة (الدفاع La defense) تكتب مباشرة بعد انتهاء المؤتمر الاسلامي الثاني ، واصفة " مصالي الحاج " : بأنه أحد الذين أحاطوا حوله بعض الشباب لخلق " طرقية " في السياسة (Maraboutisme politique)

وقد وصف مصطفى الأشرف حزب الشعب بقوله :

" .. مع حزب الشعب حصل تأريخ وتدعيم للوطنية المدينيّة المعاصرة . "

أما ايجابيات الحزب فتتمثل في : فكر مقاتل ، يقاعة ، شجاعة أخلاقية لم تعرف من قبل . حس ثورى .

أما سلبياته فهي : غياب ثقافي ، ارتجال ، غياب مذهب ثرى ، وفي مرحلة تالية ، شعبوية لا تبرير ، ونكهة دينية امراوغة .

ولكن ايجابيات هذا الحزب تكمن في مواصلة الدعاية ونشر الايديولوجيا الوطنية "(١٣١) داخل الأوساط الشعبية لفترة طويلة .

ان مرض الخوف من " الشيوعية " وغياب التحليل الطبقي :

" ان نشاط حزب الشعب الجزائرى لن يكون لا عرقيا ولا طبقيا "(١٣٢) .

.. والسيطرة الفردية على الحزب هي التي ستوصل الحزب الى انقسامات في ظرف سنتين فقط ، وان غياب الديمقراطية المركزية داخله سيجعل من ا نتفاء

مصالي الحاج (فترة سجنه) (١٣٣) مناسبة لتدني شعبية الحزب ، ومن المفروض أن يحصل العكس ، فالجماهير المسيسة تزداد ارتباطا بقادتها في لحظات المحنة والسجن .

وبعد أن حلّ حزب الشعب تكونت على أنقاضه حركة سياسية هي : حركة انتصار الحريات الديمقراطية (١٩٤٦ — ١٩٥٤) وقد جمعت هذه الحركة بين اسلوب العمل السياسي السلمي واسلوب العمل العسكرى لحل القضية الوطنية .

وسوف يخرج من أحشاء هذه الحركة ثلاث تيارات هي :

١ — المركزيون : أو اللجنة المركزية وهم الذين تبنوا اللعبة الانتخابية التي كانت عرضة للتزوير والتزييف من قبل الادارة الاستعمارية (١٣٤) .

٢ — المصاليون : الذين كانوا يعتقدون بأبوية مصالي الحاج على الحركة الوطنية الجزائرية ، وتجلت داخل هذا الفريق نزعة فردية وروءية ضيقة بورجوازية ، وتم حلها في سنة ١٩٥٤ ، الا أنها تشكلت تحت اسم "الحركة الوطنية الجزائرية" في السنة نفسها ، وقد شنّت عمليات ضدّ جيش التحرير الوطني التابع لجبهة التحرير الوطني التي قادت حرب التحرير المعلن عنها في فاتح نوفمبر ١٩٥٤ ، ولعل أكبر الصدامات التي وقعت بين الطرفين ، هي معركة "مشتى القصبة" ناحية ميلوزا في ٢٦ ماى ١٩٥٧ .. وان هذه الواقعة التي ذهب ضحيتها ثلاث مائة رجل ، مكنت الشرطة الفرنسية من استغلال "الحركة المصالية" واستخدامها ضدّ جبهة التحرير الوطني(١٣٥).

٣ — اللجنة الثورية للوحدة والعمل : قام هذا الفريق من أجل توحيد الفريقين ، لكن مساعيه باءت بالفشل أمام تعنت كل فريق بمواقفه .

وفي ظل هذا الصراع والانقسامات تكونت المنظمة الخاصة (O.S) التي تشكلت منها لجنة "التسعة" ، التي أعلنت قيام جبهة التحرير الوطني في فاتح نوفمبر ١٩٥٤ ، والتي قادت من يوم اعلانها الحرب المسلحة ضدّ الاستعمار .

خاتمـــة :

في عرضنا هذا لمجمل علامات الحقل الايديولوجي والسياسي للحركة الوطنية الجزائرية ، كنا نهدف الى مسألة أساسية فيما يخص بحثنا هذا ، وهي ،ان النشاط السياسي والايديولوجي والفني الذى تميزت به الرواية الوطنية ذات التعبير الفرنسي لم يكن وليد فراغ ، بل ان كل الاتجاهات أو النزعات التي ميزت الحقل الروائي من اندماجية الى سلفية الى ليبرالية الى اثنوغرافية الى وطنية فوضوية أو وطنية ثوريـــة الى ماركسية ، كانت تعبيرا صادقا عن تنوع التيارات السياسية والايديولوجية فـــي الحركة الوطنية الجزائرية من جهة ، وعلاقة المثقف (الروائي) بهذا الواقـــع السياسي ودوره الفعال فيه باعتباره مثقفا عضويا لطبقته .

- مسألة التمييز
- وانتمائية الأدب

-*-

في مسرحية "العاصفة" التي كتبها شكسبير عام ١٦١٣، اى بعد اكثر من مائة سنة على اكتشاف الامريكيتين، نرى صورة للعلاقة بين السيد الأوروبي الذى بدأ يفرض سيادته على الكرة الارضية، معلنا نفسه صاحبا للحق الالهي في حكمها ونهبها، مبررا سيادته بتفوقه العرقي والحضارى، وبين الساكن الاصلي الذى يتحول الى تابع وعبد متوحش مشوه والغازى المستغل يدور هذا الحوار :

بروسبيرو (وهو السيد) : ايها العبد الكذوب
الذى لا ينفع معه سوى السياط وليس المعاملة الطيبة .
لقد عاملتك ، وأنت القذر ، معاملة انسانية .
عطفت عليك ،
تعبت في تعليمك الكلام ، وفي كل ساعة علمتك
هذا الشيء او ذاك .
في وقت لم تكن تعرف فيه ، في همجيتك ، معنى لذاتك ، بل كنت " ترطن " كالحيوانات . اعطيتك الكلمات التي تحدد بها ما تريد .
ولكن وجهك الحقير ، بالرغم مما تعلمت ، لم
يكن ليتحمل الطبع الطيب ،
ولهذا استحققت ان تقيد الى هذه الصخرة .

كاليبان (العبد) : لقد علمتني لغة ، وهاأنا ذا استفيد من ذلك اى ان أنني اعرف كيف ألعن ، فينزل بك الطاعون الأحمر ، جزاءك على تعليمي لغتك . (١)

---

(١) التابع ينهض : رضوى عاشور ـ دار ابن رشد ـ ص : ١٤٤ ـ ١٤٥ .

منذ نهضة الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية ، كظاهرة أدبية متميزة بعد الحرب العالمية الثانية ، والتي اصبحت حقيقة لا تدعو الى شك ، والمناقشات الحادة تدور حول : انتماء هذه الكتابة ؟ وهل هي ظاهرة لازمة "ام عابرة ؟ وكيف وأين يمكن تصنيفها ؟

لقد طبع هذا النقاش حول اشكالية هذا الأدب ، طابعان : طابع سياسي ، وطابع أدبي - لغوي .

منذ البداية اطلق الفرنسيون احكاما مسبقة ، مستغربين كيف يطلع من هؤلاء الأهالي المتخلفين فنا روائيا ، تحتفل به الأوساط الاوروبية كلها ، ولقد كان اليمين الفرنسي معاديا لهذا الأدب بكل وضوح ، وقد عبر عن هذا الموقف " روبير كامب " بكل وقاحة ، اذ اغتاظ بسذاجة من عقوق محمد ديب ، ولم يغفر له ان يشتم الفرنسيين بلغتهم الخاصة . وقد رد عليه الكاتب التونسي البير ميمي :

" لقد تعجب البعض من خشونة الكتاب المستعمرين الأوائل ، ان الامر لا يتعلق لا باللاوعي ولا بالعقوق ولا بالوقاحة ، فماذا يمكن لهؤلاء الكتاب ان يقولون عندما تتاح لهم الفرصة لمخاطبة ذلك الجمهور بالذات ، ان لم يكن التعبير عن سخطهم وتمردهم ؟ هل نأمل الاستماع الى كلمات الرضا ممن يتألم من شقاق طويل الأمد ؟ "

والشيء الثاني الذي اثار : روبير كامب ، هذا الكاتب الاستعماري ، هو كيف ان اليسار الفرنسي يحتفل بهذا الأدب ويخصص له منابر أدبية عالمية ، بينما هو "يشتم " و " يندد " بفرنسا الحضارية !! فرنسا المدنية والتقدم !! وقد اعتبر روبير كامب موقف اليسار الفرنسي هذا ، موقفا معاديا لفرنسا ، بل موقف المرضى المنحرفين (١) .

من ناحية اخرى فرح البعض الآخر ، وقابلوا هذا الأدب ، بروح استبشارية ملفوفة ، لانهم كانوا يعتقدون ان هذا الأدب جزء من عملية تأصيل الثقافة الفرنسية الادماجية ، وتكريس فكرة الادماج ، ولكن هذا الموقف لم يكتب له الوقوف علي رجليه طويلا ، اذ كشف الروائيون الجزائريون عن مواقفهم الوطنية الثورية واستنكارهم للاستعمار الاستلاب ، والقمع الهمجي والمسخ الذى يتعرض له اهالي هذا البلد .

وقد أثيرت خصومة جدلية بعد ان تم نشر منتخب للأدب المغربي (المغرب العربي) المكتوب بالفرنسية (٢) ذلك ان كاتبا فرنسيا من الجزائر هو : جان بليكرى ، اخذ على اصحاب هذا المنتخب ، كونهم اعتمدوا مقياسا " عنصريا " اذ خصصوا هذا المنتخب للكتاب الاهليين فقط ، في حين ان مثقفين فرنسيين اسهموا بقوة

في بناء الثقافة الحديثة بالمغرب العربي ، وكانوا على نحو ما جزائريين بقدر ما هم فرنسيين ، لم يدرج انتاجهم في هذا المنتخب ، يقول بليكرى " كثير من الكتاب الذين لا يمكن ان يساء تقديرهم ، حذفوا بجرة قلم ، نذكر منهم على الخصوص : كامو ، جول روا ، اوديسيو ، جان بيران ، ألم يولد هؤلاء في أفريقيا الشمالية ؟".
وقد فند مرة اخرى البير ميمي هذه المزاعم واضعا المشكلة الأدبية ــ الثقافية في سياقها التاريخي . (٣)

اما النقاد والكتاب العرب والجزائريون فقد وقفوا موقفين متباينين : فريق يعتبر ان هذا الادب ليس جزائريا لكونه كتب بلغة غير اللغة العربية ، وكذا لانه طبع في فرنسا اكثر منه في الجزائر ، ولذا فهو لم يخدم المسألة الوطنية ولم يسهم في بلورتها نحو الاستقلال .

ويلتقي هذا الفريق في الحكم على هذا الادب مع اليمين الفرنسي الاستعماري ، الذى كان يكن حقدا وكراهية كبيرة لهذه الكتابة التي هزت العالم والرأى العام ، وفضحت واقعا متعفنا ظل فترة طويلة مستورا ، وفريق ثان يقف على نقيض ذلك.
وغلب على آراء الفريق الاول نزوع شوفيني ضيق ، يدل في الكثير من طروحاته ،على انهم لم يطلعوا على هذا الأدب اطلاعا كافيا وشاملا يسمح لهم باعطاء حكم ما ، وهذا الفريق لم يكن يستنكر اللغة التي كتب بها هذا الأدب ،فقط ، بل كان يحمل عداء للمضامين الانسانية والثورية الوطنية التي حملتها هذه المبدعات ، ولروح التحرر التي تنبض بها هذه النصوص ، ونستشف من آرائهم العدوانية و "الحماسية" انهم يريدون ان يجروا الحقل الثقافي والادبي الي منابع اصلاحية دينية في أغلب الاحيان : انها النظرة التي تحدد هوية كل عمل انطلاقا من اللغة التي يكتب بها (...) فكل من يكتب ويبدع ويجيد في لغة يعد ابداعه تثقفا بهذه اللغة (وحدها) واسهاما في تراثها (٤) وربما في جزئها المتخلف .

من هذه المقدمات المتزمته فهم " يعتبرون الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية اصلا ، فرنسية ، ولا تشذ ابدا عن النظرة الكولونيالية ، وعن طبيعة الاسلوب الكولونيالي ومخطط الاستعمار ازاء قضية الجزائر العربية : الارض والشعب والثقافة والتاريخ ... وان هذه الرواية ليست نتاج وضع استعمارى طارئ انما حالة طبيعية وحتى لازمة"(٥)
وسأسوق رأيين لكاتبين عربيين يحققان ماقدمناه اعلاه ، احدهما هو : الدكتور عبد المالك مرتاض (الجزائر) ، والثاني هو : الدكتور سيد حامد النساج ، وان كنا نلمس من الدلالة التي تعتمد على المعرفة الشخصية ان كليهما لم يقرأ هذا الأدب في لغته ، الا ماترجم منه ، وان كان د . عبدالمالك مرتاض يتقن اللغة الفرنسية ــ ولكن ذلك جاء متأخرا ــ فان ماكتبه في مؤلفه : " نهضة الادب العربي المعاصر في

الجزائر " (٦) والذى يعود الى الستينات ، لا يدل على اطلاع كاف على عجل لهذا الادب بقدر ما يدل على موقف اصلاحي ، واعتقد ان مواقف الكاتب الاخيرة ، تتعارض مع هذه الافكار التي ضمنها كتابه هذا :

يقول د . مرتاض :

" لكن ماشأن هؤلاء الكتاب الذين يكتبون باللغة الفرنسية وهم جزائريون ؟ أليس ذلك دليلا خريتا على توقف المستعمرين في غرس لغتهم في قلوب الجزائريين ؟ " (٧)

" ان رأيي في هذا الأدب سيء جدا . . . ولو أردت ان اقول ما اعتقد لقررت بأن هذا الأدب غريب في نفسه ومنفي في موطنه الذى كتب فيه ، ولم يستطع ان يلعب دورا كبيرا في نهضة الادب المعاصر بالجزائر فضلا عن ان يلعب دورا خطيرا في اذكاء نار الثورة التي قيضت للشعب الجزائرى ان يكسر قيود الاستعمار الثقيلة " (٨)

ويضيف :

" ظل هؤلاء الكتاب (الجزائريون) .. في معظمهم ، بالفرنسية معجبين كل الاعجاب بالحضارة الفرنسية بوجه خاص والحضارة الغربية بوجه عام ، جاهلين بالتاريخ العربي ، غير ملمين بمعالم الحضارة الاسلامية ، اذ آن لهم ان يدركوا شيئا من ذلك وهم محرومون من الالمام الكافي بلغتهم التي بواسطتها يطلعون على التراث العربي وكنوز حضارته الغنية " (٩)

ويصل الحماس بالكاتب الى قوله :

" انه تعلمهم بالفرنسية جر عليهم مصيبة لا تبرح بعض آثارها ماثلة في المجتمع الجزائرى الى اليوم وهي انهم اقبلوا على محاربة العربية مع من يحاربها من الفرنسيين متهمين اهلها بالجمود ، رامين اصحابها بالقصور مسلطين عليهم كل وصمة وملحقين بهم كل عار وشنار . " (١٠)

وان احكام الدكتور مرتاض تحمل نقيضها ونقضها في داخلها ، فهو يسميهم اولا : " كتابا جزائريين " ، ففي هذه التسمية اعتراف بوطنيتهم ثم ينسى ما قاله : فيضيف :

" لسنا نتهمهم بغير هذا ، فلم تكن تنقصهم الوطنية ، ولم يكن ينقصهم الشعور بالمسؤولية ، وانما كان ينقصهم شيء واحد فقط ، ولكنه عظيم الاهمية ، وهو الالمام باللغة العربية .. " (١١)

ثم يقول :

" واما ان نطالب كتابا باللغة الفرنسية وهم جزائريون ، فهم بالرغم من انهم لم يكونوا يصطنعون غير هذه اللغة في التعبير عن آرائهم وافكارهم ، ونظراتهم الى الوجود ، ومذاهبهم في الحياة ، فان هذه الآراء في حد ذاتها لم تكن تصدم في كثير من عناصرها وأصولها الروح الجزائرى النابض . . . (ان) الذى كان يعالج

الحياة في القبائل الكبرى ، او الحياة الجزائرية في غير القبائل من ارض الوطن ، فانك لا ريب تشعر وانت تقرأ ما كتب ، بان الشخصية الجزائرية تتجلى بقوة ووضوح في هـذا الأدب " (١٢)

واذا كان د . عبد الملك مرتاض قد اتخذ هذا الموقف المتردد ، فان الدكتور سيد حامد النساج ، يبدي عداء واضحا لهذا الأدب ، وان هذا العداء لا يقوم على أية حقيقة علمية ، بل انه في كثير من المرات يكشف عن جهل صاحب هذه الاحكام بهذا الأدب ، واكتفائه بقراءات ترجمات قليلة منه ، لذلك جاءت كل نتائجه متسرعة ومتسمة بالسطحية والتعميم ، يقول د . حامد النساج :

" اللغة الفرنسية هي لغة البرجوازية الكبيرة والاقطاعيين وأذناب الاستعمار ." (١٣)

ونقول له :

ما رأيك في كتابات : بشير حاج علي ومصالحي الحاج وعمار اوزغان الذين كانوا اعضاء في الحزب الشيوعي الجزائري ، بل كان الاول والاخير أمينين عامين للحزب في مراحل مختلفة ، فهل كانت كتاباتهم باللغة الفرنسية جزء من الثقافة الاستعمارية هل كانوا أذنابا للاستعمار ؟

وما قولك في الطبقة العاملة الجزائرية المغتربة والتي كانت لا تتكلم سوى الفرنسية ؟ هل هي من اذناب الاستعمار كذلك ام من الاقطاع والبرجوازية ؟

وما تحليلك للقطاع الكبير من البربر الجزائريين الذين لا يعرفون حتى هذه الساعة في كثير من المناطق كلمة واحدة باللغة العربية ، هل هم كذلك عملاء الاستعمار ؟؟

ثم يقول د . حامد النساج :

" لقد تولدت كتاباتهم عن فترة الاستعمار وعبرت رؤاهم عن مواقف غير مقبولـة . لذلك فانه ليس من الممكن اعتبار رواياتهم جزءا من الميراث الثقافي العربي الاصيل" (١٤)

ثم بأسلوب استهزائي يجانب الكتابة العلمية كثيرا ، يقول مشككا في نضال هؤلاء الكتاب :

" لماذا يصر البعض على دراستهم واعتبارهم روادا مناضلين ومعبرين عن قضايـا الشعب العربي وواقعه" (١٥)

" ولا شك ان دارسي النصوص الروائية والبنائية ، عندما يقصدون لدراسة مثـل هذه الاعمال المكتوبة بالفرنسية لن يجدوا فيها الا صياغة ادب فرنسي متأثر بلغتـه الفرنسية ، وأساليب سابقيه وبتراث هذه اللغة . " (١٦)

ان هذه النظرة المعادية لهذا الادب الوطني الثوري الذي انتجته مرحلة تاريخية معينة ، هي نظرة شكلانية ومعادية للوطنية من حيث اعتقادها بأنها تدافع عـن الوطن والثقافة ، وانها تقوم على طرح غير تاريخي واحادي يريد ان يقفز فوق قـرون

كاملة من التاريخ ،
يجب ان نعرف جيدا انه رغم وحدة اللغة والدين والتقاليد وتشابه بعض الظروف التاريخية التي احاطت بالدول العربية الى حد ما (الاستعمار التركي ـ الاستعمار الاوروبي ـ الاستعمار الجديد . . .) فان كل مجتمع من مجتمعات هذه الدول يتمتع بظروف اخرى خاصة ساعدت على تمييز تطور الادب والثقافة في كل بلد على حده . . وتتمتع الجزائر بعناصر تاريخية شكلت داخل بنيتها الثقافية ثروة هائلة من فن القول ، وبلغات مختلفة ، فليس من الصواب القول بأن هذا الأدب الجزائرى عربي أو بربرى أو فرنسي فقط ، انما هو أدب جزائرى مضمونه يعكس تقاليد وثقافة وحياة فئات الشعب الجزائرى المختلفة ، ولكنه باللغة الفرنسية ، "تعتبر الجزائر وأدبها تجربة فريدة في تاريخ الآداب القومية ومثلا رائعا من الأمثلة التي يجب أن تدرس في نطاق دراسات الأدب المقارن " (١٧)

يقول الدكتور غنيمي هلال :

" ان هذا الأدب المعبر بالفرنسية اذا صحح مساره بعد الاستقلال . . فان لديه من العوامل ما تجعل منه أدبا عالميا لا ننكره ولا نضيق به ، ونعتبره في نطاق الادب العربي في المحل الأول ونعتبره عالميا في المحل الثاني " (١٨)

الواقع اننا حين كنا ندرس الأدب الجزائرى على يد بعض الأساتذة الفرنسيين ، كنا نشعر بذلك العجز الذى يعانيه هؤلاء الأساتذة أمام نص " نجمة " لكاتب ياسين ، لانهم كانوا يجهلون تعقيدات الواقع الجزائرى ، فكان هؤلاء الاساتذة يهربون الى اختيار نصوص " محمد ديب " أو " فرعون " التي تتعلق بالوصف الطبيعي . . وحتى في هذا الوصف لم يكن باستطاعتهم تفتيت النص وتحليله نظرا لانه يحمل جزءا هاما من ثروة الواقع المحلي ، كما ان اشعار بشير حاج علي كانت بالنسبة اليهم الغازا ، فما سر هذا ؟ فهل الفرنسيون قاصرون على فهم لغتهم ؟

الجواب الذى يدلي بنفسه بوضوح ان هؤلاء الكتاب استطاعوا من موقع الانتماء الى بلدهم وحضارتهم بكل خصائصها : الاجتماعية والتراثية والنفسية والفلكلورية والطبيعية ... أن يعطوا هذه اللغة الأجنبية بالنسبة الى ذاتها وأهلها وذويها .

ان الموقف من الأدب الجزائرى حساس جدا ، ولذا يجب ان لا ينطلق من أفكار ضيقة وشوفينية وخاصة تلك القائلة : بان كل ما تحمله الفرنسية هو استعمارى ، لقد تعلم الفرنسيون وغيرهم العربية لاستعمارنا ، ونذكر مثالا جليا يجيب عن هذا الاشكال : حالة المبشر " كونزالز " الذى كان يحفظ القرآن ويحسن اللهجات ويلقي خطبا بها حتى ظن الناس (العامة) أنه عربي مسلم . .

فالموقف الذى يجب ان ننطلق منه في تقويم هذا الأدب ذي الرسم الفرنسي :

هل أن هذا الأدب واكب وساهم في بناء ثقافة وطنية ثورية ،أم أنه كان وسيلة لاعادة بناء الأشكال الاستعمارية المستلبة ؟

ان الأصل العربي او الجغرافي لا يكفي لتحديد الوعي الوطني ، بل الذى يحدده هو علاقة الفكر بالواقع ، تلك العلاقة التي تخضع للترابط والتفاعل : فليس للفكر حرية ذاتية في التحرك والتطور كما أن نشاطه في انتاج المعرفة ليس من رد فعل كارادة ذاتية مطلقة ، ان تحرك الفكر يكون دوما في اطار بنية فكرية هي التي تحدد له آفاق الامكان والاستحالة في التطور ، معنى هذا أن تحرك الفكر في استكشافه للواقع لا يخضع لارادة الذات أو الفرد ، اى لارادة الفكر ، بل للبنية الفكرية التي يتطور في اطارها ، انها في اساسها علاقة موضوعية بين بنيه فكر وبنية واقع ، كما ان التفاعل فيها بين بنيتين لا بين فرد وبنية . . . وبهذا الترابط البنيوى بين الفكر والواقع يستحيل اطلاقا وجود أية علاقة ميكانيكية بينهما ، فليس للفكر أى وجود مستقل بذاته ، يخرج عن البنية الايديولوجية التي تحدده وتحدد ، اى عن حقل تطوره التاريخي . (١٩)

في اطار هذه العلاقة المدرجة اعلاه بين بنية الفكر وبنية الواقع ، يشكل الأدب الجزائرى في مجموعه وحدة كاملة ومتناسقة ، تعكس صفات ومميزات الامة الجزائرية بمختلف فئاتها (٢٠) كما ان طبيعة الاشكال الفنية والتعبيرية وطبيعة الأنواع الأدبية التي ظهرت داخل الأدب الجزائرى بأى من هذه اللغات (العربية ــ البربرية ــ الفرنسية) انما حددت ظهورها وصفاتها ومميزاتها وقوتها اوضعفها تلك الظروف الموضوعية التي عاصرت نشوء وتطور العملية الأدبية الجزائرية كلها (٢١)

لقد كان الأدب الجزائرى المكتوب بالفرنسية على صلة وثيقة بالأدب الفرنسي التقدمي (بول اللوار ــ أراغون ــ سارتر . الخ) وقد عمقت الثقافة الفرنسية المتقدمة في الأدباء الجزائريين ، توجهيم التحررى وفتحت امامهم بابا واسعا على الثقافة التي تبدعها البشرية ، في فترة كان معظم العالم العربي مايزال يجهل الى حد كبير مايجرى خلف الماء الازرق . كما ان هذا الانفتاح على الآداب العالمية التي تعكس نضالات البشرية من أجل السلم والتحرر والاشتراكية قد شحذ وعيهم السياسي والجمالي وكذا وجههم نحو الاسهام في تنوير واقعهم المزرى . .

كما ان اليسار الفرنسي ،كان يستقبل بحماس وتهافت وترحيب ،هذا النتاج الادبي ، حتى وصل الامر بدور النشر أن كانت تخصص دائما أحد العرب في جهازها الثقافي والادارى ، ونظرا لهذا الترحيب فقد كان محمد ديب مثلا يُقرأ في باريس أكثر من أى كاتب فرنسي آخر (٢٢) يقول مالك حداد عن هذا الوضع :

" اننا مستفيدون جزائيا من حالة مضطربة وباعثة على الاضطراب ." (٢٣)

ان هؤلاء الكتاب ان كتبوا باللغة الفرنسية ، وشربوا من منابع الثقافة الفرنسية ، فقد كانوا نتاج ظروف تاريخية كاملة ، عاشتها الجزائر ، وكانت الثقافة الوحيدة المسموح بها آنذاك وفي حدود معينة ، هي الثقافة الفرنسية (٢٤) ، ويكفي للتدليل على ذلك اعطاء هذه الارقام :

" بعد عشر سنوات فقط من الاحتلال العسكري في العام ١٩٨٢ انشأت فرنسا أول مكتبة فرنسية في الجزائر هي مكتبة " شيكسن " وبعدها زحفت مكتبة " هاشيت " برأسمالها القوى (ستة ملايين جنية استرليني آنذاك) لتنشئ مركزا رئيسيا في الجزائر تدير من خلاله الحركة الثقافية في شمال افريقيا ، واقامت ايضا مركزين رئيسيين اخرين في كل من وهران للاشراف على الزحف الثقافي على الغرب الجزائري ، وفي " قسنطينة " للاشراف على الزحف على شرق الجزائر ، وقد كانت مكتبات "هاشيت" تقوم بتوجيه الصحافة الفرنسية لاصدار طبعات خاصة بدول شمال افريقية ، وعلى سبيل المثال فقد كان توزيع جريدة " لوموند " يصل يوميا في الجزائر الى (٧٨٠٠٠) نسخة وجريدة (فرانس ـ سوار) (FRANCE-SOIR) (١٣٦٠٠) نسخة وقد ساعدتها السلطات الاستعمارية الحاكمة بتخفيف الضرائب الجمركية عنها .." (٢٥)

واذا كان الأدباء الجزائريون قد تأثروا بالكتاب الفرنسيين الذين عاشوا بالمستعمرة ، وولدوا بها ، مثل : راندو ـ روبلس ، كامو ، روا ـ ... الخ فانه يتحتم الاعتراف بأن هؤلاء الكتاب (الاهالي والفرنسيين) لا يشكلون وحدة متناسقة ، ولا جماعة واحدة ، اذ ان الظروف التي كانت تسيطر على المستعمرة (الجزائر) لم تكن لتسمح لهم بحياة متشابهة . ولعل ابرز مثال على هذا اللاتجانس السياسي والجمالي الذى طبع العلاقة بين الكتاب الجزائريين الاهالي والفرنسيين المستوطنين ، هو موقف : ألبير كامو من الثورة الجزائرية ، والذى ادانه الكتاب الجزائريون جملة وبشدة ، رغم تقديرهم لقيمة اعمال هذا الكاتب الفنية ، وكان هذا الموقف بالنسبة للجزائريين ، نهاية وهم فلسفة الحرية والاخاء الفرنسيتين وبدا لهم ان الحل العقلي الوحيد هو التضامن مع حركة المضطهدين ، وهو مافعله بعض الكتاب كجان سيناك وهنري كريا بروح أخوية واعية . (٢٦)

لقد كان الروائيون الاهالي ، اقرب الى اسر الحياة اليومية ومشاكلها السياسية والاجتماعية والثقافية ، من الكتاب الفرنسيين المستوطنين ، اذ ان الكتاب الجزائريين لم يمارسوا الأدب عن بذخ ، بل انهم مارسوا الكتابة من خلال تجاربهم وممارساتهم المهنية والحرفية ، بل ان هذه الكتابة كانت جزءا من هذا العمل ، غير منفصل عنه ، ولذا جاءت مبدعاتهم معبرة عن خبرة شخصية هامة ، فكاتب ياسين احترف العمل بالموانئ والزراعة ، وكذا اشتغل محمد ديب محاسبا ونساجا

ومزارعا ومعلما .. قبل ان يدخل ميدان الادب (٢٧)

لأكثر من قرن كان الكتاب الوحيدون الذين يكتبون باللغة الفرنسية في الجزائر هم من اصل اوروبي ، وكانت مبدعاتهم عبارة عن تزكية للنظام الاستعماري وأساليبه القمعية والعنصرية والتفقيرية : لويس برتراند ، فرديناند ديشتان . وشارل كورتان ، وروبير راندو ، وهوغ لورو .. الخ

اذ كانت كتابات هؤلاء تتغنى بفضائل ومزايا الرجل الاوروبي المتحضر .. والناشر للحضارة .. وفي مرحلة ثالية شكلت كتابات كامو وادريسيو وروا وغيرهم وجها لمأزق الثقافة الاستعمارية .

ومن هذا الوسط الفرنسي الملغوم ثقافيا ، وكذا الخمول والتقليد والعزمت الذى كان يراوح فيه الأدب المكتوب بالعربية ، جاء الأدب المكتوب بالفرنسية ليستثمر خبرات وتقاليد الآداب الفرنسية ويتجاوزها ، فالرواية والقصة الفرنسيتين هما واضعة تقاليد الواقعية (بلزاك — ستندال — فلوبير — زولا — رومان — ولان — غي دى موباسان وروجيه مارتان دوغار — .. الخ) ، وفي فرنسا نفسها تطورت تقاليد الواقعية الاشتراكية مع تطور بنية المجتمع الرأسمالي (أراغون — ستيل .. الخ) ، ولم يسقط ضحية اشكال الكتابة (السامية او الاغرابية والوجودية) التي هيمنت على تاريخ الأدب الفرنسي في الجزائر المستعمرة .

لقد ساهمت التقاليد التحررية والجمالية للأدب الفرنسي على تطوير الأدب الجزائرى المكتوب بالفرنسية ، وكان لهذا الاحتكاك بين الأدبين تأثير هام في تطوير تجربة الأدبين : الجزائرى والفرنسي .

ان الادب الجزائرى الذى ولد عشية الحرب العالمية الثانية ، والرواية خاصة ، قد اتصل اتصالا وثيقا بالأدب الفرنسي ، ولان ذلك الاتصال كان في ظروف معقدة وخاصة جدا ، لم يعرفه اى أدب في الأقطار العربية الأخرى ، فان هذا التأثير اتخذ شكلا فريدا ، اذ أن الخبرة النضالية التي يحملها الأدب الفرنسي ، أمدت الكتاب الجزائريين بالهام جديد وأذكت فيهم روح الثورة ، وساعدتهم في صراعهم ضد النظريات الرجعية في الأدب الاستيطاني (الرواية الكولونيالية خاصة) ، وعمقت القيم والتقاليد الجمالية والنضالية في هذه المبدعات الجزائرية (٢٨)

لقد أخذ الروائيون الجزائريون عن الوجودية بالخصوص مظاهرها الملتزم وارادتها في التحليل الجذرى ، فأفرغوا القلق من محتواه الميتافيزيقي وموضعوه في مرحلة تاريخية معينة او اطار مجتمعي ملائم : قلق الاجتثاث عند ديب ، قلق فقدان الشخصية والاثم عند اسيا جبار ، وقلق التمزق اللغوى عند مالك حداد ... ولكن كل هذه الاشكال من القلق كانت تعكس في جوهرها ظاهرة الاستلاب التاريخية الشاملة التي

كان الاستعمار يمارسها ضد الاهالي ، وداخل هذا القلق كان الكتاب بمستويات متفاوته يصبون تمردهم على النظام الاستعماري وعلى المجتمع التقليدي (٢٩)

اذا ، بين الحس الكامل بالالم والتمزق من جراء اللجوء الى الفرنسية (عند البعض) اداة للتوصيل ، وبين تأكيد الهوية الوطنية التي تلتصق في النضال ضد القهر الطبقي والقهر السياسي الذي يوجده الاستعمار والطغمة المالية المستوطنة والطغمة المالية المحلية المتعاونة مع الاستعمار (٣٠) ، تقع اغلب الكتابات الروائية الجزائرية (٣١) .

واذا كانت الرواية الجزائرية الوطنية ذات التعبير الفرنسي ، قد تأثرت بالرواية الفرنسية صاحبة التقاليد العريقة الجمالية والمضمونية حتى وجدنا البعض يسمي محمد ديب بلزاك الجزائر الماركسي ، ويقرن اسم كاتب ياسين بتيار الرواية الجديدة (مدرسة منتصف الليل) - آلان روب غرييه وناتالي ساروت . . الخ الا ان هذه الرواية الجزائرية كانت تخلق تحصيناتها وقطيعتها مع هذا الأدب الفرنسي يوما بعد يوم من خلال جدلها مع الواقع التاريخي للمستعمرة منذ الحرب الكونية الثانية ، اذ برز منذ البداية التصاق هذه التجربة الادبية بتجربة الشعب التاريخية في المعاناة والمقاومة ، وبذلك فهي كتابات متميزة ومنتمية للتاريخ والوطن المكبل ، وهي في منحاها هذا ، كانت تختلف عن سائر الكتابات الفرنسية التي كان ينتجها الفرنسيون داخل الجزائر ، وحتى من اكثرها تقدمية وتحررا و" محبة " للجزائر : كامو - أديسيو . . الخ

ان التزام الروائيين الجزائريين بواقعهم والاسهام في تطويره عبر العمل السياسي من جهة والعمل الثقافي من جهة اخرى ، جعل لهذه الرواية خصوصياتها الجمالية والمضمونية المنفصلة عن عموم الرواية الفرنسية الباريسية أو الجزائرية ، اذ جعلت اللغة الفرنسية لاول مرة غريبة عن ذاتها وعن ذويها ، غرابة الاستعمار عن هذه الأرض .

يقول محمد ديب :

" في قلب كل كاتب حقيقي ، وكل فنان حقيقي ، تكمن رسالة وطنية لا تقوم له قائمة بدونها ، ان كتابنا الجدد قد توصلوا الى حقيقة كبيرة ، وعمق أكبر ، وفن أكبر ، عندما جعلوا من المسألة الوطنية المضمون الانساني والاجتماعي لآثارهم ، ولكي نتقدم بأدبنا الى الامام ونرفع مستواه . . . يجب ان نندمج في المعركة بشكل جلي وحماسي ، وبهذا وحده سوف تنكشف امامنا أثمن الصفات الانسانية ان العمل على الظفر بمستقبل لبلادنا واجب وطني مقدس بالنسبة للكاتب كما انه ضمان اكيد لجودة انتاجه . " (٣١)

لقد أدرك محمد ديب وغيره أن لا فاعلية المفكر والانتاج المعرفي ، وانه لن يصير

قوة فاعلة في التاريخ الا بصيرورته قوة مادية ، ولا يكون ذلك الا حين يتجسد في النضال العملي .. اى في ممارسة السياسة ، اذ ان الوجود المادى للفكر لا يتحقق الا داخل الممارسة السياسية (٣٢) وفي اطار هذه العلاقة بين الفكر والواقع ، بين الأدب والسياسة ، بين الكاتب والتاريخ ، بين الفنان والسياسي والمعرفي والمناضل كان الأدب الجزائرى يفرز نفسه ويطورها ويثورها ، يقول فرانز فانون :

" بينما كان الكاتب في البلدان المستعمرة يعمد في البداية الى الانتاج الفني الموجه الى الطغاة وحدهم ، أما لكي يفتنهم أو لكي يندد بهم عن طريق المقولات العلقية والذاتية فانه قد بدأ الآن يعتاد تدريجيا على مخاطبة شعبية ومنذ هذه اللحظة يمكن ان نتحدث عن الأدب الوطني .. أدب النضال الحقيقي ، الذى يدعو الشعب بأسره الى النضال من أجل الوجود الوطني ، وهو أدب نضالي لانه يلهم الوعي الوطني وينيره ويرسم خطوطه ويتيح امامه مجالات جديدة لا حدود لها : أدب نضالي لانه يتولى مسؤولية الأمور ، ولأنه يمثل ارادة معقودة جاءت في وقتها ، وعلى صعيد آخر بدأت الاداب الشفاهية والاقاصيص والملاحم والأغاني الشعبية تتغير وتتحول بعد أن كانت قبل ذلك جامدة "

" ان مسؤولية رجل الثقافة المستعمر ليست مسؤولية ازاء الثقافة الوطنية ، انما هي مسؤولية شاملة ازاء الأزمة بكاملها ، التي لا تشكل الثقافة فيها سوى مظهرا ... والكفاح من أجل الثقافة الوطنية هو قبل كل شيء الكفاح من اجل تحرير الوطن الذى هو المحرك المادى الذى يجعل الثقافة ممكنة .. "

ويقول كاتب ياسين :

" لقد كانت هناك حرب بيننا وبين فرنسا ، ولكن من يقاتل لا يسأل نفسه ليعرف : ان كانت هذه البندقية التي يستعملها فرنسية أم المانية أم تشيكية ، انها بندقية وهي سلاحه ، وهي لا تخدم الا معركته " .

ويضيف كاتب ياسين :

" ان الفرنسية ليست سوى اداة لتوصيل افكارنا الى المثقفين في العالم لنجذب به المفكرين الأحرار لنصرة قضية جزائرنا العربية ، ولكننا نحمل روحا عربية وعربية ثورية ، عربية لان جزائرنا ليست فردا بعينه او شخصا بالذات انها فكرة ومعنى ، أو هي قيمة ومثال وهي أولا وأخيرا عربية .. " (٣٣)

فعلى رجل الثقافة ان يحتل مكانه بصفة يقظة ومتحررية في ميدان الممارسات السياسية الوطنية حتى تصبح بذلك ثقافته سياسية ، بحيث يتحكم في كل معطياتها ويدرك كيف يعطيها التوجه المقصود للوصول الى الأهداف المعروفة (٣٤)

وعلى حد قول محمد ديب " فان كل قوى الخلق والابداع لكتابنا وفنانينا بوقوفها في خدمة اخوانهم المظلومين تجعل من الثقافة سلاحا من أسلحة المعركة .. ولاسباب عديدة ، فانني ككاتب كان همي الأول هو أن أضم صوتي الى صوت المجموع منذ أول قصة كتبتها " . (٣٥)

أما الدكتور طه حسين فيقول في معرض تعليقه على رواية "الربوة المنسية" (٣٦) لمولود معمري : " ماأشد اعجابي بهذا الكتاب الذى لاأنكر من أمره شيئا ، الا انه لم يكتب بالعربية ، ولكن هذا عيب لا يؤخذ به الكاتب وانما يؤخذ به الاستعمار .. "(٣٧)

ويصف محمد الميلي هذا الأدب : بأنه أدب المقاومة يعكس حقيقة أعمق ، لا يجوز أن ننساها في هذا المجال ، وهو تأثير البيئة التقليدية والآلام الجزائرية في الكاتب الجزائرى الذى استخدم اللغة الفرنسية لتكون تعبيرا عن مقاومته ورفضه للاستعمار . فالبيئة التقليدية بتمسكها الشديد بمظاهر الشخصية الوطنية وبرفضها المطلق هي التي أمدت ، عبر الآلام الجزائرية ، أولئك الكتاب وهم لا يزالون أطفالا بعد ، بتلك الروح التي جعلتهم ينجحون في التخلص من التأثير السلبي للثقافة الفرنسية ويعبرون عن رفضهم للاحتلال حتى باللغة الأجنبية . . "(٣٨)

ويؤكد الباحث الجزائرى مصطفى الأشرف ، وربما يعتبر اكثر الباحثين تتبعا لظاهرة الأدب الجزائرى المكتوب بالفرنسية منذ الخمسينات واكثرهم عمقا في التحليل : " ان هذا الأدب يعكس للمرة الاولى داخل الآداب الفرنسية ، حقيقة جزائرية ، لم تكن باستطاعة أى كاتب ، حتى كامو ، الجرأة على ترجمتها " (٣٩)

ويرى الباحث المغربي عبد الله العروى انتمائية هذا الأدب بمضامينه فيقول : " عندما نكتب بالفرنسية ، يجب على القراء ان يترجم حقيقتنا وليست حقيقة المجتمع الفرنسي "" (٤٠) . اما الشاعر المناضل عبد اللطيف اللعبي فقد اعتبره رسالة مفتوحة الى الغرب تحمل اليه الرفض والشهادة الوطنية . (٤١) ، في حين يرى الكاتب الجزائرى مولود معمرى : " اننا نريد ان نبين للاوروبيين بماذا تشعر أفريقيا في اعماقها ، واذا لم يكن هناك قراء كثيرون افارقة ، فلأنهم محكومون بظروف ومشاكل الأمية ، لقد حكم علينا ان نقدم بلادنا الى اولئك الذين يحملون أحكاما مسبقة واستهزائية تجاه أفريقيا " (٤٢)

ان هذا الذوبان وهذا الالتزام بالواقع الجزائرى ، كشف كثيرا من الكتاب الفرنسيين ، الذين حاولوا مرات كثيرة ان يغالطوا الرأى العام الأدبي والسياسي ، باطلاق كتابات موقعة بأسماء عربية ، مثال على ذلك الكاتب الفرنسي الذى كان يوقع باسم : " عبد الله شاما " (٤٣)

ان العلاقة بالواقع وتثويره والمساهمة في بنائه ، هي وحدها التي كانت تحدد انتمائية هذا الأدب الى الوطن ، وان عدم الانسجام مع الواقع الكولونيالي القائم على الاستلاب الحضارى المبني على : القمع الطبقي والسياسي والثقافي، هو الذى كان يحدد هوية الادب والاديب . فاذا كان الواقع الجزائرى المستعمر بالنسبة للكتاب الجزائريين مأساة كبيرة ، فلم يكن في عين الكتاب الفرنسيين حتى اكثرهم فهما وتقدما ، سوى ديكورا وفلكلورا افريقيا ، فاذا كان روبلس او راندو او جول روا او كامو شمال - افريقيين من حيث أصولهم (مسقط الرأس) ، الا انهم من حيث الموهبة ، فقد كانت موهبة باريسية . . وان " غريب " كامو ليس كتابا "ميتافيزيقيا" بل انه وليد ذلك القلق الوجودى ، قلق الانفصام عن الواقع وعن الحضارة ، وما مسرحية " سوء تفاهم " لكامو الا دليلا آخر على سوء التفاهم - السوسيو - تاريخي الذى عاناه جيل من المثقفين الفرنسيين الذين عاشوا هذا القلق دون أن يتمكنوا من تجاوزه .

يقول ألبير ميمي :

" ان الكتاب الجزائريين باللغة الفرنسية ، يكتبون من أجل أن يشهدوا على الاستعمار ، ومن أجل أن يعرضوا العالم الداخلي والخارجي للانسان المستعمر . . وهذا الأدب هو ما كان من المفروض ان تنتجه افريقيا الشمالية وانه لفخر اذ انتجته ، وان مصيره مرتبط بمصير اللغة الفرنسية في الشمال الأفريقي " (٤٥)

ويرى الباحث المغربي الدكتور عبد الكبير الخطيبي : ان هذه النصوص على اختلاف لهجتها تلتقي في طابع مشترك وهو كون هؤلاء الكتاب مقتنعين برسالتهم ، وبالمهمة الملقاة على عاتقهم ، يسعون الى التعبير عن مأساة مجتمع متأزم ، واكثر من ذلك ، فقد ادركوا انهم بتجسيدهم لوضع معطى ، يترجمون التحول العميق الوافد مع تصفية الاستعمار . "

اما الدكتور جمال الدين بن الشيخ رئيس قسم الدراسات العربية بجامعة السوربون فيقول : " لقد احدثوا من خلال نماذجهم كتابة جديدة مثمرة تعبر عن معان مختلفة وانسانية . . ولو انهم كتبوا باللغة العربية وأبدعوا فيها كما ابدعوا في اللغة الفرنسية لقدموا خدمات جليلة الى مادة اللغة العربية ، ووصلوا بها الى آفاق جديدة ، وارتفعوا بأسلوبها وابدعوا في معانيها ، ان معظم الذين كتبوا باللغة الفرنسية ساهموا في تطوير اللغة الفرنسية لكن نتائجهم العربية كانت محدودة وهذا ايس عيبوما على هؤلاء الكتاب " (٤٦)

ان الأدب الجزائرى بالفرنسية هو أدب جزائرى (٤٧) بكل معنى الكلمة ، وحضوره تأكيد لواقع أعقبه الاحتلال الفرنسي ، واستعماره الثقافي للجزائر . وهو

أدب جزائريين مؤمنين بوطنهم ، ومتذمرين من غربتهم عن لغتهم العربية وحتى عـــن لهجتهم البربرية ، وليس تعبيرهم بالفرنسية عن طواعية ، بل هو نتيجة حتمية لواقـــع لم يكن لهم فيه يد .. ولقد تجسد موقفهم الوطني والأدبي في استعمالهم اللغــــة الداخلية وسيلة لاعلان تمردهم على حضارة وجدت بينهم بحكم الاحتلال ، على كره منهم لا بفعل تمازج وتفاعل طبيعيين (...) ولم يكن هم الأدباء الجزائريــــــــن بالفرنسية الدفاع عن اللغة العربية وعن الدين الاسلامي بقدر ما كانت المطالبة بوطـن جزائري لا يشعر فيه المواطن بالغربة والضياع والتشرد .

وتربط الدكتورة نور سلمان اشكالية انتماء الأدب الجزائري بالفرنسية الى الثقافــة العربية بتلك المناقشات والجدل حول ، مدى انتماء أدب جبران خليل جبران ،وأمين الريحاني وميخائيل نعيمة المكتوب بالانكليزية وأدب جورج شحادة واندريه شديـــد وشارل قرم (١٨٩٤—١٩٦٤) وفؤاد جبرائيل نفاع ، وشكري غانم (١٨٦١—١٩٢٨) وفرج الله حايك (روائي ولد عام ١٩٠٩) وميشال شيحا (٤٨)المكتوب بالفرنسيــــة الى أدبنا العربي ، فالظاهرتان متشابهتان .

أما الدكتور سامي الدروبي ، الذى رافق الأدب الجزائرى المكتوب بالفرنسيـــة رفقة الترجمة المبدعة فيقول :

" لقد عرفت فرنسا بأساليب التجهيل التي انتهجتها في الجزائر أن تنتزع منهم أداة التعبير باللغة الأم ، وان تضع بين أيديهم أداة أخرى هي اللغة الفرنسية لاحيلـــة لهم في الاعراض عنها اذا أرادوا ان تدور ألسنتهم بكلام أو تجرى اقلامهم بكتابة". (٤٩)

أما وجهة نظر الدكتور ابراهيم الكيلاني ، الذي يعد من الأوائل الذين عرفـــوا بهذا الأدب في المشرق العربي فيقول :

" طلع الأدب الجزائرى حيا قويا ، ولكنه لم يطلع في دنيا العرب ، بل في أدب الفرنسيين فاحتل الأدباء : محمد ديب ومولود فرعون و (ادريس الشرايبي) (٥٠) ومولود معمري وطلك وارى ومالك حداد وكاتب ياسين وغيرهم ، مكانتهم في الأدب المعاصر ذي التعبير الفرنسي ، وتميز هذا من غيره من الآداب في واقعيته وقوميتـــه وشدة ارتباطه بالارض الجزائرية التي يعيش عليها شعب يريد الاحتفاظ على الرغم من سياسة التجهيل والافقار المادى والفكرى ، بمقوماته النفسية وذخيرته الروحية وطابعه الأصيل ، فلم ينس أدباء الجزائر في عالمهم الثقافي الرفيع ولغتهم المستعـــارة ، الحقيقة المؤلمة التي يعيش فيها ابناء قومهم بل عملوا ببراعة تحت ستار الفن الـــروائي على تثبيت صورة الجزائر في أذهان الفرنسيين ومن يجيد الفرنسية من بني قومهم .

ففي هذا الأدب مرارة وألم قلما يرتفعان الى حد المطالبة الصريحة بالاصلاح والعدالة أو يهبطان الى التضرع والشكوى ، بل بقي هذا الأدب ضمن التعبير الهادئ الجميل

يملؤه شعور بالنزاهة والايمان بالحق وعدالة القضية ويسوده الاباء والترفع .."(٥١)

ويقول أراغون مقدما شهادته عن هذا الأدب :

" فهنا دون شك ، يكمن الملمح الحقيقي لهذه المأساة الجزائرية ، والذى يعبر عنه بعض الاشخاص من عندنا (اى من الفرنسيين) بنوع من الليونة والرخاوة ، حتى جاء هؤلاء الذين استطاعوا بأنفسهم التعبير بوفاء عن شعبهم بهذه اللغة .. هذه الفرنسية ، التي هي في نفس الوقت لغة العسكر في الليل ، ولغة الابادة ، ووسيلة التعاطب والاستفسار في التعذيب ... " (٥٢)

قبل سنة (١٩٤٥) ، لم نكن لنعثر على اى عمل أدبي متقدم ووطني لأسماء جزائرية ، "لقد كانت الكتابة نوعا من المغامرة في سياق النظام الاستعمارى في العقدين الثاني والثالث من هذا القرن . وان تكوين النظام وطبيعته ، لم يسمحا سوى بأناشيد الثناء عليه والتغني بمآثره ، فهو يحكم على كل نتاج أدبي محتمل الظهور بان يكون ادبا كاذبا او أدبا لا قوام له . وقد ظهرت بالفعل في خلال هذه الفترة روايات كتبها بعض " الجزائريين " .. لا تتناول من قريب او بعيد المشاكل الحقيقية ، ولكن الأدهى — من ذلك كما يقول مولود معمرى — ان هذا الأدب يرى المجتمع الجزائرى بنفس العين التي تراه بها الأقلية الاوروبية (٥٣) وينحاز هذا الانتاج كله الى الجزائر الفرنسية ومن أهم الاسماء التي برزت : الشاعر سالم العقبي (توفي سنة ١٩٢١) وكذا الكاتب والروائي حاج حمو عبد القادر (١٨٩١—١٩٥٥) صاحب رواية (زهرة زوجة المنجمي) (٥٤) وكذلك قايد بن شريف (١٨٧٩—١٩٢١) الذى نشر أول عمل روائي بعنوان : "أحمد بن مصطفى غومي" (١٩٢٠) وكذلك : شريف بن حبيلس صاحب رواية (أرواح الحدود) ( ) ومحمد ولد الشيخ (١٩٠٦—١٩٣٨) صاحب "عذراء الدوار" ( ) و "مريم في النخيل" (١٩٣٦)) (٥٤)

وللتمييز بين الادب الوطني الجزائرى ذى التعبير الفرنسي ، والأدب الذى كتبه بعض الاسماء الجزائرية المتفرنسة فكرا وانتماء ، ولمعرفة المهمة التي حملها جيل (الخمسينات) الادبي كما كان يطلق عليهم ، رأيت ان افرد فقرة صغيرة في هذا البحث ، أقف من خلالها على هذا الادب الذى لا يعدو أن يكون وجها (محليا) للأدب الكولونيالي ، وسيتجلى بوضوح لاولئك الذين حاولوا أن ينكروا عن الأدب الجزائرى المرسوم بالفرنسية وطنيته وثوريته ، الفرق الشاسع بين كتابة "جزائرية" كولونيالية تعد جزءا يضاف الى التراث المعرفي الاستعمارى ، والأدب الجزائرى الوطني الذى خلق قطيعة مع هذه الثقافة ، ووضع اللبنة المتينة لثقافة وطنية ثورية .

اقتــــرابـــات تاريخيـــــة وأدبيـــــــة

مــن الروايـــة الجزائريـــة الاندماجية

ركزت كل الدراسات والبحوث التي تناولت الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية على فترة مابعد الحرب العالمية الثانية ، متجاهلة تلك المبدعات التي انتجها " جزائريون " من الاهالي في الفترة مابين (١٩٢٠-١٩٤٥) ، ومهما كان موقفنا منه ، فانه يبقى انتاجا معرفيا وادبيا يعكس روءية ايديولوجية وسياسية لهوءلاء المثقفين والأدباء في تلك الفترة ، تحدد موقفهم تجاه الادارة الاستعمارية وموءسساتها من جهة وموقفهم من الاهالي ووضعيتهم الاجتماعية والسياسية والثقافية التي يغرقون فيها .

ان دراسة هذه النصوص تسمح لنا بمعرفة ماذا كان يقول هوءلاء المثقفون ؟ وكيف كانوا يقولون ؟ وكيف ترجموا واقعهم الاجتماعي والسياسي ؟ وتسمح لنا من جهة اخرى ابراز الموقف الشجاع : سياسيا وادبيا الذي تبناه كتاب جيل (١٩٥٢) ، فانهم تجاوزوا هذه الكتابة المستلبة وحققوا من خلال نتاجاتهم الشعرية والروائية اساسا متينا للثقافة الوطنية الثورية ، واسسوا في نفس الوقت قطيعة سياسية وادبية مع هذا الجيل الاندماجي من الجزائريين - المسلمين (مصطلح للتفريق بين الاهالي والفرنسيين) ومع المثقفين الفرنسيين على اختلاف مدارسهم التي اسسوها منذ كان الاستعمار في الجزائر .

رافق بداية انتاج أدب جزائري - مسلم - اندماجي جملة من التحولات الاجتماعية والسياسية التي كانت الدافع الاساسي لظهور هذا الأدب .

فعلى المستوى السياسي ، كانت الاطروحة الاندماجية اليمينية هي الطاغية ، في ظل ضعف الحركة الوطنية الجزائرية ، وكذا توجهات بعض اجنحتها اليمينية (المنتخبون والليبراليون) التي كانت تدعو الى تحضير المجتمع الجزائري عن طريق الحاقه بفرنسا المتحضرة والمتمدنة ، وبدت في ظل طغيان هذه الاطروحة للنخبة - آنذاك - أن هذا هو الحل الوحيد والممكن ، وروج الاستعمار لذلك بكل امكانياته

القويــة : الايديولوجية والسياسية ، وكان الاحتفال بالذكرى المئوية لدخول الاستعمار الجزائر مناسبة سياسية هامة ، حشدت لها كل الامكانيات البشرية والقمعية لانجاح هذا الاحتفال محليا وعالميا ، وشكل بالنسبة للمثقفين الاندماجيين قمة الالتحام بفرنسا .

اما على المستوى الاجتماعي ، فقد كان الانفجار الديمغرافي الاهلي يزحف علــى المستعمرة ، ليخرق الاقلية الأوروبية في الارياف والمدن التي كانت شبه محظورة على الجزايين ـ المسلمين مما دفع الالاف من الاهالي الى الهجرة خارج الجزائر ، وسوف تكون لهذه الهجرة في ثلاثينات هذا القرن ومابعدها ، دورا اساسيا ورائدا فــي تشكيل النواة الاساسية للحركة الوطنية الجزائرية في باريس ، وامام هذا الوضع ظـــل المجتمع الجزائري يعاني من عملية الهدم والبناء التي تخلف في الوقت نفسه آثارهـــا على الحقل الثقافي والوعي الاجتماعي لدى الاهالي .

ان عملية التحطيم واعادة البناء التي ظل المجتمع الجزائرى عرضة لها فـــي المستعمرة خلال قرن كامل ، كان ضروريا ان يصحبها بناء ايديولوجي ينسق هذا البناء الاجتماعي .

وفي ظل هذه الحركة الدائبة (هدم ـ اعادة بناء) الاستعمارية ، كان الاهالي من المثقفين الادباء ، يبحثون عن بناء ادبي يكون المعبر عنهم او الذى يشرح "الأنا" و "الهو" في ظل "اطروحة تقليدية يمينية" تتجاوب وأزمة "المقاومة ـ الحوار" (Resistance - Dialogue) التي تبناها المنتخبون الليبراليون ، والتي لا تخرج في جوهرها عن موقف تقليدى ـ يميني ادماجي ونخبوى وجزئي في حل قضايا الاهالـــي وبالتالي في حل المسألة الوطنية ، ولا تتعدى "مقاومة الحوار" ان تكون دعوة لاستعمار حضارى وتحضيرى . . .

لقد عكست "المقاومة ـ الحوار" بدعم من الجهاز الاستعمارى حضورها السياسي

داخل الانتاج الادبي الذى انتجه (مسلمون جزائريون) الأهالي حتى نهاية الحرب العالمية الثانية (أى في الفترة مابين الحربين تقريبا) ، وظهرت نخبة من المثقفين الجزائريين ـ المسلمين تدعو في كل المحافل الأدبية والسياسية ومن خلال انتاجهـا (بغض النظر عن قيمته الجمالية) الى ادماج الجزائرى بالفرنسي ، على اساس أن ذلك هو المطلب الحقيقي والسامي للاهالي .

يقول أحد الروائيين ومثقفي هذه الأطروحة السياسية ، وهو محمد ولد الشيـخ (١٩٣٨-١٩٥٦) :

" لقد عرفت السبب ، ان البلاد تحت قيادة فرنسا ، عرفت السلم والخير ... وليس باستطاعة احد من الاهالي ان ينكر المعروف الذى تقدمه فرنسا الأم ، مـن اجل انقاذه من الظلمات ، وادخاله في النور ، انها الحياة والسعادة ... " (١)

فمن خلال هذه " النخبة " المثقفة من الجزائريين المسلمين ، كان الاستعمـار يبحث عن شرعية ثقافية وأدبية ومؤسساتية وبشرية لضمان وجوده وبقائه وتطوره ، ومـن ثمة تدمير ماتبقى من عناصر الثقافة المحلية ذات الطابع " المواجهي " الصدامي ، الثقافة المضادة للاستعمار .

كتب احد النقاد الفرنسيين معلقا على الروايات التي انتجتها هذه النخبة الجزائريـة [illegible] قائلا [illegible]

" ان هؤلاء المسلمين الذين تكونوا في مدارسنا ، يستطيعون ليس فقط التأقلـم مع لغتنا ، لكنهم يدركون جيدا اهداف التقدم الذى خلفته منجزاتنا واعمالنا العسكرية ، وهم يساعدوننا على تحقيقها . " (٢)

واحتفلت الأوساط الأدبية الاستعمارية واليمينية بهذا الأدب واعتبرته أدبا ريادیا

، واعتبرت مفاهيمه انسانية وسامية يقول احدهم :

" ان الزواج المختلط (فرنسي — جزائري) أوالعكس ، هو رمز الاقتراب من

فرنسا عند (زناتي : أحد الروائيين الجزائريين الاندماجيين ، ١٨٧٧ — ١٩٥٢)

وان الزواج المختلط : هو رمز الأعراس الفرنسية — الجزائرية " (٣)

ان روائيا مثل رابح زناتي لايتوانى او يتردد في الاعلان : " ان كل شيء للفرنسا؟

، وقد كتب في العام /١٩٣٨/ ، : ان الجزائريين محظوظون لكونهم يتربون على

يد اكبر امة واكبر حضارة في العالم . اننا معها نستطيع ان نخطو خطوات عملاقة .

وان الهدف الذى يجب علينا العمل من اجل تحقيقه ، قبل كل شيء هوفرنستنا ، أى

أخذ الروح الفرنسية ، والعقلية الغربية " (٤)

ان رواية الكاتب : رابح زناتي التي كتبها بالاشتراك مع أخيه تحت عنوان بوالانوار

، الشاب الجزائرى " (١٩٤٥)

تحقق على مستوى الخلق الأدبي أو الخطاب الروائي تلك الأطروحة السياسية

الداعية الى الادماج والانحلال داخل المجتمع الفرنسي ، ان البطل " بوالأنوار "وهو

الشاب الاهلي ، لا يختلف في حركاته ومجالات اهتمامه وهمومه وعلاقاته عن الشباب

الفرنسيين ، وان الرواية كانت تطمح ان تقدم نموذج الجزائرى المتفرنس ، الجزائرى

الحلم الذى تسعى لتحقيقه هذه النخبة المثقفة من خلال سياسة الادماج .

يقول بوالانوار رداعلى احد أصدقائه من الاهالي الذى اتهمه بعلاقاته المتينة

مع الفرنسيين :

" اننا بعثنا الى هنا لنتعلم الفرنسية ، ولكي نصبح مثل الفرنسيين " (٥)

وقد كتب بشيرحاج علي احد الشعراء الجزائريين الوطنيين الثوريين واحد قادة

الحركة الوطنية الجزائرية مقالا عنيفا ضد هذه الرواية قائلا :

"ان بو الانوار هو المثقف الذي جهد الاستعمار نفسه في انتاجه ، وليجعل في وجهه بعد ذلك سدا منيعا من : اللاعدالة والعنصرية " (٦)

ان هذه المبدعات الروائية تحقق على مستوى النص الأدبي ، مالخصه فرحات عباس احد المناضلين من اجل الاندماج على المستوى السياسي ، بقوله :.

"ان الجزائر ارض فرنسية ، واننا فرنسيون لنا نظام اساسي لاحوالنا الشخصية ، والمرغوب هو السير من المستعمرة الى المقاطعة . . . (فليس ثمة في الكتاب المقدس مامن شأنه ان يمنع جزائريا مسلما من ان يكون من الناحية القومية فرنسيا ذا يدين قويتين وذكاء يقظ وقلب صادق ووعي بالتضامن القومي " (٧)

ينتمي هؤلاء الروائيون النخبويون ، الى الطبقات المتوسطة والوسيطة ، التي تشكلت كما يقول شال روبير اجيرون (Ch. A. Ageron) مع بداية القرن العشرين ، انها تمثل تلك "الانتليجنسيا "الجديدة التي نبتت داخل المجتمع الاهلي الاسلامي ، وهم متكونون داخل المدارس الفرنسية (٨) ، وشيئا فشيئا اخذت هذه "الانتليجنسيا " المفرنسة تشكل داخل الاوساط الاهلية بورجوازية جديدة ، متميزة عن الارستقراطية العسكرية او الطرقية الدينية ، وتسربت الى الاجهزة الادارية والقضائية الاستعمارية كخادمة أمينة لمصالح الرأسمال الكولونيالي ، ورفعت بقوة شعار الادماج والاندماج وهي تهدف من وراء ذلك وبذكاء استعماري الى ترويج الغاء فكرة "المستعمر" والغازي ، واظهار صورة جديدة ومتناسقة لواقع المستعمرة .

في هذا الاطار الاجتماعي والسياسي والثقافي ، ظهرت رواية اخرى تعتبر من اهم الروايات التي مثلت المرحلة ادبيا ، وعبرت بعمق ودافعت بحرارة عن هذه الاطروحة السياسية والادماجية . هذه الرواية هي " زهرة ، زوجة المنجمي "(١٩٢٥)

للروائي عبد القادر حاج حمو ، والتي اعتبرت في أغلب المناقشات التي جرت على صفحات " المجاهد الثقافي " على انها أول عمل روائي يكتبه اديب من الاهالي(٩)

في حياة حاج حمو عبد القادر الادبية علامتان بارزتان تحملان كثيرا من الدلالة السياسية والثقافية ، وتعبر عن فكر هذا الروائي الاندماجي وتبنيه واخلاصه لفكرة الاندماج ، ودفاعه المستميت عنها ، سياسيا وعن طريق الانتاج الأدبي .

العلامة الاولى : اشتراك الروائي حاج حمو عبد القادر مع روبير رانحو : (R. RANDAU) في كتابه رواية " Les Compagnons du jardin " (رفقاء الحديقة) (١٩٣٣) ، (لقد كنا قد قدمنا حديثا عن كتابات راندو وموقفه السياسي من المستعمرة ، ضمن حديثنا عن الرواية الكولونيالية في القسم الاول) . وحتى صدور هذا العمل الروائي المشترك ، كانت شهرة حاج حمو ضيقة جدا .

العلامة الثانية : لقد كان حاج حمو عبد القادر هو الاديب الاهلي الوحيد الذى ضم الى انتولوجيا القصة " الخاصة بكتاب الجزائر الفرنسيين الكولونياليين ، والتي قدم لها الكاتب العنصرى : لويس برتراند (L. BERTRAND) تحت عنوان (افريقيتنا) (Notre Afrique) .

لقد اكد الحاج حمو كغيره من هذا الجيل الادبي الاندماجي (١٩٢٠ – ١٩٤٥) التزامه السياسي تجاه فرنسا الحضارية ، وقد القى بمناسبة الذكرى المئوية لدخول الاستعمار الى الجزائر كلمة باسم الانتلجنسيا الاهلية – المسلمة ، في احتفال كبير اعدته الادارة الاستعمارية بهذه المناسبة "العظيمة" ! وقد ركز في كلمته على دور المثقفين الاهالي تجاه فرنسا ، ومايجب ان يقوموا به من اجل خدمتها ، في سبيل تحضيروتمدين

الاهالي المتوطنين . وركز فيها على الدين الاسلامي باعتباره — على حد قوله —
دين سمحة ودين تسامح واخاء ، وقد حققت هذه الكلمة الفكرة التي كان يدافع عنهما
" فرحات عباس " ، (وقد اثبتناها اعلاه) . يقول حاج حمو :

"ان الدين الاسلامي ابعد مايكون عن الشعوذة ، بل انه على النقيض من ذلك ،
دين التقدم والتحرر . . . "

اني احلم بجزائر فرنسية الى الابد ".

وفي معرض حديثه يشرح مفهومه للاندماج القائم على النخبوية ، اولا، يقول :

"اني نصير للمساواة والحق المشترك المطلق ، على الاقل للنخبة ، في انتظار
ميلاد الجزائر المقاطعة الفرنسية بكاملها . . . ان الاسلام لا يعارض شيئا ، ولا يخلق
اى عقبة امام فرنستنا التامة ، مادام يدعو الى التطور ويحارب الجمود ."(١٠)

لقد اعتبرت الرواية التي كتبها حاج حمو بالاشتراك مع روبير راندر (رفقاء الحديقة)
، داخل الاوساط الاستعمارية ، ظاهرة سياسية بارزة ، وعلامة متنورة في تاريخ
مسيرة فرنسة "الروح " لدى الاهالي ، ووثيقة مقدسة لتلاحم المثقفين المسلمين —
الاهالي المستوطنين الفرنسيين ، من اجل تحقيق الاخوة الفرنسية — الاسلامية (١١)

وقد كتب علي الحمامي وهو احد المثقفين والروائيين الجزائريين في تلك المرحلة ،
والذي استطاع ان ينفذ من حبائل السقوط في الدعاية الى الاندماجية ، ويمكن اعتباره
بحق الاب " الساذج " للرواية الوطنية في الجزائر من خلال عمله الروائي — التاريخي
" ادريس " (١٢) ، كتب نقدا لاذعا ضد الرواية المشتركة بين حاج حمو وراندو ، ،
واعتبر حاج حمو كاتبا انتهازيا ومتسلقا ، يريد القفز على الحبل المقطوع من اجل
الوصول الى الشهرة .

"ان هذا العراب المسلم صاحب هذه التمثيلية التهريجية المستهلكة ، هذا البعيد كل البعد عن التالق الادبي ، يسمح لنفسه بان يتخذ لنفسه اسما ادبيا مستعـــارا ولاسما ، ليوقع به هذا الكتاب ــ الصدمة الفظة . (Attrape-Nigaud) ، " فكرى " ــ الصدمة ، انها رفقة تثير اسئلة كثيرة " (١٣)

لقد كان حاج حمو عبد القادر يوقع مايكتبه باسم "عبد القادر فكرى" ، وهـــذا مافعله في الرواية "رفقاء الحديقة" المشتركة ونتيجة لثقة الادارة الاستعمارية فيه فقد عين في ظل فترة صعود الحركة الوطنية الجزائرية ، وفي عز الملاحقات التي كان يعرفهـــا المثقفون الوطنيون ، نائبا لرئيس جمعية اتحاد الكتاب الجزائريين (١٤) اى في مرحلة مابعد الحرب العالمية الثانية ، مرحلة انتفاضة سطيف وخراطة . . التي خلفت (٤٥) الفا من الشهداء ومرحلة سجن كاتب ياسين ، وحين وفاته عام (١٩٥٢) ودع على انه احـــد الوجوه الهامة في الحوار الثقافي ــ السياسي بين المثقفين الاهالي والفرنسيين مـــن اجل : فرنسا الجديدة والجزائر الفرنسية !

ان ذلك الشعب الذى كان يبحث عن نفسه وعن ذاته الضائعة داخل فرنســـا الام الحنون والامة المتحضرة في رواية "احمد بن مصطفى الخيال" (١٩٢٠) للكاتب قايد بن شريف ، نجده في رواية "المأمون" (MAMOUN) (١٩٢٨) (١٥) للروائي خوجـــة شكرى يقول على لسان البطل "مأمون" ، وقد خرج من ضياعه :

"ان لفرنسا حقا علي ، اني اشعر برغبة جامحة في القيام بأى شيء يرضيها" (١٦)

وان تلك الهمجية والتوحش التي هي من سمات الاهالي المختلفين ، الذين ظلـــوا لمدة طويلة يغرقون في الظلام والعتمة الحضارية ، هاهم يجدون مثلهم ونموذجهم الذى يجب ان يحتذى به في رواية شكرى خوجة الثانية "الحاج . . أسير البرابرة" (El Euldj Captif des BARBARES) (١٧) : انه شاب مسلم يتكلم الفرنسية جيدا ، مبشرا بكل وضوح عن نهاية التخلف والقرصنة وعصر الهمجية الذى عاشته البلاد قبل "وصول" الفرنسيين حمـــاة الانسان وناشرى السلام والحضارة في كل بقاع الدنيا .

"ان لي فكرة بان الدم الذي يسري في عروقي هو الدم الفرنسي ، مطمعا بذلك الى الغذاء السخي الذى يحتويه الاسلام" (١٨) .

وتعلن الرواية تأكيدها على الاطروحة الاندماجية ، تحت لواء الفكرة (الاوروبية) (Européanisation) التي هي الخلاص التاريخي والسياسي والاجتماعي ، وان اوروبية المجتمع الجزائري ـ المسلم لا يتنافى مع الاسلام ، اذ لا تعارض في ان تكون فرنسيا محبا وعاشقا لفرنسا وان تظل مسلما محافظا على دينك (١٩)

ولا يكاد يختلف هذا الخطاب الروائي عن الخطاب السياسي الاندماجي الذى كان يدافع عنه فرحات عباس (اشرنا اليه سابقا) او احد الباشاغوات وهو : عبد الرحمن أو رابح ، الذى قال سنة (١٩٣٠) وسط العاصمة ما يلي :

"عندما جاءت فرنسا الينا كنا ننام في ظلام ، لقد حملت الينا النور ، لقد انتجت المعجزات التي نشاهدها الان بكل وضوح ، ان احفاد اولئك الذين سخروا كل طاقاتهم في الدفاع عن هذا الوطن ، هاهم اليوم اصبحوا مدافعين بقوة عن العلم الفرنسي الذى يحميهم" . (٢٠)

فعلا ، لقد اصبحوا مدافعين عن فرنسا !! ، فها هي رواية "هند ، الصافية الروح ، او قصة : أم" للروائي الاندماجي : عيسى زهار (Hind à l'âme pure ou l'Histoire d'une mère) (٢١)

تقدم لنا عاشقا لفرنسا ، مستميتا من اجل جزائر فرنسية ، انه الشاب "ناصح" الذى يتطوع في صفوف الجيش الفرنسي كاحد افراد دورته سنة (١٩١٧) ويبلي بلاء حسنا من اجل فرنسا الام . واننا لا نشعر باى تمزق او ازدواجية اواى خطاب يأتي من ضمير الشاب يوحيه وضميره ، بل ان الرواية تقدم هذا النضال والدفاع عن فرنسا ومن اجلها متجاوبا مع الاعماق النفسية للشاب ، بل انه في قمة توازنه . (٢٢) وانسجامه مع ممارساته .

ولا تخرج اعمال "محمد ولد الشيخ" الروائية ، من حيث مضامينها واسلوبها المباشر المسطح والفلكلورى ، عن الاعمال السابقة ، ففي روايته "مريم بين النخيل" (Myriem dans les palmes) (٢٣) التي يهديها الى رواد القرابة الفرنسية ـ الاسلامية . اشادة عظيمة بذلك السلم والهدوء الذى نشرته الادارة الفرنسية داخل الاوساط الاسلامية البربرية وكيف انقذت هؤلاء الاهالي من همجيتهم وتخلفهم ، وتؤكد الرواية كسابقاتها علما ان لا خلاص سوى بين يدى : الامة الفرنسية العظيمة !! (٢٤)

لقد جسدت كتابات كل من : سعد بن علي حين كتب بالاشتراك مع الروائي الفرنسي الاستعمارى "رونيه بوتيير" (R. Pottier) روايتين هما "عيشوش الجلابية : اميرة الصحراء" (Aïchouche ...) (princesse ...) والخيمة السوداء (La tente noire)

)) (٢٥) ، وسليمان بن ابراهيم (٢٦)الذى كتب هو الاخر روايةبالاشتراك مع "اتيان دينى " (E. Dinnet) الروائي والرسام المتسلم ، العنوان"خضراء ، راقصة اولاد نايل " (Khadra ...) (٢٧)وحاج حمو عبد القادر (عبد القادر فكرى) حين كتب رواية" رفقاء الحديقة " بالاشتراك مع روبير راندو : جسدت هذه الكتابات ذلك الزواج الروحي بين المثقفين الاهالي المسلمين الاندماجيين والمثقفين الاستعماريين ، وجسدت في ذات الوقت ـ على المستوى الفني ـ هبوطا جماليا في النص ، اذ اقترب النص الروائي من الحكايا العجائبية والخرافية ، وهو التصور الذى تحمله ذاكرة الكاتب الاوروبي عن اهالي البلاد حتى نهاية القرن الاول من الاستعمار ، اى حتى نهضة الحركة الوطنية المعاصرة ، وسقوط مزاعم الاستعمار عن همجية هذا الشعب ، وعن واقع (الف ليلة وليلة) و (آكل اللحوم البشرية) .

ان الاعمال الروائية لأغلب كتاب مرحلة (١٩٢٠-١٩٤٥) (زناتي ـ حاج حمو ـ شكرى ـ ولد الشيخ ـ بلقاسم التيجاني ـ (٢٨) بلحاج علي (٢٩) سوزهارا. الخ) تجسد واقع التناقضات المعقدة للحقل الثقافي والسياسي الذى عاشته الانتليجنسيا الاهلية في فترة ما بين الحربين العالميتين . وان الرسالة (Message) الاجتماعية والسياسية والجمالية التي حملها الخطاب الروائي الى فرنسا عن طريق اللغة الفرنسية ، كانت عبارة عن تقديم شهادة نصية ادبية (مهما كان مستواها الفني) على ان فرنسا المتحضرة قد انجبت من رحمها الاستعمارى ابناء محليين نجباء ، وهاهم الابناء الاهليون ينتجون ادبا (رواية ـ شعرا) يتغنى بمحاسن هذه الامة العريقة والشجاعة .

ولقد خلت هذه الرسالة من كل تصوير للحقائق والوقائع المرة : التفقير ـ الجهل ـ الامراض ـ التقتيل الجماعي ... الخ التي يعيشها الاهالي يوميا ، في حالة يائسة منهم لتحدى الجهاز الاستعمارى القمعي عبر المقاومة الشعبية او عصابات الشرف او عبر التنظيم الوطني التقليدى او العصرى ... الخ

وكل ما كان يوجه لفرنسا من نقد من قبل هؤلاء الروائيين هو استنكارهم للخمرة .. التي تفسد الاخلاق وتذهب بالاحترام .. اما ماعدا ذلك فكل ما كان ياتي من فرنسا كان من اجل التقدم والانسانية ، وضد الهمجية والقرصنة التي هي من صفات الاهالي . لم تختلف نظرة هؤلاء الكتاب عن نظرة الكتاب الاستعماريين (٣٠) بل ربما كانوا اكثر خطرا على العامة ، نظرا لاعتمادهم الايديولوجيا الدينية اساسا في كتاباتهم ، ونظرا لما كان للاسلام من تاثير على تفكير الاهالي من عرب وبربر .

لم يبتعد هؤلاء الكتاب الروائيون في مواقفهم عن موقف الكاتب الكولونيالي العنصرى، لويس برتران وكتاب الرواية الكولونيالية في الجزائر ، اذ كانوا يؤمنون بان الجزائر قطعة من فرنسا ، وان على فرنسا مسؤولية تحضيرها ودفعها الى الامام ، فاذا كان هؤلاء

الكتاب يعيون بوضوح الجزائر الفرنسية الإسلامية ، فإن لويس برتراند كان يقول عام ١٩٣٥ :

" لقد انهيت دورتي الدراسية لشمال افريقية من (حديقة الموت) الى (سيرين) مرورا ب (مدن الذهب) ، اذ لم اكن ارغب سوى في القيام بحج ورع في بلاد الاجداد" (٣١)

يقول محمد عزيز كسوس ، احد المثقفين الاندماجيين واحد المناصرين المتحمسين للجزائر الفرنسية المسلمة :

" هذه الجزائر لن تصبح فرنسية تماما ، الا حين يحصل المثقفون المسلمون على حقوق المواطن ، وانذاك يكونون في خدمة ضم الجزائر الى فرنسا ، التي تعتبر مرشدتهم ، في حين تظل الجزائر المسلمة امهم " (٣٢)

يمكن تسمية هذه المرحلة الروائية (١٩٢٠-١٩٤٥) بمرحلة الايمائية او المحاكاة الفنية (Mémitisme) ، اذ كان هؤلاء الكتاب يصورون واقعهم بعين الاخر ، وباساليب ودهشة الاخر ، بل باسلوب كثيرا مايكشف عن عجز واخطاء لغوية كثيرة ، اذ حاول - مثلا - حاج حمو عبد القادر ان يقلد زولا وغي دي موباسات . لكن بطريقة سيئة وباسلوب مخلخل (٣٣) وصفه بيات بيران قائلا :

" لغة منتقاة ، خلخلة في الشكل " (٣٤)

في حين وصفهم : بوجي Pomier احد كتاب التيار الجزائرياني (Algerianiste) قائلا :

" ان هؤلاء الذين نقرا لهم اليوم ادبا ، هم نتاج المدرسة الفرنسية ، اما على المستوى التركيبي - الاسلوبي فانهم يستطيعون ان يكتبوا روايات دون ان يسقطوا في اخطاء لغوية كثيرة " (٣٥)

اما رولان ابيل : R, Lebel مؤرخ الادب الكولونياني فقد وصف هذا الادب في معرض حديثه عن رواية : " زهرة ، زوجة المنجمي " لحاج حمو بقوله :

" لاول مرة يبحث بعض الاهالي عن التعبير .. ربما يهيئون لنا مفاجئات .. " (٣٦)

والواقع ان المفاجئات التي سيقدمها الاهالي ، لا تبدا من محاولات هؤلاء ، بقدر ماتبدأ من خلق قطيعة تامة معها ، وستكون المفاجأة اكبر مما توقعه رولان ليبل ، انها الرواية الوطنية الثورية التي جسدت بحق واقع الشعب المستعمر والمستلب ووصفت تداخل خطابها الادبي كنه الحركة الوطنية الجزائرية ، وتأثرت بها في الوقت نفسه . انه جيل من الروائيين مؤمن بالقضية الوطنية ، مع ذلك التفاوت في فهم هذه الوطنية من اديب الى آخـــــر .

الروايـــة الوطنيـــة والايديولوجيا الوطنيـــة

١ ـ النزعـــة البورجوازيـــة السلفيـــة

٢ ـ النزعـــة البرجوازية الليبراليـــة

١ ـ النزعة البورجوازية السلفية

بدأت الرواية الجزائرية بنهاية الحرب العالمية الثانية ، تشكل كيانها الذاتي ، وتبني شخصيتها الأدبية بروئية وطنية (بورجوازية سلفية ـ بورجوازية ليبرالية ، وطنية وطنية ثورية ، تقدمية يسارية) ، متجاوزة بهذا الانجاز ، ماقدمته الرواية الجزائرية الاندماجية التي كانت عبارة عن " محاكاة " للرواية الكولونيالية في سياحيتها ودهشتها من هذه المستعمرة ومن الأهالي الفولكلوريين • والتي غرقت في ذلك التيار السياسي المستلب الذي مثله روائيا (حاج حمو عبد القادر ـ والأخوان بوالانوار ـ ورابح زناتي ••• الخ) [١] • والذي لم يكن ليعبّر عن واقع المستعمرة لامن قريب ولا من بعيد ، وعن هموم ذلك الانسان المقموع في ظل نظام كولونيالي رأسمالي عنصري •

ولما كانت الرواية الوطنية تبني تلك الذات الأدبية داخل النهضة الوطنية بمختلف تياراتها ، كان لابد لها من خلق قطيعة مع الرواية الكولونيالية وتقاليدها الأدبية والسياسية ، لترتبط بطموح الأهالي وهمومهم في صراعهم مع الآلة الاستعمارية • ولقد شعر الكتاب الفرنسيون أنفسهم بهذه الخصوصية التي تحملها هذه الرواية الشابة فعبّر الكاتب (MARCEL MOUSSY) [٢] عن هذه القطيعة التي حققتها الرواية الجزائرية مع الرواية الفرنسية الاستيطانية ، التي كتبها روائيون فرنسيون من أصول جزائرية ، عبر مختلف مراحل تداورها تبعا لتطور بنية الاستعمار الاقتصادية والسياسية والديمقراطية •

" انني لم أكتشف الجماعات الأهلية العربية واليهودية الا في باريس ، من خلال روايات محمد ديب ومعمري ، وديبي ، برغم أنه عاش حوالي عشرين سنة في افريقيا الشمالية [٣] •

لقد جاءت الرواية الجزائرية الوطنية لتحاور المجتمع من الداخل ، من خلال روائيين عرفوا بانتماءاتهم الوطنية ، وبارتباطهم بمختلف الطبقات والشرائح الاجتماعية الأهلية ، وخاصة تلك الفئات الاجتماعية الأكثر فقرا وتعاسة ، ذلك الفقر وذلك التفقير الذي سببته الرأسمالية الكولونيالية ، باتباعها سياسة المصادرة والقمع من أجل خلخلة

كل بنية المجتمع واعادة بنائها حسب مايرضيها ويرضي رأسمالها ورأسمال المتروبول .

ان ولادة النزعة التحررية أدبيا (روائيا) وسياسيا ، لم يكن وليد فـــراغ ، أو وليد مصادفة ، بل انه جاء نتيجة مخاض طويل وتضافر عدة عوامل ، كانت تحكم عناصـــر الصراع داخليا وخارجيا . ذلك الصراع الذى أسفر في نهاية المطاف عن المستـــوى السياسي بانتفاضة ٨ ماى ١٩٤٥ ، التي جاءت تعبيرا صادقا عن تلك المرحلة الجديدة والفاعلة التي كانت تدخلها المستعمرة في اطار سلسلة الصدام الطويل مع الاستعمار ، عبر أكثر من قرن من الزمن ، أى بنهاية الحرب العالمية الثانية ، تلك الحرب التي كانت درسا للجزائريين عرفوا فيه كيف تموت الشعوب من أجل أن تعيش أوطانها حرّة وكريمة . كما ان هزيمة قانون ١٩٤٧ الاستعمارى الاصلاحي ، دفع مرة أخرى الوعي الوطني الى مواقع أكثر عمقا وأكثر تجذّرا ، وعجّل في تشكيل العديد من الجبهات الوطنية بـــين مختلف الاحزاب الوطنية على اختلاف تصوراتها .

في هذا الجو السياسي والاجتماعي المحموم ، بدأت الرواية الوطنية باعتبارهـــا شكلا من أشكال الوعي ، وعي الذات داخل التاريخ ، ومن أجل التاريخ ، تـــدرك وتحاور هذه المرحلة بكل خصوصياتها وبكل خلفياتها التاريخية التي أفرزتها ، وكذلـــك تصور المستجدات التاريخية المستقبلية ستتمخض عنها هذه المرحلة . وبدأ المثقـــف الوطني التقليدي الديني أو المفتون العلمي يعبر روائيا عن هذه الذات المقموعـــة والمستلبة : اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا ونفسيا ودينيا وجنسيا .. الخ . وقـــد عبّر الروائيون عن هذا الاستلاب من مواقع ومواقف مختلفة كانت تمليها انتمائية الكاتـــب الاجتماعية والسياسية وتوجهاته الثقافية .

وقد عبّر مولود فرعون ببساطة ، عن هذه المرحلة الجديدة روائيا وبالتالـــي سياسيا ، في رسالة وجهها الى صديقه الكاتب الفرنسي والوهراني المولـــد (EMANUEL ROBLES) والذى كان له تأثير كبير في فرعون خاصة ، وهو الذى فتح آفاق النشر للكتاب الجزائريين من جيل ٥٢ الأدبي (ديب ــ فرعون ــ كاتـــب ــ معمرى ... الخ) على صفحات المجلات الفرنسية اليسارية :

SIMOUN (سيمون) Forge (مسباك) Terrasses (سطـــوح) _ Soleil (شمس) Progrés (تقدم) Consciences Maghrebines (ضمائر مغربية) الخ .

ومما جاء في الرسالة :

" أنتم الأوائل الذين قلتم لنا : هؤلاء هم نحن ؟ فأجبناكم نحن من جهتنـــا : هؤلاء هم نحن . آنذاك بدأ الحوار بيننا وبينكم " (٤) .

هؤلاء هم نحن !

ولدت الرواية الجزائرية الوطنية المكتوبة بالفرنسية تحت أعين الآخر ، وبين يدى هذا (الآخر) الذى سلب الأهلي هويته ، فكان على الرواية أن تبدأ البحث عـــن " الذات " الصغيرة من أجل الوصول الى الذات الجماعية التاريخية الكبرى ، فكانـــت تبدأ هذا الاكتشاف من خلال " الأنا " تارة ، وتارة أخرى من خلال تعرية " الآخر " المتسلط والمهيمن .

وتأكد منذ البداية أن الروائي الجزائرى الوطني ليس فنانا فقط ، بل هو مثقف ، وسياسي ، فكان من موقعه هذا لايتوانى في اتخاذ موقف سياسي واضح ، داخل الخطاب الروائي منذ أول لحظة ، هذا الموقف الذى ماهو في الأخير الا انعكاس لموقف سياسي وعقائدى يمارسه الكاتب على مستوى الحياة اليومية والتنظيمية السياسية . اذن فقد اقترن النضال الهوي (على اختلاف تصوراته) لدى هؤلاء الروائيين بالنضال الأدبي منـــذ البداية ، وناب الموقف الأدبي عن الموقف السياسي ، بل ان بعضهم كان مؤدلجـــا ومفكرا أكثر منه أديبا (مصطفى الأشرف (٥) ومالك بن نبي) .

وعندما نسلم بواقع الارتباط الوثيق القائم بين الرواية والوضع الاجتماعــــي _ السياسي ، فهذا التسليم يدفع بنا أيضا الى خضوع آخر لمسلمة جديدة ، وهـــي ان الوضع الاجتماعي والسياسي المعين يفرض نوعا من السلوك على الفرد ، كما يفرض بالتالي استخداما معينا للغة وللشكل الفني (٦) ، من هنا فالرواية الجزائرية المكتوبـــــة بالفرنسية لم تولد كاملة أو متداورة ، بل رافقتها في أول رحلتها ، شكل فني بدائـــي ،

يعكس روح المغامرة والطفولة ، ونقص الوعي الأدبي ، ومحدودية دربته عند الكتاب ٠وان رواية " ادريس " لعلي الحمامي (٧) و " لبيك " لمالك بن نبي (٨) تسجل بوضوح هذه البداية المتعجلة في ميدان ممارسة الرواية ، بعيدا عمّا يجسده كل كاتب من مواقف سياسية ورؤى فكرية داخل روايته ٠

٢ ـ النزعة البورجوازية السلفية :

حاولت البورجوازية الوطنية الدينية ، أن تتخذ من الرواية منبرا لها ، في ظل سخونة الواقع السياسي في المستعمرة ، لتعبر عن آرائها الوطنية المستندة الى قاعدة " الدين " ، وان سبب المشكلات كلها التي يعاني منها الوطن ، ومن بينها بلية الاستعمار ، هو ابتعادنا عن الدين ، وبذلك نقلت الرواية البورجوازية الدينية الصراع من طبيعته : " أرض ـ أرض" الى " أرض ـ سماء " ، فأصبحت المشكلة من السماء ، وبدا الحل الميتافيزيقي فوق كل حل ، وتنتمي الى هذا الاتجاه روايتان هما : " ادريس " لعلي الحمامي و " لبيك " لمالك بن نبي ٠

ففي " ادريس " تبدو طفولة الرواية الجزائرية ، اذ هي رواية من حيث شخصياتها المركزية المتمهلة ، وهي في ذات الوقت كتاب في التاريخ العربي والبربري والاسلامي يعتبر مؤلفه باحثا ومؤرخا ، ومثقفا ، أكثر منه مبدعا روائيا مسكونا بالخيال والتحليق ٠

وفي " ادريس " محاولة لكتابة تاريخ المنطقة ، سياسيا وثقافيا ودينيا منذ العصور القديمة ، وصولا الى الاستعمار الفرنسي الحديث ، اذ تحاول أن تكشف عن ممارسات القمعية ضد الأهالي المغاربة (٩) ، وعلاقة الشرق العربي بالمغرب ، وتأثيرات أحدهما على الآخر خاصة من الناحية الدينية الاصلاحية ، ثم ذلك التبادل السياسي الذي وقع بينهما في نهاية الحرب العالمية الثانية ٠ وينادي الكتاب / الرواية بحق شعوب المغرب العربي في نيل حقوقها السياسية والثقافية والدينية ، واعتبر المقدمة التي كتبها المناضل الوطني المغربي عبد الكريم الخطابي ، زعيم ثورة الريف ، يمكن اعتبارها شهادة سياسية ودانية للرواية ، ومما جاء في المقدمة

يؤكد ذلك :

" حالة المغرب وأعني به أقطار افريقيا الشمالية الثلاثة هي حالة فريدة في بابها ، فقد شاءت الأقدار أن يسلم هذا البلد — العظيم في تاريخه وحضارته وفضل أهله — الى أفظع عدو عرفه التاريخ الحديث : فظيع في ظلمه وفي بطشه وفي مراوغاته ، وفي حماقة طرقه وأساليبه وفي ضعف عقله وفي ضيق دائرة تفكيره ، وفي عدم انسانيته وفي بهتانه وألاعيبه ... وسوف لانحجم عن نشر وتبيان كل المثالب التي ارتكبها الاستعمار الفرنسي في الشمال الافريقي : منذ العهد الذي ظهر فيه ابن وطني البار وأستاذي الكبير في الجهاد الأمير عبد القادر الجزائري طيّب الله ثراه ، الى هذا العهد الذي ارتفعت فيه صيحات شعوب الأرض مطالبة بحقوقها الأمر الذي يجعل اغفال هذه الصيحات أو التغافل عنها من الأمور المؤدية الى ارباك حياة البشرية كلها .

وكتاب الأخ المجاهد الاستاذ علي الحمامي المغربي يكشف — ولو أنه محرر في شكل رواية — عن الكثير من أباطيل سياسة فرنسا الطائشة في المغرب . وعسى أن يترجم هذا الكتاب المحرر باللغة الفرنسية الى اللغة العربية ، حتى يدرك أبناء عمومتنا في الشرق العربي ماهو جار عندنا ... " (١٠)

ان مقدمة تحتفل بالرواية ، مكتوبة من قبل أحد أبرز الوجوه الوطنية للمقاومة المغربية ضد الاستعماريين الفرنسي والاسباني عن بلاده ، تؤكد وزنا سياسيا للرواية ، وتضمها الى هذه الكتابات التي تتناقض مع الاستعمار ، وبذلك كسبت الرواية على المستوى السياسي موقعا وطنيا ، أما على المستوى الأدبي فـ :

تتشكل الرواية / الكتاب من حيث بنائها الحدثي والدرامي حول شخصيتين أساسيتين هما ادريس ، والحاج علال (الأب) . تتبع الرواية بشكل طولي حياة الفتى ادريس منذ صغره في منطقة " الريف " (RIF) بالشمال المغربي ، وسط جو فقير ومعاناة واضطهاد يمارسها (الآخر) المستعمر . يلتحق الطفل بالكتّاب لحفظ القرآن على عادة أطفال الأرياف جميعا ، على يد أحد الفقهاء المغفلين (١١) اذ تذكرنا هذه الفقرات مباشرة بـ " أيام " طه حسين ، واذ مايتعلمه الطفل في

هذا الكتاب لايمت بأية صلة الى مايجري في هذا الواقع ، ولا يسهم في تفتح الوعي نحو محاولة فهم العالم المأساوي الذي يدور فيه هذا المجتمع . وحين ينهي دراسته الأولى يرسله والده الى " تطوان " ثم الى فاس ليلتحق بجامع القيروان الشهير ، وتبدأ صحوة الوعي السياسي الوطني الاصلاحي — الحماسي عند الشاب ادريس فيشارك فـــــي اجتماعات تنظيمية سياسية وطنية سرّية ، ويبدأ الشاب وعي وطنه المستعمر سياسيـــــا وثقافيا ، ويشرع في قراءة كتب التاريخ والنظريات السياسية الأوروبية ، علّه يجد مايشفي غليله ، وتمكنه هذه الفصول موسوعية علي الحمامي ، وسعة اطلاعه في المجال الفلسفي والتاريخي والديني ، ينتقل الى باريس ليؤسس مع مجموعة من أصدقائه صحيفـــــة " المغرب " (Le MAGHREB) من أجل التعريف بقضيتهم الوطنية في الأوســاط الأوروبية ، ولكن الشاب يصل في الأخير الى قناعة ، هي : ان الحل الاعلامي لايؤدي الى أية نتيجة ، وانما النتيجة الحقيقية تكمن في العمل السياسي والعمل المسلّـــح . ويبدأ في ممارسته السياسية فيشارك في مظاهرات واضرابات في مدينة فاس ، وفي أثنــاء حملات القمع التي تجابه بها المظاهرات الوطنية والاضرابات ، يصاب ادريس بجـــروح بالغة ينقل على أثرها الى قريته حيث يستقبله الأب بفخر ، متقبلا بشجاعة تضحية ابنـــه من أجل الوطن .

أما الشخصية المركزية الثانية فهي الأب " حاج علال " ، رجل دين اصلاحـــي ، مشبع بثقافة أزهرية ، يسافر الى القاهرة ومن ثمة الى شبه الجزيرة العربية لأداء فريضـة الحج ، وخلال جولاته بين تونس والاسكندرية والقاهرة ، يغتنم الكاتب الفرصة ليعـــرض نهضة مصر منذ نهاية القرن الماضي ومطلع القرن الحالي ، وذلك من خلال صراع بعض شيوخ الأزهر والخديوي (١٢) ، ولم ير الكاتب في هذا الصراع النهضوي الذي عرفتـه مصر سوى وجهه الديني . ومنذ خروج حاج علال من القاهرة تنتقل الرواية في جـــو سياحي ، يعرض فيه جمال غوطة دمشق ثم جمال اسطمبول .. الخ .

" ثم ذهب الحركي أمام ضريح صلاح الدين ، وبعد ذلك بدأ جولاته في دمشــق: من الصالحية ، الى الضاحية الشعبية للميدان والشاغور ، وتسكع على طول بيرقـــدار ،

والشوارع التي تمتد الى أجمات الغوطة الفريدة ، ولما علم بأن عبد القادر مدفون في محي الدين ، فقد قرر أن يزور هذا المكان الذي يرقد فيه أشجع مقاتلي المغرب . ثم راودته ذكريات عائلية قديمة ، لقد توفي أحد أعمامه بايسلي ، وآخر اغتيل في معركة " المقطع " . " (١٣)

وبعد عودة " حاج علال " من جولته الدينية - الثقافية - السياحية ، يبدأ في تعليم ابنه " ادريس " ماحمله معه من أفكار دينية تعلّمها من أحد فقهاء الأزهر باعثها الى الحج ، من أجل محاربة كل المتطفلين على الدين الاسلامي (١٤) .

بهذا الفكر الاصلاحي يشارك حاج علال وابنه ادريس في الحركة التي قادها الزعيم الريفي عبد الكريم الخطابي ضدّ الفرنسيين والاسبان .

والى جانب شخصيتي " ادريس " و " حاج علال " "تمتلئ" الرواية بجيش كبير من الشخصيات ، بعضها متخيل ، وأغلبها تاريخي حقيقي : الأمير عبد الكريم الخطابي الكاردينال لافيجري ، الأب توركواطو (TAURCUATO) والأب فاري Le Père FERRY والأب فوكولد Le Père FOUCAULD (١٥) وماك ماهون (١٦) والرسام روبانس ROBBNS (١٧) وعلي مبارك ومحمود الفلكي وحفني ناصف (١٨) ، اضافة الى مجموعة من الجنرالات والشخصيات العسكرية الفرنسية والاسبانية .

تحاول الرواية من موقع اصلاحي بورجوازي ، أن تعالج موضوعات متعددة ، دينية وثقافية وسياسية وتاريخية : فهي تقدم نقدا للنظام الاستعماري ، وتعرّي الوضع الذي يعيشه المجتمع المغربي في ظله ، وأشكال المقاومة التي يمارسها هذا الشعب من أجل حريّته واستقلاله ، واستعادة أراضي الفلاحين التي نهبت منهم بطرق مختلفة (قانونية !) وبوليسية (١٩) . وتكشف الرواية ذلك الاستلاب النفسي والاقتصادي والثقافي الذي يعيشه الفرد المغربي في ظل الاستعمار الفرنسي والاسباني والانجليزي وغياب الدين الذي هو الحامي الأول ، ويعقد مقارنة بين هذه الاستعمارات الثلاثة ، ويصل في الأخير الى أن الاستعمار الفرنسي هو أكثر الثلاثة خداعا وقمعا .

وترد الرواية بحماس وعنف ديني ، على دعاة " لاتينية " المغرب العربي من أمثال الكاتب والروائي (لويس برتراند) [٢٠] الذي يمثل النموذج الأمثل للمثقف الاستعماري العنصري ، والذي ظل ينادي بأن الجزائر جزء لايتجزأ من فرنسا [٢١] ، وأن فرنسا وهي على أرض الجزائر انما تستعيد حقها التاريخي في أرض أجدادها الرومان ، وتعرض صمود الحضارة البربرية - العربية التي كانت تنهض لتهزم يوما بعد الآخر أكاذيب وأوهام الايديولوجيا الكولونيالية ومثقفيها .

ومثلما وجدنا في " أيام " طه حسين ، في شنه ذلك الهجوم على الوسائل التعليمية التقليدية الكتابية التي يقودها بعض رجالات التعليم المرتزقة [٢٢] ، يمارس علي الحمامي أيضا نقدا لمناهج هذه الثقافة المحلية ، التي تبقيها ضحية الخرافات والظلامية والطرقية التي هي جزء مكمل للأيديولوجيا الاستعمارية .

من موقف اصلاحي بورجوازي وطني ، يرى الحمامي المجتمع المغربي في انسجام تام ، وأن الحل لكل ماأصاب هذا الواقع من ويلات اقتصادية وسياسية ... الخ ، هو الرجوع الى المنابع الاسلامية .

" ان الأمر لايتعلق فقط بأن نكون سلفيين ، لكن أن نعرف ماهي السلفية " (٢٣) .

تتلمس " ادريس " صعود الايديولوجيا الوطنية البورجوازية الاصلاحية ، في شكلها السلفي ، القريب جدا من اطروحات " الاخوان المسلمين " الآن ، وهي (أي البورجوازية الوطنية) مفتونة بالنموذج الغربي ، اذ ترى أن تمازج الحضارة الأوروبية والعربية ، باستطاعته أن ينتج انسانا نموذجيا كاملا ، ولذلك فالرواية برغم طابعها الحماسي ضد الاستعمار فانها ماتزال تحن الى الاوروبي المتحضر !

ان مايثير في " ادريس " هو موسوعيتها ، التي تخفي خلفها مثقفا واسع الاطلاع في العلوم الاسلامية والتاريخ العربي والبربري ، والأوروبي ، والعلوم الاقتصادية وعلوم الأنساب لقبائل العرب القديمة ... الخ . ولذا فقد امتلأت الرواية منذ بدايتها باستشهادات وتواريخ وأسماء مواقع وأعلام ك : ابن تومرت ، ابن رشد ، ابن خلدون ،

ابن جبير ، ابن بطوطة ، الأفغاني ، محمد عبده ، ابن طفيل ، ابن بشكوال .....

الخ (٢٤) . كما تكشف الرواية عن اطلاع الحمامي على الآداب الاوروبية والفرنسية خاصة

مثل بالزاك وادموند ابوت (EDMOND ABOUT) . والذى لامجال للشك فيه هو

أن الرواية تعد مرجعا هاما في التاريخ ، وبخاصة تاريخ المغرب العربي منذ عصوره

القديمة (٢٥) ، وهي موثقة بشكل لايدعو الى الشك ، وتقوم على مساحة واسعة وشاملة

من الثقافة والمعرفة .

أما الاسلوب ؟

فلأن الرواية كعمل درامي ، ضاعت داخل التاريخ والفلسفة والدين والسياسة ،

فقد كان الانشاء الذى كتبت به هو قاموس هذه المعارف ، ولا يمت في غالبيته بأية صلة

الى الرواية — اذا استثنينا بعض الفصول — (٢٥) ، وبدت اللغة هي لغة المؤرخ

والمفكر ، أكثر منها لغة المبدع والفنان ، وظهر قاموس الرواية جافا ، يعكس ضياع

الدراما داخل الفكر المقنن ، ورغم ذلك فقد زرع الكاتب نصّه بكلمات عربية وبربرية (٢٦)

وقلّما نجد صورة أدبية جميلة (٢٧) .

ان رواية " ادريس " تكشف عن مثقف اصلاحي ومبشر ديني ، أكثر مما تكشف عن

موهبة ابداعية روائية .

أما رواية (LEBBEIK) لمالك بن نبي (٢٨) فهي من حيث فضاؤها

ورؤيتها السياسية لاتبتعد عن رواية " الحمامي " ، وان كانت " لبيك " متخلّصة من

لغة " العلماء " لتنتقل الى لغة " التبشير " الاسلامي مباشرة ، وبشكل واضح .

ومنذ البداية يؤكد مالك بن نبي ، في الرسالة المنشورة في صدر الكتاب ،

والموجهة الى الناشر ، أن الرواية بها أخطاء تقنية وهي مكتوبة بشكل متسرع :

" .. زيادة على الأخطاء التقنية ، فهناك أخطاء أخرى لايمكن تجنبها حين

تكون الكتابة متسرعة " (٢٩) .

ويؤكد بن نبي في مقدمته ، انه لم يكن له الوقت الكافي ، لتقديم معرفة كافية

عن هذه الشخصيات التي وجدت في الواقع : (فحام وفتى من عنابة) ، أما الشيء

التخيل فهو ذلك الربط الذى جعلته بينهما من حيث الفضاء والزمن " (٣٠) .

ونفهم من خلال المقدمة أن الكاتب ، كان يريد أن يقدم — على حدّ قولـه — جزءا هاما من الفلكلور الجزائرى (٣١) ، ولكننا لم نجد شيئا من ذلك ، اللهم الا اذا كان الانسان هو الفلكلور !؟ .

ماهى أحداث الرواية :

اننا فى موسم الحج (الزمن الدينى) حجاج القطاع القسنطيني يصلون الـى ميناء عنابة للابحار نحو الحجاز (٣٢) ، هناك شخصية ابراهيم السكير ، الذى يعيش بمفرده بعد أن طلّق زوجته نتيجة لادمانه الخمر ، وهو عامل / فحام ، في تلك الليلـة التى تسبق يوم اقلاع باخرة الحجاج ، ينهض ابراهيم على صوت موذن الفجر ، فيتوب ويذهب الى المسجد ، ثم يمر بالعم محمد ، ويخبره بما حصل له ، وانه ينوى الحـج غدا ، وبالفعل !! تجهز كل مستلزمات السفر ، ويمم ابراهيم — السكير ، بوقرعـة سابقا — والحاج ابراهيم (منذ الآن) شطر الحجاز ، في الباخرة صباح اليـوم التالي . وفى عرض البحر يكتشف رجال الملاحة الطفل " هارى " متسللا بين الحجاج ، واذا هو الآخر يريد أن يؤدى فريضة الحج ، وهو مفعم بالايمان ، وتنتهي الروايـة بعد دروس فى الصلاة والوضوء وواجبات الحج التي كانت تقدم على ظهر الباخرة ، وبعد أن قرر الحاج ابراهيم البقاء الى جانب قبر الرسول ليموت في هذه الأرض ، وأرسل الـى العم محمد طالبا منه أن يبعث اليه "زهراء" زوجته ، بنفقات البيت الذى باعه .

تعتصم رواية " لبيك " بالدين كتعريفية ، أكثر من الوطن ، بل ان الوطـن يكاد يكون مختفيا ، اللهم الا بعض الاشارات التي لاتحمل أى عمق . وكل مافي الرواية لايرتبط مطلقا بهم وطني ، ولا يتضمن الخطاب الروائي أية اشارة الى الجهـاز الاستعمارى بسوء ، بل لايكاد يظهر أننا في زمن استعمارى ، خاصة وأن الروايـة كتبت في مرحلة حساسة ، أى مباشرة بعد انتفاضة ٨ ماى ١٩٤٥ الشهيرة ، والأكثـر من ذلك أنها تجرى في المناطق التي قادت هذه الانتفاضة الوطنية (القطـاع القسنطيني) .

اذا كان محمد ديب ، وكاتب ياسين ، قد عرضا تلك الطبقة العاملة في صحوتها الوطنية ، وفي لحظات تاريخية عسيرة ، فان " ابراهيم " / الفحام عند مالك بن نبي ، " مهدد بالخمر " (٣٣) أكثر مما هو مهدد باستلاب اقتصادي وسياسي تديره آلة استعمارية متآملة . واذا كان ابراهيم يمشي لحظة " غيبوبة " دينية من ادمانه شرب الخمر ، فان علاقته بهذا الوطن مقطوعة ، وان الكاتب لايريد أن يمهد هذه العلاقة ، بل يريد أن يبني له علاقة بينه وبين السماء . واذا كان عمال وفلاحو " ديب ، ومصرى وياسين .. " يستيقظون على مدافع الحرب العالمية الثانية وعلى نضال الحركة الوطنية الجزائرية على اختلاف تصوراتها ، وانهيار الرأسمال الكولونيالي .. فان شخصية " ابراهيم " تصحو على صوت " المؤذن " ، انها صحوة الى الله ، صحوة ميتافيزيائية لاعلاقة لها أبدا بما يحرك الناس (الأهالي) من ظلم وقمع ، وما يسكنهم من حلم الى الحرية والاستقلال والكرامة والخبزة . ولا يملك بطل " لبيك " أية هواجس وطنية أو طبقية ، بل الهاجس الأكبر والوحيد هو " التوبة " الى الله والذهاب بكل وسيلة الى الحج ، وبيع " المنزل " في سبيل ذلك (٣٤) .

ان ابراهيم منفصل نهائيا عن واقعه ، ولا علاقة له بما يجرى والحقيقة أن كل مايجرى في " عنابة " — حيث تقع حوادث الرواية — هو دهشة الناس وانشغالهم بالحجاج ولا شيء غير ذلك !! من وجهة نظر الروائي ، وانه الهم الأعظم ، أما سوى ذلك فلا قيمة له — وحتى حين تقدم الرواية " ابراهيم " السكير ، المؤمن ، لاتعرض الأسباب التي أدت بهذا العامل البسيط الى هذه الحالة ، من اجتماعية واقتصادية وسياسية ، وشخصية ابراهيم ينتمي الى طبقة من أكثر القوى الاجتماعية تعرضا للاضطهاد ومن أكثرها استعدادا للنهوض السياسي ، وأكثرها ارتباطا بالايديولوجيا الوطنية ، ونشعر بأن الرواية تمثل موقفا بورجوازيا نموذجيا ، وهو الهروب من مواجهة الواقع في سكونته وعلاقته في أربعينات هذا القرن ، وانها من موقفها الانتهازى الديني ، تجر المشكلات دائما الى .. السماء " وتبعد الناس عن الصراع الاجتماعي ، لأن ذلك لن يكون في مصلحتها ، بل ويهدد تحالفاتها مع البورجوازية الكولونيالية .

ان الرواية على امتداد رحلة الباخرة من " عنابة " الى السعودية ، ومن خلال الأحاديث الكثيرة ، لم تقدم أى شيء ، سوى نمط الحديث عن فرائض الاسلام ، وكيفية أدائها : الوضوء ، والصلاة ، وشرائع الدين من تحريم الخمرة وأكل لحم الخنزير .. الخ ولم تجرؤ الرواية على طرح حتى ذلك التسييس الذى قامت به جمعية العلماء المسلمين في الجزائر ، ومن قبلها الحركات الاصلاحية في المشرق ، للدين الاسلامي ، على الرغم من أننا نعرف راية مالك بن نبي في هذا الميدان وهو صاحب كتاب (الظاهرة القرآنية) (٧٥) ، فاذا كان الدين جزءا من الهوية الوطنية على حدّ رؤية الحركة الاصلاحية الدينية ، فانه عند مالك بن نبي ظل بعيدا عن ذلك ، ولم يتمكن من تفجير الدين كايديولوجية شعبية ضد الاستعمار ، بل حوّلها الى ايديولوجية مع السماء وللسماء .

" وانتهى النهار ، كسابقه ، بصلاة العشاء ، بعدما قدم الامام تحت طلب ابراهيم درسا لجماعته ، حول الواجبات والمتطلبات والمحرمات التي تمس الحياة الثقافية للحاج " (٧٦) .

أمام هذا بدت الرواية ساذجة ، أعادت ببرودة انتاج حديث حول درس في التربية الدينية ، عبر جملة من الحوادث المسطحة غير النامية .

واذا كان الحج الذى قام به " حاج علال " في " ادريس " لعلي الحمامي وابراهيم في " نبيئه " هو حج للسماء ومن أجل عالمها ورحمتها فقط ، ومن أجل نوازع سلفي وسياسي ، فان حج " السي مختار " في " نجمة " لكاتب ياسين صحبة "رشيد " هو حج ضد الفناء الوطني ، حج من أجل العودة الى الوطن أكثر صلابة ، ومن أجل البحث عن الأجداد ، وتسليح " الأنا " الوطنية ضدّ الاستلاب الاستعمارى ، فهو حج مواجهة مع القوى الظالمة والمستبدة ، أمام حج " الحمامي " و " بن نبي " (بتفاوت) فهو حج المتعة الذاتية .

ان " الحاج ابراهيم " يسلم بالبقاء الى جانب قبر الرسول ليموت هناك ، ويترك خلفه البلاد على بركان من نار ، سيتفجر بين لحظة وأخرى ، يسلم بالبقاء هناك

مرتاح البال ، لأن لاوطن مهدد ، ولا غليان سياسي يجر المستعمرة يوما بعد يوم الى حروب دموية رهيبة ، ان موقف " الحاج ابراهيم " هذا ، هو موقف مستلب ناتج عن هروب استثنائي من واقع مستلب ، وهي رؤية بورجوازية كانت سائدة في المجتمع الجزائري تتبناها البورجوازية الدينية .

وفي " ليهاك " تبدو الادارة الاستعمارية خادمة طيبة ، لمصالح المواطن الجزائري ، فهي توفر للحجاج خدماتهم على أحسن وجه ، ولا تملك ضدهم أى حساسية أو عنصرية ، وهذه وجهة نظر البورجوازية المتحالفة اقتصاديا وسياسيا مع الاستعمار (٢٢) .

تمتاز " ليهاك " بروح تبشيرية ساذجة وفاترة ومسطحة ، وهي أقل قيمة حتى من تبشيرية " ادريس " لعلي الحمامي التي تقوم على صرح كامل ومتكامل من الثقافة الدينية والسياسية ، وتبشيرية " علي الحمامي " هي تبشيرية مضادة للاستعمار ، في حين تبدو تبشيرية مالك بن نبي متعاطفة معه ، أو على أقل تقدير غير مضادة وغير متناقضة معه .

أما لغة الرواية ، فهي بسيطة ، تحشوها بعض الدعوات والصيغ القرآنية ، وترجمة بعض التكبيرات والأحاديث والآيات القرآنية ، أما شخصياتها فهي غير نامية ومجوفة لم يسمح لها الكاتب بالتطور حين سجنها في تلك الرؤية الخطابية التبشيرية .

٢ ـ النزعة البورجوازية الليبرالية :

" أما بالنسبة الي فلم أكن سوى رجل يغفو فوق الرمال الساخنة في الصباح ، وفي ساعات القيلولة كنت أتمدد على سريري الوثير .. " (٣٨) .

اذا كانت شخصيات " الحمامي " و " مالك بن نبي " تهاجر عشقا في الديـــن الى الشرق ، فان شخصيات " آسيا جبار " (٣٩) تهاجر نحو اوروبا مرتع الحلـــم والحرية ! مفتونة بالنموذج الغربي لأنه يمثل الحضارة والتقدم ، ويخلص الجزائريين من التخلف . وفي كلا الحالتين لاترتبط هذه الشخصيات بواقعها ولا تعرفه ، بل هـــي حبيسة نزوات ذاتية ورغائب بعضها ديني عند الأول ، و " تحررية " على النمـــوذج الغربي في الحالة الثانية .

في " العطش " لآسيا جبار يجد القارئ نفسه أمام عالم كله : " ليالي عذبـــة وتافهة وهادئة " (٤٠) واذا " الناس تخرج من قاعات السينما والكازينوهـــات بالعاصمة " (٤١) مشبعة بموسيقى الجاز والسجائر الفاخرة (٤٢) . واذا البطلـــة (نادية) ترتدي سروالا ونعلا بكعب أنيق (٤٣) . واذا المساكن عبارة عن فيـــلات جميلة فارهة مغمورة في الحدائق (٤٤) واذا نحن على شاطئ لاترتاده ســـوى العائلات الفرنسية ، عائلات المستوطنين ، وبعض الموظفين .

" على كل حال الكل كان أوروبيا ، عدا نحن فقد كنا العائلة المسلمـــة الوحيدة " (٤٥) .

واذا " بنادية " تعتز بشعرها الأشقر الذي يشبه شعر الفرنسيات المتحررات ، وتعتز بتربيتها الأوروبية (٤٦) .

" لقد كنت طفلة مدللة ليس من قبل أبي ، فقط ، بل من قبل الحظ كذلك (٤٧) .

واذا الحب الذي يقع بين حسين المحامي والبطلة " نادية " حب خال من كل هم سوى هم الجسد واللذة .

في " العطش " أربع شخصيات مركزية ، متمحورة حول ذاتها ، وحول همومها الفردية البورجوازية : نادية تلتقي صديقة الطفولة " جولة " زوجة علي الصحفـــي ،

على شاطئ بحول للاصطياف ، تعيش نادية علاقة " حب " مع " حساين " اذ يقضيان سهراتهما في " النوادي الليلية " ، نادية فتاة مطلقة الحركة ، تملك سيارة وتتحرك كما يحلو لها ، واذا هي في هذه الحركة لاعلاقة لها بالواقع الجزائري الأهلي الذي تحكمه عادات وتقاليد متخلفة ، انها نموذج الفتاة الاوروبية الليبرالية شكلا ومضمونا وهي سعيدة بذلك وفخورة . تحاول نادية ارضاء لرغباتها أن تعيش مغامرة مع زوج صديقتها : " علي " ، وتمارس جزءا من ذلك ، واذا ب " حساين " هو الآخر يرغب في اسقاط " بولة " في حبائله .. الكل يعبث ، حتى الموت عبث ، ولا قيمة له ، اذ تموت " بولة " في آخر الرواية ، بعد أن ظلت خائفة من " العقم " ، لأن ذلك سيفقدها زوجها ، وفي الأخير تريد أن " تمنحه " لصديقتها " نادية " هدية !! وحين تعلم في الأخير أنها حامل " ، تصرّ على اجراء عملية اجهاض ، حتى تعرف مدى حب " علي " لها ، ولكنها تموت من جرّاء هذه العملية . وفي الأخير تترك " نادية " ب " حساين " لتعيش " ستبيت " ، واذا " بعلي " الذي كان متزوجا مثلة فرنسية وله معها طفل ، يتركه في حضانة " نادية " ...

هذه هي أحداث الرواية في مخططها الخارجي . وهذه هي " شخصيات " آسيا جبار ، المسكونة جميعها بالعطش ، عطش الى " الحرية " بمفهومها الليبرالي اللامسؤول ، عطش الى " الجسد " والرجال ..

" انا عطشانة الى الرجال فقط " (٤٠)

ان المرأة عند آسيا جبار لاتملك أية حقيقة في واقع استعماري متخلف ، ولا تملك وجودها في الطبقات الأهلية الفقيرة ، بل تتوحد كليا لأحلام البورجوازية الجزائرية المدينية الليبرالية ، في رسم نموذج للمرأة المستقبل كما تتصوره هذه الطبقة ، وتحاول أن تمارسه .

- آسيا جبار والخطاب الروائي حول المرأة :

أكدت السيدة : هيلين فانديلفيلد في دراسة عن واقع المرأة الجزائرية ودورها السياسي والاجتماعي ، في القطاع القسنطيني ، ملاحظة : أن كل الأبواب والنوافذ

التي تطل على الشارع ، في المدن والقرى ، مغلقة ، وفي بعض المرات تكون مفتوحة نصف فتحة ، أما في المساكن ذات الطابع " الدشور " فان أغلب المنازل لها نفس المنزل الخارجي ، ولا تواجه العالم الخارجي سوى بسور خال من النوافذ والمنافذ ، انه سور أعمى ، والغرف لاتفتح الا على الباحة الداخلية التي تحيطها أسوار عالية ، والمنازل في أغلب الأحيان لاتملك أبوابا كبيرة (Portails -) بل فتحات صغيرة بدلا عن الباب وتسمى عندنا (الخرّاجية) ، وفي بعض المرات يملك المنزل بابين باب للذكور وباب للنساء ، والباب المخصص للذكور واسع نسبيا ، أما باب الاناث فهو باب خلفي وصغير جدا ، تستطيع أن تتسرب منه المرأة لقضاء حاجياتها في سرّية تامة وتحت رقابة مشددة (٤١) ، فالأسوار العالية والمسلحة (Beton - armé) والعمياء (أي بدون أبواب ولا نوافذ) مهمتها الأساسية هي حفظ شرف المرأة والفتاة العذراء ، هذا الشرف الذي هو كل شيء في العائلة .

ويؤكد ديب هذا على لسان عيني :

" ان المرأة عندما تفتح عينها ، يجب أن ترى رجلا واحدا هو زوجها ، ان الفتاة يجب أن يبنى بينها وبين العالم جدار كبير " (٤٢) .

" البنت لايمكن الاعتماد عليها ، وانما يجب الزامها ، حتى اذا شبت على الطوق ، أصبح واجبا أن تراقب مراقبة دقيقة ، فهي في سن البلوغ أسوأ من حيّة ، فما أن تتخلى عنها حتى ترتكب الحماقات ... " (٤٣) .

ان المجتمع الجزائري البطريركي ، يمنع التعرف حتى على اسم امرأة متزوجة ، ورؤية ملامحها من قبل غيرهم ، وقد يؤدي خرق هذه العادات في بعض العائلات الى القتل ، فالذين يحق لهم أن يعرفوا اسم المرأة هم : الأب والأخوة والزوج . وان صورة المرأة ممنوعة ، لأنه عن طريق الصورة سينتقل وجه المرأة من مكان الى آخر ، وهذا خرق للشرف .

في ظل هذا الحصار المضروب على المرأة تثبت الرواية هذه المعاناة بصدق ، فاذا المرأة عند الروائي على بوصيدي ، هي ذلك الحيوان البيتي الذي يعيش في ظل هذه

الرؤية الذكورية ، بين المطبخ والسرير لتلبية غريزة الرجل : المعدية والجنسية :

" هي (أمي) تملك سلوكا غريزيا في القيام بخدمات المنزل ، ارضاء لأبـــي ،

وحين تلبي له ذلك ، تنزوي في المطبخ انه منفاها ." (٤٤) .

وفي المدينة يكشف ديب الشارع المستعمر من قبل الرجال ، أما النساء فانهـــن

لاينتقلن في هذه الشوارع المتيقة الا محجبات ، ويشير محمد ديب الى وجود طـــرق

مطروقة منعالة غير مطروقة بالنسبة الى الرجال ، وتلعب السطوح دورا هاما في الحركة

والعلاقات بين النساء (٤٥) أما في الأحياء المتحضرة ، فالانتقال من سطح الى آخـر

يظل مستحيلا ، ولذا فان النساء يخترن سميراتهن الى العالم الخارجي من الفتيـات

الصغيرات من بناتهن ، اذ تقضي الصغيرات النهار كله ذهابا وايابا لتقمن بمهمـــة

المراسلات بين الأم وجاراتها .

ويرى محمد ديب ، أن المرأة في هذا المجتمع الذكوري المغلق ، لاتحصل على

كيان ولا تأخذ مكانا في بيتنا ، ولا تصبح شخصية بكل معنى الكلمة الا عندما تصير أمّا .

لاغير ، قبل ذلك لايعترف بها ، وكأن لاوجود لها ... أما المرأة التي تتمتع بشخصية

وتصرف مستقلة ، وتقبل كظاهرة من مظاهر المجتمع ، فلم تدخل بعد ضمن تقاليدنا ولا

أدبنا ، كذلك الا في صورة الأم ، تلك الصورة التي تجردها من الهالة الجنسية الـتي

تحيط بالمرأة (٤٦) ، ولذا تعرفنا في " الدار الكبيرة " على شخصية عيني (الأم) ،

وعلى " عرنية " في " رقصة الملك " و " زكية " في " صيف افريقي " و " نفيسة " فــي

" من الذي يذكر البحر " متحركن بحرية وتمارسن أعمالهن اليومية من أجل تحصيـــل

القوت ، وتختفي الجاذبية والأنوثة بورجوازية ، لتظهر المرأة الطيبة الانسانة . فالمـــرأة

عند ديب ، أمّا كانت (عيني) أو مناضلة (نفيسة) أو عاملة (عويشة ومريـــــم) ،

لاتفكر مطلقا في جسدها بقدر ماتفكر في وجودها وكرامتها وانسانيتها .

أما المرأة عند نرمون فهي ناقفة للزيتون وناسجة وصانعة للفخار ، وهي تشـارك

الرجل في أعمال الزراعة كلها ، حتى ان اختيار الزوجة كان يقوم على مدى امكانية هذه

المرأة وقدرتها على ممارسة : الزراعة والسقي والحصاد والتمر والطحن والانجاب .

" منذ الفجر كنا نسمع حركتهن ، ولا سيما أيام الربيع ، فكانت أمي ، وكأنها قائد عسكري في ساحة الحرب ، توزع المهام بلا تردد : ستذهب جوهر معها ، وينبغي أن يمرّا في كل مكان ، ويبحثا في أطراف الحقل ، ففي الزيتون الذي يضيع تكمن فائدة المال " (٤٧) .

وهذا مشهد آخر :

" ما أزال أذكر " شهبة " المسكينة ، ورأسها ملفع بمنديل متدرّن ، وخصل من الشعر الشاحب تشوش عليها الرؤية ، تنفخ باستمرار على أصابعها الصغيرة المتجمدة والمحمرة بصقيع الشتاء ، لقد جهدت أن تمسح عينيها وتنشق أنفها الذي يسيل ، انها لترتجف من البرد وهي ترتدي سترتها الوحيدة ذات الكمّين القصيرين ، ولكنها تغنّي وتجمع الزيتون وتشعر بالسعادة حين تملأ سلّتها " (٤٨) .

وهذا مشهد آخر :

" كان عمل خالتي الفخّار والصوف ، فكانت الباحة مزدحمة دائما بالأواني ... يبدأ بصنع الفخّار منذ الربيع ، فتمضي خالتي وبابا لجلبه في السلّل على بعد عدة الأمتار من القرية ، فتجفف المدرة في الباحة ، ثم تسحق وتحول الى تراب ، فتصنع خالتي من هذا التراب المبلل بالماء معجونا تملأن به الجزر ، ثم تصلب هذه في مدى يومين ، فينبغي آنذاك أن تعجن بقوة وتخلط بفتات من الطعام اليابس المسحوق ، ان حبّات التراب التي تدلهخ وتضاف على هذا النحو تشكل من الفخار الطري معجونا لا يتشقق أبدا ، وإذ ذاك يمكن صنع أشكال منه " (٤٩) .

لقد حدد فرعون صورة المرأة ، تلك المرأة التي تنتمي اليه وينتمي اليها ، وقدمها الينا امرأة منتجة وفاعلة ، في مجتمع ذكوري يقر الكاتب نفسه بسلطاته المنصرية :

" يجب أن أشير هنا الى ان مثل هذا الفطور لم يكن ليقدّم لي الا في الظروف الاستثنائية ، وينبغي أن تتظافر لذلك عدة ظروف ، فيجب أولا أن يكون عندنا كسكس وحليب ، وبعد ذلك اختيار المناسبة ، وانتظار غياب أختي الصغيرة خاصة ، لأنها قد تطالب بحصتها من النوافل " (٥٠) .

" ستريين أنك ستصبحين جميلة بعد الولادة ، كما كنت من قبل ، بشرط أن يكون المولود ذكرا " (٥١) .

وعند مصري تبدو المرأة ملتصقة بواقعها المثقل بالتقاليد ، فهذه " عـــزة " ، تطلق من زوجها لأنها لم تنجب لزوجها ابنا بسرعة ، ولذا قررت حماتها تطليقهـــا دون أي اعتبار لرأي زوجها الذي كان غائبا ، ولا مايترتب عن هذا الطلاق من تماســـــة للزوجين (٥٢) . ويبدو الحب ـ تلك العلاقة الانسانية ـ عند مصري خاضعا للجو الاجتماعي العام ، فهو مرتبط بالشقي والفلاحة ، وهو ممنوع ، لأن ذلك يعتبر خرقـــا لتقاليد الشرق .

أما الروائية " مارغريت عمروش " في " شارع الطنابير " (Rue des Tambourins)

فهي تعاني معاناة المرأة حين يغادرها زوجها الى المهجر ، من أجل لقمة العيـــش ، وهي تعاني من ذلك ، وخوفها مبهم ، غير جلي ، لأنها لاتعرف ذلك العالم الـــذي يحيط بزوجها ، كما تخشى المرأة من أن يأكل العالم الغربي الزوج أو الابن ، فتأخذه احدى " الروميات " وتغريه فينسى الأصل والبلد :

" يقال ان الفرنسيات بيضاوات وجميلات جدا ... وشعرهن أشقر ذهبي !
وأن فرنسا ذاتها بلاد واسعة كبيرة وغنية وبعيدة ، ان الوفرة تقتل الذكرى " (٥٣) .

واذا المرأة تلبس لباس الحداد حين يغادرها زوجها الى بلاد الغربة ، واذا جمالها يذبل بسرعة أمام فظاعة الأعمال اليدوية التي تمارسها :

" ان لون بشرة النساء في بني بوبلان مثل لون العسل ، من أثر الشمس فهـــن كالذهب ، لكن كل هذا لايدوم طويلا ، لأن اللعنة القديمة تخيم عليهن ، فتتحـــول أجسامهن بسرعة وتصير أشبه بأجسام الحطابين ، أما أقدامهن التي تنغرس في الأرض ففيها شقوق عميقة . ان سحرهن بطريقة أو بأخرى يذبل في غمضة عين " (٥٤) .

ولكن يظل الحديث عن المرأة هو نداء الوطن ، نداء الوجود والبقاء ، فهـــي ترتبط دائما بالأرض ، لأن كلا منهما يحمل معنى الخصب :

" في مجتمعنا التقليدي الفلاحي خاصة ، ان المرأة تمتزج بالأرض المنتجـــة

التي تلمم ، الأرض الخصبة التي تحيل ذويها ، وترمز المرأة العاقر الى الأرض البور الجرداء » (٥٥) .

وترتبط المرأة بالهوية وتنقض الذوبان في الكيانات الأخرى ، وتشكل جدارا للثقافة المحلية التي تناهض الثقافة الواردة :

يقول جاك بيرك :

" وتماشيا مع الجمود الاجتماعي الذى كان يسود تلك الفترة ، قامت المرأة بدور المحافظة على ماض أنتجته بخبرة كبيرة .. وهكذا مرّت فترة الاستعمار مثل غيرها دون أن تمس المرأة " (٥٦) .

ان واقع المرأة الذى وصفه الباحث السوسيولوجي التونسي عبد الوهاب بوحديبه ، هو الواقع الذى نقلته الرواية الجزائرية الوطنية بشكل عام ، اذ قال :

" أن تكوني مسلمة ، معنى ذلك العيش متسترة ، ولتكوني واثقة ، فان المجتمع العربي لايملك سوى حيز الانسان المؤنث . ان المنزل العربي ليس سوى حجابا من حجر ينطوي حجاب القطن أو الصوف " (٥٧) .

واذا كان هذا هو واقع المرأة كما صوّرها محمد ديب و مولود فرعون ، ومولود معمرى وعلي بومهدى ومارغريت الاوورعمروش ، في ظل مجتمع ذكوري بطريركي ، فان " المرأة " عند آسيا جبار هي نقيض هذا كله .

انها المرأة (نادية) التي تعيش مغامرات وتجارب عاطفية كثيرة مع الرجال ، وهي التي خطبت مرات عديدة وفسخت كل ذلك (٥٨) . ورغم التوتر النفسي الذى تعيشه شخصيات " العطش " وانه توتر وجود ، عبثي ، وان التحريم والمنع الذى تحاصر به المرأة (دليلة) في " القلقون " (٥٩) هو حصار تريد من ورائه الكاتبة خلق جو دينوري تشويقي لتجسيد مولود رامي ، ولا صلة له بواقع المرأة التي وصفها علي بومهدى حين قال :

" لا يامنة ولا أمي ، تستطيع تجاوز عتبة بيتها " ماعدا في تلك المناسبات الهامة كالزواج أو الولادة أو الموت .. انها المناسبات الكبرى وحدها هي التي توقّع حياتهما

وتعطيها معنى "(٦٠) .

وقد وقفت روايات آسيا جبار على نقيض ما قدمته جميع البحوث في هذا الميدان ، وتبدو اشكالية الروايات بجميعها ، هي اشكالية : البحث عن زوج أو عن زوجة ، ولا علاقة لها البتة بروايات البحث عن المجتمع العادل .

يقول الباحث صحافي الأشرف معلقا على روايات آسيا جبار :

" ان مالك حداد وآسيا جبار : لم يتناولا أبدا ، مشاكلنا : حتى تلك الأكثر عمومية ، انهما يجهلان كل شيء ، وهذا يعود الى منبعهما الطبقي ... وهما لايملكان أية علاقة تربطهما بالواقع الجزائري ، وهما يمثلان أكثر الكتّاب الجزائريين جهلا لبلادهما ، وهذا مايدفعهما الى اخفاء الحقائق الجزائرية تحت طلاء شعري ، لايملك هو الآخر أي ارتباط عضوي بأصالة فن الرواية "(٦١) .

وتؤكد آسيا جبار نفسها ، أن الكتابة عندها هي رغبة ، ولا علاقة لها بالوعي الذي ينظم الرغبة ويقننها :

" ذات يوم جميل ، جلست الى العمل ، مدفوعة برغبة الكتابة ، خلقت شخصيات بدون هدف محدد ، ثم بدأت هذه الشخصيات في الحركة ، ثم سحبتني معها "(٦٢)

وان الحرب الجزائرية في سنواتها الحاسمة ، والناس يموتون خوفا وجوعا وقتلا ، ويقدم المجتمع خير أبنائه الى الموت من أجل الاستقلال والحرية والعدالة ، كانت بطلات " العطش " و " القلقون " يحلمن بحياة أوروبية ليبرالية ، واذا الأوروبي المستعمر يتحول من عدو الى حلم حضاري .

" اننا لانتهم سوى من المستعمرين والاستعمار ، ان الخطأ هو في عقليتنا القابلة للاستعمار "(٦٣) .

تبدو الروائية ضجرة من مجابهة الاستعمار ، بينما المفروض — على حدّ رأيها — محاربة هذا التصور الذي لايسمح " لدليلة " بممارسة عبثيتها .

ان الشخصيات التي تكتبها آسيا جبار لاعلاقة لها بهذا الواقع الجزائري ، بل تبدو الرواية نتاج قراءات في الرواية الفرنسية الرومانتية والاستهلاكية ، ولا ترتبط

الرواية في اشكاليتها بالتاريخ بل ترتبط بذات مهووسة بالرجل / الذكر ، ومن حيث بناؤها الفني تتكيء " الصداقة " و " القلقون " وحتى " أبناء العالم الجديد " على الرواية الرومانطيقية الفرنسية ، في رسم الشخصيات وحبك الحوادث والدسائس العاطفية والتشويق ، حتى شبه البعض رواية " الصداقة " برواية " مرحبا أيها الحزن " لفرانسواز ساغان (٦٤) .

وحتى اذا كانت الرواية تريد أن تدرس " الجسد " كما يرى عبد الكريم الخطيبي (٦٥) فانها لم تكشف فيه سوى شهوة صرف ، ولذة منفصلة ومعزولة عن الواقع الجزائري ، وان اكتشاف الجسد ـ اذا وجد ـ لم يؤد أية خدمة لاكتشاف الواقع ، وظهرت " الصداقة " و " القلقون " قريبتين جدا من روايات احسان عبد القدوس التي تترجم طموح البورجوازية الليبرالية المصرية وواقعها ، ليس عيبا أن تكتب آسيا جبار عن البورجوازية الليبرالية ، ولكن العيب أن تقدم هذه البورجوازية على انها النموذج الذي يجب أن يسود ، قالت دليلة :

" انني لم أنس أنني مسلمة ، وبورجوازية ، وفتاة صغيرة أحسنت تربيتها " (٦٦) .

وان العودة التي تقوم بها آسيا جبار عن طريق (فلاش باك) ، في أغلب الأحيان لتقويم الحرب ودور النساء فيها ، من باب الترف وركوب قصب الثورة - ومحاولة خلق رواية " ثورية " فيظهر جليا ذلك الشرخ بين الجو العام في الرواية والحرب ، بل هما عالمان منفصلان ، ويتجلى هذا جيدا في شخصية " نفيسة " في رواية (القبرات الساذجات) (Les Alouettes Naïves) (٦٧) .

اذا كانت الحرب التحريرية الجزائرية على حد قول فرانز فانون ، قد هزت الذهنية العامة للشعب الجزائري و " لم يعد الرجل على صواب دائما ، ولم تعد النساء صامتات ، ولم تعد المرأة مجرد مكملة للرجل " (٦٨) ، فان التطرق الى هذه الموضوعات ليس سهلا ، ولا تشفع للعمل الأدبي أخطاؤه ، ان كاتبة مثل آسيا جبار وبتلك الرؤية لايمكنها أن تدرك موضوعة الحرب الجزائرية ، وهي التي عاشت هذه المدة كلها في المغرب بعيدة عن أجواء الحرب وصراعاتها ، وعاجبت النزعة

الليبرالية الكاتبة حتى في آخر روايتها " أبناء العالم الجديد " (Les enfants du nouveau monde) فبينما الحرب على أشدها ، نجد " ليلى " غارقة في تقلباتها وأهوائها وأنانيتها ، وقد حاولت منع " علي " زوجها من الانضمام الى المقاومة .

الروايـــة الجزائريـــة :

السيرة الذاتية بصيغة الجمع

١ ـ الرؤية الفلكلورية التاريخية

٢ ـ الرؤية " الاثنوغرافية "

١ —

ان اكتشاف الذات في تاريخيتها وشموليتها ، أي بعيدا عن أنانيتها وهمّها الضيّق ، وفي اطار علاقاتها الاجتماعية العامة والواسعة ، هي في حدّ ذاتها اكتشاف (للآخر) ، اكتشاف للعالم في سيرورة تطوّره الداخلي العميق . أي ان كتابة الذات اللابورجوازية ، التي أكد لينين وغوركي دورهما الهام والفعّال في الفن ، معارضين بذلك — آنذاك — أعدادا لاتحصى من المنظّرين الذين أعربوا في العشرينات عن تقتهم بالخيال الفني (١) ، هي مسألة مشروعة بالنسبة للابداع ، لأن الابداع هو رؤية الذات الانسانية في تاريخيتها ، وكتابة هذه الذات هي محاولة لكتابة دهاليز التاريخ الأكثر عتمة وسحرية ، حيث يتجلى بدقة صراع الفرد داخل المجموعة الاجتماعية أو الطبقة ضدّ الاضطهاد وضدّ قسوة الطبيعة .

ان الخلق الثقافي / الابداع هو رؤية متكاملة للعالم ، وهو بذلك يعدّ حدثا اجتماعيا ، لأن لا أحد يستطيع بمفرده أن يخلق رؤية جديدة للعالم ، تقطع جذريا علاقتها بما كان سائدا حتى هذه اللحظة (لحظة الخلق) ، وفي ذات الوقت حدث فردي ، لأن ابداعا أصيلا ليس هو ذلك الانعكاس البسيط لوعي الجماعة (أو الطبقة) . ومن هنا فالخلق الفني هو فردي لكونه منتوج فرد واحد ، وجماعي ولكونه يستنتج رؤية مترابطة تنظم مجموعة من التصورات داخل الجماعة أو الطبقة (٢) .

ضمن الاسلوب البيوغرافي (Biographique) الذي يعتمد السيرة الذاتية والاعترافات والمذكرات ، بدأت الرؤية الجزائرية في مطلع الخمسينات زحفها نحو دهاليز المجتمع المستعمر ، وهي بذلك تسجل نقلة جوهرية في مسيرة تطوّرها التاريخي ، مؤسسة بذلك نزعة الواقعية الطبيعية والواقعية الاشتراكية في تجربتها الأدبية .

واذا كانت أغلبية الرواية الجزائرية (المكتوبة بالفرنسية) قبل الاستقلال تصدر عن ترنيم فني بيوغرافي ، بأشكال ورؤى مختلفة (فرعون — ديب — معمري — كاتب — حداد ... الخ) فان لهذا الاسلوب دلالة نفسية واجتماعية وحضارية ، اذ أن الذات وهي تكتب نفسها ، كانت تريد أن تؤرخ لنفسها وأن تترك ظلها وتحقق وجودها حتى

تثبت قدرتها على مواجهة الفناء الحضارى . كما أنها وهي تقوم بهذه المهمة كانـــت
تريد أن تميز نفسها عن الآخر / المستعمر الذى تكتب نفسها في حضرته وتحت عيونــه .

ولما كانت النزعة الفنية البيوغرافية تريد كتابة الأنا والمجتمع الذى ترتبط به نقضـــا
وانسجاما ، تلك " الأنا " المستلبة استلابا شاملا ، فان الطابع البيوغرافي تحول الـــى
طابع جماعي ، أى ان المأساة الفردية تحولت في ظل الصدق الفني ، الى مأساة جماعية
وطنية (عمر - فورولو - عيني - تسعديت نجمة - رشيد ... الخ) . أى أن
هذه الذات حولها الاستعمار نفسه من ذات " ذاتية " الى ذات " مجتمعيـــــة " .
فبدت كتابة الذات الفقيرة الجائعة الضائعة المستلبة والمناضلة في ذات الوقت ضد هذه
المأساة الشاملة ، هي كتابة للوطن الضائع والمفقود ، ولما كانت كذلك ، فقد تحوّلـت
صحوة الذات في تعبيرها عن نفسها الى صحوة المجتمع في التعبير عن وطنه وبحثه عـن
تاريخيته ووجوده .

أمام ذلك ، فان الرواية البيوغرافية ، حملت الى جانب ذات الكاتب ، وتجربتـــه
الفردية ، التي هي المحور الحدثي الداولي في الرواية ، بحثا اجتماعيا واسعا ، عـن
أحوال المستعمرة (سياسيا - اجتماعيا - ثقافيا - نفسيا .. الخ) وعن تلـك
اليقظة الوطنية ، ولما كانت الرواية تقوم بهذه المهمة وهي تركز على خصوصية " الأنـا "
كانت تسجل انجازا ثقافيا / ابداعيا هاما ، يقطع الطريق أمام الرواية الكولونياليـــة ،
رواية " الآخر " ، التي هي صادرت من " الأنا " كلمتها مدة طويلة . وبذلك بـدأت
المقاومة وبدأ الحوار الأدبي المتكافىء ، حين خرجت أولى الروايات تعرض مميـزات
مجتمع يعيش في الرطوبة والدهاليز .

٢ — الرؤية الفلكلورية التاريخية :

ان الرؤية الفلكلورية التي اعتمدتها الرواية الوطنية ، تختلف جذريا عن النقــل الفلكلوري أو الرؤية الكولونيالية ، ذات النزعة السياحية والدهشة والفُرجة والتلذذ التي ابتغت الرواية الاستعمارية منذ أن حطت عصا الرحل وحتى نهايتها ، لقد كان بالنسبة اليها ذلك المجتمع الأهلي (indigene) من اللباس والأكل والملبس والرقص والمسكن جزء من التحفة والتزويق الفني البورجوازي الذي تفتخر به هذه الرواية حين تصل الى الصالونات الارستقراطية الباريزية في الأول ، ثم الصالونات الارستقراطية في " الجزائر " العاصمة في مرحلة لاحقة ، أي بعد أن تمركز الرأسمال الكولونيالي وبدأ عملية التراكم ، فكانت البلاد كلها بلاد الغرائب والعجائب والسحر وخوارق ألف ليلة وليلة ، وآلهي النجوم البحرية . والشمس القاتلة والصحراء التي لاتنتهي ... الخ وما الانسان الجزائري (الأهلي) الا ذلك الافريقي الهمجي السافج تارة والخبيث تارة أخرى ، والذي يحمل سهمه على كتفه ويسير حافيا عاريا وسط الرمال اللافحة ، يصارع الأسود والجن والضباع والشمس ، وتتفجر منه قوة جنسية خارقة .

ان الرؤية الفلكلورية الاستعمارية هذه ، لم تكن منفصلة أبدا عن الايديولوجيا الكولونيالية ، بل كانت جزءا هاما من تركيبتها الوهمية ، وهي — أي الرؤية الفلكلورية اذ كانت المستعمرة بهذه الطريقة ، كانت تهدف من وراء ذلك الى تسويغ الاحتلال ، وتثمين أحقيته في الدخول الى هذه البلاد ، باعتباره حامل رسالة المدنية والحضارة ! " جئنا الى أرض الأجداد لنشر الحضارة والمدنية ! " .

ان الخلفية الايديولوجية التي تحملها الرواية الكولونيالية ، من خلال عرضها هذا الفلكلور (بطريقة مشوهة ومسطحة) ، هي تأكيدها عدم أحقية هذا " الأهلي " في الحياة ، لأن الانسان المتمدن والحضارة الاوروبية بحاجة الى خيرات هذه البلاد ، ومن حقها استغلالها .

ان الرواية الكولونيالية لم تر في هذا الفلكلور سوى ذلك التعبير عن التخلف والتوحش والهمجية ، ولم تر في الانسان الأهلي سوى جزء مكمل للفلكلور ، فهو لايختلف

عن " الحصير " المصنوع من الدوم أو الحلفاء الملونة ، أو اللباس المصنوع من الصوف أو الوبر أو الجرة المصنوعة من الفخار الأحمر .. الخ . ولم ير في المرأة الأهلية المحناة اليدين وصاحبة الضفائر الطويلة والوشم على المعصمين وعلى الجبهة ، وذلك اللباس الطويل كالطاووس سوى دمية ، أو عروس من عرائس القراقوز .

ولقد سجلت الرواية الكولونيالية عجزها في تفسير هذا الفلكلور ، ولم تحمل أية رصيد معرفي دقيق ، الا رسالة ايديولوجية واحدة ، موجهة الى الغرب الرأسمالي ، لتهيء الرأي العام الأوروبي ، وتشويه الحقائق التاريخية لديه ، وبالتالي تأييد هذا الوجود الفرنسي المتمدن والمتحضر ، والذي يحمل " شمسه " الحضارية الكبيرة لينشرها على افريقيا بصحرائها وغاباتها الاستوائية العذراء .

أما الرواية الوطنية ذات الرؤية الفلكلورية التاريخية ، فانها كانت رواية مضادة ، تنقض أحلام الرواية الكولونيالية " الفلكلورية " السياحية ، وهي - أي الرواية الوطنية - مرتبطة بالتاريخ من خلال الفلكلور ، مرتبطة بالذات الحضارية من خلال هذه الثقافة المحلية ، التي تشكل قاعدة صلبة في وجه الذوبان والفناء والاستلاب .

ويعتبر الروائي " مالك واري " أول من دخل المجتمع والتاريخ من خلال الفلكلور بروايته " الحبة في الطاحونة " (٣) ، والتي قدم لنا فيها الأوضاع الاجتماعية والظروف المعيشية لبلاد القبائل قبل دخول الاستعمار ، عارضا فيها ذلك المجتمع بكل بساطة متعمقا حول عادات وتقاليد وقيم هي عبارة عن الاسمنت الذي يشد أبناء هذا المجتمع بعضهم الى بعض ، وداخل هذه القيم والعادات لم يكن المجتمع راكدا أو ساكنا بل كان يعرف تطورا حقيقيا وطبيعيا من الداخل ، وذلك من خلال توليد بعض العادات والقيم الجديدة وتجاوز قيم أخرى أصبحت متخلفة عن المرحلة ، وأول مايفرق الرؤية الوطنية التاريخية الفلكلورية عن الرؤية الكولونيالية ، هي كون هذه الأخيرة كانت ترى المجتمع في سكونية ومتحنية ، في حين كانت الرؤية الوطنية التاريخية تراه في ديناميكية وتغير مستمر ، وتناقض جدلي متواصل (٤) .

ان هذا الميدان ليس غريبا على الكاتب مالك واري ، فقد كان مغرما بالفلكلور

القبائلي (البربري) (٥) وقد نشر عدة حكايات شعبية وأشعار بربرية تختصر حكمة هذا الشعب في الحياة (٦) ، وبذلك تبدو الرواية قائمة على وثائق حول حياة القبائل ، اضافة الى تجربة الكاتب لكونه ابن المنطقة ، في تصويرها حركية المجتمع الداخلية ، ذلك المجتمع الذي يبدو في ظاهره ساكنا وراكدا ، لقد تبهمت " الحبة في الطاحونة " ملامح البيئة القبائلية ، واندفاع أهلها في مجال الثأر والدفاع عن الشرف والكرامة العشائرية ، لأن العشيرة كانت هي الوحدة الاجتماعية المميزة ولم يكن هناك فرز طبقي (٧) ، والحفاظ على ذلك التراث المعنوي والثقافي وأساليب العمل والحياة ، الذي يسعى به ذاته الحضارية ضد الاندماج واقتلاع الجذور (٨) وذلك من خلال تتبع حياة البطل " ايدير " أحد أفراد قبيلة " آيت سمار " ، الذي يقتل " أكلي " ثاني أبناء " داتيبوش " ، ثم يهرب خارج قبيلته ، خوفا من الثأر الذي يطالب بالدم ، حسب قانون " الرقبة " المتحكم في تيم القبيلة • و " ادير " خطيب " جيكا " أخت " أكلي " ، وذات مرة يعود " ادير " ليتزوج " جيكا " •• وينجب منها طفلا يسميه " أكلي " وبذلك تمّ حقن الدم وأنقذ الشرف (٩) .

ان عمق الرواية يكمن في دراميتها أو في أحداثها التي قد تبدو بسيطة أو عادية ، أو قد تظهر للقارئ المتسرع مشوقة ، أو ربما مسطحة وساذجة ، الا أن أهمية الرواية تكمن في الرصيد الهام للقيم الاجتماعية والأثنية التي تحكم الحياة الاجتماعية والاقتصادية للقبائل (البربر) في يومياتها ودقائقها قبل دخول الاستعمار ، أو لم يحاول الاستعمار منذ البداية تفتيت القبيلة " ليخلخل بنية المجتمع ويقيم بدلها بنية جديدة ، وليهزم تلك القيم الثقافية المحلية التي أدرك – منذ أول وهلة – انها ستتحول في يوم ما – اذا بقيت " القبيلة " على بنيتها – ، الى قوة مواجهة ، تناقض البنيات الثقافية وعادات الرأسمالية الكولونيالية (١٠) .

ان كتابة رواية بهذه الرؤية المعتمدة على الفلكلور ، وفي فترة متأخرة جدا (١٩٥٦) ، وهي تتناول الجزائر في المرحلة التي سبقت الغزو الفرنسي ، ليس موقفا رجعيا ولا نظرة سلفية ، وانما هي رواية كانت تهدف الى تذكير الاستعمار

بأصالة هذا الشعب ، وتشيد الى أذهان — خاصة في مرحلة تعد من أهم مراحل الصراع السياسي والعسكري مع الاستعمار — المثقفين الذين وقفوا من فرنسا — والحرب عندها — موقفا مترددا ، صورة من أصول هذه البلاد وحضارتها ، وعن استقلالية قومها الانسانية .

ان " الحبة في الطاحونة " ليست موقفا سياحيا ، انما هي بحث في الجذور ومواجهة الاستعمار من خلالها ، وهي نداء " الأنا " الوطنية من أعماق التاريخ السحيق ، وهي برغم كونها تقوم على وعي بسيط ، لكنها تحمل صدقا فنيا ، وموقفا يضرب الاستعمار على رأسه ، لأنها تكتب مرحلة ماقبل دخول الاستعمار ، وهي في ذلك تصور البحث الممكن عن الحرية ، وانسحاق الفرد داخل المجتمع الأبيسي الاقطاعي :

" .. كان هناك حس قوي بالاستقلال الفردي يرفض كل تكوين منظم ودائم للسلطة الايجابية ، ولا يقبل عند اللزوم — وفي اللحظات الحرجة — سوى أسبقية التنظيم بين أشخاص سواسية ...

ومع ذلك لم تكن هناك فوضى ، كان هناك نظام محكم ، يؤدي دوره على أحسن وجه ، والعنصر الأساسي الوحيد المسير له ، هو رئيس العائلة حسب المفهوم الضيق للقرابة الشرعية ، والبكر في فخذ قبيلة ما ، يخضع لقانونه جميع الذكور المنحدرين من صلب الجد ، والأسرة ذات الرجل المشترك ، تتألف من مجموع الشؤون المنزلية المتجمعة في دار واحدة أو عدة دور ، والمفضية الى نفس الساحة الكبيرة المشتركة .

وهكذا تصبح القرية مكونة من عدة عشائر متقابلة ، الا أنها مستقلة ذاتيا ، والرابطة الوحيدة التي تصل بين أجزائها هي نوع من الأحلاف المصلحية التي تجمع الأفخاذ في شكل حلقات ، غير أن هذه الأحلاف لاتضر بتاتا بسلطة الرئيس المختص وحده بابرام التعاقدات أو فسخها ... " (١) .

ان " الحبة في الطاحونة " رسم دقيق بالألوان — يخفي خلفه كاتبا يعرف الرقعة التي يشتغل عليها جيدا — كذلك التوقان الى التحرر داخل نظام يطحن ... ، وهي بذلك تشيد ها على حلقة هامة من حلقات التطور الطبيعي للتاريخ

الجزائري ولبنياته الاجتماعية الحديثة ، أي في فترة طالما ظلت غامضة بالنسبة الـــى الباحثين ، ألا وهي فترة حكم الأتراك الممتدة مابين (١٥١٨ ــ ١٨٣٠) .

أمام " الحبة في الطاحونة " ندرك صعوبة كتابة عمل ابداعي (رواية) يتخلص من الوثائقية الجافة ويرقى الى " المتخيل " الصادق ، عن فترة غامضة تاريخيا ، وقد مضى عليها حوالي قرنين (الى زمن صدور الرواية) . وهذا ماحاولت " الحبة في الطاحونة " المغامرة داخله . ومن هنا جاء خطابها الروائي مزيجا بين الانشــاء الشعري المعلق والخطاب التاريخي الوثائقي الجاف ، الذي يرتكز على أسماء أشـــخاص وأماكن ووقائع ... الخ :

" هي ذي الطاحونة الصغيرة الحجرية مدفونة في الأرض ، كم من المرات لـــم يههدهد نشيدها الصامت والرتيب أحلامهم الطفولية " ومرات يسمع نشيد آخر يصاحب صوت الطاحونة ، اذ ترى امرأة جالسة القرفصاء تدير بذراعيها الاسطوانة الحجريـــة ، واذا الدقيق مثل نبع ينساب بين الطاحونات ، لينتشر على جلد خروف ، قد فرش لهذا الغرض .. " (١٢) .

ان الرؤية الفلكلورية التي بنى عليها مالك واري روايته ، هي رؤية تاريخيـــة تحصر الحدث التاريخي داخل مرحلته ومن أجل تجاوزها ، لأن كل مرحلة تاريخيـــة تحمل داخلها نقيضها ، وهي من خلال هذه التاريخية ، تكتسب صدق المعانـــاة ، وتسقط وتدين الرؤية الفلكلورية الاستعمارية ، و " الحبة في الطاحونة " تكشف علـــى الانسان الفاعل والمنتج ، لا الانسان الذي هو جزء من الفلكلور والذي يبدو في حالـــة متعفية كما رسمته الرواية الكولونيالية .

٣ ـ الزواية " الاثنوغرافية " طريق الى الوطن

ـ حالة مولود فرعون ـ

نالت رواية " ابن الفقير " (le fils du pauvre)(١٣) لمولـــود فرعون ، شهرة بعيدة في الجزائر أولا ، ثم في فرنسا ثم في الشمال الافريقي كله ، وقد عدت من الكتب الأدبية الكلاسيكية الهامة (١٤) ، ويعدّ مولود فرعون أكثر الكتّـــاب الجزائريين شعبية حسبما اتضح من خلال تحقيق اجتماعي قامت به الأستاذة " فانـــي كولونا " (FANNY COLCNE) من جامعة الجزائر ، والاستفتاء الذي أجراه الاستاذ شارل بون (١٥) .

وتعد رواية " ابن الفقير " رواية سباقة الى اعتماد الاسلوب " اتنوغرافـــي " بعفويته وتدفقه :

بغنائية حزينة وحواد ث يومية صغيرة مجتمعة الى بعضها البعض ، لتشكل عالمـا مغلقا ، عالم قريته " تيزي هيبل " يعرض الكاتب سيرته الذاتية ، اذ يراكم جزئيـــات التجربة من أبسط مستوياتها في القسم الأول : حياة الطفل مراد / فورولو في قريـــة فقيرة ، حيث تتعاقب الأحداث بدون تعقيد ، من خلال علاقات الطفل باخوته وجيرانه وخالاته ، ويتخلل ذلك وقفات متأنية أو سريعة على عادات وتقاليد الأهالي ٠٠ الخ ثم تتحول الرواية في احدى مراحلها الى مركب جديد يتطور بدوره الى ما هو أكثر تركيبا .

وقد وصف الروائي المغربي ادريس الشرايبي طريقة فرعون الكتابية فقال :

" لقد كان مولود فرعون ـ ككاتب ـ أفضلنا على الاطلاق ، انه لم يكتب أدبا ، بل كان يكتب الواقع باسلوب خال من كل زخرف ، وبسيط مثل شخصه ، وبصدق وايمـان عارم يحرك الوجدان المتحجر " .

ان " ابن الفقير " رواية مسكونة بالتفاصيل الصغيرة المرتبطة مباشرة بحيـــاة الكاتب نفسه ، ومتغلغلة داخل المجتمع من خلال هذه السيرة الذاتية ، وهي بذلك تحقق مقولة بريخت :

" لايولد الفن جماعيا انما يصير جماعيا "

ان " ابن الفقير " حين أرادت أن تكتب تلك السيرة الذاتية لم تكن ذهنية نرجسية ، أو ذهنية ذات بورجوازية مضببة كما هي حالة " مالك حداد " (١٦) ، بل انها كتبت الذات المقهورة في صراعها مع الواقع الذي يحاصرها بالفقر والجهل من أجل تغييرنا وقلبه ، فبدت بذلك رواية " بلاد القبائل " ، بل ورواية الشعب الجزائري كله ، أو على الأصح ، رواية الشرائح الاجتماعية الفقيرة ذات الأصول الزراعية ، فرسمت يوميات الفلاح القبائلي وذهنيته من خلال رحلة الوعي عند الطفل فورولو / مسنراد ، الذي ما هو في الأخير سوى فرعون نفسه ، الذي تحول الى آلاف " الفراعين " آلاف " الفورولات " الموزعين في كل المستعمرة ، وبذلك جاءت الرواية سيرة ذاتية بصفة الجمع :

" أراد بميسور الكلام أن يروي سيرته كما فعل هؤلاء العظماء (...) كان يعتقد أن حياته جديرة بأن يعرفها الناس أو أولاده وأحفاده على أقل تقدير " (١٧) .

لقد كانت الرواية واعية نفسها انها تكتب سيرة ذاتية ، لكنها في ذات الوقت مدركة أن هذه السيرة الذاتية ، ليست سيرة " البطولة " والمغامرات العاطفية ومغازلة طواحين الهواء ، بل انها قطعة من المعاناة اليومية لشعب كامل ، اختصرها الكاتب في شخصية " منراد " فنابت عن سيرة مجتمعه .

" ولدت سنة ١٩١٢ قبل قرض تبراري المشهورين بيومين ... " (١٨) .

وبالعودة الى بيوغرافيا مولود فرعون التي كتبها " يوسف نسيب " أوجان ديبو ، نجد ذلك التوافق بين أغلب أحداث الرواية ووقائع حياة الكاتب (١٩) .

لقد جمع فرعون في " ابن الفقير " بين السيرة الذاتية وسيرة المجتمع بشكل عفوي وصادق ، فارتسمت صورة ذلك المجتمع الجزائري ، في تطوره وصحوة الوعي فيه ، ومن خلال تلك القرية الصغيرة الجرداء " تيزي هيبل " كان الكاتب يكتشف كل العالم المستعمر المعذب ، فاذا هي تشبه " دار سبيطار " في " الدار الكبيرة " أو " بني بوبلان " في " الحريق " لمحمد ديب ، واذا بالطفل فورولو لا يختلف عن الطفل عمر الا في بعض الحوادث الجزئية الصغيرة ، انهما نفس النموذج تحت نفس التعذيب

ونفس القمع . ومن " ابن الفقير " ندرك عمق مقولة الكاتب السوفياتي رسول حمزاتوف " العالم يبتدىء من عتبة بيتي " .

" سيروي قصة حياتك التي تشبه آلافا من الحيوات غيرها ، من هذا الذي يميزها رغم كل شيء ، وهو أنك طموح يافورولو " (٢٠) .

تبني الرواية عالمها بروح سردية بسيطة وبارقة ، وبصمت ونسمة مأساوية عميقة ، وتنتفي من على السطح الظاهري ، كل أشكال الصراع ، اذ بدا وصف الكاتب لحياة الفلاحين الشقية وصفا محايدا ، كأنه يقول لها . هذه هي حالتنا !

دون أن يسمي بوضوح أسباب الفقر الذي يهلك فلاحي " بني هبيل " الفقراء . حتى وصل الأمر ببعض الوطنيين الجزائريين المأخوذين بحماس الحرب التحريرية في منتصف الخمسينات أن ينعتوه بـ " المثالية " ، لأنه وعي تناقضات الوضع الاستعماري والصراع القائم بين ثقافتين (الجزائرية والفرنسية) بين قوسين ، لقد كان الكاتب الجزائري في هذه المرحلة حين يبتعد عن الحدث السياسي ، فانه سيتعرض لنقد سياسي متسرع وآني ، يتهم الكاتب بالنزعة " الاستيتيقية " (أي الفن للفن) ، في حين اذا أراد الكاتب أن يكون وطنيا وثوريا عليه أن يكتب عن الثورة ؟ ! لقد كانت الحرب التحريرية الجزائرية برغم عظمتها التاريخية ، جد انوفية في موقفها من الفن ، لأنها كانت تريد أدبا تحت الطلب ، دون أن تدرك أن هذا الأدب الذي تدعو اليه هو أدب استهلاكي من نوع جديد ، أي أنه لايملك عناصر الخلود الفني ، التي تنتج من جراء تفاعل العناصر الأدبية الخاصة بالعمل مع محيطها التاريخي ومقولته ، يقول لينين :

" ان النظرة التقدمية لاتحل محل الموهبة ، وانما هي تجعلها أكثر فائدة " (٢١) .

من خلال علاقة معقدة بين السياسي والأدبي التي تنتج في الأخير عملا ثوريا خالدا " قالدون انهاد " لشولوخوف أو " نجمة " لكاتب ياسين .

ان فرعون الذي كان ينعت خلال حرب التحرير الوطنية بالكاتب المتبائس (Misérabeliste) قد أعيد اليه الاعتبار الأدبي والسياسي ، بعد أن استعادت الحياة اليومية تفوقها على الحدث السياسي (٢٢) .

ان صورة الفقر والتفقير والجهل ومصادرة أراضي الفلاحين واقتلاعهم منها ، وكل ذلك البؤس الذي تغرق فيه قرية " تيزي هيبل " ، يخلو من حرارة التناقض والصراع الاجتماعي الذي تقوده البروليتارية والفلاحون المعدمون والعمال الزراعيون الأهالي من جهة والرأسمال الكولونيالي والبورجوازية الجزائرية المتحالفة معه من جهة أخرى . فاذا الفلاحون لايرون شيئا ولا يفهمون شيئا ، يعيشون عالمهم المنغلق داخل نطاق مشاعرهم الذاتية المغلقة ، وهم في هذا السكون أسرى عاداتهم ، وأسرى الفكر القدري الميتافيزيقي :

" ان العناية الالهية لاتتخلى قطعن المساكين " (٢٣) . اذ برغم تلك الصورة القاتمة اللون عن الأوضاع المأساوية التي يعيشها هؤلاء الفلاحون ، والتي يمتليء بها العمل الروائي من أوله الى آخره ، واذا بالقاموس الروائي هو الآخر ظل حبيس هذا البؤس الاجتماعي ابتداء من عنوان الرواية " ابن الفقير " ، فاذا بالمفردات الأكثر تواليا وتكرارا هي تلك التي تتصل بالفقر أو تلك التي تنقضه . (٢٤) .

Pauvre/Pitoyable	20	Riche	19
Pauvre/indigent	13	Luxe	5
Miserre	10	Aisance	4
Malheureux	8	Richesse	3
Maigre	5	Fortne	3
Pitoyable	4	Opulance	1
Appauvré	2	Pompe	1
Ruiye	2	Apparat	1
Depouiller	1		
Gueux	1		
Infortune	1		
Pauvreté	1		
Mendicité	1		
Miserable	1		

أن " الفقير الذي يرثى له " (Pauvre pitoyable) متقدمة رقميا قياسيا في لغة الرواية ، متفوقة على " الفقير / الأصلي " مما يضفي طابع الشفقة على حالة الفقر ، واذا كانت (غني) (Riche) قد حصلت على المرتبة الثانية فان هذا يتطلب منا أولا الاشارة الى أن الغني في مفهوم " فرعون " هو كل فقير مستور الحال .

" لقد عاد (الأب) من فرنسا منهك البدن ، ولكنه غني الى حدّ كاف بحيث يستطيع أن يفي ديونه ويستعيد طمأنينة الماضي ، لقد كان في جيبه حوالي عشرة آلاف فرنك وكان مرتبه الصغير يضمن له سقوط التبن حتى موته " (٢٠) .

وفي الجدول التالي تفاصيل لتوزع القاموس اللغوي حسب تطور وقائع الأسرة ومن خلفها المجتمع ، ويتضح من هذا الجدول كذلك ذلك الجدل بين القاموس اللغوي في دلالاته والوعي الاجتماعي وتطور الوعي لدى شخوص الرواية .

Pauvre pitoyable فقير يرثى لـه	Pauvre INDIGENT فقير /أهلي	Riche غني	Lisere بـوس	Maigre نحيف	Luxe زاهية	Pitoyable يرثى لـه	Malheureux بئيـس
10	15	15	15	22	14	70	39
12	17	15	18	62	17	86	26
20	17	17	22	70	53	87	68
25	13	17	51	72	96	122	85
43	13	17	68	120	127		110
59	13	18	89				116
57	13	18	100				120
70	13	18	101				121
80	13	18	110				
83	25	18	130				
85	33	18					
87	116	21					
88	116	61					
92	121	63					
100		68					
102		69					
108		72					
123		116					
129		120					
موت الغالتين الحاملتين في الفخار والصون (80–88)؛ بعد أن تم تقسيم البيت وممتلكاته بين الأخوين (57–129)	المنحة والدراسة	الدراسة + تقسيم	بعد التقسيم				الدراسة؛ التقسيم

ملاحظـــة :

الارقام العمودية تشير الى رقم الصفحات في الأصل الفرنسي .

رغم ذلك الطرح الذي اغرق الرواية عامة في يوميات الفلاحين الفقـــــراء بمعاناتها وبوسها وحلمها المعاصر من كل جهة ، الا ان السببية الاجتماعيـــة ــ السياسية تختفي خلف " الطرح " الاثنوغرافي " الوصفي الذي يطبع الرواية . اذ لم يرد ذكر الاستعمار ولا " فرنسا " او ما يدل على ذلك من قريب او بعيـــد . حتى الصفحة (١٣٨) ــ اي نهاية الرواية ــ ، وحتى هذا الذكر لا يحمـــل اي دلالة سياسية .

" كان الامتحان قد جرى في " فورناسيونال" على بعد حوالي عشرين كلمتر من القرية ، في مدينة حقيقية ، فيها كثير من الفرنسيين واماني الكبيرة ، والشـوارع والعجلات الجميلة والسيارات التي تجري وحدها " (٢٦)

ينطبق على فرعون في " ابن الفقير " ما قال لوسيان غولدمان على بعض الفنانين :

" من الممكن ان يكون السّباق او الرّسام لا يدرك تركيبات بنيته الجسمية والنفسية التي تخوله الانتصارات ، شأنه شأن الكاتب الذي لا يعي تماما ميكانيزمات ابداعه .. (٢٧) لكنه يحقق ادبا راقيا ، يأتي ذلك من صدق المعاناة ، ودربـــة الكتابة والموهبة التي قال عنها لينين :

" علينا ان نثق في الموهبة لانها نافذة البصر " (٢٨)

من هذا الموقع كان فرعون يبني القلعة الخفية ، قلعة روح الشعب (٢٩) فبدا رساما ماهرا للعواطف : الحب ، الكراهية ، الغيرة ، الحقد ، الاخذ بالثأر ، الشرف ... الخ وكلها عواطف يفرزها في الاخير واقع اجتماعي محدّد .

يقول الخطيبي :

ان هذه الرواية الواقعية تدهشنا اليوم بشفافيتها وبمظهرها البسيـــط المسرف بعض الشيء في التعقّل ، والمائل كثيرا الى التهوين من الذات وتدهشنا كذلك شخصياتها المتهدمة التي تتحرك في عالم مقفل ، محدّد الملامح ، سيد لكـل

شيء موضعه ، وهي قصة تنوء تحت عبء كبير من الرحمة والطيبوبة " (٣٠)

ان صدق فرعون وطيبوبته من جهة ، وسقوطه ضحية الايديولوجيا " الانسانية " الفرنسية (٣١) التي عرفت بها مدرسة الجزائر ، حتى داخل جناحها الاكثر يسارية (البير كامو) من جهة ثانية ، هو الذي خلق منه ذلك الكاتب الفاسد والمتردد والقدري ، وهو الامر نفسه الذي جعله يقف موقفا حياديا في الصراع السياسي والايديولوجي والفكري الذي كان سائدا في الخمسينات في ظل قصة نضوج الحركة الوطنية الجزائرية ، ففي الوقت الذي يعترف بأن الطلاق بين الجزائر وفرنسا هو مطلب الوطنيين ، يرى ان هذا المطلب مأسوي وضروري (٣٢) في الوقت نفسه .

وداخل هذه الدوامة من التذبذبات والتمزقات استطاع صدق الكاتب الفني ، وطيبوبته تعرية " حالات " من واقع يرزح تحت عبء الفقر والجهل والموت المجاني ، وفي انغلاق هذا الواقع على نفسه في ظل تلك المرحلة التاريخية ، كان يبني حول نفسه جدارا من اسمنت ضد تيار الذوبان والتذويب الذي كان المجتمع الجزائري ضحيته ، وان هذه الدرجة العالية من المعاناة ، سوف تسفر دون شك - برغم قدرية الكاتب نفسه - عن تجريب طريق جديد لمواجهة هذا الموت المجاني ، ولن يكون هذا الطريق سوى الحرب المسلحة ، وان لم يصرح بذلك علانية ، فان كتابة هذا كان متقدما اكثر منه ، او على وجه التدقيق بدا المجتمع الذي يكتب عنه اكثر تقدما واكثر غنى وتعقيدا من رؤية الكاتب نفسه ، ففي حالة فرعون يثور المؤلف على المؤلف ويسبق موقفه السياسي وربما لم يع الكاتب ابعاد روايته وذلك الوعي السياسي الذي تناقض وموقف الكاتب المتردد (ظاهريا على الاقل) اذ ان مولود فرعون لم يصل على المستوى السياسي الى الاقتناع بالحرب المسلحة ، الا متأخرا ، اي في " يومياته " (٣٣) .

ان الصدق الفني الذي كان يحكم دعائم (ابن الفقير) وجمع اعمال فرعون الاخرى ، باعتباره بصيرة نافذة ، قد اسس - رغما عن الكاتب نفسه - شخصية مضادة

ل " الآخر " الفرنسي ، داخل قدريتها وجهلها وفقرها وحلمها ونضالها اليومي ضد المتنوع ، وبذلك تأسست شخصية نموذجية ل (الأنا) تقاتل ل (الآخر) .

ولما كان فرعون مؤمنا " بالحوار " وتزويج الثقافة القبائلية بالفرنسية ، وتشبعه بأيديولوجية مدرسة الجزائر الفرنسية ادبيا وسياسيا ، جعله يحجم عن ذكر المستعمر حرفيا ، وما يسببه من مأساة لشعبه وقريته " تيزي هيبل " نفسها فأكتفى الكاتب بعرض نتائج مزرية ، دون ان يصرح بشكل صريح مقدمات هذه المأساة واسبابها الذي ما هي الا الأخير الآ الرأسمالية الكولونيالية العنصرية بخلاف ما فعله مولود معمري ، الذي وجدناه منذ الصفحات الاولى لروايته " سبات العادل (LE SOMMEIL DU JUSTE) يكشف اطراف معادلة الصراع الاجتماعي والسياسي ، اي الاهالي (البربر) من جهة والادارة الفرنسية ومن خلفها البورجوازية الكولونيالية الزراعية واعوانها من البورجوازية الجزائرية . من جهة اخرى

ان قوة " ابن الفقير " التي تنتهي الى الاسلوب (الاتنوغرافي " تكمن في كونها خلقت قطيعة مع الآخر ، الذي انتفى الحديث عنه ، واكدت ـ وهي تعرض المأساة الشاملة لهذا الشعب ممثلا في " تيزي هيبل " دون ان تفصح بذلك ـ لا جدوى الحوار والمزاوجة ، التي يؤمن بها الكاتب ، وان هذا الحوار والمزاوجة ليسا سوى حلقة اخرى من حلقات الايديولوجيا الكولونيالية في قشرتها " الانسانية " التي تلبسها لحظة عجزها امام تصاعد تيار الايديولوجيا الوطنية الجارف .

تكشف " ابن الفقير " من خلال اسلوبها (الاتنوغرافي) . الحركة الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية والقيم الحضارية والنشاطات المعيشية (الفلاحية ـ العمالية والحرفية) في حركتها اليومية . داخل قرية " تيزي هيبل " الفقيرة التي تشبه " عمودا فقريا جبارا لحيوان منقرض من حيوانات ما قبل التاريخ " (٣٤) وعن طريق

هذا الاسلوب الهادئ والوصفي العفوي يكشف الكاتب ذلك التلاحم وتلك القرابة الدموية بين اهالي القرية في جميعها ، هذا التلاحم هو شكل من اشكال الانتماء الاجتماعي والحضاري والوطني .

" يبدو ان اسلافنا تجمعوا بحكم الضرورة ، فقد تألموا اشد الالم من الانفراد ، حتى قدروا فائدة التضامن — متحدين — حق قدرها . . . (حتى) اصبح تاريخ القرية اليوم اشبه بتاريخ شخص واحد ، ليس هناك طوائف ممتازة ، ولا اسر تستأثر بالقاب النبالة ، ان لدينا عددا كبيرا من القصائد التي تتغنى بابطال مشتركين ، ابطال في دهاء " أو ليس " واعتدادا " طرطوان " وهزال " دون كيشوط " (٣٥)

وتعرض الرواية عبر يوميات العطل ، الحياة القبائلية في جزئياتها وفضائها واشكال المواجهة التي يتعبأ بها هؤلاء الاهالي ضدّ الحاجة والفقر والموت والمرض : من صناعة الفخار (٣٦) الى صناعة الصوف (٣٧) الى نفض الزيتون (٣٨) وحياة العمال المياومين في المعصرة (٣٩) فتأتي الرواية شبيهة بنشيد المأساة الطويل .

وعبر بناء " ذاكراتي " (اي الاعتماد على الذاكرة) :

" وفي شريط ذكرياتي يتبع ذلك المشهد ، المشهد التالي مباشرة . . " (٤٠)

ان ذكريات الطفولة تنقصها الدقة والترابط : المرء يحفظ بعض الصور المؤثرة . . الحكم مثلا مشهدا ما ازال اراه بوضوح شديد " (٤١)

" تدين الرواية الموت المجاني الذي يجيء من انعدام مرافق الحياة الضرورية (المستشفيات المواصلات) : موت " نانة " في اثناء المخاض (٤٢) الانهيارات العصبية التي تولدها هذه الظروف المأساوية (٤٣) ، وهي من وراء ذلك تشير الى الادارة الاستعمارية واهمالها الواقع الصحي للاهالي ، برغم ادعائها المتكررة بانها هي التي تقوم على حماية الاهالي

وتتضمن " ابن الفقير " حلا ، كثيرا ما كان يبدو داخل بلاد القبائل ، وفي الجزائر كلها حلا لازمة الخبز ومخرجا للفقر والبؤس ، انها " الهجرة الى " فرنسا "

" غادر رمضان قريته ليذهب الى فرنسا فيشتغل هناك تاركا اسرته في كفالة اخيه ،وكان هذا السبيل النهائي والامل الاخير والحل الوحيد " (٤٤)

فاذا كان " حاج علال " بطل رواية " ادريس " لعلي الحمامي يهجر البلاد ، نحو الشرق من اجل تخمة ثقافية ،وهمّ سياحي ووازع ديني ،وكانت رحلة " ابراهيم " بطل " لبيك " في الاتجاه نفسه ومن اجل حج يغسل عنه ذنوب الخمرة ،ويفضـــل البقاء هناك ليموت عند قبر النبي تاركا بلاده تموت جوعا واضطهادا بين فكي كلابة الرأسمال الكولونيالي ،فان " رمضان " ابا فورولو يهاجر هذه المرة نحو " الغـــرب" ليس من اجل اشباع رغبة دينية (كما هي عند " الحاج علال " .. و (الحاج ابراهيم" ولا من اجل نزعة سياحية ومغامرات عاطفية مع الفرنسيات الجميلات الشقـــراوات ، كما هي الحال عند ابطال مالك حداد ،بل من اجل توفير لقمة خبز للافواه المفتوحـة في تيزى هيبل " .

لكن طاحونة الرأسمال الميتروبولي ،تتسلم هؤلاء الاهالي عمالا بشرا ،اقوياء كالاسوار ،ثمّ تمتصهم وترمي بهم خارج مصانعها ومناجمها وافرانها يبصقون الـــدم او تلتهم منهم اضافة الى قوة العمل ،بعضا من اعضائهم الجسدية ،فيعودون ،وقـد تركوا يدا او قدما او خمسة اصابع .. او رئة .. خلف البحر . وكعادة فرعون وهـــو يطرح هذه الموضوعة (الهجرة) لا يستعمل الانشاء السياسي . انما يحيل كتاباته الى الخطاب الوصفي المفعم بالشحنات النفسية والعواطف الجياشة .

كان ابوه في مثل هذا الوضع تماما ،وهو يستطيع ان يتخيل ارتباكه حين يشترى اشياءه ،وحين يبحث عن عمل ،او حين يصدر اليه رئيس العمال احد الاوامر ،كـــان يستطيع ان يتخيله نائما في المترو او في التاريخ .. (٤٥) .

كان رمضان (الاب) يعمل في مستنقعات " اوبرفيل " عملا مستمرا ،كما يعمل في حقله في بلاد القبائل ،وكان يعمل عدا الساعات الاضافية كل ايام الاسبوع ،حتى ايام الآحاد ،وفي يوم من ايام الآحاد رمت به الى الحائط احدى العجلات المدفوعة على خـط حديدي .. " (٤٦)

" وقد اشيع انهم بتروا ساقة ، وربما ساقيه ، وزعم بعضهم انه اصبح اعمى وقال غيرهم اخيرا انه مات . ." (٤٧) .

بهذه الشحنات يختصر مولود فرعون في " ابن الفقير " تجربة النبقة العاملة الجزائرية مع الرأسمال المتروبولي ، ومعاناتها الامرين : الاضطهاد الطبقي والاضطهاد البوليسي العنصري .

لقد خرجت الكتابة " الاتنوغرافية " عند فرعون من سطحيتها لتدخل اغوار المجتمع ، ولتكون شاهدا على عصرها ومجتمعها (٤٨) انه الكاتب الحائر سياسيا هو نفسه الكاتب الفنان الذي امسك مجتمعه من دقات قلبه ، بذلك الهدوء الذي يشبه على حد المثل الشعبي ، " النار تحت التبن " ، انه هدوء مشوب بالخطر ، يخفي تحته اشياء كثيرة حارة ، ليست حرارة ادريس الشرايبي في رواية " LES BOUCS " (التيوس) (٤٩) أو صخب مراد بوربون في رواية (LE MUEZZIN) المؤذن (٥٠) — فحرارة هذين الاخيرين قائمة على العنف والتصريح والقاموس السياسي ، والعقائدي المكشوف .

ان الاغريق والعرب والمغاربة القدامى ، لم يكونوا دائما واعين بانهم ينتجون فنا ، ففي المجتمعات القديمة وحتى بعض المعاصرة ، يحمل الشيء المصنوع قبل كل شيء طابعه وبعده الوطني ، اي انه يؤدي عملا فوريا ومحددا مثل صناعة الفخار ، والى هذا الشيء الضروري الوظيفي ، تضاف بعض التزويقات (٥١) ، فهكذا تبدو رواية " ابن الفقير " ، عملا يريد ان يؤدي وظيفة هامة ، هي كتابة " الأنا " المفجوعة في صراعها مع الطبيعة القاحلة ، والفقر والجهل ، وتبدو المدرسة هي الخلاص الاولي من هذا الحصار والموت البطيء .

كتب مولود فرعون الى احد الباحثين الامريكيين الذين كانوا يحضرون اطروحة حول " الرواية " في الشمال الافريقي " قائلا :

" ان رغبتنا في الكتابة ، جاءت من اصرارنا على التعريف بمجتمعنا وتقديم حقيقة عنه (. .) وفي النهاية ، فمن يرغبون في تقديم هذه الحقيقة لن يقدموا سوى انفسهم " (٥٢)

لما كانت اطراف الصراع في " ابن الفقير " غير مميزة ، خاصة " الطرف الاستعماري" ، بدا لنا وكأن هؤلاء الاهالي يصارعون القدر او قوى خرافية ، لكن الحقيقة هي ان هذا القدر ، هي الوجه الخرافي في النهاية ما هي الا الرأسمالية الكولونياليـــة التي تشدّ على خناق هؤلاء الفلاحين البسطاء .

اذا كان مولود فرعون ، غير مقتنع بعمله الروائي هذا ، حين علّق عليه بقوله :

" في هذا الكتاب لست مرتاحا لا مع ضميري ولا مع اصدقائي ، ولا مع الجمهـــور فعلينا ان ننجز احسن من ذلك في المرة القادمة " (٥٣) .

اذن ماذا قدم فرعون في هذه " المرة القادمة " (? .

قبل ان يلفظ الكاتب روحه الطيبة والبسيطة تحت زخات رصاص كوموندوس المنظمة المسلحة السرية الارهابية (O. A.S) بتاريخ ١٥ مارس ١٩٦٢ ، ليضاف اسمـــه الى قائمة شهداء الثورة من الادباء : احمد رضا حوحو والربيع بوشامة ومحمــــد الامين العمودي ، وعبد الرحمن المنوف ، كان قد خلّف لنا اضافة الى " ابن الفقير " ثنائية روائية هي ، الارض والدم (LA TERRE ET LE SANG) و " الـــــدروب الصاعدة (LES CHEMINS QUI MONTENT) (٥٤)

في الجزء الاول من هذه الثنائية ، اي (الارض والدم يستجيب عامر او قاسي " لنداء الارض القبائلية ، ليعود اليها بعد ان قضى عشر سنوات بعيدا عنها مدفونـــا في خنادق المناجم ومستنقعات الميترو خادما للرأسمال الفرنسي (٥٥) يعود اليهـــا حاملا حنينه الى الارض والاهالي . (٥٦) رفقة زوجة فرنسية هي " مارية " التي تعود الى اب غامض ، قد يكون " رباح اوحموش ، عم عامر ، ذلك الذي قضى هو الآخر عشر سنـــوات في فرنسا قبل ان يلتحق به عامر " ٥٧) ، بمقتل العم ، رباح اوحموش " في ظـــروف غامضة ، فيتهم " عامر " بقتله ، او قد تكون ابنة اندرية البولوني ، لان امها الفرنسيـــة كذلك كانت على علاقة مع رباح واندرية في بعض الوقت . اذن منذ البداية بدا اصـــل " مارية " غامضا ، وقد عادة فرعون تلعب الاقدار والصدف في حياة الشخصيـــــات دورا كبيرا ، كما هي في الروايات الرومانتية ، يبدأ عامر علاقته بالطفلة " مارية " بعد وفاة عمه ولكن ظروف الحرب العالمية الاولى التي اخذته بعيدا عن " مارية " سنوات ،

مجندا في صفوف القوات الفرنسية ضد القوات الالمانية (٥٨) فرقت بينهما ، وحين تنتهي الحرب يعود عامر الى " باريس " وتبدو وكأن الرواية ستأخذ مجرى آخـــرا لكن الصدفة مرة اخرى تجمع بين " عامر " و " مارية " في نفس الفندق الذي يسكنه والذي يعود الى امرأة هي صديقة حميمة لـ " ايفون " . ام " مارية " !.

تسافر مارية " صحبة عامر بعد ان يتزوجا الى " الجزائر " ليستقرا في " ايغيل نزمان" ولتعيش فترة طويلة يسودها سوء التفاهم مع نساء الاهالي الريفيات الفلاحـــات المتسكات بعاداتهن القبائلية ، واللواتي لا يتكلمن سوى لغتهن القبائلية .

" اننا نعرف مسبقا ما تعنيه امرأة فرنسية ، ان لها قنارها الخاص بها فـــي الحيـــاة " (٥٩) .

ولكن سوء التفاهم ما يلبث ان يزول لتبدأ حلقة جديدة ، ومرحلة اخرى ."

" ويمضي الوقت ، واذ بها تشرع في التفاهم اكثر فأكثر " (٦٠)

وتدمج الرومية داخل الحياة اليومية لتصبح واحدة من هؤلاء الاهالي ، تعاني ما يعانونه ، ولكن عامر (الزوج) يبدأ مغامرة عاطفية جديدة مع" شبحة " زوجــــة سليمان ، وهي ابنة عمه ، وتبدأ هذه العلاقة في صمت ، ثم ما تلبث ان تشرع في كل القرية ، فللحب رائحة خاصة وقوية . ، وتبدأ الالسن في لوك احاديث عـــن هذه العلاقة ، عند النبع ، وفي الشارع .. الخ وبرغم ذلك فسليمان زوج شبحة لا يصدق في البداية . حتى يفاجؤها ذات مساء في جلسة غزل خلف كومة من الحجارة ، فيعتـــزم سليمان قتل عامر " لكنه يتراجع عن قراره ، في آخر لحظة ، وفي اليوم التالي تأتي الكارثة التي يذهب ضحيتها العاشق والزوج ، حين ينهار عليهما المقلع الذي يشتغلان فيه ، وينتهي الجزء الاول هاهنا ، بموت عامر او قاسي مخلفا زوجته " مارية " حاملا .

في الجزء الثاني " الدروب الصاعدة " البطل الرئيسي هو ابن عامر ، الذي يسمى هـــو الآخر عامر " واذ هو الآخر قد قضى اربعة اعوام في فرنسا ، وحين عاد الى قريتـــه " ايغيل نزمان " احب ابنة عمه " ذهبية " اليتيمة التي اعتنقت المسيحية من خلال الدملة

التبشيرية التي جندت لها اسرات كبيرة من الآباء البيض" الذين ركّزوا على المناطق الفقيرة وعلى بلاد القبائل بشكل خاص، وعلى الرغم من حبّ" ذهبية " لعامر ، فانها تستسلم ذات يوم للشاب مقران لمقر بكارتها ، ويبدأ الصراع المطبوع بالحقد والكراهية بين الشابين لينتهي في الاخير بمقتل عامر من قبل مقران .

هذا هو الاطار العام لاحداث ثنائية مولود فرعون الروائية لكن ماذا قدم لنا الكاتب من خلال هذا العمل ؟ .

ففي الجزء الاول كما يبدو من بعض اشارات نادرة عن شخصيات روائيـــــة ، فترة تاريخية مهمة ، من تاريخ الجزائر المعاصر ، فأحداثها تدور في عشرينات هـــذا القرن ، اي في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الاولى حتى الثلاثينات ، فهـي تغطي زمنيا الفترة الممتدة ما بين ١٩١٠ (حتى ١٩٣٠) (٦١) .

وتمّد هذه الفترة غنية سياسيا لعدة عوامل : اولها ، كانت المستعمرة كلها تستعد للاحتفال الكبير الذي خلّد ذكرى مرور قرن على دخول الاستعمار (١٨٣٠—١٩٣٠) ثانيها : ان الحركة الوطنية الجزائرية بدأت مرحلة تنظيمها العصري الجديد في اشكال احزاب سياسية وطنية ثورية او اصلاحية ، شكل المثقفون هيئاتهم وتنظيماتهم السياسيـــة منذ ١٩٢٠ ، وشكل الوطنيون حزبهم في "نجم شمال افريقيا" عام ١٩٢٧ ، وشكل الاصلاحيون تنظيمهم "جمعية العلماء المسلمين" .. عام ١٩٣١ واستقل الشيوعيون الجزائريـــون عن الفرنسيين في تنظيمهم الخاص العام ١٩٣٥ .. اذ في هذه العلامـــــات التاريخية البارزة تكمن قوة المرحلة سياسيا على الاقل . اذ من هنا بدأت النهضة الوطنية الحقيقية والواقعية الا ان " ثنائية " فرعون هربت من القول السياسي ، وانحـــازت الى القول الاجتماعي والسيكولوجي المفصم في كثير من المرات (بالصدفة) او القدرية) ومشبعة بنفحة الحزن والمأساة التي تقترب الى حدّ ما من بأحزان ذلك العالـــم الرومانتي في (مدام بوفاري " لغوستاف فلوبير ، حتى تبدو (الثنائية " وخاصة في جزئها الاول متأثرة بمدام بوفاري ، في حياة د سائر الحب وخداع الزوج .. الخ .

وفي هذه المرة كانت (الثنائية) تخرج من " ايغيل نزمان " الى تيزي وزو ، لتعود اليها في نهاية الرواية ، ومن خلال هذا التنقل بين الداخل والخارج ، كان الكاتب يضع يده على مسائل هامة في طبيعة البناء الاجتماعي والقوى السياسية التي كانت تشغل الساحة الوطنية .

فمن الموضوعات التي تثير الانتباه داخل الثنائية نجد تلك العودة مرة اخرى الى الحديث عن الطبقة الجزائرية المهاجرة الى فرنسا ، وظروف معيشتها الصعبة ، تلك الظروف اللاانسانية ، وتلك المعاملات العنصرية التي يقابل بها العمال هناك :

" لترحل الى بلادك ايها البيكو (٦٢)

فعلى ارض فرنسا نفسها نمت الحركة الوطنية الجزائرية ، وبين احضان العمال الجزائريين المهاجرين ، ومنهم ومن اجلهم تكونت اغلب الاحزاب الوطنية الثورية (نجم شمال افريقيا – حزب الشعب . . الخ) ، فداخل هذا القطاع البشري والسياسي الجزائري ، تريد الرواية تمرير مرحلتها ، فتكشف ذلك الفرن الرأسمالي الذي تشوى فيه عباد الله من الاهالي ، وتلك الخنادق التي يدفنون فيها احياء ، فاذا بعامر في " الارض والدم " يكتشف ذلك شيئا فشيئا ، منذ ان نزل بمحطة ليون بباريس حتى وصوله الى مناجم الشمال ، حين يفاجأ بعمال كثيرين من ابناء البلد ، اغلبهم من اصول فلاحية ، هجروا تلك الارض القاحلة الجدباء ، بعد ان جف ضرعها ولم يعد يكفي مردودها الافواه الجائعة ، وبعد ان صادر المعمرون اخصب الاراضي في سهولها (المتيجة) (٦٣) فلم يجدوا من معين لهم على العيش وما سوى الموت في الخنادق المنجمية ، وها هنا تفقد كل ظروف العمل الانسانية ، ويتحول الانسان الى آلة او دابة (حصان) يعوض بواحد اقوى كلما عجز الاول ، وما اكثرهم . . وقد نجحت الثنائية في جزئها الاول " الارض والدم " ، حين عرضت حالة " رابح اوحموش " لحظة سحقته عربة النقل في احشاء الارض ، ومتى بعثت ليعوض في اليوم التالي بانسان آخر فالبطالة مستشرية في كل مكان .

ولقد كانت تلك النغمة الحزينة المبطنة بغضب جامح وصامت ومؤثرة وصادقة ، وغضب فرعون ليس كغضب " ادريس شرايبي حين عرض حالة العمال المهاجرين من الشمال ــ افريقيين الى فرنسا في روايته " التيوس " (٦٤)

" ان الكاتب استطاع ان يدخل الى عمق المأساة النفسية والسيقية لهؤلاء العمال المهاجرين ، حتى نشعر وكأن الكاتب عاشها او عاشها احد اقاربه فتقمصها بموهبته " (٦٥)

" الحكاية التالية حقيقية ، حدثت وقائعها في احدى اركان بـــــلاد القبائل " (٦٦) .

. . الا ان هؤلاء العمال بدأوا يبتعدون عن النهضة الوطنية المنظمة في احزاب وطنية جزائرية داخل فرنسا ، فبدت مأساتهم باطار نفسي ، واجتماعي ، لكن دون اطار سياسي .

وتبدو " الارض والدم " في موقفها من مأساة عمال المناجم من خلال وصفها لظروف العمل ومعاناة العمال ، قريبة من نفس " جيرمينال " لاميل زولا وفضائلها ان كانت رواية زولا اكثر حدة ووضوحا في موقفها السياسي .

وبرغم قحط ارض الاجداد وجدبها ، فانها تبقى لدى القبائلي العظيـــــم ، عظيمة ، وهي تظل سلطتها السحرية عليه ، فمهما طال غيابه وتيهانه في اراضـــي الغير ، فانها ستناديه ذات يوم ، وسيعود اليها لتحتضنه ، فعامر يترك فرنسا بعد طول غياب .

" ليستجيب لنداء ارضه الخفي :

" اننا نغادرها ثم نعود اليها . . . انها تحب اطفالها ، فعندما ينسونهـــا طويلا تذكرهم . هذه الارض تحب وتهب في السر ، انها تتعرف بسرعة على ذويهـــا اولئك الذين وجدوا من اجلها ووجدت هي لهم . . .

فسأدعكم ان تكتشفوا جمالها ، فتحبوها " (٦٧) .

وقد نبه جان عموروش في المقدمة التي كتبها لديوان " اناشيد بربرية (٦٨) الى ذلك التلاحم الموجود بين الفلاح القبائلي والارض ، فهو يريد ان يموت ويدفن في ارضه ، ومأساة الخوف من الموت خارج ارضه تعذب القبائلي باستمرار ، وقد انعكست ذلك عند معمري . فالارض مرتبطة بالاجداد ومكللة بدمهم ، فحتى عندما مات " رابح " في خنادق مناجم الشمال ، فان الاهالي شاهدوا دمه يعود في (مارية) التي قد تكون ابنته ؟

لقد عاد دم رابح في دم ابنته ، نعم انه عاد الى ارضه ، الارض والدم ، عنصران اساسيان في مصير كل واحد (٦٩)

وتعرض الرواية بصدق ذلك الالتحام بين الانسان والارض (٧٠) ويرتبط الشرف بشيئين اساسيين في فكر الانسان القبائلي : الارض والمرأة ، وهذا ليس عند القبائل وحدهم ، بل وجدناها كذلك عند ديب في الثلاثية (٧١) فاهمال كليهما او احدهما هو خرق كبير للشرف ومس بدم الاجداد ، وان هذا التلاحم بين الانسان والارض / القبر / الجنة ، في " ثنائية " فرعون يذكرنا برواية (الفلاح) لعبد الرحمن الشرقاوي وبرجال في الشمس لغسان كنفاني (٧٢)

" هناك اشارات لا تخدع ، جلية ، واضحة ، ولكن لا يمكن تفسيرها من ذلك : الاتفاق بين الناس والارض ، كان عامر يحس بهذا الاتفاق الكامل ، " ان ارضنا متواضعة ." (٧٣

ويمتاز الخطاب الفرعوني (نسبة الى مولود فرعون) عن الارض بتحليق صوفي ، فاذا الارض تتزين وتحب وترفض وتغضب وترضى وتنتشي بما في دواخلها ، شأنها الانسان ، انه التوحد الانساني في اقصى مراتبه .

واذا كان غلاخر بني بوبلان في ثلاثية ديب سيسيين وثائرين ، فان فلاحي " ابطال نزمان " صامتون بثورة وثائرون بصمت عميق ، تكشفه الحركة واحتدام العواطف اكثر ما تبرره اللغة او الخطاب السياسي المؤدلج لقد استطاع فرعون على حد تعبير رولان بارت — أن يشكل ايقاعا مكتوبا خالقا لنوع من التعزيم ، يستطيع بعيدا عن الفصاحة عن معايير المتحدث بها ان يلمس الحاسة السادسة ادبية محضة (٧٤)

وفي الدروب الصاعدة " (الجزء الثاني) حاول الكاتب ، بخطاب مطن كعادته
أن تعرية سياسة " التمسيح " ليس من موقف ديني معادي للمسيحية ، بل ما كانت
يحمله هذا " التبشير الديني السياسي من حمولة ايديولوجية استعمارية خطيرة .
وهي موضوعة سياسية هامة لم يتناولها أي كاتب آخر ، رغم اهميتها ، خاصة بالنسبة
لبعض الكتاب الذين ينتمون الى مناطق تعرضت بالفعل ، وبكل شراسة الى هذا
التبشير السياسي المغلف بالدين المسيحي . وقد كانت بلاد القبائل (البربر)
أكثر المناطق تعرضا ، لذلك الاعتقاد بعض منظري الاستعمار الى ان البربر يرتبطون
بالاسلام ظاهريا فقط (٧٥) وهذه خطوة لضرب الاسلام كما فسرها بعض
المؤرخين الحرب البورجوازيين ، ولكن لتقسيم البلاد واضعاف المقاومة الشعبية ،
ولقد كان " الظهير البربري " الذي صدر في ١٩٣٠ بالمغرب حقيقة سياسية
اثبتت ذلك ، وفي الجزائر ، وفي منطقة القبائل كانت توزع الاناجيل مترجمة الى البربرية
ولقد استغلت الحملات " التبشيرية هذه سياسيا من قبل " الاكاديمية الفرنسية
للعلوم الاستعمارية " فكانت توجه خصيصا الى المناطق الفقيرة ، وانشئت لذلك
محتشدات ومعسكرات للاطفال تحت رعاية " الكاردينال لافيجري " ، يتم فيها تنشئة
الاطفال حسب ما يخدم مستقبل الاستعمار ، وان تلك الاقلية التي اعتنقت المسيحية
لم يكن ايمانا برسالتها ، ولكن كان ذلك من اجل درء شبح الموت والجوع .
" اكثر منهم اعتنقوا المسيحية من اجل غرض في انفسهم ، بل الاغراض المادية
هي التي دفعت بهم جميعا في البداية لاعتناق المسيحية " (٧٦)
ان " التنصير " لم يكن في مرحلة من مراحله يعادي " الاسلام " سياسيا لان
اغلب رجال الدين المسلمين (الزوايا والطرقية) اصبحوا يؤدون دورا سياسيا هاما
للادارة الاستعمارية ، ولذا التقى " لافيجري " و " جمعية علماء السنة و " الطيبوبة "
في هدف سياسي واحد هو خدمة الاستعمار ، ولكن – وكما تبين الدروب الصاعدة –
كان التنصير وكذا كان حسن جمعية العلماء المسلمين الذين كفّروا ابن باديس لانه

شكل جبهة مع الشيوعيين ، تحمل معاداة للفكر الشيوعي ، باعتباره منهج عمل بالنسبة لهذه الطبقات الفقيرة التي مسها التنصير ، والتي دجنتها الطرقية الاسلامية ولان الشيوعيين ـ كما يقول محفوظ قداش ، كانت ترفع منذ البداية برنامجا معاديا للاستغلال ، هذا البرنامج الذي تحول في السنوات التي كانت الرأسمالية المتروبولية والرأسمالية الكولونيالية تستعدان للاحتفال بالذكرى المئوية على استعمار الجزائر ، الى برنامج ونهج تحريري ، يدعو الى الاستقلال ، ورفع القمع عن الطبقات الشعبية وعن مجمل الاهالي الذين حوصروا بأوهام الايديولوجيا الكولونيالية .

و " الدروب الصاعدة " تتناول الجزائر داخل هذه الحقبة التاريخية الاجتماعية السياسية) (اي الثلاثينات وما بعدها) ، ولذا فقد ركزت على ما كان الفكر الوطني الذي يمثله الشيوعيون من خطر على الاستعمار .

" ليته كان مسيحيا ، اذن لسمع الاب دوبوا يتحدث عن كل هذه الامور التي هي فوق مستوانا ، وقد شرح لنا لماذا كانت فوق مستوانا ، وحذرنا من الشيوعية وقال لنا : ان الفقير هو المسؤول عن فقره واكد ان الله سيعوضنا في الاخرة ما فاتنا من الرزق في هذه الدنيا " (٧٧) .

لقد بدأت الدروب الصاعدة " تسمي الاشياء بأسمائها ، وبدأت تلمس الواقع واثارة الصراع الاجتماعي ـ السياسي فيه ، فبدت اقل عفوية من " ابن الفقير " وحتى من " الارض والدم " واعية مهمتها ومسؤوليتها التي تحملها ، مسؤولية اعلان القطيعة ونهاية الحوار الحضاري والثقافي بين الجزائر وفرنسا الذي آمن به الكاتب ممثلا في تلك القطيعة والنفور الاجتماعي والنفسي بين الاهالي والفرنسيين ، برغم ذلك التذبذب الذي لم تتخلص منه الرواية ، وهو انعكاس لبقايا " الانسانية الاخوية HUMANISME-FRATERNEL التي آمن بها مولود فرعون ، نبذ العنف والموت .

" اني اعتقد ـ ملمحا الى بعض اصدقائه ـ انهم يشجبون العنف ، ولكنهم يلتزمون الصمت ، وهي نفس الطريقة التي شجبت بها أنا الآخر ، هذا العنف

اذ لم اجد شيئا آخر اقوم به غير الصمت .." (٧٨)

لكن صمت فرعون كان على المستوى السياسي المباشر ،اما داخل النص الروائي فقد تكلم النص بطريقته الخاصة .

" وضحكت في قرارة نفسي ممن كانوا على ظهر الباخرة من ابناء المصريين وبناتهم انهم يتصورون بعد ان قضوا عطلة الصيف في فرنسا انهم الآن عائدون الى بلادهم ورأيتهم يتباهون في غرفهم الفاخرة ،وفي قاعات الاستقبال وفوق السطح المحجوز لركاب الدرجة الاولى ،فسخرت منهم وقلت في نفسي .. "انتم مخطئون ياسادة ،فالبلاد التي تتوجهون اليها ليست بلادكم " وحينما رأيت قمم جبال الجزيرة الشامخة ترسم في الصباح الباكر على الافق المحفوف بالضباب ،ولاحت مدينة الجزائر البيضاء كأنها جبل من الرخام ،غمرتني فرحة كبيرة واقشعر بدني من التأثر وقلت في نفسي "ما اجمل بلادي" وتذكرت في تلك اللحظة انني ،عند مغادرتي البلاد الى فرنسا ،وقبل رسو الباخرة في مرسيليا ،كنت محاذيا لاحد الفرنسيين المستوطنين بالجزائر فسمعته يقول لرفيقه وقد ظهرت عليه علامات الغبطة والسرور لمشاهدة فرنسا .

ها نحن قد وصلنا ياكريستيان ،وعما قليل سنضع اقدامنا فوق تربة فرنسا الطيبة .

وفكرت في نفسي وانا اغبطه ما اسعدك .. لك الحق ان تقول ان فرنسا هي بلادكم فادخلوها غانمين " (٧٦)

" الجمركي لم يفتح اية حقيبة من حقائب الفرنسيين بينما فتش حقائب الركاب العرب كلهم ،اما حقيبتي فقد سلمت من التفتيش، لان الجمركي حسبني فرنسيا وبالتالي لم يفعل فكأنه قد وجه لي بذلك مسبة . (٨٠)

لقد بدأ الصمت الذي ظل يلف الخطاب الروائي الفرعوني يتحول الى وضوح ،واخذت اللغة تخرج بالموضوعات من ذلك الهيجان الداخلي الى السطح وبدأ الضباب يتلاشى .

" لما وصلت الى قريتي وجدت ان امورا كثيرة قد جدّت فيها ، فقد مات قائد القبيلة وكان يتحكم في ما لا يقل عن عشرة من القرى ، كما توفي امين قريتنا ، لقد وجدت امور تدعو الى الاعتقاد بأن عهد الظلم قد انتهى ، اذ وقعت انتخابات واختار الناس بكل حرية اعضاء البلديات وشيوخها وتخلصت القرية من العملاء والجواسيس الذين كانوا رهن اشارة الحاكم الفرنسي .

ولكن بالاسف الشديد فان هي الا ايام حتى ادركنا ان الاسماء وحدها تتغير ، وان الذين يتناوبون على الحكم اصبحوا عملاء للاستعمار ، وجواسيس يتصرف فيهم الحاكم كما يشاء ، والغريب في الامر ان الحاكم شاب لا يكبرني في السن الا قليلا وقد تسلط على عباد الله واعمل فيهم القمع والارهاب ." (٨١)

وكما هي في " الارض والدم " فلا زال الوطن يملك سحره وجاذبيته على الذين يتركونه ، فهو يعتبرهم لا يساوون سوى حفنة من المحمرين الاجانب ، وهم بدونه لا يساوون سوى حقيبة سفر :

" كذلك الامر بالنسبة الى الرجال ، فمهما طافوا في الاقطار والبلدان ، فانهم دائما يعودون الى القرية ذات يوم . صدقني يا ولدي عامر ، صدقني اذا قلت لك ان جميع البلدان لا تعدل الوطن . . . بلاد الاجداد ومسرح الطفولة " ، فاذا وجد الانسان سائر الابواب مغلقة امامه فانه يقول في نفسه .

" مالي اقيم في هذه الديار ؟ أليس لي وطن ؟ (٨٢)

من خلال وضعية عامر ، كان مولود فرعون يرغب في رسم صورة لمناضل " شيوعي " وما كان هؤلاء الوطنيون يعانون منه في سبيل الحرية ، وتمثيلهم ذلك الدور الصدامي الواقعي مع السلطات الاستعمارية ، وادانتهم لذلك التمييز العنصري والطبقي المسلط على الاهالي (برغم ان ام عامر كانت فرنسية) ، وما كانوا يعانونه من ملاحقات بوليسية وما يلحق بهؤلاء المناضلين من تعذيب وتشريد في المنافي الصحراوية البعيدة .

" ما علاقتي انا بالمدرسة الثانوية ؟ لقد طردت منها بسبب سوء السلوك والعصيان ومطالعة الجرائد المحظورة ، وغير ذلك من الاسباب ، ثم صرت على رأس خلية شيوعية في ايفيا ، نزمان ، ودام الامر عدة سنوات " (٨٣)

" ولكن واحسرتاه . . . ان الجاسوس المجهول وشى بنا للسلطات بسبب التعصب الذي نقوم به واضطراب الحالة . وعلى اثر تلك الوشاية نفت السلطات اثنين منا الى الصحراء ، وتفرق شملنا كسرب من العصافير (٨٤)

ان بين (حميد سراج) الشخصية الشيوعية في الجزئين الاولين من ثلاثية ديب (الدار الكبيرة - الحريق) (٨٥) وعامر مسافة واسعة فقد استطاع ديب ان يرسم حميد سراج فاعلا ، وداخل الفعل ، وسط تلك القوى الاجتماعية (الفلاحين والعمال الزراعيين) المستجيبة وليلم و " ثقافة " هذا الرجل . وقد استطاع " حميد سراج " ان يقود اضرابا شاملا لفلاحي بني بوبلان ، وان يزرع بذرة الوعي العميق ، لينتهي في الاخير مثله مثل " بعض " مناضلي " فرعون " الى منافي الصحراء ومعتقلاتها التي لا يعودون منها ابدا ، اما شخصية عامر فهي مسكونة بذلك التذبذب البورجوازي الصغير ، والانسجام مع النفس ، الذي كان يسيطر على الكاتب نفسه ، ولذا بدا الغموض يلف الدور النهائي لهذه الشخصية ، وبدت في كثير من مواقفها هاربة نحو الامام ، وهي صفة البورجوازي الصغير ، خاصة في ما يخص موقفه من المرأة ، في ظل مجتمع ريفي زراعي متخلف ، ويعود جزء من اخفاق الكاتب (مولود فرعون) في رسم شخصية ثورية " شيوعية " الى انه لم يمارس النضال داخل هذه الاحزاب ، على العكس من ذلك فقد كان محمد ديب منتظما داخل الحزب الشيوعي وكان نقابيا زراعيا ، ولذا استطاع ان يحقق جزءا كبيرا من ملامح الشخصية الثورية في " حميد سراج " ثم في عكاشة " في الجزء الثالث من الثلاثية .

تكتسب الادب الروائي عند فرعون اهميته وقوته من تلك الشخصيات المحلية ، التي ترتبط ارتباطا وثيقا بمجتمعها الصغير ، والغارقة في تاريخ وحضارة بلادها بتقاليدها وعاداتها وقيمها .

لقد شكل فرعون بأزمته وقلقه وطموحه نهاية كل امل في "الحوار" الايديولوجي ، وبداية ايديولوجية "السلاح" ، وهو ما اعلنه في "يومياته" حاسما بذلك كل قلـــق ، وقد كان بحق (الرجل ـ الحدود ") (٨٦)

لم تثير اية اعمال ادبية نقاشات وحوارات سياسية ، مثلما اثارته اعمـــال .
مولود معمري الروائية ، فعند صدور اول رواية له وهي " الهضبة المنسية " (١)
(LA COLLINE OUBLIEE) ، دخل النقاش نقاد وادباء وباحثون ومؤرخـــون
وسياسيون ورجالات الحرب والصحفيون . فكتب محمد الشريف ساحلي مقالا عنيفـــا
ضد الرواية والروائي عنوانه " هضبة الافكار " (٢) معتبرا الهضبة المنسية لمولـــود
معمري لاعلاقة لها ابدا بالواقع الجزائري ، ذلك الواقع الذي يتهيأ لحرب تحريريـــة
شاملة ، كما إتهم الباحث الادبي والمؤرخ مصطفى الاشرف الرواية بنزعتها الاقليمية ،
وطغيان حب " الوطن الصغير " (القبائل) بدلا من الحب للوطن الكبير ورأى ان
الرواية تقوم على فضاء اثني (ETHNI GUE) خاطئ ، وانها مسلحة بوعـــي
متخلف عن العصر (LA CONSCIENCE ANACHONIQUE) ، وانها تستشعر القارئ
بغربة عن الوطن الذي شوهته وراء عالم مغلق في الاقليمية ، ذلك ـ حسب رأي الاشرف
ـ ان معمري ، بدلا من ان يبرز الجزائر في حالة صيرورة ، صور مجتمعها مغلقـــا ،
مشلولا تتآكله النزعات الداخلية . وبرغم ان المؤرخ محفوظ قداش رأى فيما في الروايـــة
تلك اللغة البسيطة ، وتلك المباشرة ، وصدق التجربة ، لكنه رفض تلك النغمة العامـة
التي تصدم ، الا انه ادان الكاتب بقسوة ، وقال صراحة بأنه ما دامت روايـــــة
" الهضبة المنسية " قد حظيت بقبول حسن في الصحافة الاستعمارية ، فمعنى ذلـك
انها سيئة بالنسبة للمستعمَر (بفتح الميم) ورأى فـي الاخير ان الرواية تخـــدم
القضية الاستعمارية (٣)

ان الامر الذي زاد الطين بلة ، ذلك المقال الذي كتبه احد ماريشالات فرنســـا ،
مبديا اعجابه بالرواية ومدحا فيها تلك الجرأة ، والامر الثاني الذي قصم ظهر البعير ـ
كما يقال ـ تلك الجائزة التي حصلت عليها الرواية ، وهي جائزة " اللجان الاربع " ،
التي كانت تمنحها صحيفة " صدى الجزائر " (L'ECHO D'ALGER) المعروفـــة
بنزعتها الليبرالية الاستعمارية . (٤)

حين وجد معمري نفسه داخل قفص الاتهام ، موجهة اليه اصابع التهمة الكبرى الخيانة الوطنية ، انبرى يرد على خصومه بنفسه ، موضحا بعض الالتباسات : فنفى وجود اية علاقة ، مهما كان محتواها وشكلها ، او حتى اية معرفة ، بالماريشال الفرنسي ، كما انه اكد ان لاعلاقة له بتقديم روايته لمسابقة " اللجان الاربع " وانما الناشر هو الذي قدمها ، حتى دون ان يعلمه بذلك ، اذ هو الذي كانت له صلاحية التصرف في مصير الرواية حسب العقد المبرم بينهما ، وقد رفض معمري اخذ الجائزة ، واعتبرها لعبة تريد ان تستغل النزاع القائم حول الرواية ، لتوريط الكاتب في مواقف تخدم الاستعمار .

من البداية نريد ، ان نوضح نقطة اساسية ، هي ان رواية " الهضبة المنسية " ، كانت ضحية هجوم سياسي ، مشوب بوطنية ضيقة ، واحكام غلبت عليها النزعة (السياسوية) ، بعيدا عن تقويم الرواية من الداخل سياسيا وادبيا ، وان كل ما قيل عن هذا العمل الادبي كان مطبوعا برؤية آنية ، يجانب كثيرا فهم الظاهرة الادبية في خصوصيتها التي تملكها من خلال وحدة عناصرها الداخلية وآلية تفاعلها من جهة ، وفي ارتباطها بالجماعة الاجتماعية او الطبقة (او الوطن في حالات التحرر الوطني) وبذات الكاتب المبدع ، ومن دون ان يدرك هؤلاء ، انهم ، بمواقفهم السياسية التي لا يشك في وطنيتها وبذلك الحماس ، كانوا يريدون من " الرواية " ومن " الانتاج " الابداعي ، ان يكون طعما في فم " الاستهلاك " السياسي الآني .
(   ) وهو استهلاك شأنه شأن الاستهلاك التجاري ، يجوف الفن من عناصر خلوده ، لتحوله الى جزء من " الادبيات " السياسية والايديولوجية .

ان رؤية الاديب تختلف عن رؤية السياسي المحترف ، هذا لا يعني مطلقا ان الاديب يخلو من السياسي ، او ان الاديب هو فراغ سياسي لان العلاقة معقدة جدا ،

فالسياسة تخيف بطريقتها ، وهي في هذه الطريقة تملك سلطاتها ، وتمتلك ادوات " الكلام " الخاصة بها ، اما الكتابة الادبية فهي كما يقول — رولا بارت — متجذرة دائما في " ما وراء " اللغة ، انها تنمو مثل بذرة . وليس مثل خط ، انها تبدي جوهرا وتهدد بافشاء سرّ ، انها تواصل مضاد ، الكتابة تخيف . " (٥) ولكن خوفها اشد قوة من الخوف الذي يسببه " الكلام " السياسي ، لانها تملك الخلود ، اما السياسي فيملك اللحظة الهاربة .

يقول محفوظ نفسه في ردّه على خصومه :

" توجد حقيقة واحدة للفن تتجاوز الحقيقة التاريخية لان هذه الاخيرة ، هي غالبا ما تكون زمن معين او ظروف خاصة (..) وعلى الفنان ان يندفع ، ان يندفع قدر المستطاع ، حتى يصل الى ما يعتقده الحقيقة الاساسية ، تلك التي تقوم عليها الحقائق المؤقتة " (٦) .

ولقد رأى الدكتور طه حسين رأيا غير رأي اولئك الذين هاجموا الرواية واعتبرها رواية هامة .

" ما اشد اعجابي بهذا الكتاب الذي لا انكر من امره شيئا الا انه لم يكتب بالعربية ، ولكن هذا عيب لا يؤخذ به الكاتب وانما يؤخذ به الاستعمار (٧) .

" الهضبة المنسية " ام الجزائر المنسية ؟.

في ٢٣ نوفمبر ١٩٥٥ تقدمت التشيلي والاكوادور وكوبا بوثيقة الى الامم المتحدة ، تدعوها لشطب المسألة الجزائرية " من جدول دورتها تلك ، نزولا عند رغبة الوفد الفرنسي الذي ثارت ثائرته ، فانسحب الوفد من اجتماع الدورة ، متهما الامم المتحدة على لسان وزير خارجيتها آنذاك السيد كريستيان بينو ، ومعتبرا الجزائر مقاطعة فرنسية ، لا يمكن لفرنسا ان تتركها فريسة للشيوعيين (٨) .

هذه هي الهضبة المنسية " التي اراد ان يكتبها مولود معمري ، بلاد وشعب وقضية تشطب بجرّة قلم من جدول اعمال الامم المتحدة دون ان يثير ذلك اي قلق في

الضمير العالمي ، هذه هي " الهضبة " او " الجزائر المنسية التي تسكت ضمري .

" لم ادر كيف كتبت " الهضبة المنسية " التي تعود الى العام ١٩٤٠ ، لكني كنت اقول لنفسي ، ان تجاربي وتجارب اقاربي ورفاقي القبائليين تستحق ان تكتب . . كنت اكتب لنفسي ، وبعد مدة طويلة ، اي في العام ١٩٤٦ راودتني فكرة تحويل ماكنت قد سجلته الى رواية " (٩) فادخلت عليها تحويرات وتعديلات ، وحذف منها ما يقارب الثلثين ، خاصة ما كان يتصل بحياته مباشرة (١٠) ، وهكذا انتهت الهضبة المنسية سنة ١٩٥٤ الى الصيغة التي هي عليها الآن بين ايدينا .

ان عودة الى سيرة الكاتب الذاتية (١١) تؤكد ذلك التوافق بين الاحداث المحورية لحياة الكاتب ، وحوادث رواياته الثلاثة انطلاقا من " الهضبة المنسية " مرورا ب " سبات العادل " وصولا الى " الافيون والعصا " (١٢) والتي تشكل في حد ذاتها ثلاثية ترتبط فيما بينها من خلال علاقتها الجدلية بالتاريخ الجزائري المعاصر في سيرورة تطوره منذ الحرب العالمية الثانية وحتى حرب التحرير الوطني الجزائرية ، وكذلك من خلال تطور بعض الشخصيات ونموها من رواية الى اخرى ، واذا كانت لا تحتفظ بنفس الاسماء ، فانها تنقل معها الاشكاليات السياسية والتاريخية نفسها التي تحملها داخل وظيفتها في الرواية .

ان ارتباط " الهضبة المنسية " بحياة الكاتب ذلك الارتباط العميق ، وارتباطها خلال هذه السيرة الذاتية ببقعة جغرافية من الجزائر لها بعض خصائصها الوطنية المتغيرة وهي " القبائل " ، ومحاولة الكاتب دمج هذه السيرة الذاتية برؤية سياسية بخلاف ما شاهدناه في عفوية " مولود فرعون " ، اضافة الى ذلك العالم المغلق الذي يعيش فيه ابطال " الهضبة " ، والذي لا يختلف في حصاره كثيرا عن الحصار الذي شمل كل الريف الجزائري ، والذي من خلاله كان الاستعمار يريد ابعاد الفلاحين عن الزلزال الذي بدأ يهز الجزائر بشكل واضح وصريح منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، وابقائهم غرقى الجهل والتخلف والعادات الاتكالية ، من كل هذا جعل البعض يشم

رائدة الايديولوجيا الاقليمية البربرية ، ونحن لا ننفي وجود هذا التيار السياسي بشكل واضح قبل اندلاع الثورة التحريرية ، وحتى في اثنائها ، وقد خلق صدامات سياسية وفكرية داخل صفوف الثورة ، وان تسمية الجزائر : الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية عشية الاستقلال ، دون ان تضاف اليها عربية او اسلامية ، كان هدفه استبعاد اثارة هذا الموضوع مرة ثانية ، ولكن القضية استمرت على المستوى السياسي والثقافي حتى الآن ، ولا تزال قائمة ، وتشكل بالنسبة الى الحكم في الجزائر الآن ومنذ ١٩٨٠ همّا كبيرا ، خاصة بعد حوادث ربيع ١٩٨٠ الشهيرة .

على المستوى الادبي علّق الناقد فورستر على قضية الاقليمية بالنسبة للاديب قائلا :

" ان الاقليمية لا اهمية لها عند الكاتب ، بل يمكن ان تكون فعلا مصدر قوته" (١٣)

اما الكاتب الكبير رسول حمزاتوف الذي يكتب باللغة الآفارية " التي لا يتكلمها سوى بضعة آلاف من ملايين السوفيات وهو عضو رئاسة مجلس السوفيات الاعلى ، وعضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي ، فيقول شارحا حالته :

" العالم يبتدىء من عتبة بيتي " .

ان هذه المقولة ، تؤكد ان الذات المبدعة ليست هي الذات السياسية والمؤرخة فالتاريخ يكتب في الرواية من خلال تلك الذات التي ترتبط بأقوى الاشياء اليها ، والتي ربما يراها المؤرخ السياسي " تافهة " ولا تستحق الوقوف طويلا ، ولا تؤدي وظيفة كبيرة في التاريخ والمجتمع .

ان العلاقات التي تربط بين المبدَع (بفتح الدال) الهام جدا ، والمجموعة الاجتماعية (le groupe social) ، هي وحدها الكفيلة في الاخير - بواسطة المبدِع (بكسر الدال) - ان تحدد حقيقة الابداع ، اذ هي لا تقل اهمية عن تلك العناصر التي تتشكل منها العمل الابداعي .. (١٤) وان الدراسة التي تربط المبدَع (بالفتح) مباشرة بصاحبه وتخرجه من وسطه الاجتماعي والمجموعة الاجتماعية التي ينتمي اليها - هي دراسة تجريبية وشمولية (١٥) .

من هنا فالعلاقة بين الذات المبدعة والمجتمع القبائلي هي التي شكلت عالم الرواية ونسجت فضاءها ، فبدت " الهضبة (ذات نغمة محلية ، ولكن داخل هذا المجتمع الصغير كان الانسان الذي هو في الاخير جوهر كل شيء يتعرض ، يعاني ويحلم بالحرية وبناء ذاته التي تناقض ذات الآخر المستعمر ، وتدحضها . وقد اكد الباحث الجزائري ابو القاسم سعد الله ظاهرة ارتباط الرواية الجزائرية في انطلاقتها بالسيرة الذاتية لكاتبها .

" ان اول عمل يكتبه اديب من شمال افريقيا ، هو عادة ترجمة حياة شخصية ، يفصح فيها عن انتمائه الثنائي الى عالمين مختلفين ، كما يعبّر فيها عن الم من عدم استطاعته ان يجد مكانا في اي من هذين العالمين (١٦) ".

من خلال هذه الذات في علاقتها مع " اليومي " دخلت الرواية الادب الجزائري باعتبارها موضوعة تبدو حيادية ولكنها قادرة (١٩) على قول الكثير سياسيا واجتماعيا ونفسيا .

في هذا الاطار أعلاه تتموضع " الهضبة المنسية " ، اذ تعرض الحياة اليومية في لحظاتها التاريخية الاكثر مأساة . واذا كانت " الدروب الصاعدة " لفرعون تغطي سنوات الاربعينات ، فان " الهضبة " تغطي ذات الحقبة التاريخية ، والروايتان تتناولان ذات المجتمع " القبائلي " ، بل وحتى من العنوانين : " الدروب الوعرة " كما ترجمها حنفي بن عيسى) و (الهضبة المنسية) يستشف القارئ ما يعاني منه الانسان داخل هذا " النسيان " وهذه " الوعورة " طبيعية كانت ام اجتماعية ام سياسية ، كما تتناول الروايتان ذات العينات الاجتماعية (الفلاحين ـ الفقراء في نضالهم ضدّ الموت والفقر والذوبان ـ البورجوازية الصغيرة المثقفة ـ الطبقة العاملة المهاجرة الخ) الا ان الرواية تختلف من فرعون الى معمري ، فاذا كان فرعون ذلك الرجل الطيب المتسامح المتواضع في حياته وفي ادبه ، فان مولود معمري سيكون اكثر ارتباطا بالقول السياسي ـ النفسي ـ بدلا من السوسيو ـ نفسي عند فرعون . ولذا سيكون الخطاب الروائي عنده اكثر ارتباطا بمسألة الوعي والصحوة الوطنية ، ولارتباط شخصيات معمري بمرحلتها التاريخية سياسيا ، فان الايديولوجيا الوطنية ستتجلى بشكل واضح ، وستخرج من مرحلة القطيعة " التي تركها عندها (الرجال ـ الحدود) Hommes et frontières فرعون .

في " الهضبة المنسية " ينقسم الشباب الى معسكرين ، معسكر " تمساست "
حيث مجموعة من الشباب الواعين والجادين ، ومعسكر " والي " حيث العناصر اللامبالية ،
الا ان مقران ومناش وهما من المعسكر الاول يشاركان المعسكر الثاني حفلات الرقص
والغناء . الا ان شبح الحرب العالمية الثانية يوقف فجأة هذا الجو .

" الناس لا يتحدثون الا عن الحرب ، النساء عند العين وفي الطرقات والرجال في
الساحة والمقاهي والاسواق ، وكان الناس لاسباب متنوعة ودوافع لا منطقية غريبة
ينتظرون بشيء من الزهو قدوم الحرب على الرغم من انه لن يصيبهم منها الا الخراب ،
واخيرا فان الحرب حادث اساسي ، لان الارواح تزهق فيها ، وهي ايضا حادث
هام لانها تصيب الناس جميعا برشاشها فتكسر بذلك رتابة العيش ، كأن كل واحد
قد مل الانتظار ومعرفة اليوم ما شاهده بالامس (. . .) والحق ان كل شيء كان
يدفعهم نحو ذلك : دعاوة الصحف والاذاعة والاشاعات ذات المصدر المدروس بدقة ،
واخيرا . . . البؤس . . بل ان هذا الجبن وهذا العوز هما اللذان هبطا منذ
سنين على قرية " تاسكا " وبقية القرى الجبلية ، فلعلهم واجدون في الحرب دواء ناجعا ،
حتى اصبح الجميع يريدون الحرب او على الاقل ينتظرونها بشيء من الابهام " (١٨)

واذ يستدعى الشبان الى التجنيد الاجباري ، تغرق القرية في جو رمادي مأساوي .

" الاهالي يبكون اولادهم كما لو وصلت انباء موتهم في ساحات القتال ، وكان الليل
ينضم من دون انقطاع صدى صراخ النسوة اللواتي سلبن اولادهن ، وكان الظلام
يجعل هذه الصرخات اشد هولا ، وكانت المشاعل تنبع من خلال الابواب فتثني هذه
المرة جماعات تلمع بينها خيالات النسوة يلطمن وجوههن او يقلعن كفوفهن ، ولم يعد
احد يفكر بالتقاليد والطاقات وسط هذا الحزن الواسع العام الذي هبط على قرية
" تاسكا " (١٩)

ها هم الشبان يرحلون مجندين في صفوف القوات الفرنسية لمحاربة المانيا الهتلرية
ولصيانة شرف فرنسا ، ولكن هذا الرحيل الذي يؤلم سيعلمهم الحرب ويعرفهم
بالغرب .

داخل هذا الجو القروي البطيء الحركة والشاحب، تنمو قصة حب بين " مقران " البطل الرئيسي في الرواية والفتاة "عزة" (تامعروزت) ، وينتهي هذا الحب بالزواج ولكن "عزة" تتخلف في انجاب طفل، مما يضطر الاب والام وشيخ القرية الى تطليقها من زوجها بكل بساطة، حتى دون استشارة " مقران " وفي غيابه اذ كان في قريـــة اخرى، بعيدة عن " تاسكا "محاصرا بالثلج مدة اربعة عشر يوما (٢٠) ثم يذهب الى الحرب بعد ان طلقت منه زوجته، ودون ان يبدي رفضا واضحا لذلك، اللهم الا تلك المشاعر والعواطف التي كانت تشده اليها في صمت قاتل، انها سُنّة القريـــة ، لا أحد يستطيع ان يتطاول عليها او يخترقها وفي الثكنة تبعث (عزة " الى (مقران) رسالة تخبره فيها انها حامل . وفي اللحظة التي يكون عائدا اليها مفعما بالفرحـــة التي تصل به الى حدود الهوس، الا انه لا يصل الى القرية بل يموت في الطريق مغمورا في الثلوج . وحين تضع عزة طفلها تسميه " مقران " تيمنا بأبيه .

وهناك قصة حب اخرى موازية لقصة " عزة " و " مقران " هي قصة (مناش " و " دادفدا " زوجة " اكلي " وهي قصة يبدو فيها كثير من الافتعال والرومانتية " الفلوبيرية " (٢١) المسطحة ، وقد بدت فيها "دا فدا" امرأة خارجة عن واقعها التاريخي الاجتماعـــي ، ذلك الواقع القامع المتخلف الذي جعل المرأة كالمتاع (حالة عزة دليل قاطع فـــي واقعة طلاقها) .

فاذا كان الكاتب نفسه يقول على لسان احد شخصيات الرواية نفسها :

" في عاداتنا ، ان عالم الرجال ، وعالم النساء ، مثل الشمس والقمر ، يرى احد همـــا الآخر دائما ، تقريبا ، ولكنهما لا يلتقيان " (٢٢) .

الا اننا مع " دافدا " و " مناش (نجد العلاقة بين المرأة والرجل على غير ذلـــك فاذا " دافدا " وهي المرأة المتزوجة ـــ ، ونحن نعرف ما للشرف من قوة حضور داخـــل الحياة القبائلية ، تقابل " مناش " ليلا ، وتسهر معه حتى ساعات متأخرة من الليـــــل ، وهي التي تودعه في آخر الرواية بالقبلات حين يقرر مغادرة القرية نهائيا ، بعد ان تكون قد خدرت زوجها ! !

ان علاقة الرجل / المرأة تتسم برقيب قمعي وحاضر في مجتمع مثل ذلك الذي يكتب عنه محمود، وفي تلك الفترة التاريخية خاصة انه المجتمع الذي تسيطر عليه عقلية " الذكورة " بشكل مكشوف . واذا بالاطار الفيزيولوجي للمرأة لا يتحدد من خلال البيت المغلق بما بين احدهما خاص بالرجال والاخر خاص بالنساء ، بل كذلك بالحجاب الذي هو عبارة عن مسدل أسوار هذا البيت المعتم امام عينيها الى الشارع . وامام هذه الحقيقة التي لا تقبل الدحض او الشك ، بدت علاقة " دافدا " بمناش علاقة لا تاريخية ، " بالرغم من ذلك الحضور الذي سجلته المرأة في هذه الرواية فانها لم تكن مرتبطة بشدة بالواقع اذ لم يرسمها الكاتب في صورة محسوسة لجعل منها انسانا عاديا له جانبه المادي والروحي ، فظلت اقرب الى عالم الخيال ، الا انها تساهم كثيرا ولا شك في خلق جو رومانتي وشاعري " (٢٣) وبذلك رفع محمود بعض نسائه الى منزلة روحانية ونزيهة تبتعد عن مادية العالم ، وبذلك بدت الصورة " غامضة " في كثير من المواقع العملية والعاطفية وربما تكون هذه الرؤية أو لا تاريخية علاقة " دافدا / مناش " هما انعكاس للرواية الفرنسية الرومانتية التي حفلت بمثل هذه العلاقات .

لقد استطاعت " الهضبة المنسية " ان تكون حقلا ثريا وهاما للعادات والتقاليد والقيم الخرافية التي ما تزال تسيطر على هذا المجتمع الزراعي الفقير ، وبعد و الحب والزواج والشرف والطلاق والانجاب والعقم والثأر ، وهي كلها امور تتصل بالمرأة : الزوجة او العشيقة او الام (٢٢) وانجمة فيها

وتصور الرواية بصدق تدني الوعي في الاوساط الفلاحية في غياب التنظيم السياسي الطليعي ، وتمتاز الرواية بوقفة طويلة عند الذهنية الخرافية التي تهيمن على الاهالي ، ويلعب الفكر الديني الظلامي ، دورا اساسيا في تغييب الناس عن واقعهم وعدم مواجهة مشاكلهم مواجهة حقيقية كشيوع الطرق الصوفية وزيارة الاولياء لحل المشاكل اليومية المستعصية وارتياد الزوايا والتكايا ، لحرز التمائم والشكاوى فان قوة الاولياء الذين هم وسطاء بين الله والناس يملكون نفعا وضرا ، ويملكون انزال المصائب ودفعها عن الناس ولذا وجب الحرص على رضاهم والتضرع اليهم عند الشدائد . الم

يقل احد ابطال الرواية بأن البلاء الذى حلّ بالقرية سببه " ان سيدى مالك الولّي الصالح الذى سهر منذ حوالي اربعة قرون على قريتنا وقبيلتنا قد اهملنا ، حتى عمّ الذل والطل من العيش ، وفي الحق فاننا عطلنا كل شيء لكي تحلّ اللعنة علينا ، الم يقترح دلال الخبول عندنا يوما على مجلس الشيوخ ألاّ تذبح الخراف والثيران كما هي العادة عند قدوم عيد الاضحى ، اوعند مقدم الربيع ، اذ قال بعد ان تساءل عن فائدتها " ان هذه الضحايا تكلفنا كثيرا من الاموال " (٢٥)

ويبدو العقم موضوعة متغيرة لمبرعند مشمون وحده بل في الرواية الجزائرية كلهـــا (ديب ــ فرعون آسيا جبار ــ عائشة لمسمن ــ الخ) وان الخوف من هذا العقم له ما يفسره سياسيا واجتماعيا ، فمن ذلك الخوف الذى كان يسكن الاهالي من ان يذوب كيانهم داخل كيان " الآخر " ، وبذلك تندثر " الأنا " الحضارية . ولما كـــان العقم (المرأة ــ الرجال ــ الارض ــ الحيوانات) حالة مضادة ونقيضة للخصب ، فقـد كان المجتمع يدينها بلا رحمة (فهذه عزة تطلق من زوجها لتأخرها في انجاب الطفل) ويناضل ضدها ، لان التكاثر البشرى كان يحمل بعدين احدهما سياسي والثاني اجتماعي فالاول هو البحث عن اغراق الاقلية الاوروبية من المعمرين مالكي رؤوس الاموال ، في بحر بشرى ، والذى سيكون مستقبلا الرصيد البشرى للمقاومة الوطنية ، وحين استشعـــر الاوروبيون خطورة هذا الانفجار الديمغرافي ، كانوا يتركون القرى والارياف عرضة للاوبئة .

وفي الواقع المتخلّف والوعي المتدّني يقابل العقم بموقف خرافي ، فهذه (عزة) التي تأخرت في الانجاب تعتقد ان " العقم عند النساء عقاب على ذنوبهن " ثم تهرع الى مقام الولّي الصالح تطلب منه ان يزرع بذرة في رحمها .

" ياعبد الرحمن ! . ثمّ مدت يدها مستعطفة مرة اخرى . يا عبد الرحمن ! لقـــد تركتني وحدى مجردة امام مشيئة الله : انجدني ، اعطني ولدا وسأطلق عليـــــه اسمك " (٢٦)

الهجرة والارض والشرف :

ان حب الارض والالتحام بها مزرعة وقبرا هي من اهم ما يميز الفلاح الجزائري ، في ظل اقتلاع ومصادرة مستمرة عانى منها مدة طويلة ، وحتى عندما ابعد الفلاحون عن اراضيهم ، كانوا يلتزمون الاحراش والجبال القريبة منها ليمارسوا طقوس عشقهم لها ، او كأنما كانوا ينتظرون اللحظة التي سيرحل فيها هذا المستعمر لينزلوا من هذه الاحراش ويعانقوها مرة اخرى . وتبدو القضايا الهامة التي تناولتها الرواية هي: القرية والمرأة والفقر والارض والطفل والثورة ، فكان الخطاب / ريفيا في معظم الرواية الوطنية (٢٧) .

ان الارض هي الشرف ، وهي التي تطعم من جوع برغم جدبها ، وهي دافئة مثل الانسان ، وفيها تقترب الرجولة والانفة والنخوة القبائلية وان بيعها او رهنها هو خرق للشرف ، وهو منبوذ من قبل الاهالي . وهي تجري في دم اهالي " تاسكا " فتنافر لم يغادر القرية في آخر الرواية الا بعد ان علم ان " مقران " الذي ينام في احشائها يحرسها . واذا بالخيرات التي تنتجها الارض على قلتها .. تشبه الاطفال الذين ينزلون من ارحام امهاتهم ، وفي الرواية تأنسنت الارض والشجر الذي فوقها فبدا الحديث عن هذا وذاك بقاموس واحد .

" انها تتكلم ، كل شجرة زيتون على حدة ، وكأنها تتحدث عن " ملحة " او " كلثومة " او عن واحدة اخرى من قريناتها العجائز اللواتي عرفن جميعا ايام الشباب في عهد واحد " (٢٨) .

ولما لم تعد هذه الارض تستجيب لمتطلبات الافواه الكثيرة الجائعة ، وبدت الازمنة صعبة جدا ، والسلطة قاسية اكثر (٢٩) فقد بدأ الشباب المشاق يغادرونها الى ما وراء البحر ، وهم يحملونها معهم جمرة في القلب رغم قحطها وبوارها وجدبها .

" الكثير من الشباب يغادرون الى فرنسا ، اين يمكنهم ان يحصلوا على بعض النقود ان الارض لم تعد تستجيب . لكل متطلباتهم ، لقد كانت متطلبات اجدادنا اقل من متطلباتنا مرتين ، وكانت مساحة اراضيهم اوسع من مساحة اراضينا اربع مرات ، اذن ، الكل كان يرحل ، لقد ابتدأ هذا بابني الاسكافي بعد وفاة والدهما ثم هاجر مبارك ووالي وعلي ثم ادبره" (٣٠)

ان الشباب يغادرون الارض / الا م بعد ان سودت منهم ، وبعد ان اغرقتهـــم الضرائب .

" واذا ابراهيم يغرق في الضرائب التي كانت تزداد يوما بعد يوم على الفلاحين حتى يضطروا في الاخير الى بيع اراضيهم واشجارهم " (٣١)

ومع معمري ، نصادف مرة اخرى هؤلاء الرجال / الاسوار يذوبون في مناجم الشمال الفرنسي ، تلك المنطقة التي استوعبت عددا كبيرا ـ كما تدل بعض البحوث عن العمال الجزائريين في المهجر ـ من الاهالي الجزائريين وخاصة من القبائل وامسيردة (٣٢)

ان الفرق بين رواية معمري ورواية فرعون ، لظاهرة هجرة العمال الجزائريين الى فرنسا ، هو ان الاول استطاع ان يرى هذه الظاهرة في دائرتها السوسيوـسياسية ، فكشف الى حد ما ـ ذلك الدور السياسي الذي تضطلع به الطبقة العاملة المهاجرة داخل الحركة الوطنية الجزائرية التي كانت تجتاز مرحلة من ادق مراحل تطورهــــا التاريخية ، وقد وصلت عمر الرشد ، سواء داخل فرنسا ام في الجزائر نفسها برغـــم القمع البوليسي الذي كان يتابل به الوطنيون منذ نهاية تجربة الحرب العالمية الثانية .

لقد اكتسبت الطبقة العاملة المهاجرة الاهلية ، في تماسها اليومي مع الطبقـــة العاملة الفرنسية ، صاحبة التقاليد النضالية الطبقية العريقة ، منذ كمونة باريس ، ضد الرأسمال الفرنسي . وفي " الهضبة المنسية " نجد معمري يضع يده على هذا التلاقي النضالي بين الطبقة العاملة الفرنسية والعمال الاهالي المهاجرين وكيف كان يعود هؤلاء الى بلادهم بتجارب نضالية يواجهون بها ذلك الرأسمال الكولونيالي .

" لقد اشتغل رابح في المنجم ، في الشمال الفرنسي ، لقد جلب معه كلمة ، يسحقنا بها في كل مرة : " الفاشيون " (٣٣) .

" اما اولئك الذين اشتغلوا في المصنع مع العمال الفرنسيين ، فهم يفكرون في الوحدة . من هذه الوحدة تبدأ تلك الحدود بين بروليتاريا العالم كله (من جهة) واولئك الذين لا يفكرون في اي شيء (٣٤) الى البورجوازيـــة المتروبولية والكولونيالية (مـــن جهة ثانية)

لقد استطاعت " الهضبة المنسية " ان ترسم بقوة صورة متكاملة للمجتمع الجزائري في " الاربعينات " فاذا بالصور التي تعرض الفقر ، والمجاعة والامراض والتخلف يقشعر لها البدن ، واذا بقوافل الشحاذين المتواصلة تملأ كل شوارع " تاسكا " ، وشم في سالم هذه يذكروننا بقوافل الشحاذين الذين ناجموا مدينة " تلمسان " فأثاروا الرعب في بورجوازيتها العريقة في " " القول " لمحمد ديب ، ومن هنا ندرك العمق التاريخي الاجتماعي " للهضبة المنسية " وسقوط تلك التهمة " السياسوية " التي نعتتها بالاقليمية ، ان شحاذي " تاسكا " ما هم الا شحاذو تلمسان الذين هجموا عليها من من جنوب البلاد ومن النواحي ، وما هم الا شحاذو الجزائر كلها .

" بلغ من كثرة الشحاذين ذوي العيون الغائرة والذين يسحبون اقدامهم المدماة والمتشققة حتى الانسان في مقدرة العجز وجدا على اشباعهم والباسهم ". (٣٥)

واذا هم " ينتقلون من باب الى آخر باثوابهم الرثة وعظامهم الناتئة واصواتهم الرخوة " .

وتفشت المجاعة بشكل يدعو الى الحيرة ، فاذا بالاهالي يتحولون الى ما سماه المؤرخ الجزائري " محفوظ قداش " (عصابات الشرف) من اجل الحصول على لقمة ، ومن اجل الانتقام من محتكري (الخبز) .

" الناس يخرجون الى الطرقات ، بأيديهم البنادق يرجونها بأدب ان تقتسم معهم مؤونة الشعير التي تحملها الى اولادها ، لان اولادهم ليس لديهم شيء مما يأكلون (٣٦) واذا الناس رتأمل كل شيء دربا للموت .

" ان الدكتور نيكوسيا حين فتح بطن شاب وجد ميتا على رصيف الشارع ، لم يجد في بطنه سوى قبضة من الحشيش غير مهضومة " (٣٧)

واذا وباء التيفوس يجتاح المنطقة (....) فيخلق جوا آخر مآسي اخرى وكأن مآسي الحرب لم تكف . " (٣٨)

ان المجاعة التي تكتبها " الهضبة المنسية " ليست مجاعة " اقليمية " ؛ انه الواقع المزري الذي كان الاهالي الفقراء يغرقون فيه من جنوب الجزائر الى شمالها ومن غربها الى شرقها .

ونقرأ في جريدة " الاقدام " التي كانت تصدر في العشرينات ما يؤكد تلك الصورة التي رسمتها " الهضبة المنسية " .

" المجاعة تداهمنا) . . (٣٩)

وقد اهتمت الصحافة الوطنية واليسارية وحتى الليبرالية منها بهذه المجاعة فكانت تنشر باستمرار قوائم ضحايا المجاعة من : الاصنام ( )

وبلدة وعين موسى (٤٠)

وبدأت الاجتماعات والمظاهرات في كل المستعمرة ضد السلطات الاستعمارية ، مطالبة اياها باتخاذ الاجراءات الامنية (الاجتماعية والصحية) للحفاظ على حياة الاهالي ، واستنكروا الصمت العنصري اللاانساني الذي تقابل به فرنسا الاستعمارية هذه الوضعية .

" خرج اهالي مدينة سعيدة في مظاهرة ، ضمت ثلاثة آلاف من الاهالي مطالبين بتحسين أوضاعهم " (٤١)

" وفي الاغواط يقتات العرب على الاعشاب وجثث الحيوانات المتعفنة " (٤٢)

كما طالبت جمعية " حماية حقوق الانسان " من الحكومة الفرنسية اتخاذ الاجراءات اللازمة (٤٣) من اجل انقاذ حياة الاهالي المهدد من الموت والفناء الجماعي .

ولم تسكت حتى الصحف الليبرالية عن هذه الكارثة فكتب احد الصحفيين الجزائريين متسائلا :

" ماذا يفيد اخفاء تلك الحقيقة المرعبة ؟ فالمجاعة على ابوابنا : ففي العاصمة (الجزائر) بدأ الوضع يتفاقم . فقد ارتفع سعر الخبز الى ٣٠ر١ فرنك للكيلوغرام الواحد ، ان الكثيرين لا يأكلون . . . اذا كان الوضع في العاصمة على هذه الحال ، فماذا يجري بالارياف ، واكثر من ذلك ، ماذا سيحصل غدا ؟" (٤٤)

" وما يحدث غدا وصفه احد النواب الفرنسيين و هو ( )
(فنيي دوكلون) قائلا :
" ان حالة اللاامن بدأت تهدد المستعمرة ، فالاهلي لا يجد ما يقتات عليه ،
فلنتوقع اذن اعتداءات واغتيالات كثيرة " (٤٥)
أن وضعية الفقر هذه هي التي ولدت ضرورة المواجهة مع الادارة الاستعمارية
في اشكال مختلفة من بدائية : عصابات الشرف (والي في الهضبة) وحتى طابعها
التنظيمي الحربي (سليمان المنتمي الى حزب الشعب الجزائري (٤٦) أن هؤلاء
الاهالي ينطبق عليهم قول البير كامو : " لم اتعلم الحرية من كارل ماركس ، لكنني
تعلمتها من البؤس " ، وهذه هي الفكرة الجوهرية التي تقوم عليها " الهضبة المنسية " .

وداخل هذا البؤس والحصار كان الاهالي يتعلمون الحرية ويسألون عنها فكشفت
الرواية العلامات الاولى للصحوة الوطنية التي كسرت هذا الطوق الفولاذي ، فرسمت
الرياح الاولى للايديولوجيا الوطنية التي هبت على القرية ، والتي زادت في قوتها - اضافة
الى الوضع الاجتماعي - انفتاح شباب المستعمرة على العالم من خلال الحرب العالمية
الثانية ، التي كانت بالنسبة لهم درسا هاما في الوطنية ، اذ عرفوا وهم يكافحون
من اجل باريس ، كيف تناضل شعوب الارض من اجل حرية اوطانها ، وبذلك كانت مدافع
" الحرب العالمية الثانية " كفيلة بطرح سؤال اشكالي كبير داخل الوسط الاهلي
" اين الوطن الذي يحارب ويموت من اجله الشباب في ايطاليا خلف البحر " مناس -
مقران - رابح - ازواو - احسن - والي - ادير - وغيرهم) ؟
" اننا نحاول ان نتجاهل ان هذه الحرب التي خرجنا منها لم تضع اوزارها
بالنسبة لكل الناس ، فعلى التلال الاخرى هناك اناس يموتون ، كما مات ازواو ولحسن " (٤٧)
وبالفعل فالحرب مع تضعت اوزارها لكل الناس وحوادث ٨/ ماي ١٩٤٥ اكدت ذلك
واكدت شرعية السؤال الكبير .

" اين هي الحرية واين هو الوطن الذي حاربنا من اجله الى جانب فرنسا ؟ " .

وبدت الرواية في فصولها الاخيرة ،تحمل كل دلائل التفاؤل ،رغم الويلات انه ليس ذلك التفاؤل الذى يحول الرواية الى كتابة ملائكية ،فذ تسلي ،ولكنها لاتخدر ولا تغير (٤٨) ،بل هو تفاؤل تاريخي مبني على الايمان بالتحول والانقلاب فحين يغادر " مناش " يغادرها وهو يحمل مشروعا كبيرا ولا يحسود الا وهي جديدة لاتغمرها المصائب والمصاعب الى اللقاء يامقران (٤٩)

واتخذ الطفل " عودة " او " مقران الصغير ،الذى جاء ليسقط المقم الذى الحق بامه "عزة " طويلا ،وكذلك الطفل " مولود " ابن الفلاح الفقير ابراهيم ، رمزا لاستمرارية النضال ضد الفقر ومسبباته الاجتماعية والسياسية المتمثلة في الرأسمالية الكولونيالية .

لقد قرر ابراهيم الموافقة على ان يواصل ابنه مولود دراسته لان " مولود " اذا كان متعلما يستطيع ان يتصرف بحياته داخل المدن ،ويناضل ضد " القائد " وجابي الضرائب ضد كل الروءساء الذين يقبضون على اعناق الخلق ،ضد كل اولئك الذين يستنزفونه " (٥٠) .

اذا كانت الهضبة المنسية "قد تناولت مأساة الفلاحين الفقراء والمفقرين ،في تلك الاحراج ،او داخل تلك العادات والتقاليد التي تحكمها ذهنية متخلفة ،وداخل هذا العالم " المغلق " بدت اولى رايات الايديولوجية الوطنية التي ارتفعت على دقات مدافع الحرب العالمية الثانية ونزول جيوش الحلفاء بالجزائر وتجنيد الشباب في صفوفها ومن خلالها اطلوا على العالم الكبير فمارسوا " الحرب " و " الضرب " فان الرواية الثانية " سبات العادل " ([illegible]) ستسجل قفزة اخرى في اتجاه تعميق الايديولوجيا الوطنية وممارسة السياسة داخل العالم الكبير ،بعيدا عن اسوار " تاسكا " ،وبذلك ستنهي الرواية الثانية الحصار الذى ظل مضروبا على هوءلاء الاهالي داخل نكبتهم الاجتماعية والسياسية مدة طويلة .

في " سبات العادل " نصادف شخوصا روائية غنية ومتعددة ،تعكس في غناها وتعددها ،زخم المرحلة التاريخية التي تكتبها الرواية،تلك المرحلة التي صحا فيها

الوعي الوطني في اشكاله الصدامية والمواجهة العلنية مع الاستعمار . فارزقي شاب مثقف تعلم في المدرسة الفرنسية على استاذ فرنسي مثالي وفوضوي مغرم بالافكار والفلسفة المثالية ، وحين يتشبع ارزقي " بهذه الافكار الاغترابية يمارس لحظات هروب الى الامام داخل الوسط القروي البسيط الذي يحيط به . حين يعلن في " الجماعة " (٥) وامام الملأ انه " كافر " وان لا وجود لله .. الخ (٥٢) وتخلق هذه الافكار صداما حادا بينه وبين المؤمن الفارق في الاسلام باشكاله الساذجة والظلامية الخرافية . ولكن الواقع سوف يكذب الاثنين ، فلا الاب على حق ، ولا ارزقي الذي سوف تكذّب المرحلة اطروحاته المثالية التي يحملها في رأسه عن : الحرية والديمقراطية والعدالة والاخوة والانسانية الاوروبية التي تعلّمها من خلال كتب كثيرة، فاذ يجند في صفوف القوات الفرنسية ضدّ النازية في الحرب العالمية الثانية ، يبدأ امتحان افكاره التي كان يفتخر بها فاذا هو عاشق ... وجان جاك روسو ومونتيني ومولير وشكسبير ومونتسكيو .. الخ يعامل داخل الثكنة معاملة عنصرية ، فداخل الجهاز العسكري الفرنسي ، يعامل العسكري الاهلي (الجزائري) معاملة تختلف عن المعاملة التي يعامل بها الجندي الفرنسي ، برغم ان كليهما يحارب من اجل شرف فرنسا ومن اجل الدفاع عن باريس .

وتشاجر الجنديان ، فتدخل الطباخ ليفرّق بينهما وجان الرقيب (السرجان) فقال : يجب ان يقدم الطعام للجنود الاوروبيين قبل غيرهم ، برغم ان ... ارزقي استحق من غيره ، وبرغم احتجاجه

انه النظام قال الرقيب الاوروبيون اولا .. " (٥٣) وبدأت افكار ارزقي " تصطدم بالواقع ، من خلال التجربة اليومية ، فاذا كان هناك ضابطان بنفس الرتبة العسكرية ، احدهما من الاهالي والآخر اوروبي ، فعلى " الضابط الاهلي " ان يخضع لامرة الضابط الاوروبي .. وحتى الرواتب كانت تختلف كثيرا بين الجنود والضباط الاهالي والفرنسيين .

" كان يعلم (يعني ارزقي) ان هناك : مادة في القانون تقول : اذا تساوت رتبتان عسكريتان لضابطين ، على الضابط الاهلي ان يخضع لاوامر الاوروبي " (٥٤)

وبتصوير درامي مطوء بالسخرية المأساوية ، تكشف " سبات العادل " في شخصية

" ارزقي " عدم التطابق بين الانسانية الاوروبية بمثاليتها والواقع الاستعماري العنصري ، فتقدم لنا مشهدا من أقوى مشاهد الرواية ، يظهر فيها ارزقي يحرق كتبه ، معلنا ان الواقع العنصري والقمعي الذي يعيشه الانسان الاصلي في المستعمرة لا يسمح بنمو هذه الافكار ولا بشرعيتها في الوجود :

" العقد الاجتماعي ، خطاب حول المساواة ، العقاب ، جوريس ، اوغست ، كنت ها ! ها! سيداتي سادتي ياالها من كذبة ! كذبة كبيرة ! ياالها من خدعـــــة الايمان . كل هذا لا يمثل الايمان ... " (٥٥) .

" والقى ارزقي وسط الساحة بكومة الكتب والاوراق ، ثم جعل يدفع الوســــط بضربات من رجله (..)

ـ اشعلي ! قال ارزقي

ـ انا ؟

ـ كل الكومة ! بما فيها ، من مثالي ، عواطف ، افكار .

احرقي ها ! ها ! .. احرقي ها ! ها . احرقي الافكار .. (..)

" كانت نينا " تنظر الى كومة الاوراق ، في احترام غائب القسمات ، مزق " ريكارد و " غلاف كتاب " دوموسيه " الذي كان فوق اللهب . وقرأ " الطبيب " في الخلف : لا نمزح مع الحب ، ثم قال اتسمعين يا " نينا " ؟ .

" كانت " نينا " قد ابعدت عود الثقاب ، غير ان ارزقي انتزعه من يدها والقى بــــه فوق الكومة ، وسرعان ما بدأ الغلاف المذهب لاحد كتب موءنتيني ينتفخ ثم يسود قبـــل ان تلتهمه النار ، وفجأة كبرت الشعلة وانارت حولها دائرة من الاشباح تتراقص فوقهـــا ظلال ... وكان اللهب يداعب اوراق الكتب ، وينتقل على مهل من موليير الى شكسبير الى هوميروس ومونتسكيو والاخرين .. " (٥٦)

ان عملية الحرق بكل ما تعنيه من نار وتطهير نهائي ، ترمز الى تلك الصحــــوة الكبيرة ، لدى المثقفين الذين فرختهم الحاضنة المدرسية والثقافية الاستعماريــــة وهي قطيعة مع الافكار الاوروبية المثالية عن الانسانية ، والتي لا تحط رصيدا ماديـــا

على مستوى الواقع اليومي لهؤلاء الاوروبيين انفسهم ، وهي في الوقت نفسه انتقال المثقف الاصلي من موقع العالم المثالي الى موقع عملي واقعي داخل مجتمعه المحلي الاصلي ، وان الرسالة الطويلة التي وجهها " ارزقي " الى استاذه الفرنسي (GUSTAVEPAIRE) غوستاف بوارى) هي رسالة في الحقيقة موجهة الى كل المثقفين الفرنسيين ، تكشف امامهم ، باعتبارهم منتجي الافكار السامية ، وباعتبارهم كذلك منظري العملية الاجتماعية ، في المجتمع

وباعتبارهم كذلك ـ على حدّ تعبير غرامشي ـ الاسمنت الذى يربط البنية التحتية بالبنية الفوقية ، وينتج تصورا للمجتمع (٥٧) ، (تكشف) امامهم الممارسات العنصرية والهمجية للاستعمار ، خلافا لما تدعيه فرنسا التي تعتزّ بهم ، باعتبارهم صانعي حضارة هذه الامة ، وخلافا لما يكتبون (٥٨) .

ان الرحلة التي يبدأها الان ارزقي المثقف جديدة بعد ان نضج رأسه المحشو افكارا مثالية جدار الاستعمار المشوه والصلب . انها رحلة الانسلاخ من ميتافيزيقا الثقافة المثالية ، واعادة بناء ذات جديدة لمثقف عضوى يرتبط جدليا بواقعه المتخلف الذى يحمل داخله امكانية كبيرة للتغيّر .

ان ازمة " ارزقي " تعلن عن طريق التطهر بالنار والحرق ، عن فشل سلاح الايديولوجيا/ الحوار وبداية " ايديولوجيا /حوار السلاح " فتضعنا الرواية على مقربة من الحرب التحريرية ، نشم رائحة البارود الذى سيتكلم طملطا في الجزء " الثالث " " الافيون والعصا " (L'P'UM ET BATON) التي تعتبر اهم رواية سجلت بشكل وقائعي الحرب التحرير الجزائرية (٥٩) .

قال ارزقي :

" ها هي دقات الساعة ، ساعة التضحية العظيمة (٦٠) ومن خلال شخصية " سليمان " (اخ ارزقي) ، يحرك معمرى قطاعا بشريا وسياسيا هاما من قطاعات الشعب الجزائرى الفقير والمضطهد ، انه قطاع " العمال الزراعيين " ، اذ تكشف الرواية ذلك الجحيم اليومي الذى يعيشونه من اجل البحث عن " الخبزة " . . فهذا سليمان يخرج من داخل اسوار " تاسكا " ليواجه العالم الكبير (الوطن الكبير) وليجرب

علاقة طبقية وطنية بعيدا عن العلاقة الاسرية السلالية ، ومن خلال هذه الخرجة يبدأ سليمان " رحلة وعيه الطبقي والسياسي (٦١) التي تختلف عن رحلة الغيسة ارزقي فيكتشف كيف تمارس البورجوازية الكولونيالية اضطهاد العمال الزراعيين فهم يعملون من الرابعة صباحا حتى السابعة مساء .

" من النجوم الى النجوم (" ٦٢)

وكيف تستعمل هذه البورجوازية الكولونيالية الاطفال ، وهي تستخدمهم في قطف العنب ، مقابل اجور زهيدة (٦٣)

ومن خلال هذه الرحلة السندبادية الطبقية ، يكتشف سليمان ذلك الحقد الكبير بين العمال الزراعيين وارباب الرأسمال الكولونيالي . ويشاهد بأم عينيه تلك الصدامات بينهما ، وكيف يدافع هؤلاء عن حقهم في الكرامة الموجود ، وكيف تعوض الرأسمالية الكولونيالية العمال حين يطالبون بحقوقهم بآخرين يجيء بهم من الجنوب ، فالبطالة تستشري في كل البلاد والعباد .

وداخل هذا العالم الجديد ، يبدأ سليمان علاقته مع " الوناس " العامل الزراعي الواعي والمنظم سياسيا من خلال انتمائه لـ (حزب الشعب الجزائري) ، وعن طريق هذه العلاقة تبدأ الايديولوجية الوطنية ذات المحتوى الطبقي و " الشعبي " تسيطر على هم الرواية ، ويبدأ الوعي " الاسري " السلالي " القبلي ينهزم امام زحف الايديولوجيا الوطنية الى رأس سليمان :

حين سأل سليمان الوناس الى اى عائلة وقبيلة ينتمي اجابه الوناس :

" انا جزائري " (٦٤)

وبدأت اجراس الايديولوجية الوطنية تقرع ، من خلال تطور العلاقة بين " سليمان " و " الوناس " وحين تحين لحظة الفراق بين هذين العاملين الزراعيين ، يجيب الوناس صديقه حين يطلب منه مزيدا من المعلومات عن الوطن والسياسة .

" لا تهتم اذهب ياصغيري ، لن نتأخر وستفهم كل شيء ، فأنت الآن على الطريق (٦٥) .

وبشكل واع وصادق مفعم بتوترات نفسية عميقة استطاع مصمرى ان يرسم صورة كاملة ومعبرة، لتلك البورجوازية الجزائرية الهجينة، التي ولدت في احضان، وعلى موائد الادارة الفرنسية ومن اجل خدمتها، كل ذلك من خلال تتبعه لشخصية هامة في الرواية هي شخصية "تودرت"، التي تلعب دور الوسيط بين الادارة - الاستعمارية والفلاحين الفقراء، من اجل اغرائهم ببيعة اراضيهم، بعد ان تثقل كاهلهم الضرائب الكثيرة، وهو بدوره يبيعها للادارة الاستعمارية التي توزعها على المعمرين .

يمثل "تودرت" قوة ارهابية امام الفلاحين الفقراء فاذا الاب (رمضان) عبارة عن خرقة بالية بين يدى تودرت، وما هو الا دودة بالنسبة للادارة الاستعمارية، يستطيع ان يدوسها "الكوميسار"، ولم يخشى الله (٦٦)

وهو - أى تودرت - الذى يصبح "امينا للقرية، يمثل جهازا تجسسيا على الفلاحين، فهو يراقب كل تحركاتهم "المشبوهة"، ولانه من ابناء القرية، فأمر التجسس سهل بالنسبة اليه لانه يعرف كل ابناء القرية، بل وبكل ما يدور في رؤوسهم وهو الذى "يشي" بالمناضلين الوطنيين للسلطات الاستعمارية، فتقبض عليهم .

" اذا لم تختف . فسيلقى عليك القبض، ان - امين القرية (تودرت) قد باعكم" (٦٧)

وعن طريق هذه البورجوازية الهجينة المحلية، كانت الادارة الاستعمارية تستغل الايديولوجيا الدينية الظلامية، والترويج للفكر القدرى، من اجل ابعاد الاهالي عن البحث عن اسباب الفقر الذى يعيشونه ومن اجل تثبيت الواقع الطبقي كأمر الهي، اعتمادا على الثقافة الخرافية التي تجد في الفلاحين حقلا لانتشارها وتفريخها، يقول عبدالله مازوني : " في البلدان غير النامية، يدرك الانسان النمو لا على طبيعته الموضوعية، على انه عملية جماعية بطيئة جدا، بل يرى فيه حالة لا بداية لها ولا نهاية، فهناك بلدان غنية وبلدان فقيرة ... ففي هذه الحالة تكمن الحكمة المثلى في ان يقنع

الانسان بما لديه ، فالفقر الاجتماعي يولد فلسفة الفقر التي تكمله ، وتتجسد في عدد من المواقف والامثال التي يحتل فيها الاستسلام الصدارة " (٦٨)

وهكذا ترى البورجوازية الكولونيالية تكرس القدرية والرؤية الميتافيزيائية والظواهر الاجتماعية ، وان الله هو وحده قادر على تسليطها ورفعها عن بني البشر :

" اذا لم يكن له اله وجب اختلاقه له " (٦٩)

وفي حوار بين رابح والكوميسار الفرنسي يتجلى ذلك الاستغلال الاستعماري للدين من اجل تثبيت الوضع الاجتماعي الطبقي ، وتثبيت الفلسفة القدرية " التي هي فلسفة الفقر وحاميته :

" ـ هل تؤمن بالله ؟ قال السيد بونيفاس بلغة قبائلية ركيكة .

ولاول مرة شعر رابح بأنه واحد من الرجال

" ـ العزة له ، قالها رابح ، لا اله الا هو . "

ـ هل تعتقد بأن الانسان يستطيع ان يصحح عمل الله ؟

ـ هذا الكفر بعيد عني ، ولا حول ولا قوة الا به "

ـ انه يعطي لمن يشاء قال رابح

ـ هذا الفقر يأتي من غير الله ؟

ـ وانه يأخذ كذلك من الناس ما يشاء ـ قالها رابح

انه رب هذا العالم والعالم الآخر ، وان الفقر الذي ينزله على العباد هو امتحان لايمانهم " (٧٠)

وتبدو الادارة الاستعمارية حريصة على الدين حرصا كبيرا ، حتى ان الحاكم العسكري يستعمل بقدر التعبيرات القرآنية ، من اجل فرض طاعة دينية تضاف الى الطاعة الدنيوية التي يملكها على القرية عن طريق جهازه القمعي .

فهو حين يخاطب رابح يقول له بلغة الحكماء العارفين

" قال تعالى : واطيعوا الله واولي الامر " (٧١)

في آخر الرواية يعود الاخوة الثلاثة ابناء رمضان الى " تاسكا " محملين بفكر جديد سيقلب القرية رأسا على عقب :

فاذا سليمان (العامل الزراعي المعلم) يعود بانتماء وطني وحزبي " ، ليبدأ ممارسة السياسة ، ذلك الغول الخطير في رأي اهالي القرية وليبشر بايديولوجيا وطنية

ولمواجه السلطة الفرنسية واعوانها من الاهالي الذين انفصلوا عن الاهالي بحكم مواقعهم الطبقية (تودرت) البديدة ويعود محند - الاخ الثاني ، مسلولا ، بعد ان لفظته معامل " رونو " ، التي اشتغل بها فترة طويلة ، عاد هو الآخر معبئا بتجربة سياسة وطبقية هامة ، مما يدفعه لقتل " تودرت " رميا بالرصاص من فوق السطح وهو يلفظ انفاسه الاخيرة ، وهو الذي يقف في وجه الاب حين يرغب الاخير في ارسال ابنه الصغير الى فرنسا ، ليعمل هناك ، اذ يقول محند لاخيه :

" افهم يااخي ، ان تموت على يدي خير لك من ان تصاب بالسل ، على الاقل لن تتعذب ." (٧٢)

اما ازرقي فبعد تجربة حرق الكتب ، وتجربة الحرب في ايطاليا ضد المانيا يعود من هذه الحرب مارا باريس حيث يلتقي ببعض الوطنيين الجزائريين هناك (الدكتور بلنوجه) ، وتقف " سبات العادل " هنا لتعطي صورة عن الظروف الصعبة والملاحقات البوليسية اليومية ، التي كانت تحيط بالتنظيمات الوطنية في فرنسا ، وكيف كان هؤلاء المناضلون ينفذون باحكام من كل الخطط البوليسية التي تحاك ضدهم وضد تنظيماتهم (٧٣) ولما كان " ارزقي " بورجوازيا صغيرا من سماته التردد والخوف والحلم ، وبما انه لم يتخلص نهائيا من رواسب الثقافة المثالية التي احرقها ، فقد كان مترددا في البداية من اعتناق الايديولوجيا الوطنية من خلال تنظيم حزبي ، ولكن ما جرى في القرية من اجتماع للحزب الوطني ، ووشاية تودرت بالوطنيين ، وموت محند ومقتل تودرت واعتقال الاب وسليمان وارزقي نفسه ، تنتهي حالة التردد لديه ، لتبرز له الحقيقة كاملة وجلية ، كون سنوات الحرب التي شارك فيها ابناء الاهالي الى جانب القوات الفرنسية ، لم تمح الفوارق العنصرية ولا الطبقية ، يقول ردا على القاضي في محاكمته الاخيرة " لقد وقع (هتلر) الهدنة بالنسبة للجميع لكن ليس بالنسبة لي "

يجيب القاضي :

" أبريد السيد (الكلام موجه الى ارزقي) " هدنة خاصة به ، هو وحده . . "

" الحقيقة التي يجب ان تقال لقد كنت اتمنّى ان يكون السلام اليـــوم

من أجلي كما هو من اجل الآخرين . . (٧٤)

وهكذا ان تدخل الايديولوجيا الوطنية تلك المنطقة ، عبر مواقع اجتماعيـــة

لثلاثة اخوة : مثقف (أرزقي) وطفل زراعي (سليمان) و (محمد) العامل

الصناعي المغترب : لتتكوّن اول بذرة لتنظيم وطني في " تاسكا " .

واذا القرية تشعر بالحرب على الابواب واذا كل الناس غارقون في الحديث

عن شيء جديد مقبل على القرية .

"سيطلع ضوء فجر جديد على هذا الظلام الذي يلّف الدنيا (٧٥)

=====

يقول معمري معلّقا على طريقته في هندسة روايته :

" لقد كان تخطيط عالم " الافيون والعصا " . . . اشبه ما يكون ببناء السمفونية ، (فبناءات اشبه) بمؤلف موسيقي ، حيث تساهم عدة عوامل تبدو مختلفة في ظاهرها على الايحاء بتناغم عام . ." (٨٠) .

وان ما يميز معمري عن الكتاب الفرنسيين ذوي الاصول الجزائرية ، هي تلك الروح المحلية الخارقة في الصدق والفارقة في دقائق الحياة اليومية . وتلك القدرة على اكتشاف الذهنية الخرافية والشعبية بكل مضامينها الساذجة والحالمة .

ولقد اعتبر الباحث المغربي الدكتور عبد الكبير الخطيبي ، مولود معمري ، رائد الرواية النفسانية في ادب المغرب العربي ذي التعبير الفرنسي (٨١) .

واما اعتمد معمري اسلوب التحليل النفسي لكثير من شخوصه ، فقد استطاع ان ينقذ روايته (سبات العادل) من التسجيلية والتقريرية التي كان من المنتظر ان تكون ضحيتها ، خاصة حين تناولت وقائع الحرب (الدسيسة والهجوم واسماء الفيالق والاماكن والمسافات والكمائن) الحرب العالمية الثانية (٨٢) والذي عمق البعد النفسي هو ارتكاز الرواية في هذه الفصول على التجربة الذاتية التي عاشها الكاتب نفسه حسب ما تؤكده سيرته الذاتية (٨٣)

كما ان اعتماد الرواية على الاسطورة (اسطورة هاند) اسطورة اللعنة ، والتي يمكن تلخيصها كما يلي :

١- كان هاند عما وكان له ابن واحد هو " علي "

٢- كان اخوه " ازواو " فقيرا ، وكان له عدد من الاولاد .

٣- بقدر ما كان غنى " هاند " يزداد كل يوم بقدر ما كان الفقر يشتد على اخيه " ازواو " واسرته ، والى ان شبت نار الغيرة والحسد في قلب ازواو وابنائه .

٤- نتيجة لذلك ، قتل عمروش " وهو احد ابناء ازواو ابن عمه " علي " ابن " هاند "

٥- قبل ان يلفظ الابن " علي " النفس الاخير افشى اسم قاتله لابيه ليثأر له حسب قانون " الرقبة " المتبع في القرية .

٦- وثأر الاب (هاند) لابنه بأن قتل اخاه ازواو " وكل ابنائه .

٧- ونجا من العائلة كلها ابن عمروش " الرضيع الذى منعت التقاليد هاند من قتله ، لانه كان بين يدى امرأة ، اذ لا يجوز قتل من يحتمي بالمرأة حسب الاعراف السائدة .

قالت الام حين همّ هاند بقتل رضيعها

" ابتعد انه تحت حمايتي وانا امرأة . لا يجبان يقتل امام عيني امرأة

واستفاق هاند ، كما في الحلم ، حقا لا يجوز ان نقتل امام امرأة ، فمن يقتل رجلا في حماية امرأة سيكون مهدور الشرف الى الابد " (٨٤)

ومن يومها نزلت اللعنة بأبناء هاند ، لما ارتكبه جدهم من جرائم في يوم الثأر وهي تطارد كذلك ابناء ازواو لان جدهم هو الذى تسبب في المجزرة .

ومن خلال الاسطورة كان معمرى يريد ان يقدم ذلك التسويغ الخرافي للفقر الذى يعشش في القرية ، برده الى لعنة " هاند " ، دون البحث عن مسببات الفقر الحقيقية الذى هو الاستعمار .

ولكن الاسطورة بدت برغم قوتها ودرامتها غير مرتبطة بشكل قوى بالرواية كلها ، وبدا معمرى فيها وكأنه يمرر عضلات كاتب يدرك جيدا الثقافة المحلية وفلكلور المنطقة التي يكتب عنها ، وقد بدا الفصل الخاص بأسطورة " هاند " منفصلا او مبتورا الى حد ما عن جسد الرواية ، محتفظا بقوته من داخله .

وليس معمرى وحده هو الذى وظف الاسطورة ، بل سبقه اليها " فرعون " باسطورة " تمراري " تلك التي تقول ان شهر " فبراير ، اعار يناير يوما من ايامه ليعاقب عجوزا في جبل جرجرة واصبح يسمى هذا اليوم " امرد هيل " وهي كلمة بربرية معناها الاعارة (٨٥) . اما كاتب ياسين فقد وظف اسطورة " قبلوت " الجدّ الاول الذى يحرس القرية بعد ان هاجرها اهلها نحو المدينة ، ولعلّ كاتب ياسين هو اكثر من رتق توظيف الاسطورة في البحث المستمر عن الاجداد والوطن .

وارتبطت العلاقات الانسانية (الحب والزواج) في روايات معمري ، بالعمل الذي تمارسه المرأة داخل هذا المجتمع المتخلف (الشقي _ نفغرالزيتون ، الحطب الحرث . . الخ) فجاءت علاقة الرجل بالمرأة مرتبطة بمتطلبات الحياة وفي جدل معها ، ولذا جاء الخطاب عن جمال المرأة والحب مرتبطا مباشرة بالطبيعة وهذا نجده عند فرعون كذلك .

قال احمد هم في وصف ذهبية :

" لاتزال في فصل الربيع يامقران والتين لم ينضج بعد ، وفاكهته اللذيذة ليست لك على كل حال " (٨٦)

فشبه الكاتب جمال (ذهبية) بـ (التين) باعتبارها الفاكهة الاكثر تنـــاولا وزراعة في منطقة القبائل ، وقد يندر هذا التشبيه ، اذ اعتاد الكتاب ان يصفـــوا جمال المرأة بالوردة او التفاحة او القمر . . . الخ .

ورغم ان روايات معمري تتناول واقعا ما يزال يرزح تحت ثقل المعتقدات الخرافية والقيم البالية . . . الخ فانها استطاعت ان تفك الحشمة التي غرق فيها فرعـــون ومحمد ديب .

يقول ديب : " في وسع الانسان ان يقول الكثير حول موضوع الحب . . . لكـــن مجتمعنا ما زال متخلفا وبالاحرى متعصبا ، اذ انه يعتبر العاطفة والسلوك والكلمـــة كأنها اشياء معيبة ومخزية " (٨٧) ويبدا الجنس واضحا في الرواية ، غير مرتبـــط بالاثارة كما في الروايات العاطفية الاستهلاكية ، بل بدا جزءا من العلاقـــــات الانسانية .

وعلى مستوى اللغة والتراكيب ، نصادف داخل الخطاب الروائي سواء عند فرعـــون او معمري ، كلمات بربرية او عربية مرتبطة بالاساليب القرآنية او " الوصـــــــلات " الدينية .

" بلغ سلامي الى كل من يسأل عني ، كبيرا وصغيرا كل واحد باسمه " (٨٨)

" ليعش مؤمنا ، وليمت مسلما ، وليغفره الله برحمته ويبعد عنه سبل الشيطـــان" (٨٩)

" لا تثق في اختك ولو اقسمت لك بـ " جند أُو مالك "

وتتميز بعض فصول " سبات العادل " بأسلوب السحرية اللاذع ، ذلك الاسلـوب الذي يقدّم الحقائق مقلوبة ، وفي شكلها الهزْلي ، كتلك اللقطة التي يحرق فيهـــا ارزقي كتبه ، وذلك الطابع الاستفهامي الانكاري الذي كتبت به الرسالة الموجهة الـى السيد " غوستاف بواري " . .

النزعـــة الرومانتيـــــــــــــة

و

البـــرجوازيـــة الصغيـــــــــــرة

دراســة فــي الادب الروائي لمالك حداد

=========

=======

ارتبط اسم مالك حداد، الروائي والشاعر، بالثورة الجزائرية، ارتباطا وثيقا، وقد زاد من متانة هذه العلاقة تصريحات الكاتب نفسه في كل مرة حول ضرورة الجدل العضوي بين الفن والواقع، كما ان تمزقاته الذاتية حول "اللغة" التي كان يبديها في كل مناسبة، سياسية اوادبية، شجع النقد العربي القومي على الاهتمام بمالك حداد ربما اكثر من غيره، كما كان في المغرب، وتكبير صورته وصوته.

السؤال الذي سنطرحه في هذا البحث: الى أي مدى ارتبطت روايات مالك حداد بالحرب الوطنية التحريرية كظاهرة اجتماعية - تاريخية، وكيف تجلى هذا الارتباط او الانعكاس شكلا ومضمونا؟ والى أي مدى اثرت الحرب التحريرية في مالك حداد كمثقف جزائري؟ ومن ثمة ما هي الهموم السياسية والاجتماعية والثقافية التي حملتها اعماله الروائية.

بادئ ذي بدء نقول: لقد تناولت روايات مالك حداد كلها، دون استثناء الحرب التحريرية، من قريب او بعيد، وهي كلها، كذلك، نشرت وكتبت في مرحلة الحرب، أي ما بين (١٩٥٦ - ١٩٦١)

الانطباع الاخير (١٩٥٨)

سأهبك غزالة (١٩٥٩)

التلميذ والدرس (١٩٦١)

رصيف الازهار لا يجيب (١٩٦١)

ولهذا التوقيت، دون شك، دلالة الجمالية والمضمونية والنفسية على شخصية مالك حداد المثقف المستعمر، ومن ثمة على اعماله الروائية، اذ بدت هذه الحرب حاجة تلمس من داخل المبدع في دوامة من المشاعر والعواطف. ان الحرب وشخصية الكاتب نفسه، والمنفى والضياع والتمزق والغموض هي المحاور الاساسية لكتابات مالك حداد، تنتقل بنفس القوة والضعف من عمل الى آخر، مرتبطة

ومتمحورة داخل العمل الواحد ، او الاعمال جميعها " بحب الوطن " كحلقة ترتبط بها ، وتنطلق منها كافة الحوارات والموضوعات وحتى سيل اللغة ، من اجل تشكيل هندسي معين .

لقد أعلن مالك حداد مرارا عن شعوره بالنفي داخل اللغة الفرنسية التي يكتب بها ، بل ويعتبر اكثر كتّاب المغرب العربي - الذين يكتبون باللغة الفرنسية - حساسية للغة ، وعبارته التي اجاب بها غابرييل اودبسيو ، معروفة ومتداولة في كل النقد القومي خاصة : (اللغة الفرنسية منفاي) . انه يعاني - على حدّ قوله ، لانه لا يستطيع ان يخاطب مواطنيه بلغتهم الوطنية : " انني غير قادر على التعبير بالعربية ما أفكر فيه بهذه اللغة " وهو يعيش المأساة حين يشعر انه محكوم بالكتابة بهذه اللغة الاجنبية والتي تغلق من الكاتب - على حدّ قول مالك حداد نفسه - : " يتيم القراء " (ORPHELINDES LECTEURS) (١) اذ تمثل جدارا اسمنتيا بين القارئ والكاتب (٢) .

ان مالك حداد داخل هذه الازمة اللغوية والنفسية ، يكتب ليبين استحالة الكتابة الا انه في الوقت نفسه يرغب ان يكون الناطق باسم الثورة الجزائرية ، ولكنه لا يتحمّل أي شيء حتى النهاية : لا انتحار الادب ، ولا الادب الثوري ، وبذلك يظل انتاجه على حدّ تعبير الدكتور عبد الكبير الخطيبي معلقا بدلال لغوي ، وتصبح الرواية عنده ضربا من الحديث ومجموعة خواطر مختلفة عن وساوسه (٣) تدور في فلك مشاعر الكاتب الذاتية .

ان احساس مالك حداد بأزمته اللغوية ، واعتبار نفسه كائنا مشوها ، كما عبر عن ذلك الباحث التونسي : صالح القرمادي حين قال : " ان انسان العالم الثالث مهما كان انجلوفوني (ANGLOPHONS) او فرنكفوني (FRAUCOPHONE فانه يبدو مثل كائن مشوه " (٤) وهو الذي جعله يسكت عن الكتابة ، اذ تركها

بعد الاستقلال بشكل قاطع ،ولم يكتب سوى بعض الاشعار القليلـــــــة (١٩٦٢-١٩٧٨) تحت الحاح بعض اصدقائه . لانه على حد تعبيره ادرك ان اللغة الفرنسية تبقيه بعيدا عن الجماهير في الجزائر ،ولا تمثل هوية الجماهير احسن تمثيل ،وقد اعلن بنفسه في محاضرة القاها بدمشق عن ذلك :

" نحن الكتّاب الجزائريين الذين نكتب باللغة الفرنسية ،يجب ان ننتهي عندما نتحرر الجزائر لان مهمتنا تنتهي آنئذ .

اني اعتقد ان الكتابة هي شكل من اشكال الجنون الواعي ! (٥) ولذا لا يمكن بتلك السهولة التي وصفها مالك حداد التخلّي عن همّ الكتابة ،ان تخلعها عـــن جلدك مثل قميص لم يعد صالحا لفصل من الفصول . اذ لا يمكن لاديب مسكــــون بالكتابة وواع بأهميتها الجماعية والتاريخية والذاتية ،ان يتوقف عنها بقرار يتخــذه ذات استقلال !

والارجح في ان صمت مالك حداد ،يعود الى ان الكاتب لم يستطع التجـــاوب مع مرحلة ما بعد الاستقلال . في ظل الصراعات الجديدة والمعقّدة التي حملهــــا نهر هذه المرحلة : السياسية والاجتماعية والثقافية ،اذ ان وسائل التحليل التــــي اعتمدها الكاتب في رواياته الاربع ومقالاته الصحفية التي كتبت خلال فترة الحــــرب، لا تؤهله لخوض معركة الواقع الجديد بزخمه وعنفه وغموضه .

ان صمت مالك حداد عن الكتابة ليس صياما عنها . بل هي سكتة ادبية ،بـــكل ما تحمله هنا كلمة "سكتة" من معنى سياسي وادبي ومعرفي .

ان اغلب الكتّاب الذين كتبوا قبل استقلال شعوبهم سواء من الجزائريين او التونسيين او المغاربة واصلوا الكتابة من موقف التزامهم بقضايا شعوبهم الاجتماعية والسياسية .

يقول الكاتب والمناضل المغربي : محمد خير الدين موضحا موقفه :

" اكتب بالفرنسية او الصينية او بأية لغة اخرى ،ليس مهما ،المهم انك عندما تكتــــب

علينا ان تخلق تواصلا . فاذا سيطرنا على اللغة ،وتمكنا منها جيدا ،تصبح هذه اللغة هي نفسها مبهجة وممتعة ... وبالنسبة لي فان اللغة لا تحمـــل اى لون سياسي .. ان اللغة وسيلة تعيش وتموت " (٦)

ان المشكلة ،اذن ،هي مشكلة " توصيل " و " تواصل "،هذه العملية التـي لا تعني (فقط) أن يكون الكاتب مقروءا من قبل جمهور واسع من ابناء بلدته ، وان كان ذلك ضروريا،لكن ظروف ابناء الجلدة التي تشكلت عبر حقب تاريخيـــة متعاقبة من الجهل والامية لن تحقق امنية المبدع ابدا ، (بالعربية او الفرنسية) ، ان الشرط الاساسي في هذه الحالة هو ان يحقق الفنان من خلال عمله كمثقـــف عضوى طليعي ،وعيا وصدقا فنيا عن هذا الواقع الذى يكتب عنه ومن خلالـــــه . وهنا يكمن الفرق الواضح بين ما اسماهم : رولان بارت : (LES ECRIVANTS) الكتبة و (LES' ECRIVAINC) الكتّاب .

ويرد الشاعر التونسي منصف غاشم على صمت مالك حداد قائلا :

" انني لا اتفق مع اولئك الذين ينادون بقطع العلاقة مع اللغة الفرنسية والتوقف عن الكتابة كما فعل مالك حداد " (٧)

أما الكاتب المغربي الطاهر بن جلون فيحدد هذه الاشكالية بشكل اكثـــــر دقة اذ يقول :

" انني اكتب بالفرنسية التخيل والواقع العربي ، لانني امتطي حصانا لعالمين لثقافتين ،واني اتوجه الى هؤلاء واولئك " (٨) .

ويوضح مسألة طالما غابت عن مالك حداد ،وعن كل من سقطوا في حبائل النقــــد القومي الحماسي البعيد عن فهم وقراءة الظروف التاريخية العامة والخاصة (٩) اذ يقول بن جلول :

" .. وقد يكون هناك مثقف بالعربية ،ويفكر تفكيرا غريبا ، لا علاقة له بالواقـــع الذى يعيش فيه " (١٠)

ان اللغة رغم انها تحمل سمات الثقافة والفكر التي تنتمي اليها ، وتحمل بذور التاريخ الحضاري الذي صاغها ونسقها عبر عصور تاريخية سحيقة ، فان جهد الفنان يكمن في "لي عنقها" وتخريبها تخريبا تفرضه المصالح التاريخية واللحظة التاريخية والتشكيلات الجمالية المحلية ، وهو وحده الذي يؤكد انتماء هذا الانتاج او ذاك الى هذه الحضارة او تلك .

اما الكاتب العالمي الجزائري كاتب ياسين ، فقد حل مسألة اللغة بطريقته الخاصة ، هذا الحل الذي جاء بعد خبرة ربع قرن من الابداع الروائي والشعري والمسرحي ، اذ اعتمد الكاتب اللهجة العامية ، في كتابة نصوصه المسرحية خاصة ، وقد كان هذا الموقف تحديا ضد الموت ، ضد السكتة التي سكت بمالك حداد .

ان المنفى الذي نشعر به في كل نصوص مالك حداد الابداعية الروائية والشعرية وفي مقالاته ، هو في كثير من المرات ، منفى ذلك ان البورجوازي الصغير الرومانسي المدلل ، الذي يشعر بالضياع لحظة انهيار مرحلة تاريخية كاملة . خلقت مجده ... مرحلة تاريخية تحمل معها نساء فرنسيات معجبات بهذا الكاتب المثقف جرمين " في " التلميذ والدرس ، مونيك في " رصيف الازهار لا يجيب " و لوسي " في " الانطباع الاخير " و " غردا " الالمانية و " جيزال " في " سأهبك غزالة " ، وكلهن يحملن قسمات فرنسا .

ان مالك حداد لم يوضع لحد الآن موضع التقويم النقدي الجاد بعيدا عن النزعة القومية التي دافعت عنه بحماس من خلال ما نشره هنا وهناك من مديح للعربية ، وكذلك النزعة الثورية ... التي ربطت بشكل ساذج بين الكاتب والثورة ، فكانت الكتابة عنه هي الكتابة عن الحرب التحريرية والعكس صحيح .

لقد ادرك بعض المثقفين مبكرا افتعال ازمة المنفى عند مالك حداد خاصة ، لان هذا بخلاف طبيعته نسبي بعض الكتاب الآخرين لا يقوم على فهم تاريخي واع ، بل على كليشهات سياسية عامة وفارغة ، ولقد كتب محمد خير الدين معلقا على وجوده في باريس مدة طويلة وكتاباته بالفرنسية .

" انني في فرنسا . . ولكني مسافر فقط ! " (١١)

ان موقف مالك حداد من اللغة موقف مسطح ، وحماسي ، قد يكون ايجابيا على المستوى السياسي في مرحلة معينة ، اما لو دققنا النظر فيه ، خاصة من خلال " التلميذ والدرس " وهي اكثر رواياته نضجا وتماسكا ، نجده يصور " دفاعه " عن العربية من خلال الموقف الذي يبديه الدكتور صلاح ادير الذي يحضر حفلة الى جانب الارستقراطية الفرنسية والبورجوازية الكولونيالية والقائد العسكري للمنطقة: ان يرفض اجابة القائد العسكري لدوار بن يوسفي باللغة العربية قائلا :

" اجبته بالفرنسية ، على مبدأ لاني اتحاشى ان اشارك كائنا احتقره بالرباط الاخوي الذي تخلقه اللغة المشتركة " (١٢)

ان موقف مالك حداد شكلي ومراوغ ، فهو لا ينقد موقفه ووجوده بين هؤلاء القوم ، هذا الموقع الذي هو موقف البورجوازية الاهلية خديمة الاستعمار ، والتي حاولت منذ صنعها الرأسمال الكولونيالي بالتعاون مع المتروبول ، ان تكون وسيطا بين المستعمر (السيد) والمستعمر (المضطهد) على اساس الايمان بهذا الواقع وترسيخه في وعي الجماهير الفقيرة والمفقرة . ان موقف " ادير " بين الاوروبيين هؤلاء ، هو موقف سياسي واجتماعي طبقي ، ومع ذلك يبتعد الكاتب عن محاولة تعريته ، لينتقل الى اشعار القارئ مرة اخرى باللغة العربية وسر ورثتها ، والتحسر عليها وهو هم حقيقي ما في ذلك شك الا اننا نعتقد ان لا وجود للغة بعيدا عن الموقف السياسي والاجتماعي. امامهما فلا مانع عند ادير ان يتحدث الى قائد الناحية العسكرية بالفرنسية وان يتعامل معه على هذا المستوى ، لكنه يرفض ان يحدثه باللغة العربية ، وكأن اللغة العربية لغة مقدسة .

===

أن رؤية العالم هي نظرة متماسكة شاملة حول مجمل الواقع وهي نظام التفكير الذي يفرض نفسه في ظروف معينة على مجموعة من الناس الموجودين في ظـــروف اقتصادية واجتماعية متماثلة . .

ثمة بلا شك فرصة كبيرة كي يتأثر فكر الاديب بالوسط الذي يتصل به مباشـــرة . . (من هنا) قد يكون لسيرة الحياة اهمية كبيرة ،على المؤرخ الاديب ان يتفحصها دوما بعناية ،كي يعرف ،في كل حالة نوعية ،المعلومات والتفسيرات التي يمكن السيرة ان تقدمها له . . . (١٣)

ان العالم الروائي عالم مغلق يحول بينه وبين العالم الحقيقي حيز . فالقـارئ او السامع لحظة انشغاله الى عالم الرواية ينفي وجوده ،ويذوب في ذلك العالـــم الذي يخضع لقوانين خاصة ،ومنطق معين (١٤) .

هل حققت ـ فعلا ـ اعمال مالك حداد الروائية هذه العلاقة بين الواقع والفن ؟ وهل حقق الفن " الحدادي " اسسه وقوانينه الخاصة التي يتحقق عبرها نقل هـــذا الواقع في اشرق لحظاته وفي اكثرها عتمة ومأساة ألا وهي لحظة الحرب .

في رواية " الانطباع الاخير " في خضم الحرب يحب سعيد المهندس الجزائـــري الفتاة الفرنسية " لوسي " ،فيرى الحياة وردية في ظل هذا الحب ،ويرى الحياة لا طعم لها ولا لون ولا وجود بدون لوسي . يكلف سعيد من قبل الجبهة بمهمة نضالية هي نسف احد الجسور التي عمل هو نفسه على بنائها . لكن سعيدا وهو يقـــدم على نسف الجسر يدخل في مونولوج طويل ،يستغرق اغلب الرواية ،اذ يرى من خـــلال هذا المونولوج ان هذا الجسر لابد وان يبقى قائما ،لانه هو الذي بناه ،ولان هـدم الجسر هو هدم كل العلاقات التي تربط الجزائر بفرنسا . ولان هدم الجسر يعنـــي كذلك قطع حبل الحب بين لوسي الفرنسية وبينه .

وفي هذا المونولوج يتجلى بشكل واضح الموقف المتردد للبورجوازية الوسيطة الجزائرية المتكونة من الموظفين السامين (الاطباء – المهندسين ،التجار، تروستيين .. الخ) داخل الثورة التحريرية وبالتالي خوفها من قطع العلاقات و " الجسور " بين الجزائر وفرنسا ،لان وجودها مرتبط اصلا بوجود الطرفين (الجزائر وفرنسا) وبقاء الحالة كما هي عليه .

في الاخير ينسف سعيد الجسر ليعبر بدافع نضالي ،بل بموقف يطلوه التردد .. ويتحطم الجسر تقتل لوسي بباريس ، فيرحل اليها ليضع على قبرها باقة من الزهور .

بعيدا عن التردد الذي سيطر على الرواية فشل حركة شخوصها هذه الحركة التي كان من الممكن ايجادها بكل سهولة داخل هذه الرواية نتيجة لطبيعة حدثها الرئيسي ألا وهو هدم الجسر ،فان الكاتب كان بإمكانه كذلك ،ان يقدم زخما سكيولوجيا غنيا . يستطيع من خلاله ان يعري نفسية المناضل في لحظة ضعفه او قوته الانسانيتين .

لقد اخفق الكاتب في بناء عالم روائي دراسي متماسك لانه ضحى بالحركة والحدث والزخم السيكولوجي ،لصالح تقوقعه حول الذات البورجوازية الصغيرة المترددة والدوران حول عواطفها ومشاعرها المغلقة ،هذه الذات التي هي جزء من ذات الكاتب نفسه ، لانها تحمل دلالات وقرائن كثيرة تشير الى انها شخصية تقترب من شخصية مالك حداد نفسه : فالبطل " سعيد " في " الانطباع الاخير " والدكتور صلاح ادير " في التلميذ والدرس " وشخصية المولف " في " سأهبك غزالة " وشخصية " خالد بن طوبال " في " رصيف الازهار لايجيب " كلها تلتقي في جملة من الصفات : (الثقافة + الادب + حب فرنسية + المنفى ... الخ) مع مميزات الكاتب نفسه من خلال سيرته الذاتية .

وتظل " الانطباع الاخير " حبيسة الوصف للطبيعة وعلاقتها بالذات الحزينة المأزومة ،دون تفجير حقيقي شامل للازمة الجزائرية في اطارها التاريخي ،وتظهر الثورة الجزائرية كظلال باهتة غائمة ،شأنها شأن شخصيات الرواية المنغلقة على اوامعها

الذاتية وهواجسها ومنفعتها الفردية . ان الهمّ الرئيسي في الرواية لمصر، محنة الجزائر وتجربتها مع الحرب والموت ، بقدر ما هي تجربة "سعيد" في حرب الحب مع لوسي ، رغم ما قد يبدو من "عبارات" و "كليشهات" جاهزة عن الثورة الجزائرية وعن "النضال" .. الخ .

اما في (التلميذ والدرس) وربما أعدُّها انضج واعمق اعمال مالك حداد الروائية ، وان كانت في اشكاليتها الرئيسية لا تخرج عن مجموع الهموم التي حملتها جميع مبدعاته الروائية : / المثقف ـ المنفى ـ الوطن ـ الموت ـ الحب الرومانتي المفرنسة ـ التمزق ' ـ القلق ـ الغموض .. الخ / وهي صفات فكرية من صفات البورجوازية الصغيرة والوسطى / التي شكلها النظام الرأسمالي الكولونيالي " في الجزائر / ، ونفس مواقفها : السياسية والاجتماعية والثقافية والسيكولوجية وتتمحور هذه الصفات مباشرة حول الشخصية المركزية في الرواية ، هذه الشخصية التي تحمل في كا مرة قرائن تدل على انها تعب من سيرة الكاتب الذاتية ، وليس عيبا ان يكتب الفنان تجربته ، لكن المهم ، ما وزن وثقل هذه التجربة داخل الفعل التاريخي الاجتماعي وما دورها في ابراز هذا التفاعل والفعل داخل التاريخ .

تمتد " التلميذ والدرس" على مدى (١٢٠ صفحة) ، من خلال زمن ضيق جدا هو لقاء يتم بين الطبيب الدكتور " صالح ادبر وابنته فاضلة " ، في مكتبة بمدينة صغيرة بفرنسا يقيم بها الدكتور " ادبر " منذ ١٩٤٥ ، ولهذا التاريخ في حدّ ذاته دلالات سياسية وتاريخية كبيرة في التاريخ الجزائري المعاصر ، وهو التاريخ الذي يجعلنا نشدّ الى الرواية من الاول ، والى هذه الشخصية المركزية (ادبر) التي يرتبط وجودها في هذه القرية الفرنسية بعيدا عن الوطن ، بهذا التاريخ ٨ ماي ١٩٤٥ : الذي يعدّ علامة فارقة داخل مسيرة حركة التحرر الوطني الجزائرية اذ انها اول بداية امتحان تجريب السلاح في وجه الجهاز القمعي الاستعماري ، وهي اول عملية تاريخية معاصرة في الجزائر خلّفت خمسة واربعين الفا من الشهداء

من جراء صدام مسلح بين الاهالي بقيادة الحركة الوطنية الجزائرية ، والجهاز الاستعماري .. وهي اهم علاقة نضالية خلال الفترة التي سبقت اندلاع الحرب التحريرية بشكلها الثاني ، استطاعت ان توثر جماهيريا ، وان تشحذ الوعي لدى المواطنين وادراك انهيار مرحلة تاريخية طويلة . وبهذا التاريخ مرتبط كذلك نمو الادب الجزائري الثوري ، في كل اجناسه : قصة - رواية - شعر (بالعربية والفرنسية) ، لان هذا الحدث كان في مستوى استطاع ان يدق بحق ابواب الوعي المتقلبة او المشوهة .

" انا ادعى ادير ... علاج ادير " الدكتور ادير ، اقطن بلدة صفصيرة ، من فرنسا ، وسني منذ ١٩٤٥ .. (١٥) .. (ماي) .. شهر الشر ، سنة الشقاء ، الطقس الجميل ، الذى يأتي بالفاقمة ، الذى ينزل الدموع ، ذلك الشهر ، ذلك اللعين بين كل الشهور .. ذلك الجحيم .." (٢٦) .

من خلال هذا اللقاء بين الدكتور ادير وابنته فاضلة تتقدم الرواية عبر احداث تجرى في اللحظة الزمنية نفسها ، موت الدكتور كوست صديق الدكتور ادير بالسرطان ، مواجهة فاضلة لابيها السبب طالبة منه ان يجهض الطفل الذى في بطنها لان الظروف لا تسمح بانجاب اطفال ، ويعود هذا الطفل الى أب هو : عمر ، الطالب الجزائري المسير وصديق فاضلة ، وعضو الحزب الشيوعي الفرنسي ، والذى يعيش في ظروف ملاحقات من قبل البوليس الفرنسي ، كما تطلب البنت من ابيها ايواء عمر الملاحق في هذا البيت اذ لا توجد شكوك حول قول شخصية الاب لدى السلطات الفرنسية بل انها تثق فيه وتعتبره جزءا منها .

من خلال هذه المواجهة بين الاب وابنته ، يعود الاب عن طريق الذاكرة ، الى فترة تعود الى ثلاثين سنة خلت ، ليعرض الجمال الطبيعي للجزائر ، ويعرض بعض الاوضاع الاجتماعية الصعبة التي كان الاهالي يعيشونها في " دوار بن يوسف " الذى اجتاحه مرض التيفوس والمجاعة ، ويستعيد ايام جرمين " الفرنسية التي احبها ،

في حين يذكر زوجته " سعدية " ببرودة ، تلك التي ماتت في مصحة للامراض العقلية ، والتي كان يحبها مثل اخته "..

في رواية " التلميذ والدرس " ينفتح عهد جديد من الحوار بين جيلين ، ويواجه القارئ بوضوح وضعا مقلوبا ، فالاب يصبح التلميذ ، في حين تأخذ البنت دور المعلم . وان" الجيل الجديد يقود القديم ، فها هي فاضلة تتحدث الى والدها بلهجة آمره ، وبصراحة جريئة ، فهي تطلب من ابيها ان يساعدها على التخلص من جنينها وعلى اخفاء صديقها عمر عن اعين البوليس الفرنسي الذي يلاحقه ، ويبدو الاب مستغربا مستنكرا موقف الابنة ، فيتذكر الزمن الذي كان فيه الاطفال يحدثون اباءهم باسلوب كله ادب واحترام (١٧) .

تتوزع الرواية ثلاثة أزمنة ، بعضها يرتبط بالوقائع التي تجري في لحظة المواجهة بين الابنة وابيها ، وهو الحاضر ، واما الماضي فيعيشه من خلال ذاكرة ادير التي تبحر نحو سنوات بعيدة مبهجة ومشتتة ، لان هذا الماضي وحده الذي يحترم ادير .. اما المستقبل فيتجلى مسربلا في ضباب وقتامة حتى ليبدو معدوما بحكسه واقع حاضر ممزق وقلق .

وتتحدد شخصية " ادير " من خلال مجالين اساسيين يتعلق بهما المجال الفرنسي — والمجال الجزائري ، فاذا هي تلخص جيل المأساة جيل التمزق او بشكل ادق الطبقة الاجتماعية الوسيطة المشكلة من الموظفين المتوسطين والسامين (المهندسون الاطباء — التجار المفتشون — ارباب العمل) من الاهالي ، المرتبطين مباشرة بجهاز الادارة الاستعمارية ، وتتميز هذه الطبقة بخصائص فكرية واجتماعية وسياسية يهيمن عليها الخوف من لحظات الانقلابات التاريخية العنيفة التي تؤدي الى قلب او خلخلة الهرم الاجتماعي ، اذ ترغب هذه الطبقة داخل تقوقعها وخوفها الحفاظ على سمات هذا البناء الاجتماعي والسياسي اللامتوازن حتى تكرس مواقعها .

يمثل الدكتور ادير شأنه شأن سعيد المهندس في " الانطباع الاخير " نموذجا اشكاليا لهذه الطبقة الاجتماعية ، من خلال رؤيته المأساوية والمفجعة ، ومن خلال تشبثه بالماضي وبكائه عليه في كل لحظة يشعر فيها بان اعصار التغيير قادم . انه

ادير الذي ركب حصان الثقافتين والحضارتين الفرنسية والجزائرية (العربية ـ البربرية) ، (ان اسم ادير هو اسم بربري ولا يستعمل الا في بلاد القبائل) .

" شاء لي ان امتطي عصرين وحضارتين " (١٨)

" انا غربي في مظهري ... مظهري فقط " (١٩)

" وشاء لم كذلك ان يتمزق بين حبين : جرمين الفرنسية التي احبها وكانت في الاخير من نصيب قائد [illegible] العسكرية ، و " سعدية " زوجته التي يحبها مثل اخته .. والتي ماتت في مصحة للامراض العصبية وهي لا تمثل اكثر من الماضي المحلي الذي تجسده عن طريق بعض ممارساتها المشعوذة اللاواعية : السحر .. الخ .

يبدو ادير من خلال كل الرواية (وهو الذي يحمل جزءا من صفات مالك حداد) ذلك البورجوازي الممزق الموزع بين عدة اتجاهات : بين نفسه التي يجهلها (٢٠) والمستقبل الذي يغمض بين عينيه والماضي الذي يحميه (٢١) وبين هذه المدينة الصغيرة الفرنسية التي يعيش فيها غريبا (٢٢) والطبيب كوست الذي لم يستطع انقاذه من مرضه (السرطان) وبين ابنته التي اصبحت غريبة عنه (٢٣)

داخل هذا الاطار السيكولوجي ، تتجلى نزعات ادير البورجوازية الاصلاحية المترددة في شخصية كاملة الزيف من شبيهة لا تميزها سوى الرخاوة الشديدة (٢٤) ، انه يعيش على ذكرى ذلك الحب (لجرمين) الفرنسية زوجة القائد العسكري ، تلك المرأة التي تمثل بالنسبة اليه " الهة توحي له بالحياة والحرية " (٢٥)

انا عجوز واحب جرمين ، وحبي هو نفي للزمن ... ان ما تبقى لي من حياتي هو ملك لجرمين في الحرب والسلم ، في الخريف والربيع ، احب جرمين احببت جرمين وانا ابن ستة شهور ... احببتها قبل ان اولد ، لقد وجدت منذ ان احببتها " (٢٦)

وداخل هذا الحصار الذي يوجد فيه " ادير " يتجلى خوفه من الحرب وموقفه المتخاذل منها وان الحرب ممارسة تاريخية قبيحة ولا انسانية ، لكنها حين تكون مفروضة

على شعب من قبل رأسمالي كولونيالي مجهز بآليات فن فتاكة كحالة الجزائـــــــر ، فان هذه الحرب تتحول الى رديف للحياة والسعادة ، لا الى الموت والفناء .

انا اغار من الزمن المستقيم ، من الفوضى الكبرى ، من الحلول المتطرفة . . هكذا الحرب . لقد كنت دائما شديد الاعجاب بالطب العام لصبره وعناده وتأثيره فهـــو يهادن المرض ويحتال عليه ولكن بوقار ، انه دبلوماسي محض ، دون ان يتدخل ، ظاهريا على الاقل (. .) انه يحتقر العنف ، يستخدم بعد النظر ، ان رسالته في الخـــلاص هي ان يتلاءم مع الواقع . . . "

" ان الحرب تنتهي دائما بالفشل ، ولا يمكن لعملية مهما نجحت الا وان تترك آثارا وندبة " (٢٨)

هكذا يفهم ادير الحرب الجزائرية الفرنسية ، حرب التحرير الوطنية ، انها فوضى ، وضياع الوقت ، وانها دعوة الى الحلول المتطرفة ، وانها تنتهي بالفشل دائمـــــــــا (كتبت الرواية في عز سنوات الحرب التحريرية الجزائرية) .

يقف ادير موقفا غير واضح من طلب ابنته في اخفاء المناضل عمر الذي تلاحقـــــه السلطات الفرنسية ، وفي الرد على هذا الطلب يهرب الكاتب في غموض الكــــــلام الرومانتي ، وضمن من التعابير الوصفية التي لا تخدم الرواية بقدر ما تخدم هـــــروب الكاتب من اتخاذ موقف واضح .

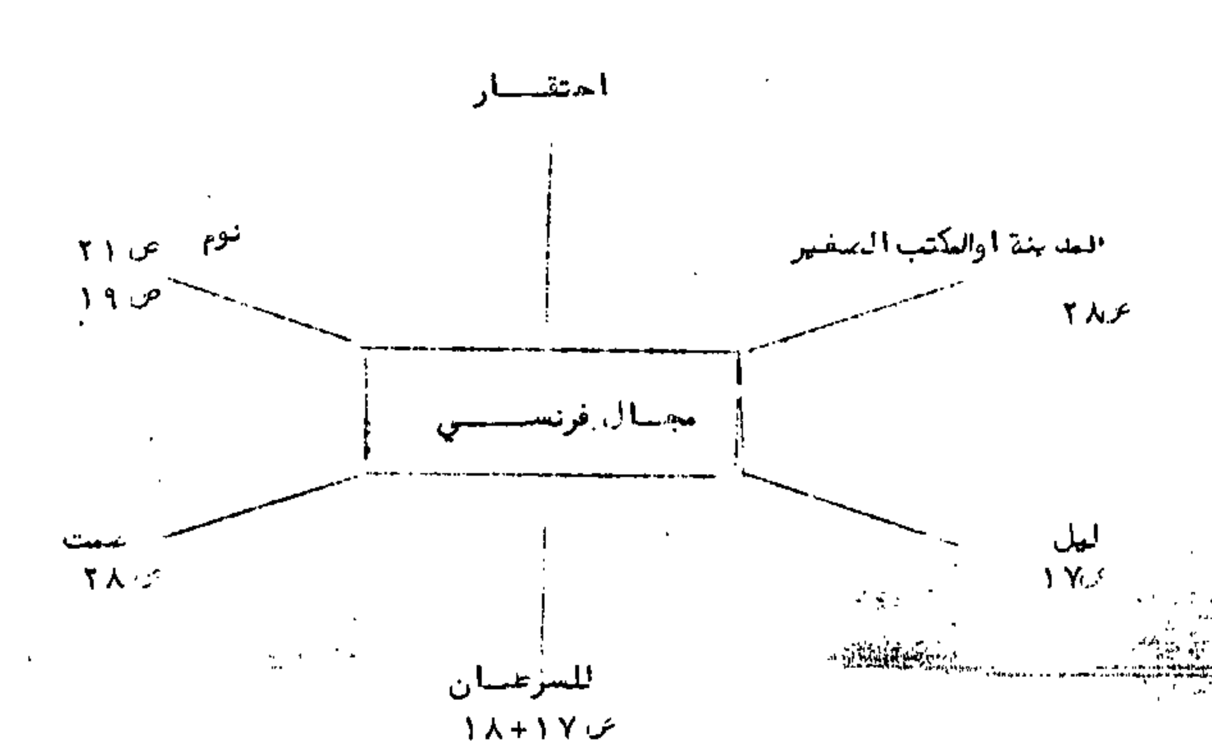
" اني عندما اقدم العون الى بطل الشعر الفتي اؤكد على الاحسان ، اكثر مما اؤكد على التعاون (. . .) وفي هذه الظروف يكون الاحسان سلبيا ، يصبح صدقة ، لانـــه يفقد بكل بساطة ضخامة وحرارة الغضب المشترك " (٢٩) .

يظهر ادير في الرواية ، من خلال حركاته وعلاقاته ، منفصلا وليس فاعلا في الاحـــداث التاريخية (الحرب الجزائرية) ، وان كل ما جمعه الروائي حول موضوعة الثـــــورة والمحنة والخوف والاستشهاد والبطولة . . الخ هي شذرات واخبارا ذات طابـــــع صحفي لا تدخل في صميم البناء الروائي في دراميته وهندسته الجمالية ، حتى لتبـــدو

هذه الاخبار والمعلومات نافرة ، لا تلبث ان تصبح داخل ذلك الحزن الرومانتي والمنفى الرومانتي ، وداخل ذلك الهروب الى احضان الطبيعة ومناشدتها ومناجاتها ، هـذا الهروب الذي هو خاصيّة من خصائص النزعة الرومانتية في الادب.

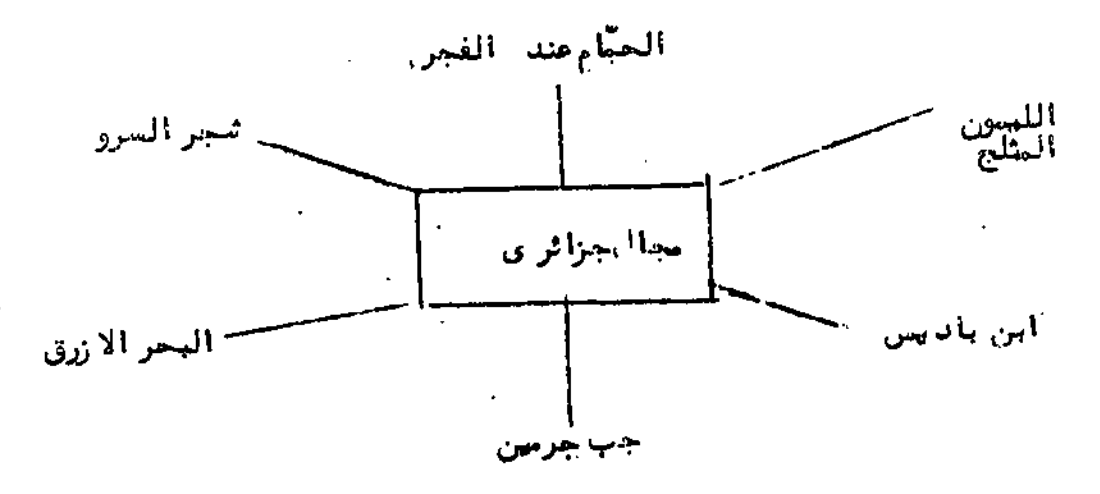
" انا كأ خريف ازحف مع الاوراق الميتة التي تطقطق في ازقة المدينة الصغيرة " (٣٠)

ان الدير يعيش داخل حصارين او مجالين ، المجال الفرنسي الذي يعيشه لحظـة مواجهة فاعلة له ، المتمثل في : موت الدكتور كوست بالسرطان والمدينة الفرنسيـة التي ينهشها الظلام والليل والصمت الكثيف . . الخ . وبذلك يبدو هذا المجـال الفرنسي مسدودا امام هذه العناصر الدلالية . . وقد بدا حتى حبّ " جرمين " حبّا محاصرا بالمعسكر ، اذ تنتهي جرمين في الاخير زوجة لقائد الناحية العسكريـة ويمكن تصور المجال الفرنسي كالتالـي :



اما المجال الثاني ،، فهو ذلك المجال الذى يتجلى عبر الذاكرة في تحليقها ، ومن خلال نسق تفكير البطل ، انه المجال الجزائرى = الجزائر الحدادية (نسبة الى حداد) ، وعبر هذه العودة وهذا الماضي ، نكتشف افتقارا لكاتب الى تحليل علمي للمجتمع الجزائرى وتناقضاته ، ولذا يرتبط المجال الجزائرى مباشرة بالثقافة التقليدية البالية ومباهج الحياة الهذخة (الليمون المثلج ـ الحمّام عند الفجر ـ البحر الازرق ـ شجر السرو . .)

ويمكن تصور المجال الجزائرى كالتالـــي :



تشكل هذه العناصر روءية رومانتية نكلورية بورجوازية ، فذاكرة ادير حين ترحل الى الماضي الجزائرى ، لا تتذكر فيه سوى ذلك الليمون المثلج الذى يسمع بالجذوية، والمتعة والاحساس بالفرحة والسعادة ، وذلك الحمّام عند الفجر ، وذلك البحر الذى لاحدود له . (لمس بحر محمد ديب ، في روايته : من يتذكر البحر : البحر الذى يلفي بمشربين جثة ، ويهدد المدينة . .) انه البحر الجميل الناعم الذى يشبه الانثى ويشبه اللذة .

" انها تنظر اليّ دائما . اما انا فانظر الى سروة قرب غابة. وليمون مثلج ، لقد رسم البحر ، من هذه الجهة ، طفل في مدرسة ابتدائية ، كانت الحرارة صفراء وفاضلة

تستحم للمرة الاولى في "انبلاج الفجر" خيّمت الزرقة على كل مكان وحول الظهر. كان في الشوارع الضيقة وفي كؤوس الليمون المثلج ما يشبه الفرح" (٣١)

ان هذه العناصر الروائية، لها دلالاتها السياسية والاجتماعية، فاذا كان الكاتب "الاخير يفكر في الليمون المثلج، وجرسين الجميلة، والبحر الهادىء الرومانتي، والحمام والسرو ... الخ فان ذاكرة محمد ديب وكاتب ياسين ومولود معمري، كانت محاصرة بدار سبيطار وفلاحي بني بوبلان (٣٢) وعمال الورشات والسجون ونجمة الخارقة (٣٣) وبلاد القبائل الفقيرة التي يأكل اهاليها زيت الزيتون والتين المجفف (٣٤). وشتان ما بين تفكير مالك حداد وتفكير هؤلاء الكتّاب الاخيرين.

وداخل هذا المجال الجزائري حين حاول الكاتب ان يصوّر الفوارق الطبقية، وان يقدم لوحة عن الخريطة الاجتماعية والسياسية لجزائر المرض والجوع والخوف والتمييز العرقي، كان الكاتب ضحية الاوصاف الطبيعية اكثر منها تمثله للحالات الاجتماعية، فاكتفى بالبكاء والتحسر على بعض المظاهر الاجتماعية المزرية التي يعيشها (دوار بن يوسفي): هذا الدوار الذي يبدو غائما شبيها بالظل في الرواية.

"لابد من القول ان شتاء ١٧٤٤ - ١٧٤٥ كان شتاء قاسيا جدا، سيد المعركة فيه الجرح والثلج كما كانت الشيشانيا وثياب السهرة سيدة الحفل." (٣٥)

"يبدو عالمنا الصغير اللامع كأنه سفينة عظيمة على بحر من المرارة .. وتكاثرت انحناءات الاحترام، وتبودلت الابتسامات المصطنعة" (٣٦).

ان اسلوب التوازي الذي حاول حداد ان يوظفه في هذه الرواية، بتقديمه لمشهدين متناقضين تناقضا اجتماعيا داخل المجال الجزائري، لم يكن دقيقا، بل سطحيا نتيجة لهروب الكاتب مرة اخرى الى حضن الطبيعة والحزن واختلاق التأزمات الذاتية الهامشية التي لاتؤدي في الاخير سوى الى الضياع والانزلاق خارج التاريخ الذي ينوي مالك حداد كتابته، ومن ثمة السقوط داخل حمّام اللغة والاوصاف التي تجرف الموقف خارج اطاره الصحيح وتنشر المشهد الى شظايا. ويلاحظ

داخل هذا المشهد تمكن مالك حداد من رسم الوسط البورجوازي اكثر من رسمه لوسط الاهالي الفقراء .

داخل هذين المجالين اللذين يتعاصران الدكتور ادير ، يطرح ادير مشروعا داخل الرواية ، يبدو له هو المنقذ والخلاص ، ويبدو هذا المشروع قريبا جدا من اطروحات " جمعية العلماء المسلمين الاصلاحية " ، وربما يرجع هذا التأثير على الروائي الى ان مالك حداد ولد وترعرع في مدينة قسنطينة . حيث نما هذا التيار الديني الاصلاحي ، وانتشر بشكل واسع وجماهيري وعفوي . . ويبدو هذا التأثير بهذه الافكار شكليا ، لم يتمثل عن وعي آراء الجمعية .

ما من شك في ان الجمعية الاصلاحية ـ خاصة بجناحها الوطني الثوري بقيادة ابن باديس / ـ خاصة في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وبعد تجربة المؤتمر الاسلامي " / كان يعي ما تمثله هذه الدعوة الاصلاحية من حفاظ على الكيان الجزائري وما تولده من ثقافة المواجهة .

وفي الرواية ، يأخذ الدين مفهوما سياسيا ، مرتبطا مباشرة بالشخصية الجزائرية ، اذ نلاحظ ان كل الحوارات التي تدور حول الاسلام ، هي حوارات سياسية وليست عقائدية دينية ، ولا تحمل هذه الحوارات المنحازة للاسلام الهجوم على المسيحية ، وفي هذا تتجلى هذه اللقطة الذكية في توظيف الاسلام توظيفا سياسيا وليس سلبيا .

ولكن حتى في توظيف الاسلام داخل الخطاب الروائي سياسيا ، كثيرا ما كان يأخذ مفهوما عاما وشعبويا ، اذ يقترن مفهوم " المسلم " بالوطني والمعادي للاستعمار بشكل مباشر ، الا اننا نعرف حملات الطرقية و بعض الزعماء الدينيين الاقطاعيين ، وكذلك دور " جمعية علماء السنة " التي انفصلت عنها " جمعية العلماء المسلمين " وكيف كانت تخدم الاستعمار من خلال توظيف هذا الاسلام نفسه .

اجاب ادير القائد العسكري الفرنسي ،حين دعاه الى بيته وقدم له كأســـا من الشمبانيا .

" لا شكرا ،أنا لا اشرب الكحـــول "

" انك لم تسلم —

لست حكيما ولكني مسلم " (١٧)

اذن رغم الطرح العام للاسلام في الرواية ،والذي حاول من خلاله الكاتب ان يبين دور الاسلام في الحفاظ على الشخصية الجزائرية من الاندثار والاذابان (٣٨) فـــان الاجهاض لم يناقش في الرواية على اسس دينية (٣٩) رغم كونه اشكالية رئيسية فـــي الرواية / اذ طلبت فاضلة من ابيها ان يجهض الطفل الذي في بطنها) ، / ولـــذا نجد الدكتور ادير لا يرفض القيام بعملية اجهاض الطفل القادم (الحفيد رمزا للمستقبل .

" ليس الله هو الذي يدعوني لرفض القيام بعملية الاجهاض (٤٠)

" انا لست الله الرحيم ،ومن كلف الله ليدفعني الى رفض عملية الاجهاض ،واللـــه لا يعنيني مباشرة ،فقد اعتدت ان اردد اني به آمنت لا بمحمد النه ،لقد رأيت كثيـــرا من الشقاء بل ومن الاشقياء " (٤١)

اذن كان الحوار حول قضية الاجهاض حوارا سياسيا ،لان هذا الطفل الذي ترغب فاضلة في اجهاضه يمثل بالنسبة للجد (ادير) القدر والخلاص والاستمرارية النقيضة وهو الذي يصنع التاريخ الجديد .

لقد ولد الابن في واقع بطنك ،وفي بطن التاريخ ،انه يعود بالفكرة الى حدودهـــا الحرق ،ينمو ويجعل الاشياء تنمو (٤٢) .

ان الطفل يحمل دلالات تاريخية عميقة ،رغم ان الكاتب اغرقه في حوارات واوصـــاف ذاتية رومانتية ،الا ان الخلفية والعلاقة التي انجبت هذا الطفل ،تبين وتكشـــف قيمته التاريخية والرمزية .

فهو ابن عمر وفاضلة ، الطالبين المواطنين والحسينين واللذين يمثلان اليقظة والوعي :

" انها عمر وفاضلة لا يدرسان كثيرا ، انهما يقرآن الجرائد ويهرمان بسرعة ، لان ابناء المصائب يكون سنهم دائما اكبر من سن سيدهم ، فان حبهما وشهاداتهما هي الجزائر " (٤٣)

فالدراسة بالنسبة لهذا النوع من الطلبة ، وفي مثل هذه الظروف التي تجتازها الجزائر ، ليست غاية ، بل وسيلة للتعرف على الحقيقة ، وبالتالي فان الطالب مستعد للتخلي عن الدراسة لينخرط في صف المقاومة (٤٤) .

ان ولادة الطفل عمل جرئ (٤٥) وتاريخي ، من هذين الابوين ، وفي باريس نفسها ، وان ولادته ترمز الى حد كبير الى ولادة الحركة الوطنية الجزائرية . تلك الحركة التي ولدت هي الاخرى في قلب باريس ، وفي احضان الحركة العمالية والشيوعية الفرنسية ، (في الرواية عمر الاب : منخرط في الحزب الشيوعي الفرنسي ..) وكذا كان مصالي الحاج (عضو لجنة مركزية للحزب الشيوعي الفرنسي) وهو أب الحركة الوطنية الجزائرية ، بل وكذا كان اغلب قادة الحركة الوطنية الاوائل من امثال قادة نجم شمال افريقيا وحزب الشعب والحزب الشيوعي الجزائري ، من هذه الخلفية الرمزية التاريخية يأخذ هذا الطفل الذي ينام في احشاء فاضلة ثقله واهميته في الرواية ، بل يعتبر اهم عنصر فيها ، واكثرها دلالات ورمزية وغنى .

" ان ابن فاضلة ، وهو امنية عليا ، لن يرى ما رأيت وما علمت وافظع من كل ذلك ما تخيلت ، سيعرف ابن فاضلة القتال " (٤٦) .

واذا كان الطفل هو العنصر الفني فان الاجهاض يحمل دلالة مضادة للخصب والولادة :

" الاجهاض هو المأزق ، هو الشارع المسدود انما يجب ان نلد اطفالا في الظروف الحالية ، انهم التحدي الذي نجأر به . ان شيئا ما ، لا يوحي لي بالطمأنينة في هذا العالم الذي يتراوح بين الجنون والخبل ، غير وجه طفل ." (٤٧)

"انا اعتقد انه يجب ان نقاتل، عندما يكون لنا طفل ، يجب ان نقاتل جيدا ، اعني انه يجب ان نقاتل من اجل الخبز" (٤٨)

ان العادات والتقاليد التي ينادي بها النص الروائي . ويركز عليها ، ليست دعوة رجعية حين ننظر اليها في مرحلتها التاريخية ، وضمن ضروراتها الدفاعية على الثقافة المحلية التي تشكل جزءا منها ، الا ان هذه العادات والتقاليد التي يحملها النص كثقافة خاصة بالجزائر ، كثيرا ما نجدها لا تؤدي اي دور نضالي ، ولا تحمل داخلها اي روح تحررية ، بل تكرس التقوقع والتحجر ، ويأتي هذا من ذلك الفكر الاصلاحي الباديسي الذي يؤثر على مالك حداد كمثقف من نتاج الوعي السائد ، والمعفوي لبعض العادات والتقاليد والمبادئ التي نادت بها هذه الجمعية الاصلاحية الدينية .

ان الشعوب في تجاربها التاريخية تخلق عادات وتقاليد في العمل والحب والتضحية والتعاون ، تحمل مدلولات ثورية ونضالية تختصر تجاربها التاريخية الطويلة السياسية والاجتماعية ، وتشكل هذه العادات والتقاليد ظاهرة سوسيو - تاريخية وسلاحا بيد الجماهير ، وموقفا دفاعيا ضد الاجتياح الحضاري والثقافي الاستعماري الاستسلامي : ومواجهة تاريخية يصطدم بها الاستعمار في كل برامجه الاستيطانية . الا ان مالك حداد لم يتمكن من القيام باستخلاص تلك العادات الحضارية النضالية التي تجسد سدا منيعا في وجه الاستلاب الاستعماري الشامل ، واكتفى بالوقوف موقفا شكليا اصلاحيا .

"انني لا احب ان تدهن المرأة ، خاصة اذا كانت جزائرية" (٤٩)

"وحتى نكون [illegible] اكثر ، فاني اعاتب عمر لسماحه لفاطمة بالتدخين" (٥٠)

"لكنني ، ما الذي ارى ؟ على اظافر فاطمة اصباغ حمراء يا الهي ، لو كان ابي هو الذي يرى ابنته الصغيرة ، هو ، الفلاح الشهم الجرجري ، الذي اقام القيامة واقعدها ذات يوم حين شاهدني اعبر القبائل راكبا الدراجة لابسا السروال القصير (الشورط) . (٥١)

فمن خلال هذه الممارسات (التدخين ــ احمر الاظافر) يحاول مالك حداد ان يكشف الاستيلاب الحضاري الذي تسقط فيه فاغلة ،وان هذه الممارسات الثقافية هي جزء من ثقافة المستعمر .

" الاحمر على الاظافر ،السيجارة ،الكلوازية في الفم الجميل لهذه الصغيرة الجزائرية ،والصوت ذو النبرة الفرنسية وهو يحكي عن العالم العربي ،عينان سوداوتان بكل افقنا ،انه مظهر ابة فتاة تشرب القهوة في شارع سوفلو قلب وعقل صغيران ،يعرفان مارتان دوغار اكثر من محمد ديب ،ذاكرة تستظهر اشعار اليوار بدلا من اشعار كاتب ياسين ،فكر قرأ برغسون اكثر من الشيخ عبد الحميد بن باديس ،معجون الاسنان بدلا من السواك " (٥٢)

يريد مالك حداد ان يرمز الى ان فاغلة وهي تدخن وتصبغ اظافرها وتفرك اسنانها بالمعجون الذهبي ، تنتمي الى ثقافة ايلوار وبرغسون ومارتان دوغار ،اي الانتماء الى الثقافة الغربية ــ الاوروبية .

وان السواك ،ومحمد ديب ،وكاتب ياسين وعبد الحميد بن باديس هي الثقافة التي تواجه عملية الخلع والاقتلاع من الجذور الحضارية وهي وحدها التي تسمح باستعادة الذات الحضارية والشخصية الوطنية العربية ــ البربرية (٥٣)

ان الشعور بالمنفى والتمزق الرومانتيكي هو الذي خلف المرارة وخلف فضاء روائيا كئيبا ،وخلف لغة متميزة وقاموسا يقترب كثيرا من قاموس ادب المهجر العربي (الرابطة القلمية ،العصبة الاندلسية) ،ومن هذه الذات الغارقة في المرارة والحنين يحاول مالك حداد ان يخلق علاقات تأصلية وتجديدية مع الماضي . مع جذوره (ابة جذور .. انها غائمة وموزعة بين جرمين وبن باديس ،بين وريدة ومونيك .. بين جبرائيل وياسمينا .. الخ ؟) . ان الماضي الذي ينسكب في الرواية من خلال الذاكرة انسكابا ،هو الطريق الصاعد نحو التاريخ والذي عبره وفيه يحقق المثقف وجوده وذاته التاريخية .

كتب مالك حداد قائـــلا :

" ان الطليعة بالنسبة الي هي العودة الى الماضي " (٥٤) انها الذات التي لا تستطيع ان تحقق وجودها في الحاضر او المستقبل ، فتلتزم طريق السلفية الماضويـــة

" نحن على الرصيف والقطار عجلاته في اقصى سرعته على من بلغوا عمرى الا يقفزوا اليه ، وهو امر مستحيل ، ولا ان ينزعوا قضبان القطار لانها جريمة ، جريمة تفســـد التاريخ " (٥٥) .

لقد انتهى الشقاء الى ان يغضبني ولكني لا قوة لي على ان اثور " (٥٦)

ممّا سبق فاننا نشعر ان مالك حداد في " التلميذ والدرس " لم يقل اكثـــــر ما قاله ابن باديس :

" الاسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا "

في رواية " سأهبك غزالة " ثلاث قصص ، متوازية ومتواشجة ، ومتقاطعة ، عـــن طريق الذاكرة تارة وعن طريق الحدث الذي يجري في الحاضر تارة اخرى .

قصة كاتب / مثقف جزائري ، حكمت عليه الظروف ان يعيش في المنفى (باريس) ، لاسباب غامضة ، ومن خلال هذا المثقف الاديب ، الذي ما هو في الاخير الا الروائي نفسه (٥٧) ، يحاول حداد كعادته ان يصعّد موضوعتين اساسيتين : المنفـــى ومرارتها ، منفى المثقف ذي العلاقات الاجتماعية الواسعة . . والحب للمرأة (الفرنسية) والوطن . . وكالعادة ، وفي كل رواياته يبدو بطل مالك حداد ، ذلك المثقف الضائع الذي يعيش حالات وجودية مقفلة ، فيمارس الهروب داخل الخمرة وداخل الحـــب الفاشل الشاذ ، الذي تبدو فيه الشفقة سيدة العلاقة اكثر من العواطف الناضجة .

ومن داخل هذا التمزق وعبره يريد الكاتب ان يقدم صورة عن الجزائر المستعمرة ، وردود الفعل التي يجابه بها الثوار الجزائريون داخل الاوساط المعنية في باريس .

" ارموا بن بلة بالرصاص ... ارموا بن بلة بالرصاص .. (٥٨)

وكما هو الشأن في الروايتين السابقتين (الانطباع الاخير) و (التلميذ والدرس) ، تظل هذه الاشارات الى الجزائر وظروف الحرب القاتلة التي تعيشها ، عبارة عن فقرات اخبارية واشارات تقترن بذاتية البطل (الذى يسمى المؤلف) اكثر ما ترتبط بالموضوعة الاساسية في الرواية ، ولا تشكل مع احداث الرواية بناء منسجما ومتناسقا ، كما ان هذه الخريطة السياسية والاجتماعية التي يقدمها مالك حداد للمستعمرة (الجزائر) وظروفها تعتمد في اغلبها على اقتباسات صحافية اكثر منها على تجربة نضالية ذاتية او دراسة عميقة لواقع ملتهب يواجه اصعب لحظات التحول التاريخية : الحرب (نشرت الرواية سنة ١٩٥٩) .

ورغم الشعور الظاهر بثقل المنفى لا يتخذ الكاتب موقفا حاسما لصالح " الآخر " : الذى هو غير باريس .

" كان المؤلف لا يحب باريس ، ولكنه كان يعترف لها بالجميل اعترافا شديدا ، لقد كانت باريس تسمح له بالعيش " (٥٩) .

اي عيش تسمح به باريس ؟ في ظرف كذلك الذى يقدم لنا فيه بطله (المؤلف)

ولكي يخرج من الحصار الذاتي الرومانتيني الذى وضع الكاتب نفسه فيه ، نراه يحشد داخل النص الروائي مجموعة من العناصر الخطابية المتصلة مباشرة بالحرب الجزائرية وردود الفعل حولها . وخاصة موقف المثقفين الفرنسيين منها : كامو ـ سارتر وكذلك موقف بعض الشخصيات السياسية التي كان لها ثقل آنذاك : فرانس ماندس ـ (الوزير الفرنسي الاول الذى كان مناصرا لاستقلال المستعمرات) وموريس طوريز الامين العام للحزب الشيوعي الفرنسي) وغيرهما .

- صاح صائح
- أطردوا من باعوا مستعمراتنا بثمن بخس .

وصاح صائح

- أعدموا منداس

وصاح صائح

أطردوا طوريز الى موسكو

وصاح صائح

- لمتبوأ جنود المظلات الحكم .. " (٦٠)

وكان مناصروا منداس يضربون مناصرين ماسو " (٦١)

وتظل هذه المعلومات الادبية والثقافية والسياسية والوقائع التاريخية والجغرافية القائمة على عرض لقائمة اسماء كثيرة من الادباء والفنانين ورجالات السياسة بين ارثر ارافون - أيمي سيزار - لوتريامون - فرانسواز ساغان - تراغانوس - موسوليني .. الخ . تظل مفروضة داخل الخطاب الروائي دون روح روائية ، بل نشعر وكأنها مقحمة اقحاما ، ولا تخدم سوى الجانب الشعارى في الرواية ، ولا تشكل مع شخصية البطل المحبط المنهزم ، أى بناء درامي ، هذا المثقف الذى يعيش قصة حب مع غرادا) الالمانية ثم مع جيزال " الفرنسية ، وهو نرجسي ومغرم بنفسه اكثر من اهتمامه بأية قضية سياسية كانت .

وعلى هامش قص هذا المثقف المأزوم ، والذى لا يعي ازمته ، ولا يعيها حتى الكاتب نفسه ، تصعد قصة عاطفية رومانتية فلكلورية اخرى ، يعرض فيها الكاتب وقائع حب بين الشهاب (مولاى) سائق الشاحنة الصحراوى الورقلي (ومن ورقلة) وياميناتا (تصغير يمينة) الفتاة الترقية الجميلة ، وتمتلىء هذه القصة باحداث شاعرية تعتمد على عنصر الطبيعة والاستمرار العاطفي الفلكلورى الذى يذكرنا الى حدّ ما ، بتلك الكتابات السياحية الانبهارية التي انتجها رعيل المثقفين الادباء الفرنسيين القادمين الى المستعمرة

(اشرنا الى ذلك في باب الرواية الكولونيالية) ،بأحداثها الغريبة ،وبعطلمسة تسطيح الواقع الصحراوي المؤلم ،والتغني على طريقة الرومانتيين بالويلات وتحويل الشقاء الى فرجة ومتعة من موقف سياحي ..

"اني شاهد على الحبمان الاحلام لابدّ منها . انهم يسمونها "فلكلورا" لا ينبغي ان ينقصها شيء من الاشياء" (٦٢) .

ولكي يزيد الكاتب من التصميد الميلودرامي في الرواية ،وكعادة الكتابات الرومانتية التي تعتمد على التشويق " و " المفاجآت " التي تحبس الانفاس .. يتقدم احد أعوان القائد العام العسكري للمنطقة لخطبة (ياسمناتا) عشيقة مولاي ،ويغرق اهلها بالهدايا مستغلا في ذات الوقت نفوذه وسلطته التي تخولها له السلطات الفرنسية .

" نياش (اسم المعاون العسكري) رجل من العرب كان يتمتع بثقة الكومندان (الامر) وبصداقة الليوتنان (القائم ـ مقام) وكان يعرف كيف يذكرك بذلك عند الاقتضاء ." (٦٣)

يتحدى (مولاي) و (ياسمناتا) التقاليد والعادات ويمارسان الحب الذي يخلف في بطن الفتاة طفلا ،يبقى شاهدا على هذا الحب/ يذكرنا برمز الطفل في " التلميذ والدرس / ،لكننا نشعر في هذه القصة ان الشخصيات التي تبنى عليها وحولها احداث الرواية ،هي شخصيات مثالية اكثر منها شخصيات واقعية . اي انها وليدة النزوع الخيالي الجامح اكثر منها وليدة علاقة جدلية بين الفن والواقع الذي انتجه ..

يموت مولاي في رمال الصحراء وهو يطارد الغزالة التي وعد بها (ياسمناتا) .

ومن خلال هذا الحب يعرض الروائي ،وصفا لجمال الصحراء ،والواحات وتتدفق الكلمات والمشاعر من معين لا ينضب ،ولا ندرك ما سر العلاقة الموجودة بين قصة الحب هذه (مولاي ـ ياسمناتا) والظروف التي كانت تمر بها الجزائر ،على الرغم من ان الكاتب اعلن مرات انه سكرتير التاريخ (٦٤) ،وانه كان من خلال هذا العمل يطمح الى كتابة رواية ثورية متجاوبة مع مرحلة الحرب التحريرية ، ذلك من خلال التصريحات المباشرة التي وزعها داخل الرواية نفسها .

" لان يسير الكاتب قحبة تتجول على قارعة الطريق ،افضل عندي ،يابني من ان يبيع قلمه " (٦٥) .

ويظل هذا الحب الصحراوي غريبا عن واقعه وجذوره لان الكاتب اخفى عليه جزءا كبيرا من احاسيسه ،اكثر مما نقلها من لحظتها الاجتماعية-التاريخية وحتى اللمة التي تابعت الاحداث لم تكن لغة تولد من جو الصحراء ووعي البطلين البسيطين ،بلكانت تولد من جو غير الجو الصحراوي الفقير والقاسي :

" بمنبة ،انها الدفء (الدفء في الصحراء) انها الرغيف ،انها باقة من المغامرات انها قطة أ. " (٦٦)

حين ننتهي من قراءة هذه الرواية ،نشعر بذلك الفرق الشاسع بين تصوير العادات والتقاليد الصحراوية عند : مالك وارن في روايته " الحبة في الطاحونة (٦٧) ذلك التصوير الصادق والدرامي ،وهذا التصوير السطحي الذي قدمه مالك حداد في " سأهبك غزالة " .

وفي " رصيف الازهار لا يجيب " LEQUAI AUX FLEURS NE PLUS

نلتقي مرة اخرى كما هي الحال في الروايات السابقة بشخصية رئيسية / اشكالية (خالدبن طوبال) مثقف،اديب ،خريج جامعة مونبيلي (٦٨) صحفي وكاتب (٦٩) قلق ، منفي ،تائه ،عاشق الفرنسية (مونيك) ،يتخذ موقفا ضدّ الحرب الجزائرية التحريرية ، دون ان يقدم بديلا ،معلنا بكل وضوح عن تلك النظرة المصالحة الغامضة .

" فبين امك (الحديث موجه الى عشيقته مونيك الفرنسية) وامي لا يوجد دم مهدور بل بينهما دم مشترك ." (٧٠)

وان الحرب الحدوانية تمارس التقتيل الجماعي ،يمارس بن طوبال / المثقف الحب مع فرنسيته ،حبا كله غموض لا يحمل اي موقف سياسي ،اللهمّ ارواء لذة الكاتب ونرجسيته .

" اعلنت الحرب البارد ة بين امرأة جميلة وشاعر لم يأت الى باريس الا لكي يحج (٧١)

ومرة اخرى يحمل خالد بن طوبال اشياء كثيرة من صفات الشخصيات الرئيسية في الروايات السابقة ،كما يأخذ من مالك حداد نفسه جزءا اكثر ، وتكاد الرواية في اشكاليتها الاساسية لا تختلف عن سابقاتها .

" ربما يفصل القصار ليخدع القارئ ، فهو لا يقرسون حياته الخاصة " (٧٢)

ويعاني خالد طوبال وهو المثقف الوطني كما يتصوره ويصوره مالك حداد موقفه من فرنسا (الخالة) (اي اخت الام) .

" افكر من خلال امي ، افكر من اجل امي ، ولا يمكن طبعا ان يمنعني من حب خالتي (فرنسا) شرط ألا يحسب ابناء خالتي انهم اخوالي " (٧٣)

وتبدو شخصية خالد بن طوبال ممزقة ، تعيش على هامش الحرب والاسهام في بناء التاريخ ، شأنها شأن : الدكتور ادير في " التلميذ والدرس " و " المؤلف في " سأهبك غزالة والمهندس " سعيد " في " الانطباع الاخير " ، وهو الذى " يقال عنه انه وطني ، قد يكون ذلك صحيحا ، وقد لا يكون ، فالسياسة كانت تثير ضجرة شأن دروس الحساب في الصفوف الابتدائية ." (٧٤)

ان شخصية بن طوبال " البورجوازية الصغيرة لا يمكنها ان تعكس في الاخير سوى تصوراتها المزهمة ، وقلقها السياسي والفكرى ، وهذا ما يسيطر على موقف الرواية كاملة فرغم " الحماس " الخارجي للثورة وللنضال ولمصالح الشعب ، والوطن والالتزام .. الخ وما صاحب ذلك من قعقعة اللغة النضالية الرومانتية، فان مصير بطل الرواية يعكس ذلك تماما ، من خلال نهايته منتحرا اذ ان الانتحار حل بارد وانهزامي وجباني ، وشكل من اشكال لعبة الرواية الرومانتية الفرنسية في القرن التاسع عشر ، ولم يكن في منأى مرة اخرى عن هذه النـ رة الرومانتية ، في اكثر لحظات حياته حزنا ومأساة ، فعندما يقرأ خبر اغتيال زوجته " وريدة " من قبل المجاهدين الثوار بعد ان خانت الثورة وتزوجت قائد الناحية العسكرية وان " وريدة (شخصية ملأها الروائي على مدى

صفحات الرواية كلها بشحنات الثورة والالتزام والتضحية من اجل الوطن .. وكان رد فعله على هذا الحدث يشبه غيرة ، ذلك الرجل الذي نقرأ عنه في قصص الحب المبتذلة ، فان يقول غاضبا " انه لشيء بشع! ما كانت تفعله معه (مع العسكري الفرنسي) ، كنت من اداته من رجل آخر ؟ " فلم يكن هناك من جانبه حتى اقل السخط والحزن عليها لخيانتها له ولقضيتها الوطنية ، بل بالعكس من ذلك ، فانه بعد وفاة وريدة لم يعد معنيا بمصير بلاده : "ماذا تعني لي كلمة الاستقلال . امام ابتسامتي البلهاء ." (٧٥)

لم يعد يعنيه شيء ، " فلنصوب النيران على المدينة وعلى القطرات لا يعنيني الآن شيء ، بما ان الناس قد شاهدوا جرح عملية الزائدة الدودية على بطن زوجتي". (٧٦)

ان انتحار خالد وخيانة " وريدة " وقتلها بتلك الصورة نقل القصة سريعا الى جو ميلودرامي ، وهكذا تبقى حرب التحرير في اغلب الاحيان بعيدة وغريبة عن كل روايات مالك حداد (٧٧)

ان نهاية الرواية على هذه الطريقة ، تؤكد محدودية فهمها للواقع ، وهشاشة كل التصورات والشذرات والاخبار التي جمعها الكاتب داخل الرواية وحشدها حشدا عن الثورة الجزائرية والمنفى .

" ان الجزائر ، كلمة تدوي وسط الزجاجات في هذا المصر العزيت واللاصق ، هذه السماء المنافقة ، هذه الغيوم المرعبة ، كلمة يتيمة ، كلمة في المنفى ، كلمة بردت ، كلمة جاءت ، كلمة مرعبة (٤٨) .

ان الوطن " الحدادي " هو نبع من الكلمات وشلال من المشاعر المتناقضة الصادرة عن ذات قلقة مأزومة منفية ، ذات مثقف تعيش الاغتراب والاستلاب ، مثقف لا يرقى الى ان يكون طليعيا وعضويا يخوض المعارك السياسية والفكرية ، وينظم الوظيفة الاقتصادية لطبقته . يقول المنظر الايطالي : انطونيو غرامشي وهو الذي درس بعمق ظاهرة المثقفين ، وقدم اسهامات هامة في هذا الميدان الذي لم يسبق اليه في الفكر الماركسي :

« انه لا وجود لوعي نقدي وطبقي (...) بدون مثقفين ، ثم ان تجارب صراع الطبقات والامم تقول ان غيابهم المنظرين ـ القادة ـ المثقفين ـ كظاهرة كان دائما عامل فشل وتقهقر الثورات الاجتماعية والوطنية ، وكمونة باريس التي حدثت سنة ١٨٧١ في فرنسا دليل واضح على ذلك . »

فاذا كانت على حدّ قول " غرامشي " : " كل فئة اجتماعية ، ترى النور في بادئ الامر على ارضية وظيفة اساسية في عالم الانتاج الاقتصادي ، تخلق عضويا في نفس الوقت الذي ترى فيه النور شريحة او عدة شرائح من المثقفين الذين يزودونها بتجانسها وبوعي وظيفتها الخاصة لا في المضمار الاقتصادي فحسب وانما ايضا في المضمار السياسي والاجتماعي " (٧٩) اذ ان قادة الطبقة الاساسيين لا يمارسون النشاطات الفكرية المتنوعة ، بل يساهمون هذه المهام وتلك النشاطات الى وكلائهم / المثقفين العضويين) / هؤلاء الذين يعتبرون " منفذي الوظيفة الاقتصادية للطبقة فهم حطة ورسل و ... وظيفة الهيمنة التي تمارسها الطبقة السائدة في المجتمع المدني (٨٠)

فان المثقف العضوي هو ذلك المثقف الذي تكون علاقته مع الطبقة الثورية بنوع تفكير مشترك ، فليس هو ذلك النرجسي الفرداني المحلق على اجنحة الفكر الحرّ والذي يقيم علاقات مضببة (او سرية) مع الطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها .

والعلاقة العضوية هي قبل كل شيء علاقة معترف بها ، معلنة ومرادة سياسيا من اجل الدفاع بطريقة جيدة عن التصور الجديد للعالم الذي تحمله تلك الطبقة الثورية الصاعدة . (٨١) .

ان المثقف يقوم بوظيفة " الاسمنت " الذي يربط البنية التحتية بالبنية الفوقية ونشر وتعميم تصور العالم وسط الطبقات الاجتماعية الاخرى . بهذا يضرب غرامشي الاطروحات المثالية القائلة باستقلالية المثقفين عن الطبقات الاجتماعية وتميزهم كطبقة او شريحة اجتماعية منفصلة ومحايدة في الصراع الطبقي والتقدم التاريخي للمجتمعات (٨٢) ان المثقفين لا يوجدون معلقين في الهواء ، في ابراجهم يتفرجون على الحروب والصراعات .

ان " ابن باديس " الملهم لمالك حداد بغض النظر عن القيمة الوطنية التي حملها لا يمثل سوى استمرارية تاريخية ثانوية للتشكيلة الاسلامية ، فهو مثقف عضوي لطبقات زالت ، تتمثل في الارستقراطية التجارية والعقارية العربية الاسلامية والبورجوازية الجزائرية التابعة " (٨٣)

امام هذه النظرة الفراشية ، فان مالك حداد الممثل داخل ابطاله ، شخصياته : (خالد بن طوبال – سلاح ادير – المؤلف ، سعيد .. الخ) يشكل ذلك المثقف التقليدي " الحصري " الذي اثرت فيه الى حد كبير المدرسة الفرنسية ، في اطار مهمتها في تشكيل شريحة وسيطة تقوم بمهام الحارس الاجتماعي والثقافي والسياسي الامين لمصالح الرأسمال الفرنسي الكولونيالي ، وحتى وان كان مالك حداد يدرك هذا الامر فانه لم يتجسد داخل رواياته .

ان " خالد بن طوبال " او " ادير " او المؤلف ، او سعيد ، يمثلون ذلك المثقف المعلق في السماء ، المسكون ، بحب الفرنسية زرقاء العينين / مونيك او لوسي او جرمين ، في حين كان الواقع الجزائري يمر بمرحلة تغير وانقلاب شامل وسريع .

وامام هذا التمزق الفكري والسياسي لهؤلاء المثقفين الذين فاتهم القطار (كما عبر عنها ادير في التلميذ والدرس) تتضح وجهات نظر تقليدية يطلقونها وهي ترتبط اساسا بالكتلة التاريخية (كما سماها غرامشي) المهترئة التي ينتمون اليها :

" ان المرأة هي المكر الخالد ، وهي لم تخلق الا للحيلة ، المرأة مناورة بارعة " (٨٤)

" وفي عطي ان الخرافات بمثابة الاجتهاد القانوني لمعتقداتي ، ولا ارى في ذلك تناقضا " (٨٥)

وفي " رصيف الازهار ... " كل شيء ساقط ، خالد ينتحر ، وريدة / الحلم خائنة وقابلة للاستعمار (٨٦) ، ومونيك العشيقة ، حبها زائف وغامر لانه قائم

على خيانة زوجها الذي هو صديق لخالد نفسه ، كل شيء في الرواية ساقط ، في حين كان التاريخ الوطني كله متصاعدا ، ولذا ربما كانت الرواية اعلانا عن الطريق المسدود امام الكاتب نفسه ، وبالتالي امام كتلة تاريخية كاملة لسائرة نحو الفنــاء والافلاس امام زمهرير التحول الاجتماعي والسياسي الذي عرفته الجزائر مــن ١٩٥٤ حتى ١٩٦٢ .

الرؤية الجمالية عند مالك حداد :

يعتمد البناء الروائي عند مالك حداد على الرؤية الشاعرية المتفجرة عاطفة ، وتأخذ الرواية فيه شكل مجموعة من العواطف والاحاسيس اكثر من كونها مجموعــة من الآراء والافكار .

يقول الدكتور عبد الكبير الخطيبي :

" ان روايات مالك حداد تشكل اشعارا انطباعية تتخللها من حين لآخر ، تصريحات وطنية وقومية ، وكثيرا ما يوقف مالك حداد مجرى قصته ليقول لنا علانيــة رأيه في حدث سياسي معين " (٨٧) .

فهو ينظر الى الحدث كشاعر ، بقلبه قبل فكره ، ومعه نكون بعيدين عن واقعيــة مصطفى او ديب ، اذ يتضح الوجه الحقيقي للحرب في كتاباته (٨٨) .

وامام سيل الكلمات العنيف الذي لا يخدم اي هدف سوى احداث ايقاع جميــل يضحي الكاتب بالحركة من اجل الكلمات او الكاتب لا يهتم بالجوانب النفسية للشخصيات الامر الذي يبقيها جامدة ، حبيسة في زوبعة الانشاء والكلمات ، من هنا تظهر سطحية الشخصيات التي تطغى عليها في كل مرة شخصية الكاتب نفسه فتحد من تطورهــا وتجذرها .

يقول مالك حداد نفسه :

" ان ما يعنيني هو الشعر وليس القصيدة ، وفي مجال الرواية ما يهمني هو الاثر النهائي وليس البناء وليست اللغة والمواقف والشخصيات .. " (٨٩)

وفي ظل هذا المفهوم للكتابة ، يبدو الخطاب الروائي الحداد ي ملتصقا وقائما على زخرف لغوي ، وتصبح الرواية آنذاك عبارة عن محادثة (وانشاءات) ومجموعة من التعليقات حول هواجسه (٩٠) ، ولذلك نجد الشخصيات تدور حول نفسها دون ان تتنامى لانها فاقدة الصلة مع الواقع في شموليته وحركيته ، وهي تدور في فلك ذات بورجوازية صغيرة لا يهمها سوى هواجسها الفردية . فخالد بن طوبال في " رصيف الازهار " شخصية بطيئة الحركة وحلزونية رغم كونها هي الشخصية المركزية ، ولذا نجد الرواية تخلو من اي عنصر درامي حتى في تلك العلاقة بين خالد ومونيكا .

ورواية " الانطباع الاخير " التي يقدم عنوانها تفسيرا لاشكاليتها القائمة على الانطباع و " الانطباع " مرتبط بالشعور اكثر مما هو مرتبط بالفكر والتحليل ، وكان من الممكن لموضوعها القائم على عملية " تحطيم جسر " ابان الثورة ، ان يجعل منها رواية على غاية من التصعيد الدرامي ، لكن الكاتب اخفق في تحقيق هذا الهدف ، لانه ضحى بالحركة لصالح العواطف والانشاء المنساب دون رقابة . فركزت الرواية همها حول شعور " سعيد " المهندس تجاه هذا الجسر الذي بناه ، والذي يطلب منه الآن نسفه .

وامام معين الكلمات الذي لا ينضب ، لا تملك الشخصيات في الرواية اي وضوح ، فهي تختفي خلف هذه الانشاءات الكلامية ، فتسقط في ضبابية ورخاوة ، هي نتيجة منطقية للضبابية الفكرية والغموض السياسي لدى الكاتب نفسه . " وهي شخصيات ليست محطمة تماما ، بل تعيش في منطقة متوسطة بين الحياة والموت ، وكثيرا ما تختلط دون ان تبلغ حد التشابه (ليس بين الرواية الواحدة بل بين رواية واخرى) والعقدة الروائية جد مختزلة ، فمالك حداد يدعو قارئه الى السفر ، عبر الانشاء اكثر منه عبر الحياة وديناميكية تغيرات الواقع الذي يكتب عنه ومن خلاله . لكن اسفاره ليست على الطريقة السريالية التي تحرك المخيلة تحريكا منهجيا " (٩١)

تعتمد الرواية عند حداد ، ما يمكن ان نطلق عليه مفهوم البناء الشعري ، حيث الكلمة بابعادها والوانها ونبوءتها وامتداداتها وظفوسها الخاصة بها — وانعكاساتها تلعب دورا اساسيا في نقل ما يريده الشاعر الروائي (٩٢) .

وان اعتماد هذا البناء الروائي [illegible] بالروائي في كثير من المواضع [illegible] وفي كثير من الفصول الى السقوط في الجري خلف الصورة التي تجره خارج اشكالية الرواية وتنزلق بالخطاب الروائي الى متاهات فكرية لاعلاقة لها بجو الرواية وهمها المركزي ، وما يتفرع عنه وما يصب فيه ، وتمتلئ بعض الفقرات بغنائية رومانتية ممزوجة بالمأساوية التي لا تخدم تصعيد الدراما ، بقدر ما ترتبط مباشرة بالتصور الرومانتي للعالم .

" خرجت من بين يديه كلمات تحسر وانت تقرأها بما يشبه التعذيب ، وكأنه انتقم من اللغة الفرنسية ، فلم يكتب الا بعد ان تجمع في حروفها كل التعبير عن اجوائه الخائنة . " (٩٣)

وتبدو الشخصية عند مالك حداد (مولاي + ياسمينا) في " سأهبك غزالة " و " وريدة " في : " رصيف الازهار " وعمر [illegible] الثوري الحناني في " التلميذ والدرس " اقرب الى مادة الحلم ، منها الى الواقع ، اقرب الى الخرافة منها الى الحقيقة او الواقعية ، والزمن الذي تتحرك وتنمو في اطاره هلامي ، والمكان اقرب الى الشاشة ، وتتحول الرواية في كل مرة (كل رواياته) الى قطاع طولي كبير تقطعه قطاعات عرضية ثانوية (٩٤) . تبدو الرواية معقدة ومتشابكة ، اذ تلعب الذاكرة دورا اساسيا في تقطيعات الزمن الروائي وتركيبه .

ان مالك حداد يبدأ صياغة روايته من الكلمة فالجملة الى بقية العمارة الروائية ، ولا يقوم بالعكس ، أي يصمم هيكلا روائيا للاصوات والشخصيات والمواقف ثم يملأه بالكلمات ، اي ان الشاعر (ببساطة) يسيطر على الروائي ، وتكاد الرواية

في كثير من الفصول والمواقف ان تتحول الى قصيدة شعرية . فرواية مالك حداد تبدأ قبل كل اطار وتنتهي قبل كل اطار - (٩٥) ".

ومن الامثلة على الصورة الشعرية المعتمدة في الرواية " الحداثية " وبشكل مكثف نسوق هذه النماذج :

" رقص جنائزي يعقد السرو الى التيجان (٩٦)

" الليل الذي يبدع الحب والصلاة " (٩٧)

" لقد تذوقت نور قمر احزاني " (٩٨)

" عندما تهدر القطارات تقول شعرا " (٩٩)

" نامت فاضلة وشعرها يسيل على ابتسامة كئيبة عميقة " . (١٠٠)

" كانت مشكلة هنا لها فضاضة الصمت " (١٠١)

" تلك الالفاظ الشبيهة بالرمال والموجودة في هذه الجمل المقفرة وان ارواها توهمها انها تعبر عن شيء ما " (١٠٢)

" ترى ما فعلت ... التي خلقت فوق القصيدة المدمرة والثلج النائم على الحجارة الدافئة (١٠٣)

" ان في استطاعة الالفاظ ان تدبر الفصول تدبيرا ، فتحدث المطر او الشمس، في ذلك اليوم كانت الالفاظ قد احدثت مطرا " (١٠٤)

" كان جان دورك يبتسم مثل دعاية لمعجون الاسنان " (١٠٥)

" لكن الله منحه تلك الضحكة . التي لا تتكسر والتي يقذف بها في الرمـــال ككلمة السر ، كبطاقة من بطاقات الزيارة " (١٠٦)

" كانت باريس خالية كالقرية عشية يوم الاحد " (١٠٧)

" ليس في المرأة غير الشَّعر " (١٠٨)

" يستيقظ الليل البهيم في حسب مونبيلية كما استيقظ بين الغابات " (١٠٩)

" عند دخال المترو ، تلتصق الصحف على القضبان الحديدية كفسيل قذر مبلل بالماء " (١١٠) .

" اذا ما انهكتني الريح ، ألفت منها اغنية " (١١١)

واذا كان الخطاب الروائي يقوم على الصورة الشعرية ، فان الكاتب لا يقف عند هذا الحد ، بل كثيرا ما يتضمن الروايات مقطوعات شعرية كاملة (١١٢) .

ان الموقف الرومانتي في الرواية الحدادية " فرعون " مونولوجات " متتالية ، تثيرها التأملات الفلسفية والشعرية والعبث العقلي والعاطفي لبطولات المثقفين الخرافية ، (د . ادير + بن طوبال ، المؤلف ، سعيد ، وحتى عمر . . " . وهذه المواقف خلقت على مستوى اللغة قاموسا محددا ، يشكل هو نفسه اشكالية داخل الاشكالية العامة للرواية ، يعكس هذا القاموس موضوعات التمزق والمنفى والضياع والحب والوحدة . وفي هذه الفقرة قمنا بعملية بسيطة احصينا فيها اهم " الكلمات " التي هيمنت على الخطاب الروائي عند مالك حداد من خلال روايته " التلميذ والدرس " والتي اعتبرناها منذ بداية هذا العصر انضج اعماله ، واكثرها اقترابا الى الرواية من حيث دراميتها وحركة اشخاصها بالمقارنة الى اعماله الاخرى ، وهذه الاحصائيات تكشف دوران الكاتب حول الذات والطبيعة اكثر من دورانه حول المجتمع والانسان بصورة عامة ، واذا كانت هذه الاحصائيات تتناول " التلميذ والدرس " فمن الممكن سحبها على الخطاب الروائي الحدادي عامة

١- الليل (AA MUIT) في الصفحات (٢+١٩+٣٨+٥٣+٨٧+٨٨+
١١٩+١٢٣+[illegible]

٢- الصمت : " (SILENCE) في الصفحات ١٧+٥٢+٥٨+١٣+٦٦+
٦٤+٩٧+١٠٤+١١٧+١٢٠+١٢٤ .

٣- النوم (SOMMEIL) في الصفحات : ١١+١٣+١٥+١١١+١٩

٤ــ الوحدة ( ) في الصفحات : ٢+٥٢+٦٧+١٠٨

٥ــ الموت ( ) ص : ١٥+١٩+٢٤+٢٧+٣٣+٥٤+٥٨+٧٣+
٩٧+٩٩+١٠٠+١٠٤+١٠٦+١٢٠+١٢٢+١٢٤

٦ــ الذكرى ( ) في الصفحات : ١+٢٤+٣٥+٥٥+٧٧+٧٨+٨٦+١٠٥

٧ــ الذاكرة ( ) : = = ٩+٢٦+٥٦+١٠٦+١١٦+١١٨

٨ــ الماضي ( ) = ١ ١ ٣٥+٥٥+٥٦+٨٠+٨٤+١٠٦+١١٦

٩ــ الحاضر ( ) = = ١٠+١١٠

١٠ــ المستقبل ( ) الصفحات ٥٦+٧٥+٨٠+١٠٦

لقد اعتمدنا (النص الاصلي " في وضع هذه الاحصائيات لعدم ثقتنا في الترجمــــة التي كثيرا ما تختلط عليها بعض المفردات، فاجعل الواحدة مكان الاخرى (١١٣) من جهة والمحافظ على نسق النص اللغوي من جهة ثانية .

ان الموقف الرومانتي الذي غلب على كل الشخصيات كان يشير الى جانب الحدث الروائي وصفا للطبيعة وهروبا الى احضانها ، مثلما جرت عليه تقاليــــد الرومانتيين الفرنسيين في القرن التاسع عشر ، اذ كانوا يقابلون بين الحياة والطبيعة (فبينما كان الرجال في احد المحتشدات ، كان هناك بلبل يصدح /) (١١٤)

وان السباحة في الطبيعة والانزلاق خلف اللفظة الحسّاسة ، والاعتماد على الانسياب الخطابي القادم من الذاكرة دون رقيب جعلنا نفاجأ في كثير من المرات ببعض الفقــرات والفصول التي لا تمت بصلة " الى هم الرواية ففي " رصيف الازهار " تأتي مرة اخرى شخصية ولا مولان (سائــــق الشاحنـــــة الـــذي رأيناه عاشقــا (لياميــــتانا) في (سأهبك غزالة ") لكن هذه العودة لاتجد مسوغها الفني ولا المضموني ، سوى ذلك الانسياق خلف وصف طبيعة الصحراء بشكل فلكلوري سياحي (١١٥)

وان الموقف الرومانتـــي هو نفسه الذي هدم كل الدلالات التي شحنت بهـــا شخصية " وريدة " في (رصيف الازهار .) فبدت الرواية لا شيئا من ورائها اذ لـــم

يكن هناك اي مسوغ فني او مضموني لخيانة (وريدة) سوى ذلك الموقف الرومانتي لجرها الى الانتحار في النهاية .

" لم يعد هناك بالنسبة لي مرفأ الجأ اليه " (١١١)

لقد اختلطت الامور على مالك حداد فتشمت فنه وفكره سحابة قاتمة ، قاربت بينه وبين الحضارة التي يهاجر اليها ، باعدت بينه وبين الحضارة الام التي هجرها . فاذا كان محمد ديب قد ابصر شمس " الجزائر " فان مالك حداد ابصر ليلها فتحولت الجزائر في ادبه الى حلم غامض ابدي (١١٧) ، فمالك حداد يملك وعيا مشوها ، وان شخصياته عبارة عن مثقفين غائمين (..) وان حياة الكاتب هي التي تحدد عظمة الادب وتحاصره ومن هذا الحصار جاءت هذه المواقف الغائمة .

======

- الرواية والرؤية الماركسية لصراع القوى الاجتماعية في الجزائر المستعمرة

- عالمة (محمد ديب)

كما أوضحنا سابقا في الجزء الخاص بالتيارات الايديولوجية التي شكلت الحركة الوطنية الجزائرية ، فان الجزائر لم تكن بمعزل عن التيار الاشتراكي ، الذي هز العالم في نهاية القرن الماضي ، على المستوى الثقافي كما هو على المستوى السياسي فالدعوة الى الاشتراكية لم تعدم من يدعو اليها من الكتّاب بصوت جهير ، وهي تتراوح ما بين الاباحية الاشتراكية مرورا بالاشتراكية الاسلامية وصولا الى الاشتراكية العلمية ، وان دل هذا على شيء فانما يدل على تأكيد قيمة وقوة هذا التيار داخل أوساط المثقفين وتهيئه كرؤية وأرضية لمواجهة التخريب الايديولوجي الكولونيالي وترسانة مؤسساته القوية والمجهزة .

وقد يبدو لنا الأمر هينا حين يدعو كاتب مثل عمر راسم بصورة صريحة الى الاشتراكية ، ويدافع عنها كمنهج لحل الأزمة الاقتصادية والسياسية التي يعيشها الأهالي الفقراء ، وقد أسس من أجل ذلك صحفا كانت تبشر بالاشتراكية وتدعو اليها بحماس مثل " ذو الفقار " (١) التي تجهر علنا بأنها صحيفة اشتراكية :

يقول عنها عمر بن قدور :

" ان جريدة (ذو الفقار) بمشربها الانتقادي قد بينت في دورها الأول من حياتها (أي أيام كان يشرف عليها ويحرر بحضر موادها : عمر راسم) ضرورة وجود شيء لمصلحة منكوبي الاجتماع ومساكينه " (٢) .

ويضيف بأن :

" صحيفة (ذو الفقار) كانت تبارز الأغنياء والمقصّرين الذين يريدون أن يجعلوا مخلوقات الله ونظامات الكون آلات يستجلبون بها منافع لهم " (٣) .

لقد كانت نزعة عمر راسم متسمة بالاباحية ، ومحاولة " بلشفة " (BOLCHEVISER) الاسلام ، من خلال تعاطفه وتركيزه على شخصية الصحابي الفقير " أبي ذر الغفارى " ، واصفا اياه بأنه أول اشتراكي في الاسلام ، وهي نظرة لاتزال قائمة حتى الآن متمثلة فيما يسمى " باليسار الاسلامي " ، ولم يستطع تجاوزها . وبذلك تظل رؤية " راسم " وانقاص " محمد ابن العابد الجيلالي " محبوسة ضمن طوباوى أملته ثقافتهما العربية

التقليدية ، ولكن الأدب المكتوب بالفرنسية سوف يظل " شجرة " كبيرة مورقة ، انـــه الروائي " محمد ديب " ، هذا الكاتب الذي يعد أول من عكس برؤية ماركسية تناقضات المجتمع الجزائري في ظل هيمنة رأسمال كولونيالي .

يقول عنه الباحث المغربي الدكتور عبد الكبير الخطيبي :

" كان ديب يحلم بأن يصبح هو بلزاك الأدب الجزائري ، مع الفرق بأن يكـــون بلزاك برؤية ماركسية ".(٤) .

٢ ــ الدوامة السوسيو ــ ثقافية التي أنتجت " كريستوف " الجزائر ؟

يعد محمد ديب أكثر كتاب جيل الـ ٥٢ الأدبي حظا من حيث الدراسات والبحث الأكاديمي والاعلامي والسياسي ، الذي تناولت أعماله في كل بقاع الكرة الأرضية .

وفي الفترة التالية حاولنا أن نثبت قدر الامكان الاطروحات (THESES) و " المذكرات " (Les MEMOIRES) الجامعية التي تناولت محمد ديـــب بالدراسة ، في الدول الأجنبية ، لأن محمد ديب لايزال (هو وغيره من رفاقه فـــي التلمذ الأدبية المناضلة) مجهولا الى حدّ كبير في المشرق العربي ، رغم أنه يكتـــب معاناتهم وأزماتهم وانتصاراتهم وطموحاتهم (٥) .

في كل الجامعات العالم الكبيرة تقريبا ، كان محمد ديب محط دراسات أدبيـــة وسوسيولوجية ولغوية وسياسية (انظر قائمة الاطروحات في الهوامش) (٦) ، وان هذا الاهتمام بمحمد ديب شرقا وغربا ، لايعكس في الأخير سوى قيمة ديب العالمية وجـــودة الكتابة وتفردها وخصوصيتها في نقل تجربة شعب يكافح ضد الاستغلال والاستعمـــار والذوبان ، ولن يكون الكاتب صادقا قادرا على هذا النقل والخلق واعادة التركيـــب ابداعيا ، الا اذا كان داركا واقعه عن الادراك برؤية نافذة وناقدة ، ومجربا هـــذا الواقع ، ويملك اضافة الى كل ذلك " موهبة " وقدرة ابداعية ، تستطيع أن تكون فـــي مستوى مسؤولية حمل واحتضان هذا الواقع وهذه التجربة التاريخية .

سيرة ذاتية بصفة الجمع :

حين أصدر محمد ديب الجزئين الأولين من ثلاثية الجزائر " الدار الكبيرة " (La grande maison) والحريق (L'incendie) كتب أراغون قائلا ومستبشرا :

انه " جان كريستوف جزائري ، والذي لم يحن بعد من الطفولة " (٧) .

وان عودة الى بيوغرافيا الكاتب ، ومقارنتها بثلاثية " الجزائر " (٨) فاننا لن نجد فيها سوى انعكاس خلاق لحياة ديب نفسه ، وما الطفل " عمر " الا الكاتب ذاته .

فهو ينزل من عائلة تلمسانية فقيرة ، كان أبوه حرفيا ثم نجارا ، توفي ومحمد ديب في سن الحادية عشرة ، وهو عمر الطفل (عمر) في بداية الثلاثية .

" كانت سنونه العشر تضعه في منزلة وسط ، بين الأقوياء من تلاميذ الحلقة العليا الذين كانت شواربهم تسود والضعاف من تلاميذ الحلقة الاعدادية " (٩) .

ثم اشتغل في مصانع النسيج التي تعج بها مدينة تلمسان التاريخية ، حيث تعشش البورجوازية الحرفية التقليدية ، وقد سجل هذه التجربة في الجزء الأخير من الثلاثية " مهنة الحياكة " (Le metier à Tisser) (١٠) :

" لم تصل عيني (أم الطفل) الى الكلام عن الغرض الذي جاءت من أجله الا بعد ربع ساعة من الزمن ، فلما عرضت على المحسن الماحي بوعنان أنها تتلمس لابنها عملا تلميذا تقول " هذا اليتيم " ، وهي تمسك بكم عمر الذي ظل واقفا خلفها ، وفي الوقت نفسه ارتعش أنفها واحمر ، وأوشكت أن تنفجر باكية ، فدمدم الرجل يقول :

" أرسليه الى مصنعي " (١١) .

ثم اشتغل محاسبا ، ثم صحفيا مساعدا ، في صحيفة (Alger-Republicain) اليسارية ، قبل أن ينتقل الى العمل بها بشكل متفرغ مابين (١٩٥٠ - ١٩٥١) ، وعلى صفحات هذه الجريدة كان ينشر تحقيقات تتصل بالواقع الفلاحي بمنطقة تلمسان ، حيث مارس العمل النقابي الزراعي ، وقد نقل بصدق فني هذه التجربة في الجزء الثاني من الثلاثية (الحريق) .

ثم اشتغل بقطاع النقل (السكك الحديدية) ، فأدرك معاناة عمال هذا القطاع الحيوي ، ووعيهم السياسي وتحالفاتهم مع العمال الزراعيين ، وهذا ماسجله كذلك في " الحريق " .

" وفي صباح الغد وصل وفدان من عمال المدينة ، أحدهما يمثل عمال البلديـة والثاني يمثل عمال السكك الحديدية ، جاء هذان الوفدان لتحية المضربين ، ولاعلان تضامنهم معهم . وقد شفع عمال السكك الحديدية هذه المبادرة الطيبة منهم بتقديـم مبلغ ثلاثة آلاف فرنك ، وتبرع واحد بمفرده من النقابيين بخمسمائة فرنك " (١٢) .

مارس مهنة التعليم ، في مدرسة ابتدائية أغلب تلاميذها من أبناء البدو الرحّـل الفقراء ، في قرية على الحدود الجزائرية المغربية (زوج بغال) (١٣) ، وقد نقـل جزءا من الواقع المعيش لهؤلاء البدو الرحّل ، في " النول " حين داهموا ذات صباح مدينة تلمسان ، في أمواج بشرية ناقمة من الشحاذين .

" الشحاذون كانوا يجيئون من الضواحي المحروقة الفقيرة " (١٤) .

وان انتماء محمد ديب الى الحزب الشيوعي الجزائري ، ونضاله الطويل داخـل النقابات العمالية والزراعية ، عمقت وعيه السياسي ، الأمر الذي سهل له فهم وتحليـل تناقضات المجتمع المستعمر (بفتح الميم الثانية) ، وأدرك في الوقت نفسه فعاليـة الكتابة وضرورتها النضالية ، لكونها تفتح نافذة على الخارج ، ذلك " الخارج " الذي لم تمسه الثقافة العربية ولم تؤثر فيه (لانقصد ذلك التأثير التراثي القديم) .

وعبر رؤية ماركسية كان محمد ديب يكتب " نفسه " مجسدة في شخصية " الطفـل عمر " ، متبعا حياة الطفل مكتشفا من خلال ملاحظاته ماكان يموج به المجتمع الجزائري من تناقضات اجتماعية وصراعات سياسية ، ومن داخل هذا الفيضان كان ديب برؤيـة حلمية ونبوءة فنان يستطلع مقدمات الثورة التحريرية التي ستندلع في أول نوفمبر ١٩٥٤ .

وقد علق جان سيناك ، أحد الكتاب الجزائريين (١٥) حين صدور " الـدار الكبيرة " قائلا :

" انه نوع من الكتب التي تسبق الثورات ، والتي تخطط لهذه الثورات ، اذا

كان للكلمة نصيب من السلطة " .

فاذا كان مولود فرعون شاهد عصره ، فان ديب يعتبر الكاتب والكتابة جزءا واحدا ،
وهي ليست فقط شهادة بل هي ممارسة وصدق عملي داخل الحياة اليومية .

" اننا نعيش ذات المأساة ، فنحن عبارة عن متمثلين داخل هذه التراجيديـــا
(...) وبشكل أكثر وضوحا ودقة ، فان هناك عقدا (CONTRACT)
يجمعنا بشعبنا ... "(١٦) .

ويحمل ديب تصورا للكتابة ، لاتنفصل عن تصوّره للكاتب نفسه ، باعتباره منتج هذه
الكتابة ، اذ لاقيمة لعمل أدبي " مالم يكن متجذرا آخذا نسغه من البلاد التي ينتمي
اليها "(١٧) وهو يعتبر الكتابة الابداعية اضافة الى بعدها الجمالي ، كونها تستقل
بعناصر خاصة هي التي تكوّن منها في الأخير هذا الذي يسمى : ابداعا ، فانهـــا
ممارسة سياسية ، وجبهة نضالية شأنها شأن كل الجبهات المحاربة الأخرى :

" كأديب جزائري كنت أناضل على الساحة الأدبية التي اخترتها ميدانا للكفاح ،
وذلك عن طريق التعريف بوقائع بلادي والحقائق التي تعيشها ، متقاسما أتعاب وأحلام
بلادي مع اولئك الذين يقرأون أعمالي "(١٨) .

ان محمد ديب يحقق داخل عمله ، ومن خلال علاقته بهذا العمل ، ما حدده
لوسيان غولدمان من عناصر يتميز بها العمل الابداعي حين قال :

" يتميز العمل الأدبي ، بأربع عناصر متساوية الأهمية : الطابع الصارم فـــي
" الوحدة " ، " الثراء " ، طابع : الفضاء الواقعي أو المضمر لمجموعة تلك العناصر
التي تكونه ، وطابعه " اللامفهومي " (Nan - Conceptuel)(١٩).

كان ديب من خلال ثلاثيته ، يجمع من موقعين متلازمين ومتجادلين : موقـــع
الفنان المسكون بالموهبة البصيرة من جهة ، وموقع المناضل المسكون بواقع شعبـــه
المضطهد والفقير من جهة أخرى ، أن يقدم شهادة على (ذاته ، وزمانه ، ومجتمعه)
تلك الهزّات التي تسبق الزلزال المدمّر عادة ، هزات مجتمع يتوق الى الانعتاق والحرّية
والخبز سنوات الحرب العالمية الثانية .

ان الثلاثية تغطي مساحة تاريخية (سياسيا واجتماعيا) تمتد مابين الاعلان عن

الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ :

" كان سكان دار سبيطار قد سمعوا صوت صفارة الانذار عدة مرات متتالية خلال

الأسابيع الماضية ، كانت صفارة الانذار قد جربت باطراد ، وقد خيل اليهم أن الحرب

ستندلع ، لاشك أن الحرب ستندلع (...) .

كان يقال ان الذي شهر الحرب رجل قوي جبار ، ان شعاره ذلك الصليب

المعقوف الذي يشبه عجلة (...) وكانت هناك صلبان (قد) رسمت بالقطران

وانتهت الى جانبها : يعيش هتلر ... " (٢٠) .

.. وتنتهي بدخول الجيش الامريكي والحلفاء الى الجزائر سنة ١٩٤٢ :

" اكتفى (الجندي) بالتبسم وهو يقدم الى عمر لوحا من الشوكولاطة مع راية

صغيرة عليها نجوم .

(...)

ارتفعت صرخة تقول :

" الا .. مر .. يكان "

أما عمر فكان في وجهه تعبير عن جد يوشك أن يكون قاسيا عنيفا " (٢١) .

ان البطل (عمر) هو الذي يجمع أجزاء الثلاثية ، فهو الذي يقوم بعملية تلحيم

الأحداث من أولها الى آخرها ، اذ تنعكس جميعها عليه من خلال : الملاحظة -

الحالة النفسية - البراءة - الوعي ... وعمر وهو يحقق هذا التلحيم الدرامي

والمضموني في الرواية لا يأخذ المفهوم التقليدي للبطولة في الرواية البورجوازية (بلزاك -

شارل ديكنز - فلوبير ... الخ) فهو ليس متميزا أو خارقا أو شاذا ، بل هو جزء

من تشكيل عام ينخرط في تركيبي طبقي مقموع ومتجانس (الفلاحون والعمال والبروليتاريا

الرثة) .

ففي الجزء الأول من الثلاثية (الدار الكبيرة) يتتبع ديب بدقة هم الجوع

والبحث عن الخبزة ، فاذا اللغة كلها تتحول الى قاموس عن : الفقر والبؤس والأكل ..

الخ واذا بعض المفردات تتكرر رقما قياسيا في الانشاء الروائي كـ : الخبز ـ الجوع ـ الأكل ومرادفاتها .

فاذا الرواية تبدأ بهذه النغمة ، التي تحمل تلهفا الى الخبز :

" هات قليلا مما تأكل .. (...)

فاختطف رشيد لقمة صغيرة من الخبز فوضعها في أقرب راحة اليه " (٢٢) .

وتنتهي بالهم ذاته واللهفة نفسها

" أدرك الصبي مايختفي وراء هذه الشتيمة ، من حب وأمان ، فابتسم وقعد مع القاعدين أمام المائدة ، وأخذ يراقب أمه وهي تقطع الخبز على ركبتيها .. " (٢٣) .

منذ البداية يضعنا الروائي داخل دار كبيرة ، هي دار سبيطار ، تسكنهـــا عائلات عديدة ، وهي بذلك تحمل دلالات اجتماعية وسياسية ، واذا هذه العائـــلات جميعا مشتركة في مأساة الفقر والجوع ، وشقاء البحث اليومي عن الخبز ، فتذكرنا فـــي فضائها ونغمة البؤس والمعاناة برواية " الأصدقاء الثلاثة " للروائي السوفياتي مكسيم غوركي .

من داخل هذه الدار الكبيرة ، التي يسكنها " عمر " مع أسرته المتكونة مــن أم وأختين (مريم وعويشه) ، يبدأ الداخل رحلة الوعي الصعبة ، من خلال علاقته مع أمّـــه (عيني) ، تلك الشخصية المتفجرة ، التي استطاع ديب أن يرسمها مسربلة بالرمـــوز والدلالات : فيجسد الكاتب من خلال تلك الأم المكافحة من أجل شرفها وشرف أبنائها ، وهي تحقق عبر خطاباتها الأمومة بكل ماتمنيه من حب وتناقض ، وجسدت " الوطـــن " بكل بؤسه وقوته الذاتية وامكانيته في المواجهة وركوب الصعاب ، ولذا اقترنت صـــورة الوطن بصورة الأم مباشرة في ذهن الطفل ، عندما سألهم المعلم عن معنى كلمـــــة " الوطن " .

" قال التلميذ ابراهيم بالي :

ـ فرنسا هي أمنا الوطن . (...)

سرّ الاستاذ حسن ، فسار الى منبره ، وأخذ يقلب أوراق دفتر كبير ، ثم قال :

" ـ الوطن ..

ولم يأتِه الصبية بالنبأ ، انهم لايفهمون ، وعسكرت الكلمة في الهواء تهتز .

.. من منكم يعلم معنى الوطن ... "

ويتحدد هذا الوطن داخل ذاكرة " عمر " من خلال علاقات ملموسة ، تعتمد " الجغرافيا " ، اذ هي تسبق المفهومات المجردة ، بالنسبة لطفل في العاشرة من عمره :

" كانت شفتا عمر مزمومتين فهو يعجن في فمه لقمة من الخبز ، فرنسا ، عاصمتها باريس ، انه يعرف هذا . الفرنسيون الذين يراهم في المدينة قادمون من تلك البلاد ، واذا أراد أحد أن يذهب الى هناك أو أن يعود من هناك ، عليه أن يجتاز البحر ، أن يركب باخرة ... البحر ، البحر الأبيض المتوسط .. لكنه يعرف أن البحر مساحة كبيرة من الماء المالح ، وأن الباخرة نوع من خشبة كبيرة عائمة . وفرنسا ، رسوم ملونة بعدة ألوان ، ولكن كيف تكون تلك البلاد البعيدة أمه .. ان أمه في البيت ، انها " عيني " ، وليس له أمان اثنتان ، وعيني ليست فرنسا ، ليست ثمة أشياء مشتركة بين أمه وفرنسا ، لقد اكتشف عمر الكذبة ، فرنسا ليست أمه ، سواء أكانت هي الوطن أم لم تكن ، انه يتعلم أكاذيب " (٢٤) .

من خلال هذا الوعي الطفولي البسيط الذي يقوم دلائله على أشياء عينية لاتقبل الشك ... ، نشعر بتلك القطيعة بين الطفل وفرنسا ، تلك التي توجد في ما وراء البحر .. ومن خلال هذه (التعرية) الطفولية يدين الكاتب ويعري زيف وأوهام ايديولوجيا الكولونيالية التي كانت تحشو رؤوس التلاميذ في المدارس الفرنسية ، وذلك من أجل خلق جيل مشوه ومستلب من أبناء الأهالي ، ليكونوا رسل الفكر الاستعماري في الأوساط الأهلية .

بين البحث عن الخبزة والبحث عن الوطن يقف الطفل حائرا ، فهما يسكنان ذاكرته بشكل تداعي وجدلي ، واذا البحث عن أحدهما هو بحث عن الثاني ، وان فقدان أحدهما يعني بالضرورة فقدان الآخر .

" ليس الوطن هو الأرض التي نعيش فوقها فحسب ، بل هو كذلك كل ما على هذه الأرض من سكان وكل ما فيها بوجه الاجمال ."

المعلم يقول هذا .. انه لأمر غريب من ذلك أن يكون المقطط بقميص الكاكي .. ثم أمه ؟ وعويشة ؟ ومريم ؟ وسكان دار سبيطار ؟ هل هؤلاء جميعا يعدون من الوطن ؟ وحميد سراج أيضا ؟ " (٢٥) .

ومن خلال هذه الاسئلة البريئة ، يبدأ العالم الذي يحيط عمر في التجلي والوضوح ، انه العالم المليء بالمعاناة والفقر والملاحقات البوليسية التي تمارسها الأجهزة القمعية الفرنسية ضد الوطنيين والشيوعيين . وتكشف " الدار الكبيرة " تلك القدرة التحليلية وتلك الخبرة التي يملكها ديب عن المجتمع التلمساني الفقير ، واذا بالرواية تتحول الى بحث اجتماعي بلغة وحس روائي يملك مقوماته الأدبية الخاصة به .

يقول الخطيبي :

" منذ ١٩٤٥ ظهر بحث اجتماعي حقيقي على يد هؤلاء الكتاب ، يهدف الى تكوين رؤية عن الذات والأرض والثقافة ، والخاصية الثانية لهذا الأدب الروائي هو أن هذه الرؤية للمجتمع الخاص تعتمد على تركيب فني واقعي ، أي تركيب يهتم بالمجرى الأولي للأحداث ، من خلال سرد قصصي تسجيلي للحياة الاجتماعية في الوقت نفسه " (٢٦) .

ومن داخل عالم الطفل عمر ومن حواشيه ، يبدأ محمد ديب في تصعيد الايديولوجيا الوطنية بأشكالها الغامضة والشمولية ، ويمتليء هذا الجزء كله بأسئلة عادية تبرز رؤوس القادمين جميعا .

" صحيح أن أفكارا كثيرة تراود في الذهن ، ولكن هذه الأفكار ليست من الغرابة في شيء .. هي أفكار تقول حسبنا ما عانيناه من جوع حتى الآن ، كأنما هذا الجوع كله الذي ذقناه ، ان المرء يريد أن يعرف حقيقة الأمور ، كيف تقع ولماذا تقع . فهل هذه أفكار ؟ " (٢٧) .

" كانت عيني تقول في كثير من الأحيان :

- نحن فقراء .

وكانت النساء الأخريات من سكان هذا البيت تقلن مثل هذا الكلام .

ولكن لماذا نحن فقراء ؟ لا أم عمر ولا النساء الأخريات كن يجبن عن هذا السؤال ، كان بعضهم يقول أحيانا : هذه قسمتنا ، أو الله أعلم ، ولكن هل هذا ايضاح ؟

كان عمر لايفهم كيف يكتفي أحد بمثل هذه التفسيرات ، لا ، ان تفسيرا كهذا التفسير لايوضح شيئا "(٢٨) .

وتطمح " الدار الكبيرة " الى كتابة تلك الطفولة البروليتارية ، أين ينتفي البطل الفرد ، لتلعب الجماعة الاجتماعية أو الطبقة أو الوطن كله دور البطولة ، فقد هيأ محمد ديب لبطله عمر " كل امكانيات النمو العفوي وبسهولة ويسر دونما تعقيد بورجوازي كالذي كبل به نجيب محفوظ بطله كمال في ثلاثيته/في جو أمه المؤمنة بالخرافات والأساطير وأبيه المتخم بالراحة واللذة المادية والجنسية والجنود الانجليزيون الذين يؤمنونه الفوتوغرافية (٢٩) . وأصحاب وأصدقاء ، وموقف ثوري غامض تجسده شخصية " فهمي " ، فكان كمال خلاصة البورجوازية الصغيرة والمتوسطة الوطنية في حين كان عمر خلاصة العمال والفلاحين الزراعيين والبروليتاريا الرثة وعموم " دار سبيطار " الفقيرة المعدمة (٣٠) .

وحين تمتلئ " الدار الكبيرة " بذلك الوصف الدقيق للحياة اليومية في " دار سبيطار " وفي الشارع ، فانها لم تكن لتقوم بذلك مجانا ، أو من موقع التخمة الثقافية ، بل ان درامية الرواية كانت تصعد من خلال هذا الوصف ومن خلال الحياة اليومية المتفجرة من روتين البحث عن الخبزة . ولم يكن ذلك الوصف من أجل فرجة سياحية ، ولم يكن وصفا حياديا ، بل كان يحمل داخله موقفا طبقيا وسياسيا .

ومن " اليومي " كان الكاتب يكتشف تلك الطاقة الشعبية التي ستتفجر على شكل بركان يلقي بحممه في كل اتجاه ، ذات يوم ، وان قيمة الثلاثية لاتتأتى من دقة تعبيرها عن البؤس الذي يغرق الأهالي ، في ظل الارهاب والنهب وسلطة الرأسمال

الكولونيالي ، فحسب ، بل وأيضا في صدق استلهامها للواقع والتنبوء بالثورة .. فهذه الشخصيات البائسة المهانة ، انما تشعر شعورا قويا بضرورة الثورة وتتنبأ باقترابها (٣١) . كل بطارقته وبلغته التي يتقنها ، ومن خلال موقعه من المأساة العامة .

" وحين يأتي من خارج الوطن أناس ، أجانب يدّعون أنهم هم السادة ، فان الوطن يكون في خطر ، هؤلاء الأجانب أعداء يجب على جميع الأهالي أن يدافعوا عن الوطن وأن يقدّموا حياتهم ثمن ذلك ... " (٣٢) .

ان " الدار الكبيرة " تحتل الى حدّ ما ، مقدمة للثلاثية ، تحمل خلفية صادقة عن معاناة الفقر ، والنضال ضده ، وضد الموت ، ومن هذه الخلفية الاجتماعية السياسية النفسية السلبية ، بدت الشخوص هي الأخرى عنيفة وقوية وصادقة ، وربما شخصية " عيني / الأم " ، دسها الواقع أكثر مما دسها الفنان ، فهي في حركيتها تتحدّ شاذة ممتلئة بحرارة شعبية ومتدفقة شعرا وحكمة وسياسة ، مجسّدة ذلك في تدفقات وسبّات ولعنات تصبّها على " أبنائها " (عمر ومريم وعويشة) تارة ، وتارة أخرى تقذف بها في وجه الجارات ، أو على زوجة مالك البيت . وبذلك كانت " الدار الكبيرة " وهي تعتمد الايقاع المكاني (دار سبيطار — المدرسة — التاريخ — المدينة — بني بوبلان / الريف) غير مكترثة كبير الاكتراث بالايقاع الزماني ، كما هي في ثلاثية نجيب محفوظ ، انها تمثل مدخلا للمجتمع الجزائري بكل تشكيلاته الطبقية والسياسية في الريف والمدينة ، ذلك المجتمع الذي سيطرحه بشكل واضح في الجزئين التاليين (الحريق والنول) .

ويمكن اطلاق تسمية " كتاب الجوع " العام على " الدار الكبيرة " حيث يصوّر الكاتب بدقة " محنة المعدة (" ملازمة لمحنة الحرية) فاذا " الدار جوع " الى كل شيء .. الناس تسلمها لهفة الى كل شيء يؤكل ، وحول هذه اللهفة تدور أسئلة كثيرة ، واذا الرواية تبدو وكأنها تدور حول نفسها دون وقوع أو تطوّر ، الى أن تبرز تلك الشخصية الهامة المتمثلة في " حميد سراج " ، الذي يبدو في الأول غامضا ومعاطا بغلالة من سحر ، ثم مايفتأ هذا الغلاف ينجلي عنه شيئا فشيئا ، وذلك

من خلال علاقة عمر به من جهة ، ومن خلال ملاحظات سكان دار سبيطار الذين لاتنام لهم عين ! من جهة أخرى .

" في الأوقات الأولى ، لم يشعر أحد بوجود هذا الرجل ، الذي مايزال شابا ، لقد سكن هذا البيت منذ قليل ، تم مجيئه الى هذا البيت بغير ضجة ، لم يسمعه أحد يتكلم ، كان لايظهر نفسه الا في كثير من التحفظ ، وقد عدّ ذلك منه آية من آيات التهذيب ، شيء غريب لقد كان يلتزم الصمت ، وحقا لم يكن ينتبه اليه أحد ، ولكن حين عرف في المنزل أنه آت من تركيا ، انصبت كل الأعين عليه فكان كل فرد يستغرب كيف لم يلاحظ فيه ذلك من قبل (...) لم يكن بالمرء من حاجة الى ملاحظة مرهفة حتى يدرك أنه رجل رأى كثيرا ، وعاش كثيرا كما يقال " (٣٣) .

وان أول مايلفت أنظار أهل الدار الكبيرة ، وعمر خاصة ، الى هذا الـ " حميد سراج " في تلك الصبيحة الباكرة :

" لاتخافوا لاتخافوا على أنفسكم ، فنحن ماجئنا لنؤذيكم وانما نحن نؤدي واجبنا .. في أي غرفة يسكن حميد سراج ؟ ولم يجب أحد وكأن دار سبيطار خلت من سكانها في لحظة واحدة ، ولكن المرء مع ذلك يحسّ بأنها يقظى منتبهة " (٣٤) .

لماذا يحاصر " رسل الشقاء " حميد سراج ؟ من هنا بدأ السؤال الكبير في الثلاثية ، على لسان احدى الجارات ، ومن هنا تبدأ شخصية حميد سراج تهيمن على الثلاثية حتى نهاية الجزء الثاني منها (الحريق) ، لتتراجع أمام هذا الحضور شخصية " عمر " لتتكشف لديه عملية : المراقبة والملاحظة والجمع والتخزين والمساعدة ، ومن خلف الداخل عمر كانت دار سبيطار كلها تسأل ، عن أسباب مطاردة الشرطة لحميد سراج ، هذا الشاب الذي يتمتع بمسلكية أخلاقية نظيفة بحكم كل سكان دار سبيطار :

" قولي .. لماذا جاء الينا في هذا الصباح رسل الشقاء هؤلاء ؟ ألم يجيئوا للقبض على حميد سراج ؟

قالت عيني :

ـ بلية من السماء لعنهم الله جميعا ، ولعن من أرسلهم .

ـ هل حميد قاطع طريق ؟

قالت زينة

ـ لم يعد عارا أن يذهب امرؤ الى السجن في هذه الأيام ، واذا ألقي هـذا الرجل في أعماق السجن فانه نفخر له ، أن يذهب اليه بعده من يذهب (..) .

لكن المرأتين أخذتا تفكران معا في حميد ، ترى ما الذي سيقع له ، بعـد أن جاءت السلطات تبحث عنه " (٣٥) .

ومن طريق ردود الفعل الجماهيرية حول ملاحقة حميد سراج ، يقدم الكاتب ذلك الوعي الشعبي (الشارعي) في أشكاله : الشعبوية والحماسية والزائفة ، ولكن في كـل ردود الفعل هذه تأكد أن " الشارع " يملك حسّا تاريخيا ، وتصوّرا " معينا " لحجـم مأساته الاجتماعية :

" قالت عائشة بدون أي وجل :

" ماذا كان يفعل الفتى ؟ اننا نعرفه مذ كان يجرى في الشارع ماأخذنا عليـه شيئا في يوم من الأيام ، انه لايسيء الى نملة ، وبأي شيء يمكن أن يسيء " (٣٦) .

قالت العجوز :

" سيظل اذن يحشو أدمغة الناس بالألفاظ كما كان يفعل في كل ركن مـن أركان الشوارع ، ان الذين يصغون اليه يضيعون أوقاتهم ، وينفخون رؤوسهم هواء ..

تجيبها عيني :

" لقد فهمنا أشياء كثيرة .. واذا تحقق مايقوله كان هو السعادة لجميع الفقراء .

ـ انك تصدقين مايقوله هؤلاء الشيوعيون .. وستظلين على هذا الحال الى آخر حياتك ، ألا ترين مايؤولون اليه ؟ انه السجن ، ماذا يجنون من ذلك كلـه ، السجن .. " (٣٧) .

لقد بدأ الطفل أمام وقائع مطاردة حميد سراج من قبل جهاز القمع الفرنسـي يكنّ له اعجابا وتقديرا .

ان شخصية " حميد سراج " التي تملك تاريخا معادلها الواقعي والحقيقي ،

تعود من حيث أحداثها ووقائعها الى شخصية جزائرية شيوعية معروفة في منطقة تلمسان ، اسمها " محمد بادسي " ، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الجزائري ، والذى توفي منذ سنوات قليلة فقط ١٩٧٩ (٣٨) . ولكن الكاتب لم يحبس هذه الشخصية في " تخطيطية " (......) حياتها النضالية ، بل ارتقى بها الى معادلهـا الفني الذى خول لها التحليق والاتساع ، حتى ذلك التطوّر الذى كانت تعرفه هـذه الشخصية كانجاز روائي لم يكن يتحقق من خلال تطورها الداخلي هي فقط ، بل كـان المحيط (دار سبيطار ـ الفلاحون) هو الذى يطورها ويتطوّر معها ، ومن خـلال هذه العلاقة التي تحمل بعدين .. بعدها التاريخي الاجتماعي : ارتباط تلـك الطليعة الثورية بطبقاتها (العمال والفلاحون) وبعدها الفني : تحقيق هذه العلاقة داخل هندسة الرواية متجلية في تطور الأحداث وتطور اللغة وتداخل الأصوات .. الخ وخلف هذه العلاقة ومن خلالها كان المجتمع يزحف بكل سهولة وصدق الى الرواية بكـل صراعات المؤدلجة والمسيّسة وصراعاته العفوية التي لم ترق بعد الى الأدلجة والتسييس.

وان فهم هذه الصراعات داخل الوسط الفلاحي هو ادراك لحقيقة ثقل شخصيـة " حميد سراج " ، وحركيتها النضالية ، التي كثيرا ما كان يعكسها الكاتب من خـلال " تصرفات " الفلاحين ، أكثر مما يعكسها من خلال حميد سراج نفسه ، وهذه في حـد ذاتها رؤية جمالية ، وليست اعتباطية ، لأن الكاتب كان يريد أن يحطم في " حميـد سراج " البطل " الخرافي " " الدونجواني " ، لتتطهر الرواية من خلاله . ومـن خلال شخصية " عمر " من وباء البطولة الفردية سيدة الموقف وسيدة المصير في الروايـة البورجوازية الكلاسيكية ...

الحريق : من محنة المعدة الى محنة الأرض !

" كذلك نحن معشر الفلاحين ، نرغب صادقين في تحسين أحوالنا ، بل وفي تبديل العالم " .

" اننا نشهد عصرا جديدا ، ولعلنا لا نشهد هذه الأحداث فحسب ، بل نسهم كذلك اسهاما كبيرا في صنعها . نحن .. والعالم أخيرا . النتيجة واحدة على كل حال " .

(من الحريق : ص : ٢٥٣ و ص : ٢١٠) .

ضمن " كتاب الجوع " المديني " العام ، أو محنة المحدة ، في " الدار الكبيرة " ينتقل بنا الروائي الى " الريف " حيث الفلاحون والعمال الزراعيون غارقين في فقرهـــم ولوسخب الأرض التي تحدد شرفهم وهويتهم ووجودهم ومماتهم (القبر) ، وفـــي مواجهة قساوة الطبيعة وذلك في الجزء الثاني من الثلاثية ألا وهو (الحريق) .

فاذا كانت " الدار الكبيرة " صورة بانورامية لجوع مديني شامل ، من خــــلال " دار سبيطار " فان محمد ديب سحب خطابه الروائي على الشرائح الاجتماعية ، فـي المجتمع المستعمر (بفتح الميم الثانية) الأكثر مأساة والأكثر تضررا ، والأكثر فاعلية فـي عملية التعبير الاجتماعي ـ السياسي ، فاذا هو يفرد في (الحريق) حديثه عـــن " الفلاحين " الفقراء والعمال الزراعيين ، وعلاقتهم بطليعتهم الثورية (حميد سراج) من خلال سيرورة تطور المجتمع الجزائري المستعمر ، وفي " النول " يفرد الحديث عن عمال النسيج المدينيين والبروليتارية الرثة (الشحاذون) ، وعلاقة هذه الطبقـــة بطليعتها الثورية (عكاشة .. حمزة) ، ومواجهة البورجوازية الصناعية التقليديـــة المحلية المتحالفة مع البورجوازية الكولونيالية الاوروبية .

ان " الحريق " تكشف أمرين أساسيين في التجربة الابداعية ، أولهما : درايــة الكاتب بالمساحة التاريخية : الاجتماعية ، السياسية ، النفسية والخرافية التي يكتـــب عنها ، وتجيء هذه الدراية من ممارسة الكاتب العملية لهذا القطاع الفلاحي .. ومـــن رؤيته العلمية لهذا الواقع الذي يكتب عنه ومؤازرته بالحتمية التاريخية التي يؤمن بهـــا ايمانا ديالكتيكيا ، وليس ذلك الايمان الذي يحول الحتمية التاريخية الى حتمية قدرية ، تفرغها من كل فعالية للانسان داخل التاريخ . وثاني هذين الأمرين : هو ايمـــان الكاتب بامكانية التغيير الذي يمكن أن يمثله الفلاحون ، كقوى بشرية وسياسية عريضـــة وهامة . وهذا الايمان وتلك الدراية لم يتحققا داخل الحريق كبحث اجتماعي أو سياسي ، بل تحققا من منظور فنان مدجج بالعلم (التاريخ ـ الاجتماع ـ السياســـة ـ الفلكلور .. الخ) وبذلك استطاع أن ينقل تلك الرؤى البسيطة والصعبة ، وتلــك الحكمة والمهاترة في نفس الوقت التي ينطق بها الفلاح ، وتلك اللغة التي تحمل معها

قسوة الطبيعة وقحط الأرض .

وعبر هذه العلاقة بين " الاجتماعي ـ السياسي " و " الفني " كانت " الحريق " تجسد بشيدة نموذج الرواية الطليعية ، مجسدة أشكال الوعي لدى الفلاحين ، راسمة ذلك الحس الطبقي والسياسي الذي يملكونه من خلال الواقع والوقائع اليومية التي تجري أمام أعينهم . وأشكال المواجهة العفوية والمنظمة التي يمارسونها ضد جهاز الاستعمار الكولونيالي العنصري ، وعلاقة الحركة الوطنية (فصيل الحزب الشيوعي) بهذه القطاعات البشرية والسياسية العريضة ، التي ستثبت للتاريخ في مرحلة تالية فاعليتها ، اذ سيكون الفلاحون هم الوقود الأساسي والرئيسي في حرب التحرير الوطني .

وان علاقة الحركة الوطنية (خاصة الشيوعيين) بالفلاحين علاقة تاريخية في الجزائر ، وليست من باب التصميم الفكري أو الذهني الماركسي لهذه العلاقة . اذ وجدنا من خلال دروس التاريخ وأدبيات الحزب ، اهتمام الشيوعيين بالأرياف منذ الحرب العالمية الأولى ، ثم في عملات التوعية الانتخابية (١٩٣٦ ـ ١٩٤٦ ـ ١٩٤٨) ومع نهاية الحرب العالمية الثانية كان الشيوعيون قد تمركزوا داخل الأوساط الفلاحية في كل الجزائر ، وبدأوا العمل السياسي التحريضي منذ ١٩٥١ بشكل واضح (٣٩) . كما أن الأحزاب الوطنية الأخرى لم تهمل المسألة الفلاحية والفلاحين ، باعتبار هذا القطاع أكثر القطاعات البشرية والسياسية تعرضا لتزييف الوعي من جهتين : أمّا تزييفا دينيا كانت تمارسه الاقطاعية الطرقية ، باعتبار هؤلاء الفلاحين عبيد الله وخدام حامي الدين المتمثل في شيخ " الطريقة " الدينية ، واما تزييفا كان يجيء من قبل البورجوازية الكولونيالية بأساليبها الخاصة . ولذا وجدنا " حزب نجم شمال افريقيا " يرفع شعارا لبرنامجه : (الاستقلال الوطني والاصلاح الزراعي) ، ويطالب من خلال هذا البرنامج بـ " مصادرة الملكيات الزراعية الكبيرة المحتكرة ، من قبل الاقطاعيين عملاء الامبريالية ، والمستعمرين . والمجتمعات الرأسمالية الخاصة ، واعادة الأراضي المصادرة الى الفلاحين الذين حرموا منها " (٤٠) .

وان تبوأ كثير من الفلاحين الفقراء ، مناصب سياسية حساسة داخل قيـــادات الأحزاب الوطنية وكذلك ابّان حرب التحرير الوطنية ، يؤكد أن الريف كان دائما ، مــن خلال فلاحيه الفقراء عاملا في السياسة ومتفاعلا بها . ومن هذه الأرضية تأخذ الروايـــة مشروعيتها التاريخية والطليعية ، وهي في تفرّدها هذا تضع ظلها على الروايـــــة الجزائرية بشكل بارز ، فاذا بنا نجد - مثلا - عند رشيد بوجدرة بعد ربع قــرن من الزمن ظل الحريق باديا على روايته " التفكك " (٤١) .

واذا كان حميد سراج في " الدار الكبيرة " قد أثار استفسارات وأسئلة وحـرّك كوامن الوعي عند أهالي دار سبيطار ، وعزّز وعي الطفل عمر ، فانه في الحريق ، قــاد الى " الفعل " السياسي ، حيث شن الفلاحون والعمال الزراعيون في " بني جيلان " والنواحي اضرابا ضدّ المعمرين الاوروبيين .

واذا كانت " الدار الكبيرة " تنبني على " الذاكرة " التي تفجر براءة الطفولـــة البروليتارية بكل ماتحمله من غربة وصدق وألم في البحث عن " الوطن " و " الأكـل " ، فان " الحريق " تنبني على ملف عام من الوثائق ، حول الحركة الفلاحية في منطقـــة تلمسان ، ويتكون هذا الملف من مجموعة من البحوث والتحقيقات كان قد سبق للكاتـــب أن نشرها على شكل حلقات في بعض الصحف والمجلات اليسارية . وتقوم الرواية فـــي مجملها على مادة هذه المقالات والبحوث التالية :

1) Sur la vie chère et la grève centrale de Hamra

(الجزائر الجمهورى) (Alger-Republicain 9 - Mars (مارس) 1951

(حول غلاء المعيشة والاضراب المركزى لـ "حمة")

2) Grève 100% dans les اضراب ١٠٠٪ في قطاع التبغ بالجزائر العاصمة

tabacs à Alger (الجزائر الجمهـــورى) Alger Republicain
24 Avril (ابريل) 1951

حول المضربين في مدينة بليدة

3) Sur les Greirsts de BLIDA

Alger Republicain (الجزائر الجمهوري)
24 - 25 Avril (ابريل ١٩٥

4) sur les ouvrirs agricols en Grève dans la region d'Ain-Taya — حول العمال الزراعيين المضربين في ناحية عين طاية (الجزائر الجمهوري) (Alger - Republicain)25-26-27 Avril ابريل 1951
وهو مقال مشترك بين بير لافون (P. LAFFONT) وكاتب ياسين .

5) Le chomâge cette plair : البطالة ، هذا الجرح
Alger - Republicain (الجزائر - الجمهوري)
8 - 9 - 11 - 12 - 13 - 14 Mai (ماي) 1951

6) Cheminots d'Algerie عمال السكك الحديدية بالجزائر
Alger - Republicain (الجزائر الجمهوري)
16 - 17 - 18 - 19 - 20 - 21

Mai 1951

7) Prolitaires Algeriens (البروليتاريون الجزائريون) .
مجلة : Nouvelle critique. N° 68. Septemre - Octobre1955

فمن هذه التحقيقات ، ان ، جاء الجزءان الأخيران من الثلاثية ، حاملين معلومات دقيقة عن الحركة العمالية والفلاحية في الجزائر وفي القطاع التلمساني بشكل خاص . ومن هذا الواقع التوثيقي لم يكن اختيار القرى والأماكن اختيارا عشوائيا ، بل ان المكان يلعب دورا أساسيا في الثلاثية ، فهو الذى يتطوّر ، لتتطور أو تتغير داخله قوة اجتماعية معينة (عمال نسيج - عمال زراعيون - بروليتارية) . وان وقفة عند بعض هذه القوى التي جاء ذكرها في الثلاثية ، مثل " المشبة " " سيدو " " مغنيه " " بني بولان " " الحنايا " ، تحملنا مباشرة الى أولئك المناضلين العظماء من الفلاحين الذين انتجتهم هذه القرى مثل : " الطاهر الغمري " عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الجزائرى من قرية " المشبة " و " أحمد بن بلة " من " مغنية " أحد المناضلين الوطنيين الذين فجّروا ثورة ١٩٥٤ ، ومصالي الحاج من " تلمسان " أب الحركة الوطنية الجزائرية ... الخ .

ونظرا لاعتماد التوثيق : ملف التحقيقات الصحفية وبنك المعلومات التاريخية والجغرافية ، نجد الرواية لاتزال في بعض فقراتها محتفظة بأسلوبها الصحفي الاخباري المثير .

" وفي دوار سيدي موسى ، هجم رجال الشرطة على الفلاحين وأوسعوهم ضربا . وعدد هؤلاء لذ ربما كان من رجال الشرطة الآ أن شهروا بنادقهم الرشاشة " (٤٢)

وفي " الحريق " تبدو شخصية حميد سراج أكثر الشخوص الروائية اثارة وأكثرها ثراء . لأمرين : أولهما : تمكّن الكاتب من الدخول الى قلق وصمت وكلام هذه الشخصية الاشكالية ، دون السقوط في فخ الكلام الشعاري الحماسي ، الذي يتعامل مع الظواهر من الخارج دون النفاذ الى أعماقها ، وثاني الأمرين : هو الطابع الذي تميزت به شخصية " حميد سراج " ، فهي رغم كونها " مثقفة " الا أنها استطاعت أن تتخلص من " ثقافيتها " لحظة وجودها في علاقة مع الفلاحين ، دون أن تسقط في " الفلاحوية " التي هي في حدّ ذاتها نزعة بورجوازية صغيرة ، بل تبقي علاقتها العضوية مع هؤلاء الفلاحين : من خلال تقريب مجموعة من المفهومات النضالية اليهم ، دون السقوط في التبسيطية المسطحة التي تجوّف الرؤية العامية من شموليتها وخلودها ، ولذلك حققت شخصية " حميد سراج " من خلال ذلك فكرة أساسية هي : ان الثقافة الثورية ليست طريقا الى النخبوية والابراج العاجية ، بل هي وحدها طريق المثقفين الى طبقاتهم الفقيرة التي يرتبطون معها عضويا . وهي ليست (أي الثقافة الثورية) تغريبية بل انها وسيلة للحضور الجدلي والعضوي داخل الطبقة .

" وهذه الفكرة هي حياتنا مع ذلك ، فحياتنا كل يوم من جديد ، واذا كنا نحسها احساسا أقوى حين يكون المحراث أو الفأس في أيدينا (...) فاننا حين نلتقي رجالا كهذا الرجل يتحدثون الينا عنها بهذا العلم ، ولا يكلّموننا عن أمور تربتنا ، نعرف كيف نجيب : نعم هذه هي الحقيقة ، ذلك أننا نفهم ، ان ماتنطق به أقوالهم هو حقا الحياة التي نعيشها ، انهم يوحون الينا بالثقة ، هؤلاء الرجال الذين نعرف أنفسنا في أقوالهم نستطيع أن نكلمهم ، وأن نمشي وراءهم . نستطيع أن

نتقدّم بخطوات قويّة الى الأمام ... "(٤٣) .

لقد استطاع ديب من خلال " شخصية " " حميد سراج " أن يحقق صورة روائية للمثقف الثوري ، في لحظة عمل سياسي وتنظيمي ، داخل طبقته ، من خلال علاقة عضوية تتجسد على المستوى : الطبقي – النفسي – السياسي – اللغوي .

ومن خلال هذه الشخصية في اطار علاقتها مع الفلاحين ، استطاع ديب أن يبرز ارتباط العمل الوطني بالعمل الاجتماعي ، وانهما وجهان لعملة واحدة ، وأن كل دعوة تريد تأخير أحدهما هي دعوة بورجوازية أو اصلاحية .

لقد استطاع حميد سراج (البطل الاشكالي) من موقع المثقف الطليعي والسياسي الطليعي أن ينظم الفلاحين ، وأن يؤطر غضبهم وحقدهم ، ويحوله من مجرد حقد أخلاقي الى حقد طبقي تاريخي ، حتى يكونوا في مرحلة تالية هم أكثر الفئات الاجتماعية مشاركة في الحرب التحريرية ، وأسبق الفئات الاجتماعية الأخرى بحثا عن العدالة الاجتماعية ، لأنهم أكثر الفئات فقرا واضطهادا وانسحاقا .

" كان حميد سراج يفهم أن عليه أن يصغي الى كلام هؤلاء الرجال . ليس بالضائع هذا الوقت الذي ينفق في هذا الكلام ! أليس لهذا الحديث صلة كبيرة بموضوع الاجتماع ؟ طبعا .. وان حميد سراج ليتعلم من هذه الأحاديث أشياء كثيرة كان يدرك أن الفلاحين يتكلمون بصراحة ، دون تحرّج ، ودون خوف .. " (٤٤) .

واستطاع هؤلاء الفلاحون أن يسيروا خلف طليعتهم (حميد) ليس بشكل " قطيع " ولكن كقوة سياسية واجتماعية ، واعية نفسها ، ومدركة قوة فعلها السياسي والاجتماعي .

" واذا جاء الينا نحن الفقراء ، نحن البؤساء ، نحن الفلاحين بعد أن حصل ذلك الحلم كله ، فلأن في تلك الكتب التي قرأنا شيئا قاده الينا (...) اذا كانت تلك العلوم وتلك المعارف ، قد قالت له اننا خير من بعر البقر ، فلا شك أننا نستطيع أن نثق به ، وأن نطمئن اليه " (٤٥) .

ان الخطاب السياسي الذي يربط بين حميد سراج والفلاحين ، هو خطاب موصل وفاعل ، اذ أنه يغترف قاموسه من المحيط ، ويحارب فيه كل نزعة لغة البورجوازية الصغيرة ، لغة المفهومات الجاهزة التي تظل جامدة وجليدية أمام سخونة الواقع • فهو مثلا " يقسم بالنسمة " (مشيرا الى الحقول) وهي عادة اسلوبية فلاحية ، تحمل كل قيم التبجيل والتعظيم للخبز • وبذلك استطاع حميد سراج أن يقضي على نزوع بورجوازي صغير ، يخلق لديه حالة هروب نحو الأمام •

استطاع ديب في جرأة " الحريق " أن يرسم بدقة ، خريطة طبقية سياسية نفسية للفلاحين ، واذ هي تقوم بذلك كانت ترسم بشكل بارز ، من جهة أخرى ، قبر البورجوازية الكولونيالية وحليفتها البورجوازية المحلية ، الذي حفرته بيديها الا عتبين !

" الوف الهكتارات من الأرض كانت تصير ملكا لمستوطن واحد من الفرنسيين ، وهؤلاء المستوطنون جميعا سواء : لقد وصلوا الى هذه البلاد بأحذية مثقبة نعالها (•••) وها هم أولاء الذين يملكون مساحات من الأرض لاتعد ولا تحصى •• وسكان بني بوبلان في أثناء ذلك تقطر أجسادهم عرقا ودما ، من أجل أن يزرعوا قطعة صغيرة من الأرض جيلا بعد جيل " (٤٦) .

هكذا سحبت الأرض من تحت أقدام ومحاريث وفؤوس الفلاحين ، لتنتقل الى المستوطن الغريب ، تارة عن طريق " وضع اليد " وتارة أخرى بواسطة " قانون " التمليك الجديد ! وتارة أخرى عقابا لهم لأنهم لم يدفعوا " الضرائب " وتارة أخرى بالعصا ! وبدأ الفلاحون الأهالي ينسحبون الى الأحراش وجنبات الجبال كالذئاب :

" كانت لي أرضي ، وهي قطعة صغيرة ، من الأرض ، أنت لاتذكرها طبعا " •

— لاأتذكرها ، ولكن لابدّ أنها كانت قطعة صغيرة جدا من الأرض •

— ولكنها كانت أرضي أنا ، وكان لي بهائمي ، وكان لي بذاري ، وكانت لي بقرة صغيرة ، من أبقار هذه البلاد •

— صحيح كانت لك بقرة •

— وكان لي بيت صغير أيضا • (•••)

ثم أخذ الفرنسيون كل شيء .

— آه من هؤلاء الفرنسيين .. " (٤٧) .

ويقابل احساسه بالأهالي واقتلاعهم من الأراضي الخصبة ، كان الرأسمال الزراعي الكولونيالي يتراكم ، ويعزز وجوده وأدوات قمعه ، ويهدد حتى الرأسمال الزراعي في المتحول (زراعة الكروم خاصة) .

" كان بن أيوب .. ينظر الى الأعماق البعيدة من السهل ، فيدرك الحقيقة واضحة : يدرك أن الثروة الحقيقية تتجمع في أيدي المستوطنين ، أما هو فان أرضه ، لاتبدأ الا على الجنبات الوعرة من الجبال ، مثله مثل سائر المزارعين في بني بوبلان .. " (٤٨) .

" آه ما أحذقهم في تجريد هؤلاء الفلاحين من كل شيء في سهول مصلحتهم وفي سبيل " الحضارة " .

كان هناك غول شره لاتراه الأعين ، ماينفك يبتلع بين فكيه الفاغرين أشلاء كبيرة من هذه الأرض التي سقوها بعرقهم ودمائهم ، يبتلعها على ذهول منهم وغفلة من حيث لايحسّون .

انه القانون .. اينما توجهوا صفعهم " القانون " وهم دائما مذنبون في نظر " القانون " لوائح " القانون " تحاصرهم من كل جهة .. القانون يشق طريقا يقطع مزارعهم ، كما يقطع الدولاب أجسامهم . القانون يحرّم عليهم امتلاك أراضيهم .. ألغيت سندات التمليك القديمة ، لايرث أحد أرض أسلافه ، والحبس صودرت ، وكذلك أراضي المشاع .. " (٤٩)

أمام هذا الوضع يناضل الفلاحون في بني بوبلان ، ضد الفقر وضد القمع ومؤسساته الضخمة القانونية والعسكرية والايديولوجية والسياسية ، وضد طبيعة الأرض الصعبة المران والقاحلة ، من أجل أن يقهروا الموت في أرقى أشكاله : الموت الحضاري الذي يبيد الذات الوطنية ، هذه الذات التي تتجسد داخل علاقة الانسان بالأرض نعمة وقبرا وميثولوجيا (Mythologie) وتاريخا . وداخل هذه المواجهة

بين الفلاحين من جهة والمستوطنين من جهة ثانية ، يبدو الوعي الاجتماعي عند الفلاحين أسبق من الوعي الوطني ، ولكنه لايلبث أن يولده ليسيرا معا في جدل ضروري :

" واذا لم يكن في بيت كسرة من الخبز ، فهل المطالبة بهذه الكسرة من الخبز اشتغال بالسياسة أيضا ؟ كسرة خبز ، ماهي ؟ ماكسرة الخبز بالشيء الكثير " من أجل ذلك كان الخبز كل شيء عند أناس مثلنا " (٥٠) .

ومن موقع الرؤية الماركسية ، بعيدا عن ذلك السقوط في " الفلاحوية " ، تملك الرواية ثقة تاريخية كبيرة في قدرة الفلاحين على زلزلة البنى الاجتماعية القائمة في ظل نمط الانتاج الكولونيالي ذي الطابع الزراعي السائد .

" قبيلة من الناس لايمتازون بشيء خارق غير مألوف ، ولكنني أستطيع أن أتسول على وجه التقريب ان كل مايصنع الجزائر قائم فيهم " (٥١) .

وحتى حين يلقى القبض على " حميد سراج " قائد اضراب الفلاحين ، وتحت التعذيب الذي يتعداه بصبر مناضل مجرّب ، كان يرى أطياف الفلاحين وحدها هي التي تزيده جلدا وثباتا :

" وكانت الأطياف الوحيدة التي تدور في رأسه وتحافظ على بقية من توازنهما ، لكي يظل حيا يقاوم ، كانت تلك هي أطياف الفلاحين الذين تحدثوا عن أمّنا الجزائر الكبيرة وعن الفجر الآتي حتما " (٥٢) .

وحققت الثلاثية تلك الوحدة الطبقية والمصيرية بين الفلاحين والعمال :

" واجتمعت النقابات النقابية في تلمسان فقررت تشكيل لجنة دعم للفلاحين ، وأصدرت نداء الى العمال ثم شرع فورا في جمع التبرعات " (٥٣) .

ومع تصاعد المواجهة بين الحركة الوطنية الجزائرية من جهة والاستعمار وأدواته من جهة أخرى ، بدأت الرأسمالية الكولونيالية الحدّ التنازلي ، فانتقلت من موقع الهجوم الى موقع الدفاع ، فازدادت شراسة وعصبية بالوطنيين :

" ان السلطات أصبحت في هذه الأيام الأخيرة لاتنتظر منهم الا اشارة واحدة

حتى تقبض عليهم ، كان هذا واضحا كل الوضوح ، كان يبقر الأبصار " (٥٤) .

ولكن هذا التنكيل بالوطنيين والفلاحين لم يزدهم سوى شعورا بضرورة الوحدة والتماسك :

" كان (الفلاحان) السجينان يفهمان ذلك ، فذهبا دون أن يردا التحية ، على أنهما كانا يحسّان أثناء مرورهما بما يشعر به الناس نحوهما من حبّ وعطف . ان الفلاحين الذين لم يتحركوا كانوا يشعرون نحوهما بشعور الصداقة لقد بدأوا يشدّون على أسنانهم من الغضب " (٥٥) .

البورجوازية الجزائرية الريفية

استطاعت " الحريق " من خلال شخصية " قارة علي " أن تعرّي البورجوازيـــة المقارية الزراعية الجزائرية ، وبذلك تخلصت الرواية من النظرة الاصلاحية التي ترى في الأهالي (الجزائريين) مجتمعا متجانسا طبقيا . فمن موقف شامل ودقيق تمكنــــت " الحريق " من الوصول الكشف عن تحالفات البورجوازية الزراعية الجزائرية مع الرأسمال الكولونيالي من أجل تفقير الفلاحين بشتى الطرق ومصادرة أراضيهم واقتلاعهم منهـــا : بالارهاب العسكري ، والارهاب الضرائبي ، والتفريق الديني .

وان " قارة علي " ليس جديدا على الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية ، مـــن حيث دلالاتها الاجتماعية والسياسية ، فهي تذكرنا الى حدّ ما بشخصية " تودرت " عند مولود معمري (٥٦) . الا أن موقف محمد ديب منها كان موقفا أكثر شمولا وأكثر عمقـا ، وسنجد في " صيف افريقي " لديب نفسه عودة الى حالة أخرى قريبة جدا من شخصيـــة " قارة علي " هي حالة " المياشي " ، فهي تلتقي معها في محتوى التحالفـــات ، ولكنها تختلف معها في الوقوف على رقعتين تاريخيتين مختلفتين ، فاذا كانت شخصيـــة " قارة علي " في الاربعينات ، فان " المياشي " يعيش زمن الحرب التحريرية .

واذا كان فلاحو بني بوبلان في " الحريق " قد أدانوا وقاطعوا واكتشفوا حقيقـة " قارة علي " ، فان هؤلاء الفلاحين سوف يتصرفون مع " المياشي " بشكل آخر فـــي " صيف افريقي " :

" أوثقه ! بسرعة ! أيها الحيوان ! بالحبل ... بحزامي ... وأوثــــــق المياشي . ولم يكن عايد ليفقه شيئا مما يحدث وطرح الرجل في مكانه موثوق اليديــــن والرجلين مبهور الأنفاس دون حراك .

وانبعث من الأرض الصوت نفسه الذي سمع منذ قليل ، لكنه عديم الجرس :

ــ التوبة يا اخوتي ...

وأراد الرجل أن يصرخ ، ولكن " باسهلي " منعه بعنف وجرّه من رجليه بعيـــدا

عن كل مكان آمل . وبينما هو يجره راح الشيخ يسأل وهو يلهث كالثور :

ـ لقد بعت اخوانك لماذا ؟

.. التوبة ... أنا مسلم

ولكن السؤال عاد ملحّاً :

ـ لقد بعت اخوانك لماذا ؟

وأجاب الآخر بصوت واه :

ـ أنا مسلم ...

وبلغوا على هذا النحو المكان المدعو (رحبة) وهو سهل واسع ممتد يدرس فيه القمح .. وترك باسهلي المياشي يسقط وقد غدا أثقل من حيوان ميت . ثم انحنى عليه وهمس في وجهه :

ـ لقد قتل والدان بسببك ... هل تجرؤ على انكار ذلك ؟ وما حدث اليوم .. هؤلاء الرجال الذين اقتيدوا والذين سيقتلون لاشك . ايه . قل انك بريء ؟ لــم تأخذك الشفقة على اخوانك ، لقد بعتنا لماذا ؟ ماذا فعلنا لك ؟ ستجيب عن ذلــك أمام الله . أنت ...

ولم يعد المياشي يتحرك كأنه سقط في غيبوبة عميقة : فكرر باسهلي آنـــذاك بصوت لايرحم :

ـ ستجيب عن ذلك أمام الله ..

(...)

واستعاد باسهلي بندقيته فقال للرجل بصوت فيه كآبة لاتحد :

ـ استعد للموت .

فرنحه ووضعه على ركبتيه :

ـ استغفر الله العلي القدير ... تضرع الى الله أن يعفو عنا ، أنت ونحــن مهما كنّا .

وفجأة دوت في الظلمة قبضته التي كانت تمسك بالفأس . " (٥٧) .

فها هنا تحولت المواجهة بين الفلاحين وأعدائهم مهما كانت أسماؤهم (محمد أو جون) الى التصفية الجسدية ، فالمرحلة تسمح بهذا الحوار بين المتناقضات .

واذا كان الزمن الطبقي والمرحلة التاريخية هي ذاتها (ريف الجزائر الفقير في ظل الحرب العالمية الثانية) عند كل من فرعون ومعمرى وديب ، الا أن الاختلاف الذى ميّز ديب عنهما ، هي تلك الرؤية التي جسّدت الفلاحين في يقظة سياسية واجتماعية من خلال علاقتهم مع طموحاتهم الثورية (حميد سراج) في حين لم يكن هذا موجودا عند مولود فرعون ولا عند معمرى ، لأن كليهما لم يستطع تجسيد المثقف العضوى داخل لحظة الفصل السياسي التاريخي .

وان الوعي الذى نلمسه بشكل متميز عند فلاحي محمد ديب في " الحريق " و " صيف افريقي " ليس وليد الخيال أو الخلق انه افراز الواقع الصعب ، والملاقات الاجتماعية المباشرة (٥٨) ، فالحرّية لا تتعلّم من كتب كارل ماركس بالنسبة لهؤلاء الفلاحين انها ضرورة أملاها هذا الواقع .

ان دور البورجوازية الزراعية الجزائرية ، في تحالفها مع البورجوازية الكولونيالية ومؤسساتها ، يكمن في القضاء على كل أشكال المقاومة التي بدأت تهز بنية المجتمع الجهاز الاستعمارى منذ نهاية الثلاثينات ، وتجرد الفلاحين من ممتلكاتهم ، فهذا " القايد " يصادر حصان أبو سليمان لأنه رفض أن يهديه اياه :

" كان " القايد " يريد الحصول على هذا الحصان لأن حاكما آخر أقوى منه كان يطمع فيه " (٥٩) .

وتؤكد " الحريق " ذلك المصير المشترك بين البورجوازية الجزائرية والبورجوازية الكولونيالية ، وحرصهما منطلقا من هذا المصير على تفتيت كل وحدة فلاحية أو عمالية من شأنها أن تهدد مصالحهما :

" قال قارة علي :

" ولكن ماداموا يتحدون هذا الاتحاد ، فمعنى ذلك أنهم يبيتون أمرا ، لا أعرف ماذا يبيتون ، ولكننا لا نستطيع أن نقول انهم يبيتون شيئا . انهم يريدون لنا

شرا ، وهذا كل ماأعرفه ، انهم يريدون وقوع مكروه وسيقع هذا المكروه أخيرا ، ولو كان المكروه واقعا على رؤوسهم وحدهم لهان الأمر ، غير أنه سيقع على أناس لا شأن لهم بهم سيقع على رؤوسنا نحن " (٦٠) .

ان اعتماد البورجوازية المحلية " الدين " سلاحا في تثبيت سيطرتها على الأرض والفلاحين ، هو تحويل لتلك السلطة التي كانت في قمة - عصر الرق بيد الاله نفسه ، الى البورجوازية الزراعية نفسها ، وبذلك يؤ ! حقها في الملكية وعبودية الفلاحين حقا الهيا . (٦١)

" ان الفلاحين لم يوجدوا على هذه الأرض الا ليوسخوا كل شيء ، ولو ذهبوا الى الجنّة لملوثوها ببرازهم " (٦٢) .

وتدين الرواية القديمة الميتافيزيقية التي تزيف وعي الفلاحين ، من خلال تأكيدها على التناقض الموهوم بين النضال الثوري وبين الاسلام - والايمان ، نقارة علي في (الحريق) و " ماحي بوعنان " في " النول " و (المياشي) في " صيف افريقي " يخفون تحت مظهر البساطة روحا معقدة ، ولكن هذه البساطة ومظاهر " التديّن " سرعان ماتزول أمام الوقائع والهزات اليومية التي يتعرض لها المجتمع ، فتكشف عن لؤم وبهت (٦٣) وتبدو هذه البورجوازية الهجينة ملحقة بالجهاز " التجسسي " القمعي الاستعماري :

" لن تعرف (قال قارة) هذه البلاد الا الافلاس والدمار مالم نبذل جهودنا متعاونين مع أصدقائنا (...) فهم قارة عندئذ أن له أن يطمع في جمع المال ، ثم أنه كان يعرف منذ اللحظة التي نوى فيها أن يطلع السلطات على أعمال العصابة الوقحة التي كانت تستعد مع حميد سراج لاحداث الاضطرابات " (٦٤) .

لم يكن ديب في (الحريق) ذا نظرة " فلاحوية " كما قد يبدو للبعض ، من خلال تلك القيمة والوزن السياسي الكبير الذي أعطاه للفلاحين الأهالي ، على الرغم من أن الفلاحين هم أكثر الطبقات الاجتماعية تخلفا في كل المجتمعات ، فهو قد ربط الفلاحين بطليعتها الثورية من المثقفين الشعبيين (حميد سراج) حين أوكل اليهما

هذه المهمة التاريخية الكبيرة :

" هؤلاء الرجال الذين لايملكون شبرا من الأرض هم الحقيقة " (٦٥) .

وهو بهذه العلاقة بين الفلاحين وطليعتهم ، وكذلك الربط بين الوطني والطبقي في الرواية . أنقذ الحريق من النزعة (الفلاحوية) ، لأن هؤلاء الفلاحين لايمكنهم ضمن الظروف التي كانت تحيط بهم أن يتحولوا الى قوة سياسية فاعلة ومغيرة على مستوى الثورة الوطنية أو الثورة الاجتماعية ، الا في حالة وجوب وجود أمرين أساسيين وقد حققتهما (الحريق) : أولهما : وجوب وجود قيادة سياسية طليعية . وثانيهما : تحالفهم مع العمال المدينيين . وحتى في ظل صحوة الفلاحين السياسية فقد ظلت الرواية ملتزمة في هذه الصحوة حدود الوعي الممكنة لهؤلاء الفلاحين وتراوح هذا الوعي بين : الطبقي والوطني والديني والفلكلوري ، وبذلك نفذت الرواية من نزعة أخرى كان من الممكن أن تكون ضحيتها تلك هي : " النزعة التبشيرية " المضادة للخطاب الروائي والمضادة للتاريخ .

" لولا أن عدو الله هذا الذي يسمى حميد سراج يجر معه جميع فلاحينا ، هذا هو الأمر الخطير ، لماذا تراهم متفقين جميعا ؟ لو كان كل مايريدونه هو المطالبة بزيادة قليلة في الاجور لكان يمكن أن يكون ذلك حقا وعدلا ، ولما كان في ذلك شر كبير ، ولكنهم يتجمعون ويتعصبون ، فذلك هو مايجب أن نفكر فيه مليا ، ذلك هو الشيء الهام ، لاكونهم يطالبون بزيادة فرنك أو فرنكين ، وحميد سراج هذا الذي ألقى في روعهم فكرة التجمع " التجمع " ولولاه ماتحدوا هذا الاتحاد الذي نراه الآن ، ولكن [illegible] الذي يؤملونه [illegible]

" المجرم الرئيسي هو حميد سراج ... انهم حملان يقودها حميد سراج الى المسلخ ، هذه هي النتيجة التي سيصلون اليها .. " (٦٧) .

عشق الأرض وأنسنتها :

عند ديب كما هي عند فرعون ومعمري وكاتب تقترن الأرض بمفهوم الشرف والأجداد والنسب والمرأة ، وتوضع " الأرض " كقيمة فوق أية قيمة أخرى ، لأنها هي أسبق من " الأنا " نفسها ، فهي التي تشخص ملامح هذه " الأنا " في مواجهة " الآخر " ، وتحافظ عليها من الذوبان وتؤرخها .

" اذا تركتم أرضكم ، فان أولادكم وأحفادكم وأولاد أحفادكم ، الى آخر جيل من أجيال ذرياتكم ، سوف يحاسبونكم حسابا عسيرا ، اذا تركتم أرضكم فلن تكونوا جديرين بهم ، ولن تكونوا جديرين بهذه البلاد ، ولن تكونوا جديرين بالمستقبل " (٦٨) .

ان للأرض سلطة لاتملوها سلطة أخرى على الانسان ، فهي القبر وهي الحرب وهي المستقبل وهي الماضي وهي النعمة ، ومن الخطاب عن الأرض جاءت في " الحريق " تلك النزعة الى الماضي ، وهي " ماضوية " ممتدة ومتناقضة مع ماضوية الايديولوجيا الكولونيالية الاسطورية ، التي ترى أن الأرض الجزائرية أرضا لاتينية - رومانية ، ومن هذه " الماضوية " الكولونيالية تبني أحقية الاوروبيين في هذه الأرض .
ان " الماضوية " في (الحريق) هي نداء لتاريخ النضال المجيد ، ممثلا في رموزه الأكثر تنورا :

ف " أشباح عبد القادر ورجاله تهوم فوق الأراضي الظمأى " (٦٩) . وهي " ماضوية " فعالة ونشيطة ، رغم النغمة الدينية التي كثيرا ماتطبعها ، تنتقد ليس فقط الايديولوجيا الكولونيالية ، بل تنتقد وتنقض أيضا الايديولوجيا الماضوية للبورجوازية التجارية المدينية باعتبارها " ماضوية " خنوعة واستسلامية ، ترتكز على جاه وتباه ومجد سالف كاذب (٧٠) .

" ان تلمسان لاتنجب الآن الا تجارا .. فما هو موقف هؤلاء التجار ؟ انهم ماينفكون يباهون بعظامة ماضية " (٧١) .

وان امتلاك قطعة أرض هو وحده الذي يشعر الفلاح بالراحة . وصيانة الشرف ،

وهو وحده الذي يحفظ ماء الوجه ، ويغرس الأمل والتفاؤل بالحياة رغم قساوتها واضطهادها .

فمن ملك قطعة أرض ، " ملك اليسر ورغد العيش والحرية ، هناك انما يجد الاستقلال الحق . " (٧٢)

ويرتبط الفلاح بحنين جارف مع الأرض ، وهي تنسحب من تحت أقدامه ، وهي تقضم بأسنان غول الرأسمالية الكولونيالية يوما بعد يوم ، فاذا هي كالمعشوقة تقضض مضجعه .

" وقد لازمهم هذا الحنين الى الأرض التي كانت تصبو اليها نفوسهم ، وتصور أمام أبصارهم سرابا يرونه كل يوم " (٧٣) .

وينتمي الفلاح الى هذه الأرض ، فاذا هو جزء منها ، اذا أبعد عنها صار كذلك العضو المبتور عن الجسد ، ان لحمه منها وعروقه متدفقة بدمها :

" ان كومندار ينتمي الى هذه الأرض ، كهذه الأشجار المتفرقة التي حوله سواء بسواء " (٧٤) .

واذا الرجال الفلاحون يشبهون في بنيتهم الفيزيولوجية بنية الأرض التي أنتجتهم وأرضعتهم ، فهي التي تحدد القيمة " الجمالية " للانسان ، فتصنع مشاعره وتصنع شكله الذي يتجاوب مع قساوتها ، انها مثل عاشقة ترسم صورة فارسها وتحدد وجهه وعضلاته ونور عينيه :

" والحق أن هؤلاء الرجال الذين يراهم أمامه ، لهم كل ما للأرض التي أنبتتهم من مظهر ولون وحتى رائحة ، انهم من قمة رؤوسهم ذات العمائم ، حتى أخمص أقدامهم التي تنتعل الهوابيج ، ليس فيهم شيء صاف رائق الا هذه الأعين التي مثلها كمثل الينابيع لا أعمار لها . " (٧٥)

واذا للأرض غناؤها ونشيدها وصلاتها ولعنتها ، واذا هي رمز الخصوبة والانجاب مثلها مثل المرأة ، فلكل منهما رحم ، يصب خصبه داخل التاريخ ، ذلك الخصب الذي يناهض ويناقض الفناء :

" الأرض امرأة ، سرّ الاخصاب واحد ، في أخاديد الأرض وفي أرحام الأمهات على السواء " (٧٦) .

" لقد كانت الأرض تنتج ، ولكنها كالنساء الضاويات في هذه الأعالي ، لاتدر الا القليل من اللبن . " (٧٧)

ونتيجة ذلك الالتحام بين الانسان (الفلاح) والأرض ، فقد استطاع ديب أن " يؤنسن " الأرض ، واذا الخطاب الروائي عنها ، لايختلف في قيمته الشعورية عن الخطاب حول الفلاح نفسه ، وهو متخلص الى حدّ كبير من " الوصفية " التي ظهرت عند فرعون ، فاذا الأرض هذه ، تتألم وتحزن وتمشق وتغضب ، ومن هذه الحالة الشعورية كان الخطاب الروائي كثيرا مايتفجر شعرا ، كونه لغة الحلم والسروى العجيبة (٧٨) وتتحول الرواية من لحظة موقف الى لحظة " علاقة " داخليـــة ، بمسحة رومانسية شفافة :

" ماأشد ماكانت تشعر به هذه الأرض من آلام ، لو كانت حيّة " (٧٩) .

" وراء المزارع يتأمل الحقول الحزينة التي تختنق بين الصخور .. فاذا شبح الجزائر .. هذا هو الواقع " (٨٠) .

واذا الأرض مثل الفلاح ، صورة شامخة بجبالها وأنهارها ... ضد كـــل محاولات التذويب ، وضدّ الاقتلاع والمصادرات والتفقير :

" الجبال ماتزال صابرة

والانهار ماتزال صابرة

وسوف تقضي المساء .

المروج تنسج الغلالة ،

التي يسبح فيها دالوع الهشائر

- بأي مكوك

تحوكين النسيج

الذي نمضي به على مهل

من الشباب الى الكهولة " (٨١)

فمن الأرض في سلطاتها العظيمة وقوتها السحرية يتحول الخطاب الروائي شعريـا وغنائيا ، ويتحول الموقف صوتا يحمل كل دلالات التاريخ وعظمة الانسان .

نبوءة أم حدس تاريخي ؟

ونحن نقرأ هذه الرواية ، الآن ، بعد أن مضى على كتابتها حوالي ثلاثين سنة ، نكتشف قوة الحدس التاريخي الذي يملكه محمد ديب ، والذي مثلته " الثلاثيـــة " ، وذلك باعتمادها على رؤية واقعية علمية وشاملة في تفتيت المجتمع واعادة بنائه فنيـــا . تلك الرؤية القائمة على دراسة المجتمع المستمر بكل صراعات قواه الاجتماعية والسياسية ، وبهذا استطاع ديب أن يكون عرّافا ماركسيا ، أو نبيا ماركسيا ، اذ في معطيات الواقع تكمن النبوءة ، لأن النبوءة هنا هي " علم التاريخ " أكثر منها أي شيء آخـــــر ، " فبمقتضى التصوّر المادي للتاريخ فان العامل الحاسم الفعالية في التاريخ ، هو في التحليل الأخير ، انتاج الحياة المادية واعادة انتاجها .. " (٨٢) وهذا لايعني أن العامل الاقتصادي هو وحده الذي يؤثر على مسار الصراعات التاريخية ويحددهـــا ، يقول انجلز ، في دفاعه عن المنهج " الماركسي " وردا على مشوّهيه :

" فاذا جاء أحدهم فيما بعد ولوى رقبة ذلك ، الى حدّ القول أن العامـــل الاقتصادي هو وحده الحاسم الفعالية ، فانه يكون قد [illegible]ل تلك الصيغة الى جملـــة فارغة ، مجردة ، عابثة ، ان الوضع الاقتصادي هو الأساس ، لكن مختلف أجـــزاء البنية الفوقية — الأشكال السياسية للصراع الطبقي ونتائجه ، الدساتير التي تسنّهـا الطبقة الظافرة ... الأشكال الحقوقية ، وحتى انعكاسات جميع هذه الصراعـــات الفعلية في دماغ المتصارعين ، من نظريات سياسية وحقوقية وفلسفية وتصوّرات دينيـــة وتطورها اللاحق في شكل معتقد جامد مذهب — تمارس بدورها تأثيرها على مسار الصراعات التاريخية وتحدد ... شكلها في العديد من الحالات " (٨٣) .

لقد حقق ديب على المستوى الأدبي الروائي ، ومن خلال عناصر العمل الابداعي ، خرقا في الزمن ، فكان يرى اعتمادا على مابين يديه ، ماسيجيء به التاريخ مستقبلا :

" أيها ، أيها السادة ، أعطوني خريطة بلد ، هيئته ، مناخه ، رياحه ، وكل بنرافيته المادية ، أعطوني منتجاته الطبيعية ، نباتاته ، حيواناته ... الخ . فأتعهد بأن أنبؤكم سلفا بما سيكونه انسان هذا البلد وبالدور الذى سيلعبه البلد في التاريخ لاعرضا واحتمالا وانما وجوبا ولزوما .. " (٨٤) .

فمن خريطة الجزائر وهيئتها ومناخها ورياحها ونباتاتها وحيواناتها ... الخ . كان ديب يرى ميلاد الحرب الجزائرية عن قرب ، ومن داخل هذه العناصر .

" ان كل رجل من هؤلاء الرجال الذين تراهم حولك هو الآن أشبه بالبارود يكفي أن تسقط عليه شرارة ... " (٨٥) .

" لن يتورعوا عن استعمال المطرقة واستعمال غير المطرقة مما لايعلمه الا الله .. لاشك أنهم سيقتلون ولاشك أنهم سيرتكبون جرائم سياسية .. " (٨٦) .

وبازدياد تخوف الرأسمالية الكولونيالية وحلفائها المحليين ، أمام تصاعد الايديولوجيا الوطنية ، عززت وسائلها القمعية والبوليسية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، مما زاد الوطنيين شعورا بضرورة العمل الموحد ، من أجل الخروج المظفر من هذا الوضع :

" لقد تآمرت أنت ورفاقك على فرنسا ، أأنت من حزب الشعب الجزائرى ، أم أنت شيوعي ، اعترف حالا .. والا ...

— قل من هم الذين ينتمون منكم الى حزب الشعب الجزائرى ، أو الى الحزب الشيوعي فما يصيبك أذى " (٨٧) .

وأمام القهر يزداد المستقبل أكثر وضوحا ، والصراع أكثر فرزا واتساعا :

" انسان هذه الأيام يفكر أكثر مما يحسن التعبير ، الانسان الجزائرى يفكر الآن كثيرا ، أرجو أن لايخرج من هذا الا خير .. (...)

أخذت الروح العظيمة تهتز في أرضنا) (٨٨) .

وفي نبوءته عن الثورة التحريرية ، يرى ديب ان الفلاحين سيكونون وقودها ، وهذا بالفعل ماأكدته الحرب حين جاءت .

" ان ابن أبي رجل .. انه رجل حقا ... (...) مقاتل أصبح فلاحا ، ولكنه اذا دعا الداعي يسترد كل ملامح المحارب .. كل ملامح المحارب الخافي تحت جلده " (٨٩) .

" أسأل الله أن يمد في عمرنا ، فلسوف نرى أمورا جديدة كثيرة .. وان شيئا ما قد تغيّر في هذا العالم .. أنا لم أطف الجزائر كلها ، لكن قلبي يحدثني بكل شيء . لقد زار قلبي جميع أرجاء البلاد ، زار جميع المدن ، وجميع القرى ، وعاد من زيارته يبلغني أن ثمة شيئا جديدا .. آلا ما أطول صبرنا " (٩٠) .

النول : روايـــة الطبقـــة العاملـــة .

" لقد وصلنا الى الأسفل فلن تجدينا الطرق الماديـــة
من أجل أن نعود فنصبح بشرا . لابد لنا في سبيـــل
ذلك من أن نقلب العالم رأسا على عقب وربما كـــان
علينا أن نروعـــه "

النول : ص : ٤٣٤ .

لقد كان ديب سباقا الى اكتشاف موضوعات جديدة ، لم يتناولها أى كاتب جزائرى قبله . وهذا السبق الذى يحققه محمد ديب لايكمن في جديدية هذه الموضوعات فحسب ، ولكن في تلك الرؤية التي تثار بها هذه الاطروحات كذلك .

وفي رواية " النول " يفتح ديب بابا جديدا ، انه الباب الذى يطل على قطاع بشرى وسياسي واقتصادى هام في الجزائر المستعمرة ، محاولا أن يكتب رواية " الطبقة العاملة " المحلية ، في ظل نمط انتاج كولونيالي ، وفي مدينة حرفية عريقة هي " تلمسان " أين نمت البورجوازية التقليدية المدينية بشكل متميز . ولما كان الروائي ابن المدينة خبرها طفلا وعاملا وصحفيا فقد استطاع أن يكشف دهاليزها المظلمة وأقبيتها التي ينمو منها رأس مال البورجوازية التقليدية على حساب الرئات المسكونة بالرطوبة لعمال النسيج من الأطفال والشباب والشيوخ .

تقوم بنية " النول " على لوحتين أساسيتين ، لوحة أمامية وأخرى خلفية .

تعرض اللوحة الأمامية حياة الطفل عمر الذى نلقاه هامشنا وقد ترك المدرسة ، والتحق بعمال النسيج ، بأحد المصانع التابعة لأحد البورجوازيين المحليين الجزائريين هو : (ماحي بوعنان) ، ومن خلال هذه اللوحة يلتقي عمر بنماذج عمالية مختلفة (عكاشة -- حمدوش — حمزة — الشول ، والطفل زبيش ، وآخرين) . ومن دائرة هذه العلاقة بين عمر والعمال الآخرين ، داخل العمل (في القبو) أو خارجه (في المقهى أو المطعم) يكشف ديب ذلك الاستغلال الذى يكابده هؤلاء العمال ، وداخل هذا التكوين الطبقي الواحد يقدم الروائي نماذج مختلفة من العمال ، غير منسجمة في السلوك والتفكير ، ويعود هذا اللاانسجام الى أمرين أساسيين : الأول : تمكن الرواية من النفاذ من التخطيط الفكرى الذى غالبا مايحكم مضامين الروايات التي تتناول حالة مثل هذه ، وهذا يكشف قدرة الكاتب على استيعاب الانسان (العامل) في علاقاته الاجتماعية بكل زخمها النفسي والسياسي والمأساوى باحباطاتها وحاجاتها ، وهذا هو الشرط الذى يحقق الابداع الطليعي الانساني ، بعيدا عن التخطيطية الذهنية (الفكرية — السياسية) الجافة .

وثاني الأمرين : طبيعة الواقع العام في المستعمرة يفرض مثل هذه التناقضات الهامشية ، بين عناصر الطبقة الاجتماعية الواحدة ، في ظل غياب الوعي والتوجيه والقيادات النقابية أو ضعفها (٩١) نتيجة الملاحقات والمطاردات والتصفيات التي تتعرض لها هذه القيادات من قبل المؤسسات القمعية الاستعمارية .

في هذا الجزء الأخير من ثلاثية " الجزائر " يختفي حميد سراج ، اذ ترميه السلطات الفرنسية في المنافي الصحراوية (٩٢) بعد أن يلقى عليه القبض اثر اضراب العمال الزراعيين والفلاحين في (الحريق) ، لكن غياب حميد سراج ليس نهاية لذلك الفكر والتصوّر التحرري الذي كان يحمله ، بل اننا سنجد رموزا عمالية أخرى تناضل (عكاشة - حمزة) ضد رطوبة الأقبية وضدّ الأصباغ وحشرات الصوف التي تأكل رئات الأطفال والشيوخ والأمهات ... وتحمل هذه الرموز من خلال ذاكرة (عمر) وملاحظاته استمرارية لحميد سراج ومشاريعه الانعتاقية .

أما اللوحة الثانية : فتعرض بشكل درامي متفجّر ، زحف أمواج بشرية هائلة من الشحاذين ، ذوي الأصول الفلاحية المفقرة ، القادمين من النواحي الى المدينة ، ليأكلوا قماماتها ، وليملأوا شوارعها وساحاتها العمومية وأحيائها المختلفة ، وليثيروا رعب البورجوازية الفرنسية وغضب وسخط البورجوازية الجزائرية ، من جهة ، وعطف وتلاحم فقراء المدينة من جهة ثانية .

تقترب اللوحتان من بعضهما البعض ، حتى تتداخلان ، ومن خلال هذه العملية كانت الرواية تكتب ذلك الوعي الوطني والطبقي لدى الطبقة العاملة الجزائرية بشكل خاص والسكان المدينيين بشكل عام .

لقد يسّرت الحركة الميلودرامية لمحمد ديب أن يوجد وصفا نابضا بالحياة والنضال الكادح ، فمجموعه سواء تلك المحشورة في دار سبيطار أو في ريف " بني بوبلان " أو في أقبية معامل النسيج المظلمة والرطبة ، تشكل لوحة متكاملة لطبيعة الحركة المناهضة لكل أشكال الاستغلال : الوطني والاجتماعي .

ورغم الاكثار الديكنزي (نسبة الى الروائي شارل ديكنز) من القتامة والبؤس

والفاقة ، الا أنه (أى ديب) لم يجعل صغاره ممرضين للأمراض البورجوازية التي يولع بها ديكنز بالنسبة لـ " بيب " الآمال الكبيرة " أو " أوليفر تويست " ، ولهذا فان كراهية عمر للعالم غير حقيقية ، رغم أن الرواية تقول : " انه يكره العالم ويكره كل مايرتبط به " ، فالذى يكرهه عمر ليست الحياة ، انما " الاستغلال " الواقع في الحياة ، دون أن يكون هذا الشعور مدعاة للاحباط ، الذى يمكن أن يجرّه عند ئذ الى سلسلة من الممارسات الخاطئة كالتي طبعت سلوك - سعيد مهران في " اللص والكلاب " لنجيب محفوظ .

لقد وفّر محمد ديب بذكاء لصغيره (عمر) فرصة التجاوز الواعي لمشكلة الفقر ، منذ أن أطلق الصغير سؤاله الكبير :

" لماذا يأكل اناس ولا يأكل أناس آخرون ؟ " (٩٣) .

- العمال : - اختلافات هامشية وهما واحدة !

تدفع " النول " الى كتابة رواية " الطبقة العاملة " الجزائرية في ظل الاحتلال ونمط الانتاج الكولونيالي ، تلك الطبقة التي بدأت تتشكل منذ بداية القرن الحالي في المدينة الجزائرية (٩٤) . وتتقفى الرواية خلفها كاتبا معبّرا هذه الحياة العمالية في يومياتها ، وان هذا الطموح الذى تحمله الرواية قلّ وجوده في الرواية العربية ، التي دأبت على مخاطبة أبناء الطبقة الوسطى ومعالجة مشكلاتهم وتطلعاتهم لأن الروائيين العرب في غالبيتهم ينتمون الى الطبقات الوسطى ، أما محمد فهو أشبه بمكسيم غوركي في تجاربه وتجاربه الكادحة وفي رواياته ، فقد تقلّب غوركي شأنه شأن ديب في شتى المهن الكادحة ، وعبّر عن هذا في رواياته وقصصه ، كما رأينا أعمال غوركي تعج بالعمال والبروليتاريا الرثة (الأصدقاء الثلاثة) (٩٥) كذلك وجدناها في أعمال ديب حاملة كل خصائصها المحلية والتاريخية .

ان الصراع مميز بوضوح في ثلاثية ديب ، خاصة في جزئيها الأخيرين (الحريق والنول) ، فامتزجت الرؤية الموضوعية للواقع الاجتماعي القائم في ظل ظروف الاحتلال

ومناهضته ، امتزاجا جدليا بالنضال ضدّ الاستغلال والقهر ، حيث تعاني الشغيلة الأمرّين : القهر الوطني والقهر الطبقي .

ان " النزل " هي أول رواية جزائرية تكتب تاريخ الطبقة العاملة الأهليـــة (المبلترة Prolitarisée والرثة Sous Prolitarisée)

في لحظة مواجهة الاستغلال والاحتلال ، تلك الطبقة الجديدة التي بدأت تفـــرض وجودها على مستوى الأحداث السياسية بشكل واضح عشية الحرب العالمية الثانية ، انها الطبقة التي زحفت ــ أغلبها ــ الى المدينة من القرى القريبة والبعيدة ، بعد أن صودرت منها أراضيها أو اقتلعت منها اقتلاعا ، ثم استقرت على أطراف المدينة مشكّلـة أحياء قصديرية فقيرة ، ثم " تبلترت " داخل آليات الرأسمال الصناعي الكولونيا لـــي المصري ، وفي أقبية الصانع التقليدية (النسيجية والحرفية) للبورجوازية الجزائريـة . ثم شحذت وعيها عن طريق علاقتها (المحدودة ، لأن نمط الانتاج الكولونيالي هـــو عنصري ولذلك كان يبتر العلاقة بين البروليتاريا المحلية والاوروبية ، عن طريق نشـــر ايديولوجيته العنصرية) مع البروليتاريا الاوروبية (الاسبانية ــ الايطالية الكورسيكيـة خاصة) المتواجدة في المستعمرة ، ثم خلقت أحزابها الطليعية العمالية في مرحلـــة تالية ، لتبدأ ممارسة نضالها الوطني المؤطر .

واذا كان نجيب محفوظ قد استطاع بحق أن يغوص في أعماق البورجوازية الوطنية المصرية ، لينقل لنا أدق التطورات التي رافقت هذه الطبقة (٩٦) ، فان محمد ديـب كان يغوص في الوجه الآخر للمجتمع ، مؤسسا نصّا روائيا خاصا بتلك القوة التي تشكلت كوجود موضوعي ووعي ذاتي (٩٧) .

حين كان ديب يؤسس نصّا روائيا عماليا ، كان كمن يكتشف قارّة جديدة ، بكـل مايحيط بهذا الاكتشاف من مخاطر سياسية وجمالية ، اذ أن عملية تأسيسية مثل هـذه كثيرا ماتجرّ الى " الفخ " السياسي على حساب الأدبي ، لكن " النول " احتفظـت بروائيتها ، محققة نصّا أدبيا بوحدته الداخلية ، التي تجسّدها تلك العلاقة بـين مجموع عناصره (...) والتي هي وحدها تخلق له خصوصيته الثقافية (الأدبيـة ــ

الفلسفية ، الفنية) (٩٨) . ورغم أن الرواية كانت قليلة الحركة فانها استطاعت أن تحافظ على دراميتها وحركيتها ، التي انتقلت من الظاهري (Le paraître) حيث كانت عليه في (الحريق) ، الى " الداخلي — النفسي " في " النول " حيث كل شيء يسهم في بناء الدراما الروائية وحركيتها : الصمت ، حركة العيون ، طريقة الكلام ، المكان ، اللباس ، الطقس .. الخ ومنا تكمن غزارة الرواية في أبعادها النفسية ، داخل الطبقة الواحدة ، وهو الأمر الذي لم يجعل العمال في خطاباتهم والخطابات عنهم ، نسخا متطابقة ، ومن هذا الباب نفذت " النول " من التكلس والجليدية السياسية والأدلجة ، التي كان من الممكن أن تكون ضحيتها .

تكتب " النول " في عمقها المركزي ، يوميات عمال النسيج في تلمسان ، تحسي كدهم الدؤوب من أجل توفير الخبز ، وما يصاحب هذا العمل من ظروف لاانسانية ، حيث يزج بجيش من الأطفال في الأقبية اللاصحية ، لتأكلهم رطوبتها بين خيوط الصوف. وان ظاهرة توظيف الأطفال واستغلالهم بأجور زهيدة هي ظاهرة متفشية لدى البورجوازية التقليدية المهنية والزراعية ، فقد وجدنا مولود معمري هو الآخر يثير هذه الظاهرة في " سبات العادل " ، اذ تستغل البورجوازية الزراعية الأطفال استغلالا مريعا فهي تشغلهم مقابل نصف الأجر ، ليقوموا بقطف العنب من النجوم حتى النجوم (على حد قوله) (٩٩) . واذا بعمر وأخته عويشه ومريم وزبيش والجارات الصغيرات (١٠٠) في الثلاثية نماذج لأولئك الأطفال ضحايا البورجوازية التقليدية .

ويترك هؤلاء الأطفال عرضة للأمراض الخبيثة من العمل المتواصل والسخرة ، يموتون بصمت ، ويعوضون بآخرين تمتلىء بهم شوارع وأزقة المدينة .

" فلما وصل (عمر) الى (القبو) علم أن " زبيش " مات ، لقد ذهب مرض التيفوس برفيق عمله في الصنع . صعق عمر ، ان زبيش قد انقطع عن المجيء منذ أيام فلم يكترث لغيابه أحد ... " (١٠١) .

" وقد أحل محل زبيش في العمل بالمصنع فتى من الضواحي ثقيل اليدين " (١٠٢) .

واذا كانت " النول " تكتب ظروف العمل اللاانسانية في أقبية الرأسمال الجزائري

التقليدى ، فانها تكتب في الوقت نفسه تلك النقمة التي تسكن أعماق هؤلاء العمال الذين يصنعون التاريخ ، وتكتب رؤاهم وأحلامهم المختلفة المتشبثة بهمّ واحد ، هو كيفية الخروج من هذه المأساة :

عكاشة :

في " الحريق " قدم محمد ديب حميد سراج بمثابة الشرارة والوعي في آن واحد عارفا طبيعة مهمته التاريخية ، لأنه يملك اليقين الذى يفرز الواقع ، واذ يختفي حميد سراج في هذا الجزء ، فان شخصية أخرى (عكاشة) تواصل القاء بذور الوعي في المجتمع من خلال علاقتها بالطفل عمر ، مفجّرا فيه همّة الصراع والمواجهة مع الآخر المستعمر (بكسر الميم الثانية) والبورجوازى الجزائرى (ماحي بوعنان) .

" لقد أدرك الصبي بعد بضعة أسابيع من الاستنقاع في هذه الحفرة ، ما في حالته الجديدة من جدّ " (١٠٣) .

" ان عمر لايشعر بالصداقة الا نحو عكاشة الصموت ، ان عكاشة يوحي اليه بالثقة (...) الأيام تمضي وعمر ينضج .. لقد أكسبه عمله في الورشة خبرة كبيرة " (١٠٤) .

وعلى الرغم من أن عكاشة يمثل شخصية المناضل والمحرض السياسي ، الا أن الروائي لم يسقط في " تحنطيها " ، وهو مايحدث في أغلب الروايات لمثل هذه الشخصيات ، بل تركها تتفجّر من خلال لحظات ضعفها وقوتها لتبدى انسانيتها كاملة ، دون "فبركة" (Fabrication) أو تخطيطية (Schematisation) من شأنها أن تقوّض هذه الشخصية روائيا .

" قال عمر موجها حديثه الى عكاشة :

ـ كيف لاتتوقع هذه البلاد من رجالها شيئا ؟

فحرّك عكاشة يده باشارة في الهواء وقال :

" كأنها لاتتوقع شيئا ... " (١٠٥) .

ولكن ماأن تمر هذه " الفجوة النضالية " الانسانية ، حتى نراه ينهض مسرة

أخرى بكل عزيمته واصراره .

" ... انها للذة دائما أن يملك المرء سلاحا حقيقيا .. يخطر ببالي أحيانا أنه يكفي أن يملك جميع الناس سلاحا " (١٠٦) .

والى جانب عكاشة هناك شخصية أخرى تشكل المركز معه ، انها " حمزة " ، ذلك الاشتراكي المسلط على العمال جميعا . وهي تغني كثيرا شخصية عكاشة في تصوراتها ومواقفها :

قال حمزة :

" ان نفوسنا كهذا القبو الذى نعيش فيه ، الناس في أعلى أحرار ، ونحن ها هنا عبيد " (١٠٥) .

ومن حديث حمزة تخرج النبوءة التاريخية ، التي يحملها هؤلاء العمال ، انها نبوءة ذلك الحدث الذى سيرمي بمصاصي دماء العمال الى الجحيم ذات " أول نوفمبر " :

" البلاد في مخاض هادئ ، البلاد هي هم ، لقد أخذوا يسيرون ، فالبلاد هي التي يسيرهم تسير " (١٠٨) .

وتواصل " النول " من خلال تصورات ورؤى العمال لمس مختلف النزعات السياسية والتيارات الوطنية ، التي كانت تناضل داخل المستعمرة .

قال حمزة : " السياسة هي شيء معقد ، يفهمه كل واحد على طريقته الخاصة به ، فبعض يقول : يجب اعطاء الأراضي للفلاحين ، وبعض يقترح : " أعطونا كل شيء ونحن نوزع على أبناء الشعب بالعدل " (١٠٩) .

حمدوش ؟

تصور " النول " في شخصية العامل " حمدوش " تطلعات البورجوازية الصغيرة بكل قلقها وتناقضاتها وتذبذبها ، وطموحها الطبقي والصلحي الزائف ، وكيف تسهم في رفد الادارة الاستعمارية والبورجوازية الوطنية ، من خلال تلك الفوضى النضالية . ويمثل " حمدوش " من خلال تصوراته تلك النزعة " العمالوية " " Ouvrieriste"

ذات النفس البورجوازي الصغير ، وهو تيار ساد المستعمرات كثيرا ، في ظل تغييب الصراع الطبقي الذي تقوم به الأجهزة الايديولوجية والاقتصادية الكولونيالية بالتعاون مع البورجوازية الداخلية .

يقول حمدوش :

" ان في نفسي شيئا من كل شيء ، لو علمت .. ولست أدري أين أضع قدمي (...) اني أشبه بالدوارة التي تدل على اتجاه الريح : أدور ثم أدور في جميع الاتجاهات " (١١٠) .

وتطغى على حمدوش النزعة التدميرية التي تتعامل مع العالم بلا مبالاة مستخفة فيه كل شيء .

" دع الشعب ..

دعه في فاقته . أهو يتألم ؟ ولكن ماالذي تستطيع أن تفعله له ؟ ...

دع الشعب وليعش كل واحد على نحو مايريد .. على نحو مايحب .. الرجل الذي يخرجنا من الحال التي نحن فيها لم يخلق بعد ... " (١١١) .

وتذكرنا شخصية " حمدوش " في فوضويتها وتدميريتها وقلقها وقصر نفسها النضالي ، واستعجال الحلول ، بشخصية " سوفارين " في رواية " جيرمينال " لاميل زولا :

" يجب تبسيط الأمور ، ينبغي لجميع الفروق بين البشر أن تزول ، والذين يعارضون هذا ، يجب سحقهم ، نعم لافروق .. " (١١٢) .

أما شخصية العامل " شول " فهي نموذج العامل الانتهازي ذي النزوع المصلحي الفردي ، وهي تضع مصلحتها الخاصة فوق كل مصلحة . (١١٣)

فمن هذا التنوع في النماذج العمالية ، استطاعت الرواية أن تحقق صدقها الفني ، وتنقذ خطابها من جفاف الخطاب السياسي الذي يحول العمل الابداعي الى أدبيات سياسية ، ويحول الكتاب المبدعين الى (كتبة) على حدّ تعبير رولان بارت (١١٤) .

البورجوازية الوطنية : الدين والعصا !

" يقتلون الميت ويسيرون في جنازته "

هكذا بدت ممارسة البورجوازية الوطنية ، في مسلكيتها وأخلاقيتها ، تجـــاه العمال ، فهي التي تقتل الأطفال ، وتقص أعناقهم ، ثم تسير مكللة بحزن " اصطناعي " وخشوع ديني ، ومجللة بجلاليبها ، لتعزي ذويهم ، فحين يموت " زبيش " مصابـــا بالتيفوس ، يتحرك " بوعنان ماحي " لتعزية أهله ، ولحظتها يتحول الخطاب الروائـي من خطاب جاد ، الى خطاب " سخرى " استنكارى ولاذع :

" جثا ماحي بوعنان على كتبيه أمام جثمان الميت (زبيش) صامتا ، وأخـــذت شفتاه تتحركان بسرعة ، فما هي الا لحظة حتى أخذت الدموع تتساقط من عينيه " (١١٥) .

واذا كانت البورجوازية تعتمد من أجل تثبيت سلطاتها على " القانون " ! تـارة وتارة أخرى على العصا " الدرك ـ الشرطة " ، فان الدين يظل سلاحا قويا بيـــن يدى البورجوازية الوطنية ، التي تدعي احتكارها للدين عن طريق بناء المساجد وتمويل كل المشاريع الدينية الأخرى ، وهي من خلال ذلك ، تسعى لفرض تلك الهالــــة " الأخلاقية " والدينية على تصرفاتها ، حتى تتمكن من فرض احترام العمال لهـــا ، فيتحول هذا الاحترام الأخلاقي في مرحلة تالية الى اذعان سياسي ، ومن خـــلال تكريسها لهذا الوضع تقوم بمهمة تشويه الوعي الطبقي لدى العمال ، وتكشف " النول " ذلك التيار العمالي القدرى والخانع ، الذى ما هو الا ضحية تحول الهيبة "الأخلاقية " الزائفة الى " هيبة " طبقية وخنوع سياسي ، وهو يرى " أن الله هو الذى صنع حياة العامل ، وما الفقر سوى تكفير لذنوب الانسان " (١١٦) .

" وحرك ـ ماحي بوعنان ـ ذراعه في الهواء ، في تراخ ، وقال عبـــارات غامضة لها مظهر الكلام الفلسفي أو الأخلاقي لايدرى المرء ماهي .. " (١١٧) .

وكما هو تخوف البورجوازية الزراعية في بني بولان (قارة علي) (الحريـــق) من المواجهة التي يشكلها الفلاحون بقيادة حميد سراج ، فان البورجوازية المدينيـــة (ماحي بوعنان ونفناف) التي تربت في المدرسة السياسية والطبقية للبورجوازيـــة

الفرنسية (كوساليس) ، هي الأخرى تخاف من ذلك التغيّر الذى يلوح بين لحظـــة وأخرى في أحلام وممارسات بعض العمال ، والذى سيقوّض كل هذا البناء الاجتماعـــي الطبقي .

" قال المفتش نفناف سريك ماحي بوعنان في المصنع متهكما وساخرا بأفكار عكاشه :

" ماذا يقول هذا الرجل ؟ (الكلام موجه الى حمدوش) .

يقول : اننا لن نحصل على شيء ولن تتبدل أحوالنا مالم تقلب الأمور عاليهـــا سافلها ، يجب أن نغيّر الموقع الذى نحن فيه " . (١١٨)

وتنتهي " الثلاثية " بدخول الجيش الامريكي والحلفاء الى الجزائر ، واذا بالطفل عمر يبدأ مرحلة أخرى جديدة من رحلة الوعي الصعبة .. واذا المدينة التي بـــدأت غافية أو مبهمة في " الدار الكبيرة " تصحو :

" وأصبح شعبنا أيضا شديد الاحساس بكرم النفس وكلمات المودة ، لاشك أن هذا كله ، كان موجودا في الماضي ، ولكن قلب شعبنا يخفق اليوم كما لم يخفق في أى يوم مضى ، فما الذى سيخرج من ذلك ؟ أرجو أن يخرج منه خير " (١١٩) .

الانقـــــلاب الجمالـــي فـــــي

روايـــــــــــة

ـ حالة كاتب ياسيــــــــــن ـ

في "معجم الادباء" لفليب فان تيغم (PH. V. Tieghem) الذى اعده بالتعاون مع بيير جوسيران (P. Josserand) (١) ضم كاتب ياسين الى حظيرة الكتاب الفرنسيين الذين ينزلون من اصل جزائرى . اما جان روسيلو في مؤلفه "معجم الشعر الفرنسي المعاصر" فانه ادرج اسماء الشعراء الجزائريين ومنهم كاتب ياسين ، تحت عنوان : جزائريون يعبرون بالفرنسية (٢)

ولد كاتب ياسين في ٦/ أوت / ١٩٢٩ ب" كوندى سمندو " (C. Semendo) - زيروت يوسف حاليا - في القطاع القسنطيني ، كان جده "باشا - عادل" اما ابوه فكان "وكيل - قاضي" ، مزدوج اللغة ، مطلعا على الثقافة الفرنسية والعلوم الفقهية الاسلامية .

من داخل هذا الجو الاسرى المحافظ ، الذى كان يرتبط مباشرة بالادارة الاستعمارية ويخدمها ، خرج ذلك الطفل المرعب ، فتعلم في بداية حياته المدرسية العلوم القرآنية ، ثم التحق بالمدرسة الفرنسية ، كأغلب ابناء الطبقات الوسطى من الموظفين . لم يكد يبلغ السادسة عشر من عمره ، حتى بدأ وعيه السياسي يشحذ ، امام تطور الوعي الشعبي العام الذى ساد المستعمرة في منتصف الاربعينات ، فشارك لاول مرة في اكبر مظاهرة نظمتها الحركة الوطنية الجزائرية في كل مدن الجزائر تقريبا ، في ٨/ماى / ١٩٤٥ اى بعد ان وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارها ، تلك المظاهرات التي طالبت بشكل علني بحرية المستعمرات واستقلالها ، وقد خلفت مقابل ذلك (٤٥) الف شهيد .. وسوف تترك هذه الاحداث العنيفة التي شارك فيها الشاب كاتب ياسين ، ظلها على كل ادبه : الشعرى والروائي والمسرحي ، والواقع انها لم تؤثر على كاتب ياسين وحده بل انها كانت منعطفا حساسا في مسيرة تاريخ الادب الجزائرى كله . ولقد اوقف كاتب ياسين في هذه المظاهرات وسجن ، وقد سجل انطباعه عن هذه المرحلة بقوله :

"انني اتذكر بعض الاشراقات التي امتلكتني داخل السجن ، انها اجمل لحظات حياتي فهناك اكتشفت الشيئين اللذين اعتبرتهما اغلى ماأملك : الشعر والثورة " .

ويضيف معلقا على دور هذه الاحداث في صقل تجربته الادبية وترويض عواطفه واحساساته قائلا :

" .. كنت سأظل شاعرا غامضا ، لولا احداث ٨/ ماى / ١٩٤٥" (٣)

وبعد خروجه من السجن طرد من الثانوية وهو تلميذ في القسم الرابع المتوسط .

ان كانت حوادث (٨) ماى ١٩٤٥ وحرب الجزائر التي انطلقت في فاتح نوفمبرعام ١٩٥٤ وانخراط كاتب ياسين في الحزب الشيوعي الجزائرى ، قد اثرت

على تجربته الادبية من موقع شحذ الوعي السياسي وفهم المجتمع الجزائري ، فان عوامل ذاتية وثقافية اخرى صاحبت تجربة الكاتب الابداعية واثرت فيه منذ فجر علاقاته بالكتابة .

١- الانهيار العصبي الذي اصاب امه حين ظنت ان كاتب ياسين قتل في مظاهرات ٨ ماي ١٩٤٥ ، وقد قضت من جراء هذه الصدمة سنوات عديدة في مستشفى الامراض العقلية بمدينة "البليدة" وقد خلدها الكاتب في مسرحيته "المرأة المتوحشة" ومن خلال هذا الحدث ، كشف ياسين الحرب السيكولوجية الاستعمارية (كما سماها جان بيراي) التي مارستها الاجهزة البوليسية الفرنسية المتطورة ضد اهالي المستعمرة .

٢- علاقة الكاتب المباشرة مع التراث الشعري : الشعر الشعبي والفلكلور والملاحم الشعبية ، التي ترتبط مباشرة بالواقع اليومي والحضاري للقبيلة ، يقول كاتب ياسين :

" منذ صغري وانا مسكون بأغنيات قبيلتي ، ماخوذ بسحر الشعر ، متعطش الى الاستماع الى القصص عن "عبد القادر" وماضي العرب .. " .

٣- يرتبط كاتب ياسين بعلاقة حميمة مع الادب اليوناني القديم (سوفوكل وأشيل) وكذلك كلاسيات الادب الفرنسي ، يقول :

" قرات منذ الثانية عشر ، الكلاسيك : الفريد دي موسيه ، وبودلير ، ورامبو الذي وجدته اقرب هؤلاء الي " (٤)

كما اطلع على الادب الامريكي خاصة (جريس وفولكنر) . وفي مرحلة تالية اكتشف الكتاب الماركسيين .

وفي نهاية ١٩٥٤ التقى برتولت بريخت في باريس ، ودارت بينهما مناقشات حادة حول مفهوم ". التراجيديا "وقد اتهم كاتب ياسين بريخت بالموقف المحافظ فيما يخص التراجيديا .

٤- ان شخصية " نجمة " التي تهمت كاتب ياسين كالوشم في كتاباته الشعرية والروائية والمسرحية ، والتي اخذت ابعادا ودلالات رمزية عميقة في كل فترة من الفترات الابداعية ، وفي كل مرحلة من المراحل التاريخية ، هي في واقع الامر شخصية "حقيقية" ، فهي ابنة عم كاتب ياسين ، احبها الكاتب حبا كبيرا لكنها تزوجت من رجل ثاني ، مما دفع الكاتب الى ان يحمل همومه واشعاره الاولى ويرحل عن بلدته ليهيم على وجهه في أصقاع الدنيا ، وبذلك كانت " نجمة " الدافع الذاتي الذي فجر قريحة الشاعر المبكرة ، فسجلها بكل رومانسية وعفوية في مجموعته الشعرية الاولى " (المناجات) (١٩٤٦) (٥) ، وسوف تنتقل معه في كل اعماله الروائية والمسرحية متجذرة كرمز تاريخي وطني وانساني ، منذ " نجمة " ١٩٥٦ مرورا ب "دائرة الانتقام" (١٩٥٩) فـ "الجثة المطوقة" و "الاجداد يزدادون ضراوة" ثم "مسحوق الذكاء" (٦) وصولا الى "المضلع المرصع بالنجوم" ( )

(١٩٦٦).

٥- جاب كاتب ياسين اكثر بلدان العالم ، تواقا الى معرفة الانسان ، فمن عنابة الى قسنطينة الى العاصمة ، الى باريس الى تونس فايطاليا فالمانيا فبلجيكا ، فموسكو ، فهانوى ، فالسودان ، فالسعودية ، فطشقند ... الخ وقد اثمرت فيه هذه الرحلات ادبيا ، فكتب مسرحية " الرجل ذو النعل المطاطي " (١٩٧٠) عرض فيها اسطورة الشعب الفيتنامي في نضاله ضد الاستعماريين (الفرنسي والامريكي).

ويرمز كاتب ياسين " بالرجل ذى النعل المطاطي " الى " هوشي منه " كما تعرضت المسرحية الى الانتفاضات التي تخوضها شعوب امريكا اللاتينية ضد الامريكي . (البشع الامبريالية) ، وكشف تلك العنصرية الموجهة بحقد طبقي وبوليسي وعرقي ضد الزنوج في الولايات المتحدة الامريكية ، ثم عرى في ذات الوقت ذلك النضال الطبقي الذى يخوضه العمال المغاربة المهاجرون الى فرنسا ، ضد همجية الرأسمال الاوروبي المدعم بأساليب الاضطهاد والقمع المتطورة .

وفي حياته هذه ، حياة الصعلوك المتجول ، كان كاتب ياسين يحقق ذلك الوصف الذى اطلقه على نفسه حين قال :

" انا كاتب عمومي ، كاتب العرب في المنفى ، المقاطع للاعلانات ... هكذا تسير حياة الكاتب الجوال " (٧)

٦- ان ممارسة الحياة الاجتماعية على المستوى العملي الواسع اغنت كثيرا احساس الكاتب ، وعمقت تجربته الكتابية ، من خلال علاقاته المباشرة مع اكثر القطاعات البشرية انسحاقا واضطهادا في السلم الاجتماعي ، فمن العمل بالصحافة (٨) والحياة الثقافية الى عامل زراعي ومساعد كهربائي ، وعامل بناء وعامل في المهجر .. وقد سجل كل تلك التجارب كمثقف ملتزم عضوى ، وكعامل واع بالصراع الطبقي والاضطهاد الاجتماعي والسياسي في " نجمة " من خلال " ورشة العمل في المقلع " .. الخ وقد كان كاتب ياسين بحق كاتبا منحازا وبوعي الى الطبقات المسحوقة ، وقد استطاع الى جانب محمد ديب (في " النول " و " الحريق ") ان يقدما نموذجا ايجابيا للعامل الاهلي من خلال تحليل اجتماعي ونفسي وحضارى ، ويجيء هذا الصدق في الكتابة من تلك الممارسة العملية التي عاشها كل من الكاتبين منذ فتحا عيونهما على الحياة .

٧- في سنة ١٩٤٨ نشر كاتب ياسين مجموعة شعرية ثانية بعنوان : " نجمة او القصيدة او السكين " (٩)

- ١٩٥٥ - نشر بعض مقاطعات من رواية " نجمة " في مجلة (الفكر)

وفي سنة /١٩٥٦/ نشر الرواية كاملة ، بعد ان كانت قد رفضت من قبل الناشرين الفرنسيين لصعوبة فهمها ، مما اضطر كاتب يا سين الى تنسيق بعض فصولها وحذف بعضها الاخر .

/١٩٥٩/ ظهرت له مسرحية (دائرة الانتقام) (le cercle des represailles) بمقدمة للكاتب الفرنسي ادوار غالسون (E. Glissant) وقد تضمنت المسرحية ، ثلاث لوحات او ثلاث مسرحيات قصيرة هي : "الجثة المطوقة" و "الاجداد يزدادون ضراوة" و "مسحوق الذكاء" (La poudre d'intelligence (les ancêtres redoublent de férocité)

وترتبط اللوحات الثلاثة بظهور الشخصيات نفسها على الخشبة او تنفصل عن بعضها البعض في تطور الحدث .

١٩٦٦ نشر كاتب ياسين روايته الثانية "المضلع المرصع بالنجوم" (polygone étoilé)

/١٩٧٠/ اصدر مسرحية (الرجل ذو النعل المطاطي) (L'Homme aux sandales de caoutchouc)

وقد كتب كاتب ياسين عدة مسرحيات باللهجة العامية الجزائرية ، ومثلت على المسرح الجزائري ، وفي اغلب مسارح اوروبا بعد ان نقلها الى اللغة الفرنسية نذكر منها :

أ ـ محمد خذ حقيبتك عام ١٩٧١
ب ـ صوت النساء عام ١٩٧٢
جـ ـ حرب الألفي سنة عام ١٩٧٤
د ـ فلسطين المغتصبة عام ١٩٧٧
هـ ـ ملك الغرب عام ١٩٧٧

تزخر السيرة الذاتية لكاتب ياسين بعناصر غنية ، ذاتيا وموضوعيا ، ولذا فانها تشكل ظلا هاما داخل اعماله الروائية والمسرحية والشعرية ، فهي تجربة كاتب استفاق ذات ٨ ماي /١٩٤٥ على مجزرة بشعة ، وعاش سنوات المنفى وذاق مرارة السجن ومرارة العشق والخيانات العاطفية ، ومارس السياسة داخل الاحزاب الوطنية الثورية (الحزب الشيوعي الجزائرى) ، وامتهن اعمال في غاية البساطة والشعبية ، ونقل خشبة مسرحه الى المداشر والدواوير الفلاحية في كل الجزائر ، فربط بحق دور الفن بتغيير المجتمع ، فجاءت كتاباته من خلال كل هذا غنية بصدقها الفني وعميقة وجريئة في طروحاتها وهمومها .

يقول كاتب ياسين : " كثيرا من اعمالي تنزل من اعماق اللاوعي " هذا العمق ليس عمقا غير مراقب سياسيا ، بل انه العمق الذى يصب تجربة اختزنتها اعماق الكاتب

وفي سنة /١٩٥٦/ نشر الرواية كاملة ، بعد ان كانت قد رفضت من قبل الناشرين الفرنسيين لصعوبة فهمها ، مما اضطر كاتب ياسين الى تنسيق بعض فصولها وحذف بعضها الاخر .

/١٩٥٩/ ظهرت له مسرحية (دائرة الانتقام) (le cercle des represailles) بمقدمة للكاتب الفرنسي ادوارد غالسون (E. Glissant) وقد تضمنت المسرحية ، ثلاث لوحات او ثلاث مسرحيات قصيرة هي : "الجثة المطوقة" و "الاجداد يزدادون ضراوة" و "مسحوق الذكاء" (La poudre d'intelligence) (les ancêtres redoublent de férocité)

وترتبط اللوحات الثلاثة بظهور الشخصيات نفسها على الخشبة او تنفصل عن بعضها البعض في تطور الحدث .

١٩٦٦ نشر كاتب ياسين روايته الثانية "المضلع المرصع بالنجوم" (polygone étoilé)

/١٩٧٠/ اصدر مسرحية (الرجل ذو النعل المطاطي) (L'Homme aux sandales de caoutchouc)

وقد كتب كاتب ياسين عدة مسرحيات باللهجة العامية الجزائرية ، ومثلت على المسرح الجزائري ، وفي اغلب مسارح اوروبا بعد ان نقلها الى اللغة الفرنسية نذكر منها :

أ ـ محمد خذ حقيبتك عام ١٩٧١
ب ـ صوت النساء عام ١٩٧٢
جـ ـ حرب الألفي سنة عام ١٩٧٤
د ـ فلسطين المغتصبة عام ١٩٧٧
هـ ـ ملك الغرب عام ١٩٧٧

تزخر السيرة الذاتية لكاتب ياسين بعناصر غنية ، ذاتيا وموضوعيا ، ولذا فانها تشكل ظلا هاما داخل اعماله الروائية والمسرحية والشعرية ، فهي تجربة كاتب إستفاق ذات ٨ ماي /١٩٤٥ على مجزرة بشعة ، وعاش سنوات المنفى وذاق مرارة السجن ومرارة العشق والخيانات العاطفية ، ومارس السياسة داخل الاحزاب الوطنية الثورية (الحزب الشيوعي الجزائري) ، وامتهن اعمال في غاية البساطة والشعبية ، ونقل خشبة مسرحه الى المداشر والدواوير الفلاحية في كل الجزائر ، فربط بحق دور الفن بتغيير المجتمع ، فجاءت كتاباته من خلال كل هذا غنية بصدقها الفني وعميقة وجريئة في طروحاتها وهمومها .

يقول كاتب ياسين : " كثيرا من اعمالي تنزل من اعماق اللاوعي " هذا العمق ليس عمقا غير مراقب سياسيا ، بل انه العمق الذي يصب تجربة اختزنتها اعماق الكاتب

عبر تجربة جيل المحنة : الجمل (١٩٤٥) .

في شتاء عام ١٩٧٨ ، التقيت كاتب ياسين ، كان حينها يتولى ادارة فرقة "النشاط الثقافي للعمال" المسرحية ، بقرية فلاحية صغيرة اسمها "تنيرة" تبعد حوالي (٢٥كم) عن مدينة سيدي بلعباس ـ فسألته عن طبيعة تواجده في هذه الزاوية المنسية من العالم وهو الكاتب العالمي الكبير ، فأجابني :

"انهم (....) يعتقدون بانهم القوا بي في المنفى ، حيث وافقت على العمل المسرحي في هذه المنطقة الفلاحية النائية ، ليعلموا (...)انني وسط الجزائر ... وانهم هم (...) المنفيون عن البلاد .." (١٠) .

ان الفن بالنسبة لكاتب ياسين هو قبل كل شيء جزء من حياته اليومية ، ويدخل ضمن ممارساته في العمل والنضال والحرية ، ومن خلال الفن يمارس الفنان كامل مسؤولياته التاريخية ورؤاه الجمالية ، ولقد وقف كاتب ياسين منذ البداية ضد الكتابة "تحت الطلب" السياسي ، لقد ناهض "الجدانوفية" في الفن ، وطالب الكاتب ان يكون ثائرا داخل الثورة ومن اجلها ، وعلى السياسة ان لا تحاكم الاديب احكاما آنية ومؤقتة ، فالفن شيء خالد وسام ، يسبق السياسة ويبقى بعدها وهو اعمق منها .

يعد كاتب ياسين اكثر الكتاب تأثيرا في الجيل الجديد من الكتاب والمسرحيين ، وفي طليعة من تأثر به من الكتاب الروائيين من جيل السبعينات ، نجد : رشيد بوجدرة ، ونبيل فارس ومراد بوربون ... الخ اذ يظهر لدى هؤلاء بوضوح ، اسلوب الهذيان و (الفضائحية) التي تميز بها أدب كاتب ياسين ، ان هذيان "رشيد زهار" في "التطليق" لبوجدرة ، و "براندي فليكس" في الجزء الاول من ثلاثية "اكتشاف العالم الجديد" التي تحمل عنوان : "حقل الزيتون" و "دحمان" وعبد النور في الجزء الثاني "ذاكرة الغائب" لنبيل فارس ، وتصرفات "المؤذن" لبوربون في روايته المؤذن ، وموقف الكاتب من "الدين" تؤكد ظل كاتب ياسين على هؤلاء الادباء مما لا يدع شكا في ذلك ، وقد اكد نبيل فارس نفسه هذا التأثير ، ولم يقتصر تأثير كاتب ياسين على الكتاب الجزائريين فقط ، بل انه يتضح على كتاب الرواية في المغرب العربي كالطاهر بن جلون في روايته "حرودة" (١١) وعبد الكبير الخطيبي في كتابه "الذاكرة الموشومة" (١٢) (سنتحدث عن هذا في القسم الخاص بالرواية الجزائرية بعد الاستقلال).

" نجمـــــــة " او تعليق الكتابـــة العاديـــة :

في " نجمة " لكاتب ياسين ، تتحول فبأة فرنسا ، تلك التي كانت تحارب النازية والهتلرية ، الى تلميذ " هتلرى " صغير ، يمارس " تقتيل شعب ذنبه انه يطالب بحريته واستقلاله " :

" لا حاجة بنا الى القانون هنا ، انهم لا يفهمون الا بالقوة ، انهم بحاجـة الى هتلر جديد "

وفي رواية " نجمة " يتواشج الصراع الطبقي بالصراع الوطني ، ليكتب اسطورة الشعب المناضل ، ذلك الشعب المستلب المفقر ، الذى شارك في الدفاع عـن باريس ضد النازية . تبدا الرواية بضرب الاخضر لرب الورشة الفرنسي (ارنست) ثم هروبه من السجن ، لتنتهي بمظاهرة عارمة تخرج فيها الجماهير حاملة العلـــم الوطني : انها مظاهرة (٨) ماى ١٩٤٥ التاريخية ، ولان الرواية تطمـــع الى كتابة صعود الوعي الوطني وتطور اشكال المواجهة بين القوى الوطنية والاستعمار ، فاننا نلاحظ ذوبان الشخصية داخل الخطاب الروائي ، انها ليست تلـــك الشخصيات التي نجدها في اكثر الروايات الجزائرية التي سبقت هذه التجربـة ، ان الشخصية هنا بكل ماتحمله من غموض وفوضى وقلق هي تلك الذات المضطهـــدة ، الذات الحضارية والذات الوطنية المقموعة والحالمة رغم كل شيء بالحريـــــة ، هذه الذات التاريخية في لحظة مواجهة عنيفة مع الغرب الامبريالي .

من خلال لحظة المواجهة التاريخية بين الذات المقموعة المستلبة والغرب الامبريالي يتقدم المجتمع الجزائرى في ظل مرحلة حادة من مراحل النضال وتبلور الوعي الوطني الثورى ، ليكتب نفسه داخل " نجمة " بكل جرأة .

تبدا الرواية في اول لقطة لها بالهروب (هروب الاخضر) .. انه في المجهول وضد المجهول والفناء ، ومنذ البداية ندرك ان الهارب لا يملك بطاقة تعريف (١٣) وهو في هذا الهروب يمارس البحث عن الهوية التي يفتقدها ، الهوية الحضاريـــة والوطنية التي يهددها الغازى منذ قرن ونيف بالتشويه والتخريب ، تلك الهوية التي تعني : وفاء الحاضر للماضي ، وهي ضمانة الانتماء الى اطار وارض وامتلاك اسم وقبر .

ان البحث عن " الهوية " بمفهومها الواسع والتاريخي ، هم رئيسي في الروايـــة الجزائرية المكتوبة بالفرنسية ، نجد ذلك عند محمد ديب في الثلاثية وفي " ضيف افريقي " كما هو الشأن عند مولود معمرى في : " اغفاءة العادل " و " الربوة المنسية " و " الافيون والعصا " . وعند مالك حداد في كل رواياته ، واسيا جبار في " أطفال العالـــم الجديد " و " القبرات الساذجات " (١٤) ، ويتفاوت " جيل ٥٢ " الروائي في فهـــم الهوية وفي طريقة التدليل عليها ، وذلك يرجع الى ثقافة الروائيين المتفاوتة وكــــذا

تجاربهم السياسية . فاذا كان كاتب ياسين ومحمد ديب قد رأيا الهوية في استعادة الوطن لصالح الطبقات الفقيرة والمسحوقة فان روءية مولود معمري ، على مقدرته في رسم الوضع الاجتماعي المزرى في بلاد القبائل ، روءية فيها نزعة اقليمية ، خاصة في روايته "الربوة المنسية" و "اغفاءة العادل" ، اما موقف مالك حداد واسيا جبار فانه موقف البرجوازى الذى يرى في الاستقلال نهاية وليس بداية ، والوطن في مفهوم مالك حداد واسيا جبار غامض وعائم .

في "نجمة" ، من الضياع واللاتعريفية ، يصعد الكلام الهذياني المتحرر من اى قيد . ترتيب الفصول ، انتهاء الحكاية او بدايتها ... الخ ويمتد هذا الهذيان على مسافة روائية تمتد من التفرق الاول الذى احدثته مباغتة الفرنسيين للاباء الاربع الذين ينزلون من الجد الاول "قبلوت" الرمز الاول للكيان والتاريخ الوطني ، فوق جبل الناضور ، وبين التفرق الثاني بين الشباب (الاحفاد) الاربع عمال المقلع . وان المسافة بين "الفراقين" هي جوهر التجربة التاريخية في البحث عن الذات الضائعة . فاذا كان الاباء قد انهزموا امام الفرنسيين ، وتقاتلوا وضاعوا وتفرقوا ونسوا "قبلوت" فان الشباب الاربع (رشيد - الاخضر - مراد - مصطفى) قد تفرقوا في نهاية الرواية او بدايتها ! ليصنعوا في الجبال والصحارى طريق العودة الى "قبلوت" "العودة الى" الناضور" ، لقد تفرق هوءلاء الشباب بعد ان ظهر لهم الجد الاول "قبلوت" (الذى يمثل الذات المنقذة من الضياع والاستلاب) في الزنزانة وعيناه تشع رسالة تاريخية خاصة لكل منهم ، هي رسالة عامة الى كل شباب القبيلة ، الى الجزائريين جميعا ، تدعوهم الى استرداد جبل الناضور من غاصبيه .

ففي "نجمة" الاباء جميعا اموات ، والاب الوحيد الباقي هو "السي مختار" وهو مزيف وغامض ، وان هذا الزيف والغموض يتحمل مسوءليتها الجيل الاول الذى سمح للاستعمار بالدخول .. ومثلما عبر عنه كاتب ياسين فقد احسن محمد ديب قولا في "رقصة الملك" حين قال :

" منذ اليوم الاول الذى دخل فيه الفرنسي البلاد ، لم يصبح لاى احد منا اب حقيقي ، فالاستعمار هو الذى حل محله ، اذ كان هو السيد ، اما الاباء فلم يكونوا سوى مصيدى انتاج الاطفال ، ولم يصبحوا سوى فضاضي بكارات وملقحي امهاتنا ، ولم يعد هذا البلد سوى وطنا للقتلاء . " (١٥)

ان السعي الى تفتيت القبيلة اساس البناء الاجتماعي والاقتصادى والثقافي ، من قبل الاستعمار ، هي محاولة لخلخلة النظام الاجتماعي في المستعمرة من اجل الوصول الى تمليك الارض ، والقضاء على كل ثقافة محلية مضادة :

" ثم وزعوا فرقا ، لقد اتمت السلطات عملها التخريبي بان وزعت ابناء قبلوت

الى اربعة فروع . . . لتسهيل المعاملات " . فرجال السجل الاول منحوا بعض الاراضي التي لم تلبث ان صودرت منهم ، وطردوا منها الى اقاصي الولاية . . . ورجال السجل الثاني منحوا وظائف ادارية ، وانتشروا بذلك في المراكز المختلفة (. . .) اما رجال الفرع الثالث فقد لاقوا نفس المصير تقريبا ، رغم انهم مسجلون في سجل خاص (. . .) اما رجال الفرع الرابع فقد اقاموا يحرسون الجامع المهدم والمزار والارض الصغيرة وعلم الاجداد . . . " (١٦)

ان القبيلة هي حبل النجدة الذى تتمسك به الرواية ضد الفناء التاريخي ، وان العودة الى القبيلة ليس موقفا ماضويا ورجعيا ، انه موقف تاريخي ، يكشف وعي الكاتب وفهمه العميق للمراحل التاريخية التي مر بها هذا البلد وهذا الشعب في ظل محاولات المسخ والتهجين والاستلاب . وان التمسك بها هو تمسك بالوجود والوطن . يجب ان نفكر في مصير هذا الوطن الذى اتينا منه انه ليس مقاطعة فرنسية وليس على رأسه بايا وسلطان . . لسنا الا قبائل منكوبة ليس يعود بنا الى الوراء ان نجد قبيلتنا انها الرباط الوحيد الذى بقي لنا ليجمعنا ، ويلم شعبنا حتى ولو كنا نأمل في احسن من ذلك . " (١٧) من هنا اخذ شخصية "نجمة" رمزا لدم القبيلة ودم الاجداد ، فهي المركز ، وهي نداء الدم ونداء الوطن ونداء التاريخ والحب ونداء المرأة .

ان الاخوة ـ الاعداء الاربعة الذى يحبون " نجمة " هم في كثير من دلالاتهم السياسية يحملون ملامح الاحزاب الوطنية الجزائرية المتصارعة فيما بينها قبل ١٩٥٤ ، ففي اختلاف وجهة نظر الاحزاب في حب " الجزائر " وفي طريقة الحصول على الاستقلال ، وما هو مضمون هذا الاستقلال ؟ يشبه الى حد كبير صراع الاخوة ـ الاعداء حول امتلاك وحب نجمة . ومن خلال هذا الصراع حبول (نجمة) (الجزائر) كان الوعي الوطني يشحذ ويتجذر اكثر فأكثر ، وكانت صورة الجزائر التي احبها كاتب ياسين تتحدد داخل ملامح هذه المرأة " نجمة " .

يقول كاتب ياسين :

" بينما كنت احرر مخطوطاتي ، كانت (نجمة) تتجسد وتتميز وتتحدد من خلال الجزائر ، وترتبط بها ، ها هنا يجب ان يفهم معنى الرمز ، ان الرمز فيما يحمله من عمق لم يكن مقصودا ابدا (. . .) نجمة ، نعم ، انتهت الى تجسيد الجزائر . . لكن لا يجب ان نحفر كثيرا هذا الرمز ، حتى لا نقزمه داخل حقيقة مبسطة ، لانه في هذه الحالة لا يصبح رمزا (. . .) بدون شك فان المرأة ترمز للجزائر ، لكن الرمز لا يلقى سوى اضواء دلالية . " (١٨)

تحاول الرواية ان تسيطر بعمق على تحولات المجتمع في ظل الهيمنة الرأسمالية الكولونيالية ، وهي تكشف من خلال ذلك ، الشرائح الاجتماعية الرثة التي انتجتها سياسة التفقير المتبعة في المستعمرة : المشاشين العاطلين ، حثالة العمال ،

الملاحقين .. الخ . وهي تقوم بهذه العملية التاريخية بعمق وحساسية فنية وصدق ادبي عال تكشف خلفها فنانا شعبيا مجربا حياة هذه الشرائح الاجتماعية ،تجربة حية ،ومن داخل هذا التهميش الاجتماعي الذى تعيشه هذه البروليتاريا الرثة ، تملك الرواية جرأتها السياسية والاجتماعية ،جرأة لم يسبق اليها ، وبذلك تكون رواية " نجمة " اول رواية جزائرية تزيح ستار " الحشمة " عن الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية ، محققة انجازا روائيا متميزا وجريئا ، ومن هذا التميز والجرأة اكتسبت الرواية عالميتها .

ان " نجمه " تكتب تلك الصحوة التي امتلكت الشعب الجزائرى ، بعد نهاية الحرب الكونية الثانية ، تلك الصحوة التي انتهت بحرب تحريرية شعبية ، من اكبر حروب هذا القرن ، انها تطمح الى رسم ذلك الغليان الذى ساد المستعمرة في الفترة الممتدة ما بين ١٩٤٥و ١٩٥٤ ، وهي فترة فقد فيها الاستعمار سيطرته التي ظل يقيم اسسها منذ قرن وثلث القرن .

" ... لاول مرة تعرضت نزعة الانسانية العائمة لاكثر المناظر وحشية ... ومنذ ذلك الحين لم انس قط الصدمة التي احسستها امام المجزرة القاسية التي ادت الى مقتل الاف المسلمين " (١٩) (يعني بذلك احداث ٨ ماى ١٩٤٥ الشهيرة)

لقد وقفت الرواية الجزائرية امام احداث ٨ ماى ١٩٤٥ وقفة طويلة ، فلم يتخلف اى روائي عن تسجيلها : مالك حداد سجلها في " سأهبك غزالة " و " رصيف الازهار " و " التلميذ والدرس " و (٢٠) اسيا جبار في " ابناء العالم الجديد " اذ تقول :

" ٨ ماى ١٩٤٥ .. هاهو يوسف يجتاز الساحة اولا ، بعد ان اخفى هيئته (علاماته : جريدة تحت الابط ،والقبعة على الراس) وهذه الفتاة التي تتبعه بحذر ، بظل ضامر ، ترتدى تنورة بيضاء ... ويسترجع حوادث هذا اليوم التاريخي (..) في نفس اليوم حدثت مجازر في مدن شهيرة ، سطيف ـ قلمة ـ قسنطينة ،شريفة ، الدموع في العينين ،شعرت ان هذا اليوم الدموى كان يصادف اعراسها الاولى " (٢١)

كما وجدنا ذلك عند مولود معمرى (على حد تعبير الناشر) في " اغفاءة العادل " :
" القلق والغضب الكبير الذى يسكن الرجال ،في الفترة التي سبقت مباشرة الحرب التحريرية ، كل الالات التي ستفجر انتفاضة الفاتح من نوفمبر (١٩٥٤) مهيئة ... يكفي ان نضع اصبعنا على زر من ازرارها لتعطي اول دفعة . " (٢٢)

وفي " اغفاءة العادل " تبرز الحقيقة لا رزقي ، تلك الحقيقة المرة ،من ان الحرب وسنوات الكفاح المشترك ضد هتلر لم تمح الفوارق العنصرية الاستعمارية :

" لقد وقع هتلر الهدنة ... (نعم لقد وقع الهدنة ، ولكن ليس بالنسبة لي ...

لقد وقعت من اجل القنبلة الذرية والروز والامبراطورية الـ... وهيروشيما . ومن اجل كل شيء ولكن ليس مطلقا بالنسبة لي " .

" ايريد الاستاذ اذن هدنة خاصة به ؟

" ان كنت تريد الحق - يجيبه ارزقي - كنت اتمنى ان يكون السلام يوم سلام لي وللآخرين ... " (٢٣)

اما كاتب ياسين فهو يطابق بين مراهقته وبين تاريخ الجزائر فالجزائر بالنسبة اليه بدأت في سن السادسة عشر يوم ٨ ماى ١٩٤٥ .

حين كتب كاتب ياسين موضوعة الحرب ، كتبها عن وعي ، بعيدا عن الحماس المجوف ، فقد اكسبت هذه الموضوعة رواياته طابعا ملحميا ، واستعمل رمز " نجمة " كرباط يصل الماضي بالحاضر ، ويربط بين الاجداد والاحفاد الذين تحملوا عبء المعركة ، في حين تناول مولود معمرى واسيا جبار هذه الموضوعة بنوع من المباشرة والحرفية (٢٤) والتسجيلية التي كثيرا ما كانت تقف في وجه الخيال والتحليق الروائي .

ادرك كاتب ياسين منذ البداية ان الحرب ليست نتيجة في حد ذاتها ، ولا هدفا نهائيا ، بل انها بوابة صعبة تؤدى الى عالم ومرحلة اكثر صعوبة . وانه في الوقت الذى انتهت فيه الحرب التحريرية ، فان الثورة الحقيقية لم تبدا بعد ...

" ان الجزائر القديمة التي ابتلعت كحطام في نظرنا جزائر جديدة تتجدد شبابها ، وصارت الثورة بالنسبة اليها كاكسير الشباب ، تشعر بمقدرتها على كل شيء ، وهذه فرصة لا تتكرر ، وينبغي معرفة كيفية استيعاب هذه الطاقة الثورية ، والا فسوف نتعرض للتجميد ، فالزمن سيعمل عمله ، وان الجزائر لن تكون سوى فردوسا مفقودا ، مثل كثيرات غيرها " (٢٥)

لم يكتب كاتب ياسين الحرب بعيدا عن الواقع الذى فجرها ، بل كانت الحرب انجازا مشتركا ، وليس مفتعلا ، بل هو حتمية تاريخية فرضتها الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والعنصرية التي عاشتها المستعمرة .

ان رفقاء السلاح والثورة في " نجمة " هم اولئك العمال الذين يكدون يوميا من الفجر حتى الليل ، بحثا عن لقمة خبز ، فالثورة هنا ، تبدأ ضد الجوع اولا ، وضد هدر الكرامة الانسانية ... وان علاقة عمال الورشة برئيسهما ، علاقة تكشف ذلك الصراع الاجتماعي الذى لا ينفصل عن الصراع العسكرى ، بل ان الصراع العسكرى هو شكله الخارجي الظاهرى .

" يبدو العمال والرئيس كانهم عقدوا فيما بينهم اتفاقية غامضة ، مصنوعة من تفاصيل عديدة ورقيقة يتصلون بواسطتها دون انقطاع ، مع المحافظة على الفوارق بينهما ، اشبه ما يكونان بمعسكرين يعرف كل منهما الاخر معرفة تامة منذ امد بعيد ، ويترك كل منهما للآخر أحيانا هدنة لا مبرر لها ، ويكون كل منهما حرا في الامساك بالآخر عندما

تحين أول فرصة " (٢٦)

" فنجمة " تعرى علاقة التناحر بين رئيس الورشة والعمال ، ذلك التناحر الطبقي ، الذى تفجره الرواية من خلال جملة من العناصر : الاقتصادية والنفسية والجنسية والعرقية :

" اما نحن العمال فنحن لا شيء في العمل ، لقد مات عدد منا دون ، ان يكونوا واثقين من أنهم عملوا شيئا ما . " (٢٧)

ويتب مزيان والكلابة فوق رأسه ، انه يحسب لرئيس الورشة حسابا مجرد كونه يرفع الكلابة (٢٨) أن رواية (نجمة) تسجل في تاريخ الرواية الجزائرية ، فتحا جديدا في تعرية الوضع الاجتماعي الذى تعيشه الطبقة العاملة في ظل نظام رأسمالي كولونيالي ، ذلك الوضع الذى تحتمه ظروف قمعية وعنصرية :

" ويضرب السيد ارنست الاخضر على رأسه بالمتر الذى يحمله في يده .

ويتدفق الدم .

ويعود الأخضر الى تأمل قطعة الحجر التي تحمر قطرة قطرة من دمه (...) ويعمل العمال كل ما بوسعهم ليظهروا له تضامنهم في صمت .

كان الحقد قد تركه جامدا منتصبا امام صخرة .. (...)

ويدور الأخضر دورة حول نفسه ويمسك بخناق رئيس الورشة ، وبضربة من رأسه ، يحدث لفتحة في قوس الحاجب ... فالتقت ابتسامات الشهود من دون قصد . مباراة متكافئة !.

وتدحرج السيد ارنست على السلة ... وسال الدم على ربطة العنق الصفراء .. وألقت الشمس ضوءها على ساحة العمل كأنما تهيء جوا مسرحيا يبرز من هذه الحياة المحزنة البالغة التافهة " (٢٩)

تمثل هذه الصدامات والمواجهات بين العمال ورئيس العمل في جوهرها شكلا من أشكال صحوة الوعي الطبقي والوطني ، والذى يعكس في نفس الوقت تأثير الحركة الوطنية في الجماهير الفقيرة ، وتهيئ الاجواء السياسية وشحن القاعدة الشعبية بفكر مناهض ، استعدادا ليوم الانفجار الكبير ، اى لفاتح نوفمبر ١٩٥٤ .

" لقد ايقنت للمرة الاولى كما حدث في سطيف بأن الشعب يمكن ان يخيف . " (٣٠)

وتحاول الرواية لملمة ذلك الوعي الوطني والطبقي ، في اشكاله المختلفة من عفوية وطفولية ومنظمة :

" ومررت بحجرة الدرس واخذت المناشير ، وأخفيت في جيبي كتاب " حياة عبد القادر" ... لقد احسست قوة المبادئ (...) ومضيت مع المناشير ودفنتها في النهر .

لقد غفوت ايضا في منتصف الطريق ، وفمي ملتصق بالارض لم احرك النمال التي تدب ، كنت أشبه اسرابها دائما بالمتظاهرين .. كانت أرجلها تحفر الارض بنشاط شديد ، وتنتصب أحيانا بكل طولها ، كنت اغبطها على خفتها ومبادرتها في الحياة (...)

(في المقبرة الاوروبية) كنت استنشق اموانا اجانب ، وألقي خطابا أذكر فيه كل ميت بكومة من القاذورات التي كان يظنها قد طويت في زوايا النسيان " (٣١)

ومن اشكال الوعي الطفولي الحماسي الذى ساد في الاربعينات ، عبر حلقات شعبية تبحث عن تنظيماتها السياسية واحزابها :

" كان التاجر على علم بأني تركت المدرسة لأسباب سياسية ، ولم يكن هناك سبب ادعى الى اعجاب الزائرين من مثل هذا السبب ، كنت أحسانى مكلف ضمنا بادارة الحديث وتغذيته ، كنت اتعمد ان أقذف في حديثي بعض العبارات التي ترضي غروري ، كان اقول مثلا خلال دورس القراءة التي كان التاجر نفسه يدفع اجرتها : " يجب الا ننسى ان اللغة الفرنسية تحتوى على ٢٥٤ كلمة من أصل عربي ... نحن أيضا نؤثر في حضارتهم .. ألفان من الملاحين الاوروبيين يتقاسمون هذه الفوائد ، ونحن نشرب الماء . (لا يعرف التاجر ولا السامعون بأني اشرب الخمر) نحن نقطع الطريق على ظهر الحمار ، بينما تمطي مناجمنا في جبل الونزة اجود الفولاذ وأخفه للطائرات النفاثة ، فضلا عن الفلين الذى نستخرجه ... "

كانت صفتي كطالب سابق تفرض علي ان أجيب على أسئلة بهذه الأهمية : " كم كان عدد اولاد ابن مسعود ؟ " " هل يمتلك الاتراك القنبلة الذرية ؟ " " ماهي النكبات التي صربها الجيش الفرنسي ؟ " " ماذا تعرف عن ٨ ايار ؟ " " عن دخول الدول العربية الى هيئة الأمم المتحدة ؟ ... " (٣٢)

ان اعتماد " نبرة " القول الاجتماعي ، قبل القول السياسي وكتابة هذا الأخير من خلال الأول ، هو الذى جعل الرواية تنفذ وتتخلص من السقوط في الشعارية والانشاء الصحفي والبطولة " الورقية " الكاذبة . وهو الذى أهلها من تلمس حقيقة تحول البنية التحتية والبنية الفوقية في المجتمع الجزائرى المستعمر ، في المرحلة الممتدة ما بين " نهاية الحرب العالمية الثانية حتى اندلاع حرب التحرير الوطنية ، وهي أغنى وأخصب مرحلة في تاريخ الجزائر المعاصر واعنفها .

وفي كتابتها الاجتماعي " لا تنظر الرواية الى المجتمع الجزائري الأهلي على أنه مجتمع متوازن ومنسجم بل انه مجتمع يعيش صراعين : صراع مع الاستعمار ، وصراع داخلي : هذا الصراع الاخير تفرضه بعض المواقف السياسية والطبقية لبعض الشرائح الاجتماعية الجزائرية " من البرجوازية الوسيطة التي انحازت الى الجهاز الاستعمارى ، لأنه كان يحفظ مصالحها ، ويغذيها على حساب بقية المجتمع الفقير . وبذلك فالرواية تعرى بشكل درامي تلك الطبقة الوسيطة التي نمت من المثقفين التقليديين : موظفي القضاء والمحاماة ، وموظفي الادارة الساميين ، وبعض ملحقي الجهاز القمعي ، والوسطاء العقاريين . وتفتتني هذه الطبقة من موقع " القوادة " الاجتماعي (الوساطة) ومن الدين باعتباره ايديولوجيا مهيمنة داخل الأوساط الفقيرة

والمفقرة ، وليس كاتب ياسين وحده هو الذى تعرض لهذه الظاهرة الاجتماعية ، بل وجدنا محمد ديب كذلك يطرحها بشكل عميق في روايته " رصيف افريقي " من خلال تتبع شخصيتي " بابا علال " والعياشي " (٣٣) ، ونجدها كذلك عند " مولود معمري " ممثلة في شخصية " تودرت " في رواية " اغفاءة العادل " .

" ان المفتش (الكوميسير) يقول لك ، بأن لا حل لك سوى ان ترهن بيتك .

(الحديث موجه للاب في لحظة استجواب بوليسي) .

— انه بيت عتيق : ولا أحد يرغب فيه .

استدار (الكوميسير) دورة سريعة !

— بلا . تودرت ... العم تودرت . مع هذا ، انه رجل شريف ، نعم .. انه مايجب ان يفعل .

لاحظ الأب انكماشة كتفي الكوميسير ، وهي تخفي ضحكة داخلية والتي تركت ملامح وجهه ثابتة : عيناه وحدهما انداوتا بشكل مثير .

— أنت فقير .. أكثر الفقراء فقرا . فأنت بين ايدى تودرت لست سوى ممسحة يمزقها متى اراد ، لو لم يكن شريفا . اما بالنسبة للادارة فأنت لست سوى دودة أستطيع ان اسحقها ، وانا لا أعتقد في الله . وابناؤك ابناء احشائك . أنت تربيهم ضد فرنسا ؟ ..." (٣٤)

" ان الفقر يستطيع ان يدفع بالفقير الى موقع خجول ، لكن لماذا فجور تودرت ، لماذا ؟ لماذا يخصص تودرت وحده بنعمة الله ... ؟ " (٣٥)

كما نجد حضورا لهذه الطبقة عند كل من مراد بوربون ونبيل فارس وعلي بومهدى ، وقد نظر اليها الكتاب بتفاوت يعكس تفاوت الكتاب انفسهم في فهم التشكيلة الاجتماعية للمستعمرة ، ولكنهم وقفوا جميعا موقفا معاديا لها ، وحددوا خطورة تسلقها السلم الاجتماعي والسياسي للمستعمرة .

يقول كاتب ياسين في " نجمة " :

" لكن المحامي كان يمثل بجرأة دور المهدى ، كان خوفه من أجل ماله وضياعه اقوى من خوفه من الشعب ، وكان المحامي يتوسل الى الناس ان يذهبوا وأن يتريثوا .. وراحت الجماهير تزأر :

وماذا ننتظر ؟ ان القرية ملكنا .

انتم الأغنياء تنامون في أسرة — الفرنسيين . وتأخذون كلما تحتاجونه من مخازنهم ..

أما نحن فنكتفي بعد من الشعير .

ودوابنا تأكل كل شيء ...

لقد قام رفاقنا في سطيف .

كان المحامي يعود القهقرى ، يتبعه المفتي الذى كانت لحيته ما تنفك تقفز

قفزات تلو قفزات :

— ياأولادى لنكن عقلاء ، ان المرء لا يقاتل في ايامنا امام الدبابات .. ثقفوا بقياداتكم .. اننا نعدكم . " (٣٦) .

ويعتبر كاتب ياسين الروائي الجزائرى الاول الذى طرح قضية " الجنس " ، بعيدا عن الطرح الاخلاقي المسطح الذى سقطت فيه الروائية آسيا جبار في " ابناء العالم الجديد " من خلال رسمها شخصية " توما " (٣٧) . ان الجنس عند ياسين هو المفتاح لفهم سلعية المجتمع وسلعية الانسان ، اذ يصبح قيمة خاضعة للعرض والطلب كأى شيء في " فواتير " المبيعات .. في ظل النظام الرأسمالي الكولونيالي . ومن خلال هذا التسليع تظهر الشرائح الاجتماعية الفقيرة محبطة نفسيا ومستلبة جنسيا وعاطفيا .. كما هي مستلبة اقتصاديا .

واذا كانت شخصيات مالك حداد (الرجالية) تعشق الفرنسيات الشقراوات ، وتكتب فيهن ولهن الشعر ، وتمارس معهن الحب .. وتبكي الفرنسيات من أجلهم وتعشن لحظات الاكتئاب والعزلة لغيابهم ، وتخن ازواجهن مع ذلك الجزائرى (خالد بن طوبال : في " رصيف الازهار " و " المؤلف " في " سأهبك غزالة " و" الدكتور ادير " في " التلميذ والدرس " و شهيد " في " الانطباع الأخير " ..) فان سوزى في " نجمة " كاتب ياسين وهي ابنة رئيس الورشة ترنخ حتى المشي الى جوار " مراد " العامل الجزائرى :

" — ترافق ابنتي الى المنزل ، هناك خشب للنشر . وابتعد مراد بخطى كبيرة ، لم يكن يبدو على سوزى أنها مرتاحة للسير بجانبه ، كانت تتبعه على مسافة بعيدة ، وتبطىء الخطى كلما بدا عليه انه يلتفت نحوها : " (٣٨)

" انها سوزى تنتسب الى عالم غير عالمهم ، وعالمي ، إنها من كوكب خاص ليس فيه عمال ولا فلاحون ، الا اذا برزوا هذا المساء في احلامها المخيفة " (٣٩)

ان سوزى الجميلة ليست كيانا منفصلا عن طبقتها ، كما وجدنا " جرمين " عند مالك حداد في " التلميذ والدرس " (٤٠) ، بل انها نتاج هذه الطبقة ، وجزء منها ، وما العواطف والحب والكراهية الا انعكاس لهذه العلاقة العضوية بين الانسان وطبقته ، تلك الطبقة التي لها اخلاقياتها وعاداتها وممارساتها وطرق حياتها الخاصة بها . وسوزى لا تعيش الا ضمن ومن اجل اخلاقيات وأساليب الطبقة التي تنتمي اليها ، الا وهي طبقة البرجوازية الكولونيالية ، وهي تعيد انتاج ممارسات هذه الطبقة وتكرسها :

علقت سوزى اذ كان الأخضر يجفف دمه منفعلا :

" ان هذا الرجل غير راغ على ما يبدو ... "

ثم اضافت بكلمات متدفقة :

" انه لم ينل نصيبه . " ومر دايف ابتسامة على شفتيها الرخوتيين ، وسارت من جديد نحو ابيها متعالية فخورة بأنها قد فهمت من تلقاء نفسها ان العامل قد ضرب ، وان الأمر ليس مجرد حادث عارض . " (٤١)

فاذا كانت الباريسية عند مالك حداد هي الدهشة وهي المثل والجمال والحلم والجنس ، فاننا نجدها عند ياسين : " ابنة حمار "

" هي ذي الباريزية
روح المدينة المفتوحة
ابنة الحمار " (٤٢)

يتحدد الجنس والحب عند كاتب ياسين تبعا للعلاقات الاجتماعية السائدة ، وان العاطفة ما هي الا شيء مكتسب داخل علاقات اجتماعية وقوى انتاجية وصراع اجتماعي .

اما المثقف عند كاتب ياسين ليس هو ذلك المعشوق المضبب الرومانتي الذى رأيناه عند مالك حداد ، والهائم وراء الفرنسيات في " سان ميشال " و سان جيرمان و"حدائق اللوكسبورغ " ، والمحاصر بذاته النرجسية ، انه مثقف يقترب من مثقف " مولود معمرى " لكن بشكل اعمق ، ففي " اغفاءة العادل " نجد ازرقي بطل رواية معمرى هو ذلـــــك المثقف الشعبي : " الذى يقرأ رسائل العمال المهاجرين الى فرنسا ، ويجيب عليها .. حتى اصبح أرزقي ملك القرية كلها : أرزقي – نيخ ، أرزقينا ، أرزقي العالم كله ، بشكل من الاشكال "

" لقد أصبح عالم القرية وان الجميع " (٤٣) ومثقف كاتب ياسين لا يختلف عن الناس الآخرين ، ولا يثير الغرابة ، ودهشة القرية او الحي ، كما هو عند معمرى ، بل يعيش بينهم ، يشرب معهم الشاى ويجلس معهم في المقاهي الفقيرة ، ويتناول معهم " الحشيشة " وهو يعاني ما يعانونه أو أكثر ، ولا يميزه أى شيء في العلاقات الاجتماعية ، اذ لا يملك اى تفوق ، فهو نموذج المثقف العضوى الذى يبقى مرتبطا بطبقته مناضلا من أجلها من الداخل ، انه المثقف الذى يباشر الشرائح الاجتماعية الأكثر فقــــرا وانسحاقا .

" يتحول قليلا عن هذا الصحفي الذى يفوق كاتب العرائض بؤسا وتعاسة "(٤٤)

وتتضمن شخصية المثقف في " نجمة " الكثير من شخصية كاتب ياسين نفسه ، فكثيــرا ما يتقمص الكاتب شخصية المثقف ، ويحملها الكثير من تصوراته وفلسفته ومواقفه : وهـــذا ما وجدناه عند مالك حداد في كل من " بن طوبال وسعيد – والدكتور ايدير والمؤلف وعند محمد ديب في شخصية " حميد سراج " في الثلاثية : " الدار الكبيرة + الحريق + النول " وعند مولود معمرى في شخصية أرزقي في " اغفاءة العادل " وشخصية "بشير" في " الافيون والعصا " و شخصية " أمقران " في " الربوة المنسية " وعند أسيا جبار في كل النساء المثقفات الطالبات بالتحرر في رواياتها " العطش " و " القلقون " و " أبناء

العالم الجديد" . وقد لاحظنا ان شخصية المثقف التي ترتبط :با لروائي ، تكـون اكثر الشخصيات غنا وثروة خاصة حين يكون الكاتب صادقا في نقلها من الداخل ، كما فعل كاتب ياسين ، اذ كتب معاناته كمثقف عضوى داخل نظام رأسمالي كولونيالي فـي لحظة انهياره . كتب كاتب ياسين تجربته الذاتية بصيغة الجمع ، فاستطاع ان يرفـع التجربة الذاتية الى مستوى "النمذجة" ، تلك النمذجة التي تطرح بوضوح معانـاة المثقف العضوى ومسوءوليته التاريخية في مفصل تاريخي حساس ، كذلك المفصل الذى كانت تمر به الجزائر ، اى في العشرية التي سبقت اندلاع حرب التحرير .

والى جانب القمع الاجتماعي الذى يمثله الرأسمال الكولونيالي من خلال ممارسات التفقير والتجويع ممثلة في شخصية "ارنست" فان "نجمة" تكشف بشاعة الجهاز القمعي البوليسي – العسكرى الذى يرعى مصالح هذا الرأسمال الكولونيالي وممارسات هذه الموءسسات العسكرية القمعية "المتطورة . ضد الوطنيين الثوريين والعمال .

"الدرك
ورآهم الأخضر

وتركهم يضعون القيود في يديه "ليست هذه هي المرة الأولى" هذا ما كان يقولـه لنفسه ، كما لو انه يبحث عن آثار قديمة على معصميه الضامر" (٤٥)

" يرى الأخضر نفسه في السجن حتى قبل ان يصل اليه " (٤٦)

" في ٨ ماى لم يكن عندهم قيود كافية ، كان الشواء مقيدا معي ، كنا مسجونين في مركز الدرك في حظيرة العلف ، انا والشواء وأجير الخباز ، لكل منا يد ورجل متحررة" (٤٧)

" في ٨ ماى ١٩٤٥ مات اربعة عشر شخصا من أسرتي ، فضلا عن الذين اعدموا رميا بالرصاص . " (٤٨)

" ثم يبقى في الناضور طوال فترة تقديم الدعوى ، التي انتهت باصدار قرار فـي محكمة ثكنة " غالمة " وسقوط الروءوس الست الواحد تلو الاخر ، بينما كانت قبيلتنـا التي حرمتهم روءساءها تنهار " (٤٩)

ان الجهاز البوليسي هذا ، تحكمه هو الآخر علاقات عنصرية ، فحين ينضم اليـه جزائرى ما ، من الذين انحازوا تحت ظروف معينة الى الجهاز الاستعمارى ، فانـه يظل عنصرا من الدرجة الثالثة ، مهما كان تفوقه ، انها العنصرية التي تمارس حتـى في ارذل واحط الوظائف .

" الجميع يعرف ان المسلم المجند في الطيران يكنس اعقاب سجائر الطياريـن ؟ واذا ما اصبح ضابطا فانه لن يحصل على رتبة كولونيل حتى ولو كان خريج كلية الهندسة ، الا ليسوق مواطنيه الى مكتب التجنيد " (٥٠)

الانقـــــلاب الجمالـــــي

احدث كاتب ياسين ثورة في الرواية المغربية (المغرب العربي) كلها حينما القى الى البحر بالأدب الاقليمي المسجون في واقعية هزلية . وقد وصفه جان سيناك : بأنه حامل مشعل هذه الواقعية الفياضة الشديدة الارتباط بما هو يومي والمنعطفة على الحلم بذلك الغنائية وتلك الدقة الوحشية على طريقة الصدمات الكهربائية ، أو معطلة باللمحات الخاطفة والكشافات ، مع تلك الوقفة المعروفة في العربية ، وذلك الدمست الذي يمنح الرحلة اندفاعا أكبر " (٥١)

لقد أدرك كاتب ياسين منذ البداية : انه على الكاتب الثوري الذي اختار النضال بالقلم ، ان يكون ثوريا داخل هذه الكتابة (٥٢) ولذلك كانت تجربة الكتابة عنده تجربة فريدة ، احدثت انقلابا جماليا داخل الرواية الجزائرية التي كانت تسير منذ "ادريس" لعلي الحمامي و"ابن الفقير"لمولود فرعون مرورا بثلاثية محمد ديب وحتى "اغفاءة العادل" لمولود معمري و"القلقون" و"العطش" لآسيا جبار .. الخ في تسجيلية ووثائقية ترتبط باسقاطات من السيرة الذاتية لهؤلاء الكتاب .

ان البناء الجمالي في "نجمة أو" المضلع المرصع بالنجوم "يمثل اشكالية في حـد ذاته ، وهو مضمون يعكس بصدق ذلك التمزق والبحث التاريخي عن موطن وحضـارة "قبلوت" الجد الاول ، وان هذا البناء الجمالي الذي يبدو للوهلة الاولى ممزقـا ، هو بناء يعتمد وعيا تاما ودراية في فن عمارة "الرواية الجديدة" القادمة مـن المستعمرات ، وليست تلك الرواية الجديدة المتخمة بفيضان الاستهلاك الرأسمالـي ، انها رواية جديدة تمليها ظروف شعب جديد وشاب يستيقظ هذا الصباح مـن صباحات التاريخ الطويلة والكثيرة ، ليلتحق بالانسانية وليسهم في بنائها واثـراء تجاربها الطويلة ، وان البناء الجمالي عند كاتب ياسين يختلف كلية عما هو عليه ذلك البناء الجمالي عند مالك حداد ، اذ ان البناء الجمالي عند هذا الأخير هو انعكاس لتمزق بورجوازي قلق الفكر والعاطفة .

ان العمارة الروائية في "نجمة" أشبه بالبناء السمفوني كما قال عنها الناشر الفرنسي في صدر طبعتها الاولى :

" ان هذا التعداد الاثني عشري لفصول الكتاب . كل فصل يؤلف الثقافـة كاملة .. وعلى كل الثقافة من خطه اللولبي ترى المؤلف يزرع اثني عشر رقما ، تبـدأ الالتفافة بالرقم الاول .. ثم تتلاشى في الرقم الثاني عشر ، لتفسح المجال لحركـة جديدة تعيد الدورة ذاتها " (٥٣)

يقول كاتب ياسين :

" كنت أسير من الألف الى الياء ، متبعا خطا مستقيما ، ثم تبينت انني لم اقل كـل

شيء ،فكان علي ان ارجع الى الألف وانطلق مرة أخرى لأوضح مادة روايتي او هكذا جاءت قصتي في شكل دائرى ،ورقمت الفصول من ١ الى ١٢ " (٥٤)

ان كلا من "نجمة" و"المضلع المرصع بالنجوم" لا تعتبران حصيلة تفكير منتظم "مرتب" ، بل هما نتيجة تدفق وحيي يصدر عن عقل يتحرك بطريقة لولبية ، وبذلك يبدو كاتب ياسين قد اجاب عمليا على ماقاله فورستر :

" ولكن ، لماذا يجب ان تخطط الرواية ؟ الا يمكنها ان تنمو ؟ لماذا يجب اختتامها ، كما تختتم المسرحية ؟ الا يمكن ان تنفتح ؟ فبدلا من وقوف الروائي بعيدا عن كتابه ومراقبته ، الا يستطيع ان يلقي بنفسه في غمرة هذا العمل وان ينتقل معه الى غاية لا يعرفها " (٥٥)

مع " نجمة " تبدو الرواية شبيهة بساعة جدارية ،يتحرك عقربها في كل الاتجاهات ، ولكنه مشدود الى مركز معروف هو " نجمة " .

" ان تسلط فكرة الدائرة على ذهني ماهي الا طريقي في وصف احساسي بوضعي كانسان موجود على ارض في دوران دائم " (٥٦)

فالرواية عند كاتب ياسين : هي عالم فلكي ، " وضع المؤلف فيه الشمس (نجمة) في المركز ووضع من حولها عددا من النجوم المختلفة الاحجام وهذه النجوم نفسها لها توابع ، وبرغم ان الشمس تحتل مركزا ثابتا وتشع دائما تقريبا بنفس القوة فاننا لا نعلم عن هذه الشمس الا من خلال الضوء الذى تعكسه على الاجسام التي حولها ، ولكنها تملك قوة تبعيد وتقريب هذه الاجسام من الضوء تبعا لدورانها المعتاد ، ومادامت الاجسام مرتبطة بهذه الحركة التي تعيدها الى مركز الضوء حسب قانون ثابت ، فان النتيجة هي عودة دائمة للشمس (نجمة) وامتزاج كامل بين الماضي والحاضر.. (٥٧)

ويعلق كاتب ياسين عن هذا الشكل الروائي المسرح : " (   ) والذى لا يتراجع امام الشعر او الفن التشكيلي ولا يتوافق هو توظيفهما :

" من الممكن ان تبدأ مسرحيتي بالفصل الثالث او الثاني لان الأحداث لا تتابع تتابعا تاريخيا ، ولكن تأتي نتيجة دوران في الوقت ، يجعلها تعود باستمرار الى الجذور ثم تنطلق وهي تحمل في كل مرة قوى جديدة ،وقد بنيت روايتي (نجمة) بنفس الطريقة " (٥٨)

ان نجمة في بنيانها الذى يجمع بين المسرح والشعر والتوزيع الموسيقي قريبة غاية القرب من الفن التشكيلي في احداث مرحلة ، اذ هي تبدو لوحة تجريدية يصعب ان تحدد لها بداية ويصعب ان تحدد لها نهاية ، فهي لا تعتمد على منطق التطور الطولي المستقيم لا في شخصياتها ولا في احداثها ، لان رؤيتها للزمن لا تصدر عن منطلق التقدم الى الامام ، وانما الحاضر والماضي والمستقبل يجتمعون في " نجمة "

اجتماعا حيا مشخصا حائلا بغير هندسة او تخطيط ، لذلك فهي تقترب من رواية " الصخب والعنف " لفولكنر " (٥٩)

ان كاتب ياسين كاتب مسكون بالكتابة ، بالابداع ، اكثرمما هو مسكون بعمل واحد ، محدد في شكل معين ،رواية كان ، او مسرحا او قصيدة :

" اعتقد جيدا أنني صاحب عمل ادبي واحد ، لقد كان في الاصل قصيدة شعرية ، ثم تحول الى روايات ومسرحيات ، ان العمل نفسه الذى بدأ يظل حاضرا بمعنـــى آخر ، انه الخراب والورشة في الوقت ذاته ، انه لا يمكننا ان ننهي عملا ادبيا كما ننهي اى شيء ، اننا نشعر في أعماقنا ، ان هذا العمل لم ينته فالجزائر لم تتمكن بعـــد من المجيء الى العالم " (٦٠)

فهو يرى ان روايته " نجمة " التي قضى ما يقرب من عامين وهو يعيد تجميع مقاطعها ، وادماجها مع مواد اخرى ، حتى تبينت معالمها ، لا تستقل بنفسها ، بل هـــي مليئة بالاشارات الى اعمال اخرى للكاتب ، فنجمة و المضلع المرصع بالنجوم و مسرحيتـا الجثة المطاوقة و الاجداد يزدادون ضراوة و جميع اشعاره هي عبارة عن عمل واحـــد وفي نفس طويل وحلم عريض .

وان الخلط بين الاجناس الادبية عند كاتب ياسين هو تركيب فني " ارهابي " يحطم البناء الظاهر بالرواية ويخلق لغة مدهشة تتفجر من كل جانب ، وتتجاوز ذاته باستمرار وتبلغ هذه اللغة ذروتها في " المضلع المرصع بالنجوم " التي وصفها الناقد الفرنسي كلود روا على انها : " سجل من الاشعار المنثورة والاشعار المسرحة في ابيات " (٦١)

فكاتب ياسين روائي ومسرحي يشتغل داخل ورشة الشعر ، فالتفجير الشعرى موجود في كل شيء ، وان التسطيح او البساطة المسطحة ، في ظروف تاريخية معقدة كتلك التي كتب فيها " نجمة " او حتى " المضلع المرصع بالنجوم " (٦٢) لا تسمح لعمل روائي بأداء مهمته النضالية داخل الفن .

" اذا كتبت أشياء بسيطة لن اكتب ابدا ما هو في اعماقي .. " (٦٣) فاذا كنتـــم تريدون ان تذهبوا الى اقصى حدود ما تريدون قوله ، فانكم ستجدون انفسكم في لحظة من اللحظات مجبرين على ان تكونوا غامضين (٦٤) .

فعلى حد تعبير كاتب ياسين ان مهمة الفنان من حيث الابداع على المستوى الفني ، هي مهمة نضالية ، فالادب الثورى يقف ضد انحطاط الشكل ، وضد التسطيح ولذلك : على الكاتب الثائر الحقيقي ، حتى داخل تيار تقدمي ان يقوم بثورته داخل السياسة ، يجب ان تثور الثورة ، وعلى الشاعر ان يكون في الخطوط الاولى للثورة (٦٥) على جبهتين : جبهة التمرد ضد الاشكال الابداعية المهترئة التي تلتصق ببنيات اجتماعية ذاهبة الى الزوال وجبهة العمل السياسي الذى يرفع الكاتب الـــى

مستوى فرن المحنة ، ويوصل به الى قيمة المواطن اليومي ، لكن في موقع طليعي .
ان الخطاب الشعرى او الورشة الشعرية التي ينطلق منها كاتب ياسين لاقامة هندسة معمارية لروءياته ومسرحياته ، يحتفظ بامكانياته في اداء الخطاب الروائي محملا برسالة اجتماعية وسياسية ، دون ان يسقط او يترك للضبابية البرجوازية الناتجة عن الهروبية وعدم الوعي ، ونقص في فهم طبيعة الصراع والتشكيلات الاجتماعية والسياسية التي تحرك هذا الصراع ، كما هي الحال في الرواية الشعرية عند مالك حداد .

وتلعب الذاكرة الحرة التي تحرق كل حدود دورا اساسيا في بناء الرواية ، فعبر الذاكرة الهائجة عن طريق تناول "الكيف" الذى يدفع الى حالات التألق والصوفية والاستشراق ، يعود الكاتب الى تاريخ الجزائر من النوميديين الى الامير عبد القادر مرورا ببني هلال والجد قهلوت .. وينتشر في الرواية دفتر تاريخي كامل .
وعبر هذه الذاكرة كذلك ، التي تختلف عن ذاكرة مالك حداد التي تنزلق على الاحداث والكلمات وقمقمتها وسحرها الفاتن ، يعود كاتب ياسين الى الجحيم فيرسمه بكل ناره وفورانه ، فتتمرى داخل هذا الجحيم : الطفولة المشردة والأم المجنونة (المرأة المتوحشة) وبنت العم "نجمة" المعشوقة الغامضة والساحرة ..
وداخل هذه الذاكرة يدور التاريخ والزمن بشكل عفوى صادق ، اكثر منه منظما ومخططا ، اذ يقول كاتب ياسين : انه لم تكن له ايه دراية او وعي حول مفهوم الزمن ، وان دائرية الشكل الروائي في "نجمة" ، جاءت من طبيعة القصة والظروف التي كتبت فيها (٦٦)
ان "نجمة" ليست تعبيرا عن تخمة ثقافية وليست رياضة ذهنية ولا ترفا جماليا ، انها رواية الاعماق السحيقة للمواطن الممزق ، الانسان المقموع .. الانسان المهازى .
ان العنف والحرب والحالة العصبية التي يعيشها المجتمع المستعمر هي المفتاح المفتاح الكاشف عن سبب هذا البناء الروائي الهذياني .
ان القمع البوليسي والطبقي في أقوى درجاته الاستعلابية هو الذى يجعل الذات المقموعة تعود الى الداخل الى الأعماق الى التاريخ لتحاوره ، عبر الهذيان عبر الهلوسة والخبل ، التي تمثل الحقيقة في مرحلة تنتفي فيها الحقيقة . ومن هنا تتحول الشخصيات في ذات الوقت الى الخرافة والاسطورة والشعر ، ونجد هذا ليس في نجمة وحدها بل في "من الذى يذكر البحر" وحتى في هذيان "و"ام عينيلبي" (الجدة) في "ثلاثية" ، لمحمد ديب ، وكذا في "جمال" لهنرى كريا ..
ان الحنين نهر يصب داخل الهذيان ، بل ان الهذيان هو نهر من الحنين ، الحنين الى "الانا" التاريخية ، الحنين الى المرأة الى الوطن .. من هنا

فالهذيان في الرواية الجزائرية ليس مجرد صدفة ، بل انه جزء من الحقيقة التاريخية المليئة بالعنف والامراض العصبية التي سببها الجهاز القمعي الاستعماري المتطور. وليس الهذيان هو - فقط - ذلك القص الذى ينصب من الذاكرة شلالا كما هي "عند رشيد في نجمة " او في "الجزائر الاولين من ثلاثية نبيل فارس" اكتشاف العالم . . " بل ان شكل الرواية وتوزيع فصولها اى بناؤها الجمالي هو جزء من هذا الهذيان ، وهي رؤية جمالية ترتبط مباشرة بذات الكاتب المبدعة في علاقاتها مع عالمها الروائي واللذين يرتبطان (أى الذات المبدعة التي كثيرا ماتكون قلقة اوعدمية بدءا من الشخصيات الأدبية ، والشخصيات المبدعة) بواقع نافر حاد ومهووس . ولذا نرى الرواية تعتمد عتادا فنيا : الاسترجاع - القطع - التوازى - التناقض - الخرافة - التوزيع - الموسيقى . . الخ .

ان الهذيان ليس عملية غير واعية ، بل انها على حد تعبير نبيل فارس . . الكتابة التي تحقق القبض على الكلام الذى يتكلم . . الذى يقتل . . رغم الدوار والدوخة (٦٧) وان موسقه هذا الهذيان هي ايضا عملية واعية ، وهي نفسها اشكالية هامة في كتابات كاتب ياسين ومحمد ديب في المرحلة الاخيرة ، وبعض الكتاب الجدد ممن حذوا حذوهما : " بوجدرة - نبيل فارس - بوربون - يمينه - مشقرا . . " الخ (٦٨) ، اذ ليس من السهل القيام بنسج هذا اليومي والتاريخي والذاتي والملاحظ والمعيش والمتخيل ضمن هذا الهذيان .

ويرتبط الهذيان وفي أغلب الاحيان مع البحث عن الهوية من خلال رحلة المعاناة والقلق ، اذ من الضياع واللاتعريفية والاستيلاب يبدأ الهذيان سيله . : ففي " نجمة " تجد سي مختار و رشيد هما اللذان يبحثان عن الهوية عن الاسلاف عن الانا او الذات التاريخية ، عن الارض عن قبلوت عن الاسم . . ومن خلال هذا البحث يبدا رشيد في الهذيان " الذى تنمو داخله الرواية ، وعن طريق " الحشيش " يزيد رشيد من صعوده في المنافي الى ايام الطفولة .

ان الهذيان يقدم لنا العالم في صورته القريبة من الحقيقة ، بعيدا عن ذلك التركيب الميكانيكي للحوادث ، تلك الحوادث التي هي في طبيعتها نافرة ورافضة لهذا التركيب البعيد عن جوهر الحياة في فوضويتها المنظمة . من هنا فشخصيات كاتب ياسين ليست معلقة في الهواء ، بل هي مرتبطة دراميا باحداث الرواية ، ومرتبطة تاريخيا في ممارساتها وتفكيرها بالواقع التاريخي والسياسي الذى تعيشه المستعمرة انها شخصيات تنمو داخل المحنة وضدها ، شخصيات تجيء بعفوية داخل فقرها واستيلابها ، لتدين الوضع برمته .

" على مر الزمن ، كان الاخضر يتنقل من مزرعة الى مزرعة ، فيضرب ويجرد من

أقل كسرة خبز في يده ، ويُفتح جلده لدى كل سياج ، كذلك بالجذوع ، ويزود بعظام كبيرة تزيد فكيه صلابة ..." (٦٩) .

وفي "نجمة" كما في كل اعمال كاتب ياسين ، تنتفي البطولة الفردية ، فيبدو كل شيء بطلا في الرواية ، الطفل ـ العاهرة ـ الشاب ـ الكهل ، الحشائش ـ الجبل (الناظور) ، شبح "قبلوت" ... الخ ، ويكتب كاتب ياسين التاريخ من خلال لملمة كل الأجزاء الصغيرة الى بعضها البعض ، مكونا بذلك نهر التاريخ الجارف .

ففي كاتب ياسين وجد اليسار الفرنسي اديبا مبدعا ، وليس فقط ذلك التوافق السياسي بل ايضا الهم الابداعي العميق ، اذ قبله كثيرا ما كان الادب في المغرب العربي يشجع بدافع من التعاطف ، اما انتاج كاتب ياسين فانه يجعل الامر يتعلق باعادة النظر في مجموع الرواية الحديثة . حتى انه كثيرا ما يرتبط الحديث عنه بالحديث عن فولكنر وجويس ، وقد حي الناقد موريس نادو في كاتب ياسين ذلك الاديب الذي تجاوز بالقوة الرواية الامريكية . (٧٠) ، وظل اسم كاتب ياسين مقرونا بوليمم فولكنر ، اذ كثيرا ما قورنت رواية (نجمة) برواية ( ) (الصخب والعنف) لوليمم فولكنر (٧١) .

وقد علق كاتب ياسين على هذه القرابة بينه وبين وليميم فولكنر قائلا : "توجد بيني وبينه رابطة حقيقية مردها الى ان هناك تماثلا في النماذج الانسانية لأصلينا (جنوب الولايات المتحدة وشمال افريقيا) وفي مشاكلنا المشتركة ، كالعنصرية والعبودية والدين .. الخ ولكن هذا اللقاء يبقى على مستوى الرواية " (٧٢)

وتظهر العلاقة بين كاتب ياسين وفولكنر في التركيز على العلاقات اللاشرعية بين الشخصيات ، وفي كثرة الاطفال اللاشرعيين ، وشخصية "نجمة" تشبه الى حد ما وهي محاطة بصراع الشبان الاربع (كيلتمسترا) وشقيقتها في "ابسالوم ! ابسالوم" ، وكذلك في تلك الضبابية والمتاهات في العلاقات التي تجمع بين الاشخاص ، ويلتقي كاتب ياسين في ذلك مع متاهات جويس وكافكا ، هذه المتاهات التي ليست مجرد صورة اسطورية او تزيينية ذلك ان بنيتها الشكلية المتغيرة حسب الكتاب تصدر من رؤية محددة للعبة المتخيل . (٧٣) وان شخصية "سوتيين" غائمة الاصل وغامضة الخطط والمشاريع ، وغريبة في تصرفاتها ، وهي قريبة من شخصية "سي مختار" .

اما من حيث الفضاء الشعري ، فيقترب كاتب ياسين كثيرا من صورة رامبو وبودلير في "الفراديس المصطنعة" ( ) وقصائد نثرية صغيرة " ( ) ومالوميه وجيرار دونيرفال ولوتريامون والسورياليين (٧٤)

وقد كتب الناقد الفرنسي "كلود روا" معلقا على رواية كاتب ياسين الثانية "المضلع"

المرصع بالنجوم " قائلا :

" يتوفر ياسين على عبقرية النثر الحي ، وهو يتحدث عن النبع كما يتحدث البحر عن الأمواج .. انه رامبو " الغضب والبؤس الدامي .. انه شاعر لا يستطيع احد أن يقلــــده . " (٧٥)

وقد ادخل البعض روايات كاتب ياسين الى جانب الرواية الجديدة ، فوضعه الى جانب ناتالي ساروت والان روب غرييه .. لكن كاتب ياسين اعلن منذ البداية ثورته على " الرواية الجديدة " باعتبارها احدى ظواهر ازمة الادب في العالم الرأسمالي المتطور ، وهو الكاتب الذى قال :

" ان بلادى وشعبي ، يعتبران بالنسبة لي العالم الخاص الذى اغرف من نبعه " (٧٦) وعلى الكاتب ان يتاصل في أمته لكي يبقى مبدعا . (٧٧)

ان كاتب ياسين يريد ان يعطي رواية قابلة للمسرحة ( ) ، وهو يجمع في هذه العملية الابداعية من الدراما اليونانية وبالاخص اعمال " اخيلوس " ، الذى اخذ عنه استعمال الاجواق وغنائيته الثائرة . (٧٨) حتى " الحلقة " التعبير الفني الاول الذى تلتقي فيه الرواية والمسرح والشعر ، ويلتقي فيه الروائي بالممثل بالشاعر في شخص واحد ، والحلقة تقليد فني وثقافي معروف في المنطقة منذ الزمن القديم .

على العكس من مالك حداد وآسيا جبار ، فكاتب ياسين وهو يكتب بالفرنسية لا يشعر بالغربة والعقدة مثله مثل محمد خير الدين (المغرب) ، وهو في موقفه هذا لا يحمل اى عداء للعربية ، فقد كتب في سنة ١٩٤٨ مقالا رد على غرييل اود يسيو باسم الكتاب الجزائريين مطالبا بتعميم اللغة العربية ، لغة للشعب الجزائرى ، وهو من انصار ثلاثية اللغة : العربية – البربرية – الفرنسية .

وهو يعلل كتاباته بالفرنسية قائلا " انني لا اختلف عن كافكا حين كتب بالالمانية وسمي ضيف اللغة الالمانية ، او بريخت حين كتب بالفرنسية " اللغة المسروقة " ! ان السرقة هنا تلي الاختيار الحر " .

وبالنسبة للكاتب ياسين فان الفرنسية حصل عليها بعد نضال طويل ، فهي اداة تستطيع ان تكون وسيلة للمطالبة بالاستقلال والحرية والثورة (٧٩) يقول كاتب ياسين :

" انني اعبر بالفرنسية عن اشياء ليست فرنسية ، وانا اكتب بالفرنسية فاني املك في الوقت نفسه جذورى العربية والبربرية الحية ، اذ ان كل شيء يتعلق بالطريقة التي نتناول بها اللغة والأسلوب الذى نعمل به داخلها . " (٨٠) لقد استعملت اللغة الفرنسية كسلاح ، لأفجر الاستعمار الفرنسي من الداخل (٨١) . وكاتب ياسين روائي قدير على التلاعب باللغة الفرنسية ، وهو يعتمد الجمل الطويلة في

كثير من المرات ، تصل حتى الاربع صفحات كما هي الحال في "المضلع المرصع بالنجوم" وقد ترك اثره واضحا على رشيد بوجدرة من هذه الناحية .

ان موقف كاتب ياسين من اللغة الان هو موقف يحتاج الى كثير من التأني والدرس ، فقد عاد الكاتب الى اللغة العامة بعد ربع قرن من الكتابة بالفرنسية ، ويعلل ذلك بقوله :

"لتفهموا بحكمة اللغة العامية الشعبية ، اللغة التي تكمن فيها عبقرية شعب ، والتي لا تملك أية علاقة مع هذه العربية الكلاسيكية الادارية ..." (٨٢) .

==================

تيارات الحقل الايديولوجي الوطني وأثرها على نمو وتطور الرواية الوطنية :

١ — فيكس ليون : الجزائر حتف الاستعمار — ترجمة : محمد عيتاني ، مكتبة المعارف — بيروت مختارات من السياسة العالمية بدون طبعة ولا تاريخ .

2 - Jean Gay: Bibligraphie des ouvrages relatifs à L'Afrique et à L'Arabie - Catalogue Methodique (الجزء الخاص بالجزائر)
Edit. Meridian publishing. Amsterdam - Holand - PP : 47 -85

3 - Geghloul, AEK - 8 études sur l'Algerie - Cahiers de C.D.S.H. 1981 - N° 7 - ORAN - P: 184 .

4 - FERHAT, ABBAS - la nuit coloniale - édit - Julliard - Paris 1962 - de l'itroduction .

٥ — شارل أندرى ، جوليان : افريقيا الشمالية تسير — ص ١٣١ .

6 - MAFOUD, KADDACHE - l'Histoire du nationalisme - tome I - PP : 23 - 24 - 25 .

٧ — جريدة " الاقدام " بتاريخ : ١٧ ديسمبر ١٩٢٠ .

8 - Nouschi - la naissance du nationalisme Algerien (1914 - 1954) P : 54 .

9 - Geghloul, AEK : 8 études sur l'algerie ... P : 137 .

10 - M. Kaddache : L'Histoire du nationalisme Algerien - tome I P : 27 - 28 .

11 - Claude - collot - J. Robert - Houry : le mouvement national Algerien - O.P.U. 1977 - P : 38 .

١٢ — الجزائر أرض المعارك — ص ١٠٢ .

13 - Mohamed, Taguia : L'Algerie en guerre . O.P.U. P : 23

14 - M. Kaddeche - L'Histoire du nat. Alg. PP : 25 - 26 .

١٥ — من أهم الأسماء التي دعمت قائمة " عصابات الشرف " وأرقت الاستعمار وكدرت هدوء باله ! نذكر :

— خالد مولود : الذى خرج يطلب الفدية في كل القرى فأثار قلق كل السلطات المحلية ، سمي بـ " الشجاع الكؤود " (le courageux , L'invincible) ، وقد استطاع أن يتخلص من مئات الحواجز والمحاصرات البوليسية ، إلى أن أوقف سنة ١٩٢٠ (بوليس) .

— بن زلماط : حكم عليه ست مرات بالاعدام ، وهو الذى قتل القايد " مسعود " قائد خنشلة ، الذى كان مواليا للاستعمار ، وبن زلماط فلاح شريف ، أصبح خارجا عن القانون !! ليثأر لأخيه الذى حكم عليه بالاعدام .

— بومرسان : خرج الى الجبل لمواجهة السلطات المحلية ، ردا على أعمال دنيئة تعرض لها الأهالي في نواحي " معسكر " .

— بيازلي سي الصغير : استطاع أن يقطع مابين سهل " الهبرة " وسهل " أغريس " وأن ينشر الرعب في قلوب المعمرين .

— كزولي عيسى بن عمر : التحق بالجبل من ١٩١٥ — ١٩٢٣ بعد أن قتل " قايد دوار " علولة " الموالي للاستعمار .

16 - Mohamed. C,Sahli - Introduction à L'Histoire du Magh . Cahiers libres 77 Edit. MASPERO 1965 - P : 112 .

١٧ـ افريقيا الشمالية تسير ـ شارل أندرى جوليان ـ ص: ١٣٠ .

18 - J.C.Vatin - Conditions et Formes de la domination coloniale en Algerie 1919-1945-Revue Algerienne.N°4.Decembre 1972 .

١٩ـ اتيان باليبار ـ بيير ماثرى ـ الأدب شكلا ايديولوجيا ـ ترجمة : قاسم المقداد ـ المعرفة السورية السنة ٢١ . ع : ٢٤٨ / اكتوبر ١٩٨٢ .

20 - Med. C. SAHLI - Decoloniser L'Histoire - P : 114 .

21 - Med. TAGUIA : L'Algerie en guerre - O.P.U. P : 45 .

22 - MAHFOUD, Kaddache - la vie politique à Alger - 1919 - 1939 S.N.E.D - Alger - PP : 142 + 143 .

٢٣ـ "les Jeunes Algeriens" درج على ترجمة ذلك بـ " الجزائر الفتاة " ، ربما قدوة بالمصطلح السائد " تركيا الفتاة " والترجمة الصحيحة هي " الشبان الجزائريون " .

٢٤ـ الأمير خالد هو حفيد الأمير عبد القادر الجزائرى .

25-26:M.Kaddache-L'Histoire du Nat. Alg. P: 76 et P : 77 .

27-28-29: lemouvement Nat. Alg. PP : 40 + 41 et PP : 41 + 42 et PP : 41 + 40 .

٣٠ـ منفية ء الأزرق : نشوء الطبقات في الجزائر ـ دار المؤسسة للأبحاث العربية ١٩٨٠ ص: ٧٢ .

٣١ـ افريقيا الشمالية تسير : ش . أ . جوليان ـ ص: ١٤٨ .

32 - Decoloniser L'Histoire - M.C.SAHLI - PP : 110 + 111 .

33 - mosefa, lacheraf - L'Algerie Nation et societé - PP :192+193

34 - Ali, Merad - le reformisme muslman en Algerie ... édit Mouton Paris - P : 33 .

35 - "le Panarabisme en bèrbère " in " renseignements coloniaux" 1938 N° 8 et 9 - PP : 194 . 199 .

36-37-38: Ali, Merad - le reformisme muslman en Algerie - P:35 et P : 87 et P : 34 .

٣٩ـ تزايد اهتمام المثقفين التونسيين كذلك بتاريخ الجزائر متأثرين بواقع هذا البلد الصعب ، ومبرهنين على [illegible] الجزائر " ومن هذه الكتابات أذكر :
١ ـ " بلاغة العرب في الجزائر " ١٩٢٥ . لعثمان الكعاك .
٢ ـ موجز التاريخ العام للجزائر ١٩٢٥ لعثمان الكعاك .

40 - M. Kaddache - L'Hist. du Natio. en Alg. P : 226 .

٤١ـ الايديولوجيا الوطنية والرواية الوطنية ـ عمار بلحسن ـ غير مطبوعة .

٤٢ـ " الشهاب " العدد : ٣ ـ تاريخ ٢٦/١١/١٩٦٥ أو

Ali. Merad - le reformisme ... P : 120 .

43 - Ali Merad - le reformisme - P : 128 .

44 - M. Kaddache - L'Hist, du nat. Alg . PP : 332 - 333 .

45 - M. Lacheraf - L'Algerie Nation et socité - P : 89 .

46-47: M. Kaddache - L'Hist du Nat. Alg. P : 22 et P : 335 .

48-49-50-51-52: A. Merad, le reformisme ... P : 126 , P : 95 , P : 98, P:425, PP: 131 - 132 .

٥٣ـ تأسست صحيفة " الاخلاص " بتاريخ ١٤ سبتمبر ١٩٣٢ (عن هذه الصحيفة ، يمكن مراجعة الباب الأول) لمساعدة صحيفة " البلاغ " الاستعمارية الصليبية لشد الخناق حول " الشهاب " .

54 - A. Merad - le reformisme ... P : 181

55 - M. Kaddache - L'Hist. du nat. Alg. P : 224

٥٦ـ الميلي ، محمد — ابن باديس وعروبة الجزائر — ش. و. ن. ت — الجزائر ١٩٧٣ ص: ١٥٩ + ١٦٠ .

57 - TAGUIA, M^ed - L'Algerie en guerre - PP: 50 + 49 .

58 - A. Merad - le reformisme ... P : 361 .

٥٩ـ محمد الميلي — ابن باديس وعروبة الجزائر — ص: ١٩٠ + ١٩١ + ١٩٢ .

٦٠ـ النص مترجم عن الفرنسية ولم يؤخذ من الجريدة أصلا .

61-62: A.Merad - le reformisme ... P:154 - P : 360

٦٣ـ م. الميلي ، ابن باديس .. ص: ١٦١ .

64-65: A.Merad - le reformisme - P: 300 - P : 300 .

66 - DAMIA, SAKINA - Pour une analyse critique du nationalisme en Algerie/ in revue Alg. 1974 .

٦٧ـ افريقيا الشمالية تسير — ش. أ. جوليان : ص ١٢٦ — من " البصائر " ٧ ديسمبر ١٩٣٧ .

٦٨ـ بدأت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في طبع نشرة أخرى هي — البصائر — ابتداء من ١٩٣٦ — كانت الشهاب ، البصائر محطة لأقلام كثيرة من مشرق العالم العربي ومغربه: بوشعيب الدكالي ، وعلال الفاسي ومحمد غازي ومحمد المكي الناصري وشكيب أرسلان وكذا الشاعرين : المغربي محمد الغزي والتونسي : صالح السنوسي الشريف القيرواني الخ .

٦٩ — ٧٠ — الشهاب : سبتمبر ١٩٣٠ ص: ٤٦٣ — وجوان ١٩٣٦ .

٧١ـ كانت " le Socialite " / الاشتراكي هي لسان حال الحزب الاشتراكي الفرنسي .

72-"lutte sociale" 30 Juillet 1911 - in Kaddache . M .

73-74-75: M. Kaddache - Hist. du nat. Alg. P:127 - P:128 - P:129

76 - Jurquet, Jeaques: la revol. Alg. et le parti communiste Fran. Edit le centenaise. Tz. 1973 - PP: 206 a 211 .

77 - M. Kaddache - P : 130 .

٧٨ـ الجزائر حقل الاستعمار — ص: ٣٠ .

79 - M. Kaddache - P : 136 .

80 - Taleb Abderrahim, Bendieb - la formation des ideés du socialisme scientifique en Algerie 1920-1930-in: revue Alg. N° 2

٨١ ــ سعد الله ، وأبو القاسم ــ الحركة الوطنية الجزائرية ــ دار الآداب ــ بيروت ــ ص : ٢٧٨ .

٨٢ ــ Ageron, Charles Robert-P:380 - بعد أن دخلت فرنسا في حرب ضد عبد الكريم الخطابي في الريف المغربي ، بدأ الحزب الشيوعي علاقاته مع الأمير خالد لضرب الاستعمار الفرنسي في الجزائر ، بعد أن ندد الحزب بالحرب ضد عبد الكريم ... (ينظر : سعد الله ... ص : ٣٨١) .

٨٣ ــ ٨٤ ــ الحركة الوطنية الجزائرية ــ د . أبو القاسم سعد الله ــ ص : ٣٨٢ و ٣٨٣ .

٨٥ ــ ch. Robert. AGERON - P : 38 كانت جريدة " الراية الحمراء " تطبع بالعربية ، وهي موجهة ــ كما يقول أبو القاسم سعد الله ــ الى السوريين واللبنانيين والشمال الافريقي ــ نقرأ في أحد أعدادها : " ان الاستعمار باغتصابه أفضل أراضي الأهالي ، قد تسبب في فقرهم ، يسقط الاستعمار ! يحيي استقلال الجزائر : " كما يجد القارئ صورة كاريكاتورية فيها : فلاحون من الأهالي سائرين تحت العلم الأحمر مع المطرقة والمنجل ضد الكولون والجيش الفرنسي " (يراجع : الحركة الوطنية الجزائرية ــ أبو القاسم سعد الله ــ ص : ٣٨٣) .

٨٦ ــ الحركة الوطنية الجزائرية ــ أبو القاسم سعد الله ــ ص : ٣٨٠ .

87 - ch. R . AGERON - P: 381 .

وكذلك أبو القاسم سعد الله ص : ٢٩٣ + ٢٩٤ .

٨٨ ــ ٨٩ ــ أبو القاسم سعد الله ــ ص : ٢٩٠ ــ ٢٩١ ــ وص : ٣٣٢ .

90 - ch. R. AGERON - P: 380 - 379 .

٩١ ــ الطاهر بودمغة ، ممثل الشيوعيين التونسيين الى المؤتمر الخامس للأممية الشيوعية سنة ١٩٢٢ .

92 - M. Kaddache - P : 145 .

٩٣ ــ حين طالب الشيوعيون بتعريب الحزب ، بدأت " الصراع الاجتماعي في تعريب جزء منها " . الا أنها توقفت عام ١٩٢٣
Voir : ch. R. AGERON - P: 382 .

94 - 95 : M. Kaddache - P : 148 - P : 154 .

96 - ch.R.AGERON - p: 382 .

٩٧ ــ الايديولوجيا الوطنية والرواية : ثلاثية ديب ، عمار بلحسن ــ رسالة ماجستير : على الورق الحريري جوان ١٩٨٢ .

98 - a) Ducob, Moneta, P.C.F. et la question coloniale - maspero Paris 1971 .

b) la revolution Alg. et le P.C.F. Edit: du centenaire . 3 tomes - T:I 1973 . T : II 1974 T: III 1975 .

99 - M. taguia - L'Algerie en guerre - p: 62

100- M. Kaddache - P : 322 - عن " النضال الاجتماعي " العدد : مارس ١٩٣٢

١٠١ ــ ستوارت شرام وهيلين كاريز دنكوس ــ الماركسية اللينينية أمام مشاكل الثورة في العالم غير الاوروبي : دار الحقيقة ــ بيروت ١٩٧٠ ــ ص : ١٨٥ .

١٠٢ ــ في سنة ١٩٢٠ سجلت : ١٢٦ عملية حريق في الغابات ــ في سنة ١٩٢١ سجلت ٩٤ عملية حريق في الغابات وبالرغم ، هذه ردة فعل من قبل العمال الزراعيين على واقعهم المجحف والمتردي الذي يسببه الكولون الزراعي الفرنسي .

١٠٣ ـ المجلة الجزائرية ـ مجلد XIX جوان ١٩٧٧ ٠

104 - ch. R. AGBRON - P : 518 .

105 - EMANUEL, Sivan - communisme et nationalisme en Algerie - 1920 - 1962 - Paris - P : 97 .

١٠٦ ـ أ = حملة الحقائب ـ ص : ١٥ ـ ب = الجزائر حتف الاستعمار ـ ص : ٢٦

ج = ch. AGBRON - P : 385

هذه الفقرة مقتطفة من نص الخطاب الذى ألقاه الأمين العام " موريس طوريز " أمام المؤتمر الوطني لهذا الحزب ، عندما انعقد بجونفليه بتاريخ ٢١ كانون الثاني ١٩٣٩ ٠

١٠٧ ـ الايديولوجيا الوطنية ـ عمار بلحسن ـ جامعة وهران ١٩٨٢ ـ غير مطبوعة ٠

108 - M. Taguia - L'Aljerie en guerre - P : 122 .

109 - Rèalité de la nation Algerienne - P : 202 .

110 - ch. R. AGBRON - P : 600 .

111 - M. TAGUIA - P : 126 .

112 - 113 : ch. R. AGBRON - P : 599 - P : 600 .

114 - M. TAGUIA - L'Algerie en guerre -

نص البيان السياسي مثبت في صفحة : ٦٣٩ ٠

١١٥ ـ حملة الحقائب ـ ص : ٣٠ ٠

١١٦ ـ آ ـ حملة الحقائب ـ ص : ٤٢ ٠

ب ـ M. TAGUIA - L'Algerie en guerre - P : 641

١١٧ ـ حملة الحقائب ـ ص : ٦٥ ٠

١١٨ ـ منظمة قائمة على نظرية سياسية تدعو للتعاون الطوعي بين الأفراد والجماعات وأن الدولة هي أكبر أعداء الفرد ويجب ازالتها ٠

119 - L'Humanité - le 6 décembre 1927 .

120 - Lacheraf Mostefa - L'Algerie Nation et société - SNED - 2ème édit. 1978 . PP : 194 - 195 .

121 - 122 : La revue algerienne ... N° 4 Année 1972

123 - 124 : Kaddache , Mahfoud. Histoire de Nationalisme Algerien. P : 231 - P : 254 .

١٢٥ ـ ١٢٦ ـ جوليان ، شارل أندري : افريقيا الشمالية تسير ـ ص : ٢٤٨ ـ ص : ١٤٢ ٠

127 - 128 : Kaddache Mahfoud - PP : 198 - 199 - P.: 199 .

١٢٩ ـ جوليان ، شارل أندري : ص ١٦٨ ٠

130 - Kaddache - M. P : 496 .

131 - 132 : L'ALGERIe-Nation.et société:PP : 196 - 197 - P:89 .

١٣٣ ـ استنكر العلماء والشيوعيون وفرحات عباس عملية سجن مصالي الحاج رغم اختلافه معهم ٠ انظر : شارل ، أندرى جوليان : افريقيا تسير ـ ص : ١٤٤ ٠

١٣٤ ـ انظر احصائيات شارل ، أندرى جوليان ـ المرجع السابق ـ ص : ٢٥٨ وما بعدها ٠

١٣٥ ـ حملة الحقائب : ص : ٧٢ ـ ٧٣ ٠

مسألة التعبير وانتمائية الأدب :

١ ـ الغطيبي ، د. عبد الكبير : الموقف الأدبي ـ السورية ـ ع: ٨٢ ـ السنة ١٩٧٨ .
(مقال : الرواية المغربية) .

٢ ـ صدرت هذه المنتجات سنة ١٩٦٤ عن دار : " Presence Africaine "
باريس ـ تحت اشراف : ألبير ممي .

٣ ـ د. الخطيبي ـ الموقف الأدبي ـ ع : ٨٢ ـ السنة ١٩٧٨ .

٤ ـ ٥ : الموسوي ، جاسم : الموقف الثوري في الرواية العربية ـ وزارة الاعلام ـ العراق ـ
ص : ٢٠١ ـ ص : ٢٠١ .

٦ ـ مرتاض ، د. عبد المالك : نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر (١٩٢٥ ـ
١٩٥٤) ش. و. ن. ت. الجزائر ـ بدون تاريخ .

٧ ـ ٨ ـ ٩ ـ ١٠ ـ ١١ ـ ١٢ : المرجع نفسه : ص : ١٧ ، ص : ٢٠ ، ص : ٢١ ،
ص : ٢٠ ، ص : ١٩ .

١٣ ـ النساج ، د. سيد حامد : بانوراما الرواية العربية ـ دار المعارف ـ ط : ١٩٨٠
ص : ١٨٦ .

١٤ ـ ١٥ ـ ١٦ : المرجع نفسه : ص : ١٨٧ ، ص : ١٨٨ ، ص : ١٨٩ .

١٧ ـ خضر ، د. سعاد : الأدب الجزائري المعاصر ـ المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت
لبنان ـ ص ص : ٣ + ٤ .

١٨ ـ غنيمي هلال ، د. محمد ـ الأدب المقارن ـ انظر الفصل الخاص بعالمية الأدب
وعواملها ـ دار العودة .

١٩ ـ عامل ، مهدي ـ مقدمات نظرية ـ دار الفارابي ـ ص ص : ٢٥ ، ٢٦ ، ٣١ .

٢٠ ـ يصف الميثاق الوطني الجزائري (١٩٧٦) ب : " ان الجزائر أمة " .

٢١ ـ د. سعاد خضر ـ الأدب الجزائري المعاصر ـ ص : ٥٤ .

٢٢ ـ ٢٣ : الموقف الأدبي ـ مقال د. عبد الكبير الخطيبي ـ ع : ٨٢ ـ سنة ١٩٧٨ .

٢٤ ـ ستوتي ، بتول ـ الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية : ١٩٤٥ ـ ١٩٦٢ ـ رسالة
د. د. م. جامعة وهران ١٩٨١ (على الآلة) .

٢٥ ـ شرف ، د. عبد العزيز ـ المقاومة في الأدب الجزائري ـ وزارة الثقافة السورية ـ
ص : ٤٣ .

٢٦ ـ الموقف الأدبي ـ د. الخطيبي ـ ع : ٨٢ ـ ١٩٧٨ .

٢٧ ـ سعد الله ، د. أبو القاسم ـ دراسات في الأدب الجزائري ـ دار الآداب ـ بيروت
ص : ١٠٢ .

28-HADJRES.S: Culture revolution et independance (منشور خاص)

٢٩ ـ د. الخطيبي : الموقف الأدبي ـ ع : ٨٣ ـ السنة ١٩٧٨ .

٣٠ ـ جاسم الموسوي ـ الموقف الثوري في الرواية العربية ـ ص ص : ٢٠٣ + ٢٠٤ .

٣١ ـ سالم ، بيرس : على هامش الأدب العربي ـ ص : ٧٦ .

٣٢ ـ مهدي عامل ـ مقدمات نظرية ـ ص ص : ٣٦ + ٣٧ .

٣٣ ـ يتراجع كاتب ياسين عن فكرته هذه ليتبنى وجهة نظر أخرى يفصح عنها بنوع من التشنج الفكري ،
في حوار أجرته معه جريدة " السفير " اللبنانية : بتاريخ ١٩٨١/٢/٨ .

— س : تقصد اللغة العربية ؟
— ج : لا ... بل العامية التي نتكلمها ...
— س : ولكنك تتكلم العامية العربية
— ج : لاأدرى .. لكنها تختلف عن عربيتكم أنتم . العربية التي تتكلمونها لغة ميتة

٣٤ — بوتفنوشت ، مصطفى — مجلة المجاهد الاسبوعية الجزائرية — ٢٧ / ٢ / ٨١ — ع: ١٠٧٣
٣٥ — سعاد خضر — الأدب الجزائرى المعاصر — د . سعاد خضر — ص : ٨٥ .

36 - MAMMERI , Mouloud . La colline oubliée : edit : SNED / 10 - 18

٣٧ — حسين ، طه : نقد واصلاح — دار العلم للملايين — بيروت ١٩٦٠ — ص : ٦٠ .

٣٨ — محمد عطيه ، احمد : الجدال الثورى في الرواية العربية — ص : ٣٥ — عن كتاب فرانز فانون — والثورة الجزائرية لمحمد الميلي .

39 - Mostefa lacheraf - L'avenir et la culture ... les temps modernes - 30 - 11 - 63 .

٤٠ — حوار العروى مع المجاهد الثقافي الجزائرية (بالفرنسية) .

41 - Souffles (Revue) N° 1 Premier trimestre - 1966 - P : 4

42 - Jean Dejeux : Situation de la ... - P : 41 .

43 - Jean Dejeux : Bibliographie ... P : 9

44 - 45 : MEMMI , Albert - Anthologie des ecrivains magh de L. Française = PP : 13 - 14 - P : 19 .

٤٦ — حوار مع د . جمال الدين بن الشيخ — أجرته معه "أوريون بريس" ونقلته جريدة " الشعب" الجزائرية بتاريخ ٣١ / ١ / ١٩٨٠ .

٤٧ — السلمان ، د . نور — الأدب الجزائرى في رحاب الرفض والتحرير — دار العلم للملايين ص : ١٥ .

48 - Saher Khalef - la litterature libanise de L. Française - Naaman - Canada - 1974 .

ويراجع أيضا — د . نور السلمان — الأدب الجزائرى في رحاب ... ص : ٢٨٢ .
وتراجع مجلة المعرفة السورية — ع : ١٧٠ نيسان ١٩٧٦ .

٤٩ — ثلاثية محمد ديب : الدار الكبيرة — الحريق — النول — ترجمة : د . سامي الدروبي — من المقدمة — دار الطليعة — بيروت — ١٩٦٨ .

٥٠ — اعتبر د . ابراهيم الكيلاني " ادريس شرايبي " جزائريا ، والثابت أنه مغربي (مراكشي) والخطأ نفسه وقع فيه د . أبو القاسم سعد الله في كتابه عن " الأدب الجزائرى المعاصر " وربما يعود هذا الخطأ ، الى كون رواية " التيوس " لهذا الكاتب ، والتي أثارت ضجة كبيرة بواسطتها صعد نجم ادريس شرايبي ، تتناول حياة الجزائريين في المهجر بجرأة لم يسبق اليها — ومن أعماله الروائية الأخرى : الماضي البسيط .

٥١ — أدباء من الجزائر — د . ابراهيم الكيلاني — دار المعارف — مصر — ١٩٥٨ — ص ص : ١٠ — ١١ .

٥٢ — عبد العزيز شرف : المقاومة في الأدب الجزائرى : ص : ٣٢ + ٣٣ .

53 - Dejeux (J) : Situation ... P : 19 .

اقترابات تاريخية وأدبية من الرواية الجزائرية الاندماجية :

١ _ جريدة : ORAN - MATIN _ ١٩٣٤/٧/٦ _ يراجع أيضا :
Dejeux - J; Situation de la litt. Magh. O.P.U 1982 - P:21

2 - 3 - 4 - 5 : Dejeux - J: Situation de la litt. Magh. P: 21
P : 21 - P : 22 - P : 22 / tiré du roman : (Bouel Nouar ,
Jeune Algerien - P : 98 .

6-Liberté-20.Fevrier1947 مقال لبشير حاج علي في جريدة الحزب الشيوعي الجزائري

٧ _ جوليان ، ش.أ . _ افريقيا الشمالية تسير _ ص.ص : ١٣١ _ ١٣٢ .

7 - Bejeux (J) : Situation ...

8 - MELIANI - HADJ : HADJ - HAMOU - ABK - lecture ...

10 - AGERON, ch. R : Histoire de l'Alg. contemporaix Tome I
1971 - P : 318 .

11 - Hadj Hamou. ABK - lecture ideologique de " Zohra, la femme
du mineur " Memoire pour le diplôme détudes approfondies-
Université d'ORAN. (I.L.V.E) 1982 .
(على الآلة عدد الصفحات ١٣٢)

Presentée par : MELIANI HADJ.

هناك رواية أخرى مشتركة (خضراء _ راقصة أولاد نايل) ١٩١٠ كتبها سليمان بن براهيم
بمشاركة اتيان ديني (أشرنا اليهما في القسم الأول : في الرواية الكولونيالية) .

12 - 13 : El HAMMAMY,Ali - IDRISS - SNED 1977 - P : 336
(سيجيء الحديث عن هذه الرواية في فصل " الرواية السلفية ")

14 - Dejeux, Jean - Bibliographic Methodique et critique de la
litt. Alg. de L. Française 1945 - 1977 - SNED 1973 -PP:17+18.

15 - Khoja. chukri : MAMOUN, L'ebauche d'un ideal - Paris - Radot
1928 - 184 P. Voir : Encyclopedie coloniale et maritine 1948
Tome II Paris - P : 253 .

وقد جاء ذكر هذه الرواية في كتاب : فرديناند دوشان : (F. Duchène) في :
" Mouna cachir et Couscous" édit:A. Michel 1930 - Paris

Voir aussi Jean Dejeux dans:Situation de ١٦ _ من الرواية
la litt. Magh.. P : 24 .

17 - Koja chukri : El Budj, Captif des baubaresques . Arras -
I.N.S.A.P. 1969 .
(Bibliographie ...) يراجع ملخص الرواية ، عن جان ديجو في كتابه
ص : ٢٧٢ .

١٨ _ المرجع السابق _ (من الرواية) ص : ١٣٤ .

19 - Jean Dejeux : Bibliographie ... P : 272 .

20 - Jeau Dejeux : Situation ... P : 28 .

21 - Zehar Aïssa : Hind a L'âme pauvre ou L'histoire d'une mère - Alger - Baconnier 1942 .

هناك ملخص للرواية في بيبليوغرافيا جان ديجو — ص : ٢٧٤ .

22 - J. Dejeux - Bibliographie ... P : 274 .

23 - Ould cheikh Mohamed : Myriâme dans les Palmes - ORAN - Plaza - 1936 .

ولد محمد ولد الشيخ بمدينة بشار بالجنوب الجزائري — سنة ١٩٠٦ — وتوفي سنة ١٩٣٨ ، وهو بالاضافة الى ذلك شاعر له مجموعة بالفرنسية بعنوان : (chants pour Yasmine) (أغان لياسمين) ١٩٣٠ .

24 - 25: Jean Dejeux - Bibliographie ...-P:273 - P : 271 .

٢٦ — توفي سليمان بن ابراهيم سنة ١٩٥٣ — يراجع كتاب :
Ch. taillard : L'Algerie dans La litt. Française .

27 - Dinet, Etienne et Slimane ben brahim : - Khadra , la danseuse des ouled Naïl - Paris - Piazza 1910 .

٢٨ — كان يكتب باسم مستعار هو : " Chersoux "— " شرسوكس "
٢٩ — كان بلحاج علي ، يكتب باسم مستعار هو :" Ced Sifi " — " محمد سيفي " من مواليد ١٨٩٨ ، نال الجائزة الأدبية الكبرى سنة ١٩٤٢ عن روايته :
(ذكريات طفولة بلدي) (Souvenirs d'enfance d'un Bledard)

30 - J. Dejeux : la litterature Maghrebine - P : 20 .

المرجع السابق — ص : ١٤ / مؤلفات للروائي الكولونيالي : " لويس برتراند "
31 - Jardin de la mort - Cyrène - les villes d'or

32 - J. Dejeux - Situation ... P : 26

33 - " " Bibliographie ... P : 272 .

34 - Lecture ideologique de " Zohra ..." Meliani Hadj (على الآلة)

35 - J. Dejeux - La litterature Magh. P : 20 .

36 - Roland lebel - Histoirre de la litterature coloniale au France - Paris - 1931 .

١ — النزعة البورجوازية السلفية :
٢ — النزعة البورجوازية الليبرالية :

١ — يراجع الفصل الخاص بالرواية الجزائرية الاندماجية .

٢ — يراجع الفصل الخاص بالرواية الكولونيالية ، نبذة عن حياة الكاتب في ملحق الأعلام .

3 - Déjeux - Jean - la littèrature Algerienne contemporaine - edit PUF. 2ème edition 1979 . P : 43 .

4 - Feraoun - Mouloud - lettres à ses Amis - le seuil 1969 . P : 154 .

٥ — مصطفى الأشرف ، شاعر وباحث جزائري — من مؤلفاته :

a) L'Algerie , Nation et Société : SNED - 2ème edition 1978

b) Chansons des Jeunes filles arabes - Paris - seghers 1953 - P : 43 .

٦ — الموسوي ، محسن جاسم — الموقف الثوري في الرواية العربية المعاصرة — سلسلة الكتب الحديثة ١٩ — العراق — وزارة الاعلام ١٩٧٥ — ص : ١٤ .

7 - EL . HAMMAMY. Ali - " IDRIS " SNED - 1976 .

٩ — تجري أحداث الرواية في المغرب الأقصى .

١٠ — من مقدمة الرواية ، وهي مثبتة باللغة العربية أصلا — ص : ٥ + ٦ — مؤرخة بـ ٣ ابريل ١٩٤٨ — صدرت أول مرة بالقاهرة عام ١٩٤٨ IDRIS : SNED - imp. Sociale .

11 - El HAMMAMY, Ali - IDRIS - P : 74 .

١٢ — ١٣ — ١٤ — ١٥ — ١٦ — ١٧ — ١٨ — ١٩ — ٢٠ : المرجع السابق : ص : ٩٢ ، ١٢٩ ، ١٥٢ ، ٨٤ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٩١ ، ٧٩ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٢٠ .

21 - BELAMRI , RABAH - L'Oeuvre de louis Bertrand - Miroir de l'ideologie colonialiste . OPU - Alger 1980 Decouverte de l'Algerie par L.Bertrand-Identification : انظر الفصل الخاص au colonisateur P : 111

٢٢ — نجد هذا النقد عند طه حسين في " المعذبون في الأرض " كذلك .

23 - " IDRIS " - P : 117 .

٢٤ — انظر المرجع السابق الصفحات التالية : ٣٢ + ٣٣ + ٣٧ + ٣٩ + ١٠٤ وغيرها .

٢٥ — فصل " بهلعريان " le fil d'Arian ص : ١٧٩ .

٢٦ — انظر الصفحات التالية من الكلمات المستعملة بالعربية مباشرة : الفقيه (ص ٤٧) الجلابة (ص : ٤٨) الجماعة (ص : ٤٩) الفلقة (ص : ٥٠) المحضري (ص : ٥٢) — تلميذ الكتاب — القاعدة (ص : ٥٧) قشابة (ص : ٥٩) الشرفاء (ص : ٦١)

الزردة ـ الطلبة ـ الدشرة (: ٦٢) التشامير ـ السروال ـ البلغة ـ الخيط (ص : ٦٤) السلسال ـ الثنم (ص٦٥) القمبرى (ص : ٦٧) ـ المخـــزن ـ المطوف (ص : ٩٥) .
أمثال : الرئيس بالبربرية (ص : ٢٧٣) أزغل : (ص : ٢٧٠) (السوط) ... الخ

٢٧ ـ من هذه الصور الشعرية النادرة في الرواية " تكلم البارود " ص١٥٨ ... الخ .

28 - BENABI , MALEK . lebbeïk - (pelerinage des pauvres) Edit. Algeriennes . EN. NAHAHA . ALger 1947 .

٢٩ ـ ٣٠ ـ ٣١ : من مقدمة الرواية (بالفرنسية) ص : ٧ ، ص : ٧ ، ص : ٨ .

٣٢ ـ ٣٣ ـ ٣٤ : " لبيك " (بالفرنسية) : ص : ١١ ، ص : ١٧ ، ص : ٩٩ .

35 - Le Phenomène Coronique:Essai d'une theorie sur le coran - Préface de cheïkh DRZ.Pro. à l'université d'el AZHAR - edit . EN . NAHDHA. Alger 1947.

٣٦ ـ ٣٧ : " لبيك " : ص : ٨٥ ، ص : ٣٣ + ٣٤ .

النزعة البورجوازية الليبرالية :

38 - DJEBAR , ASSIA - La Soif - edit . Julliard . Paris 1957 - P : 11

٣٩ ـ ولدت آسيا جبار : العام : ٤ أوت ١٩٣٦ ـ اسمها الحقيقي : فاطمة الزهراء ايما لاين
من مؤلفاتها الروائية :

1 - la soif : edit : Julliard 1957 - Paris
2 - les impatients : édit Julliard 1958 - Paris
3 - les enfants du nouveau monde : Julliard - 1962 - Paris .
4 - les alouettes Nalves - Julliard - 1967 - Paris .

٤٠ ـ رواية " العطش " ـ بالفرنسية) لآسيا جبار ـ ص : ٨٥ .

41 - Vandelvelde , Hélène : la femme et la vie politique et sociale en Algerie depuis l'independance Doctorat détat - Alger - Faculté de Droits et sciences economiques : 1972 .

42 - Dib , Mohamed - la grande maison - édit . le seuil - 1952 - P : 75 .

٤٣ ـ ديب ، محمد ـ الثلاثية ـ ترجمة ـ سامي الدروبي ـ دار الطليعة ـ بيروت ١٩٦٨ ـ ص : ٧ .

44 - Doumah di, Ali - le village des Asphodeles - P : 421 .

٤٥ ـ ديب ، محمد ـ الثلاثية ـ ص : ١٠٤ + ١٠٥ .

٤٦ ـ باسمة ، عايدة أديب : تطور الأدب القصصي الجزائرى ـ ديوان المطبوعات الجزائرية ١٩٨٢ ـ ص : ٢١٩ .

٤٧ ـ فرعون ، مولود ـ ابن الفقير ـ ترجمة : جورج سالم ـ مراجعة : حسيب الحلوى ـ وزارة الثقافة السورية ١٩٦٢ ـ ص : ٩٠ .

٤٨ ـ ٤٩ ـ ٥٠ ـ ٥١ : المرجع السابق : ص : ٩١ ، ص : ٥٩ + ٦٠ ، ص : ٦٨ ، ص : ١٠٣ .

٥٢ ــ انظر القسم الخاص بمولود معمري في : الرواية الوطنية والايديولوجية الوطنية .

53 - AMROUCHE , Taos MARGUERITE - Rue des tambourins - Edit. de la table - ronde - Paris - 1960 - P : 83 .

54 - DIB. Mohamed - L'incendie - le seuil - P : 33 .

55 - ADJEL, Abdallah " la femme sterile et la femme qui n'a que des Filles" Memoire - Faculté des lettres - Caustantine 1971 .

56 - Berque , Jacques - Les Arabes d'Hier à demain - le seuil - Paris - 1960 - P : 159 .

57 - Bouhadiba - Abdelwahab - la sexualité - P : 50 .

58 - DJEBAR - ASSIA - la soif - P : 67 .

59 - Djebar - Assia - les impatients - Edit - Julliard - 1958 .

60 - Boumahdi , Ali - le village des asphodeles - P : 23 .

61 - lacheraf. Mostefa : L'avenir de la culture Algerienne - les temps modernes N° 209 . Oct. 1963 .

62 - Message . d'Algerie - 15 Septembre 1957 .

63 - La Soif - P : 70 .

64 - Déjeux , Jean : litterature Magh. de langue F. 2ème edit. NAAMAN. Quebec Canada 1978 - P : 247 .

٦٥ ــ الخطيبي ، د . عبد الكبير . في الكتابة والتجربة : ترجمة : محمد برادة : دار العودة بيروت ــ ١٩٨٠ ــ ص : ٤٤ .

66 - Djebar . Assia - les impatients - Julliard - 1953 - P:96

67 - Djebar . Assia : les alouttes naïves - SNED - 10/18 - 1978

68 - FANON , Franz : Sociologie d'une revolution (L'an V de le revolution Alg.) 2ème edit. Paris - MAspero - P : 94 .

١ ـ الرؤية الفلكلورية التاريخية :
٢ ـ الرؤية الاثنوغرافية :

الهوامش والاحالات :

١ ـ مصطفى ، محمد مستجير ـ الواقعية الاشتراكية في الأدب والفن (ترجمة) ـ دار الثقافة الجديدة ـ القاهرة ١٩٧٦ ـ ط : ١ ـ تراجع المقدمة بقلم : ميخائيل بارخومنكو والكسندر مياسنيكوف ـ ومقال لينين : التنظيم الحزبي والأدب الحزبي ـ ص : ٢١ ـ ومقال غوركي : عن الواقعية الاشتراكية ـ ص : ٣١ .

2 - Goldmann , Lucien - Epistemologie et philosophie politique (Pour une theorie de la liberté) Mediations (Denoël / Gauthier) Paris - 1973 . PP : 215 .

3 - OUARY , MALEK - Le grain dans la meule - Paris - Buchet chastel - corréa - 1956 .

4 - Goldmann . Lucien - Epistemologie ... P.P : 24 + 25 .

5 - Ouary, Malek : Par les chemins démigration - Alger société Algerienne de publication 1955

وقد ترجم الكاتب في مقدمة هذا البحث عن العمال المهاجرين ، مجموعة من الأغنيات والأناشيد البربرية التي تهتم بمأساة العمال المهاجرين .

6 - MEMMI, ALBERT : Anthologie des écrivains . Magh. déxp. Franç. présence Afric. 2ème édit 1965 - P : 245 .

٧ ـ على المستوى السوسيولوجي مازال المجتمع حتى الآن غير مفروز طبقيا بشكل واضح .

٨ ـ سليمان ، د . نور : الأدب الجزائري بين الرفض والتحرير ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٨٢ ـ ص : ٤٢٨ .

٩ ـ حولت الرواية أخيرا الى فيلم من انتاج : الشركة الجزائرية للسينما طوغراف .

١٠ ـ بن اشنهو ، د . عبد اللطيف ـ تكون التخلف في الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ـ ١٩٨١ .

11 - OUARY. MALEK - le grain dans la meule - P : 91 + 93 .

من ترجمة الدكتور برادة : برايبي : في الكتابة والتجربة ـ ص : ٥١ .

12 - OUARY. MALEK - le grain dans la meule - P : 81 .

الرواية " الاثنوغرافية " طريق الى الوطن : حالة مولود فرعون :

13 - Feraoun mouloud: le fils du pouvre - le seuil 1954

ترجمها الى العربية تحت عنوان " ابن الفقير " جورج سالم ـ مراجعة : حسيب الحلوى وزارة الثقافة السورية ١٩٦٢ .

١٤ ـ الكيلاني : د . ابراهيم ـ أدباء من الجزائر ـ سلسلة اقرأ ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٥٨ ـ ص : ٦٦ .

15 - Bonn , charles : la litterature Algerienne de L.F. et ses lectures . Imaginaire et discours d'idées . édit . NAAMAN - Canada - 1974 . P : 198 .

١٦ ـ يراجع : الفصل الخاص بمالك حداد •

١٧ ـ ١٨ ـ فرعون ، مولود : ابن الفقير (الترجمة) ص : ١٠ ـ وص : ٣١ •

19 - a) NACIB, Youcef: Mouloud Feraoun - collection/classique du monde/ SNED - Fernand NATHAN 1982

b) Dejeux Jean:1) La litterature Maghrebine de laugue Française .

2) la litterature Algerienne contemporrine coll. que sais je ?

٢٠ ـ ابن الفقير : الترجمة ـ ص : ١٢٦ •

٢١ ـ مصطفى ، محمد مستجير ـ الواقعية الاشتراكية في الأدب والفن ـ دار الثقافة الجديدة ص : ١٣ (مترجم) •

٢٢ ـ الخطيبي ، عبد الكبير ـ في الكتابة والتجربة : ص : ٥٤ + ٥٥ •

٢٣ ـ ابن الفقير (الترجمة) ـ ص : ١٥٩ •

24 - Benabadji, Settouti Batoul : le thème de la Misere Dans trois romans Algeriens déxpression Française :

- le fils du pauvre - de : M. Fakaouu
- le Metrer à tisser - de : M. Dib .
- le sommeil de juste de : M. Mammeri

these se D.B.A, I.L.V.E. Section de Français Université d'oran / 1979 - 1980 - PP : 29 - 31 .

٢٥ ـ ٢٦ ـ ابن الفقير (الترجمة) ـ ص : ١٥٣ وص : ١٣٨ •

27 - GOLDMANN. Lucien - Pour une sociologie du roman - édit idées gallimard - 1979 Paris - P : 282 .

٢٨ ـ ٢٩ ـ الواقعية الاشتراكية في الأدب والفن ـ ترجمة محمد مستجير مصطفى ـ ص : ١٥ وص : ١٨ •

٣٠ ـ في الكتابة والتجربة : ص : ٥٣ •

٣١ ـ نعني بذلك تلك الدعوة التي كانت تنادي بصيغ الوئام والسلام لكل الشعوب في الجزائر ، لأنها تشكل حضارة البحر المتوسط ، ولم تجرؤ على مواجهة الاستعمار باعتباره أول عدو للسلام •

٣٢ ـ الجمهورية ـ جريدة جزائرية ـ بتاريخ ٢٠/١٢/١٩٨٢ •

33 - Feraoun Mouloud - Journal, 1955 - 1962. Paris-le seuil 1962

٣٤ ـ ٣٥ ـ ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٣٩ ـ ٤٠ ـ ٤١ ـ ٤٢ : ابن الفقير ـ ص : ١٢ ، ص ص : ١٥ + ١٦ ، ص : ٥٩ ، ص : ٦٤ ، ص : ٨٩ ، ص : ٨٥ ، ص : ١٠٤ ص : ١٠٢ ، ص : ١٠٥ وما بعدها •

٤٣ ـ انهيار الحالة العصبية لحالة فورولو / منراد ـ انظر : الترجمة ـ ص : ١١٢ •

٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٦ ـ ٤٧ : ابن الفقير (الترجمة) ـ ص : ١٢٣ وص : ١٤٢ وص : ١٥١ وص : ١٤٥ •

48 - Algerie - Actualité (Journal Hebdomadaire) N° 870 - Semaine17 - 23 Juin 1982 .

49 - CHRAIBI , DRISS - les boucs , Paris Denoél 1955

50 - BOURBOUNE , MOURAD - le Muezzin - Paris - christian Bourgois - 1968 .

51 - Algeri - Actualité - N° 870 / 17 - 23 Juin 1982 .

52 - MEADE - claude Yres : le roman realiste nord - Africain de 1889 à 1955, Berkloy-Université de California1957-PP:22+23.

53 - Dejeux, Jean: litterature MAGHREBINE ... P : 114 . (الفصل الخاص بفرعون) ص : ١١٤ م

54 - FERAoun , Mouloud : 1 - la terre et le sang - Collection Méditerranée - 1953

2 - Les chemins qui montent - le seuil - 1957

نالت جائزة الأدب الشعبي سنة صدورها • ترجمها الى العربية ترجمة متميزة ـ الدكتور حنفي بن عيسى وصدرت عن الشركة • د • ن • ت ـ الجزائر : ط : ثانية ١٩٧٩ •

55 - 56 - 57 - 58 - 59 - 60 : La terre et le sang - P : 16 , P:74, P : 54 , P : 68 , P : 35 , P : 123 .

61 - Dejeux , Jean - La litterature Magh... P : 123 - Voir aussi : La terre et le sang - P : 70 .

٦٢ ـ كلمة " Bicot " تقال للعرب تحقيرا لهم •

63 - La terre et le sang - P : 50

64 - Dejeux. Jean : le litterature Maghrebine ... P : 123 .

٦٥ ـ من المعلم أن مولود معمري لم يكن يوما عاملا مهاجرا كما هي حالة كاتب ياسين •

66 - 67 - 68 : La terre et le sang : P : 7 et PP : 162 + 163 et P : ?

69 - 70 : la terre et le sang : P: 124 et P : 162 .

التحام سليمان وشيحة بالأرض •

٧١ ـ يراجع القسم الخاص بمحمد ديب •

٧٢ ـ الموسوي ، محسن جاسم : الموقف الثوري في الرواية العربية المعاصرة ـ ص : ١١٥ •

73 - La terre et le sang : P : 162 .

٧٤ ـ بارت ، رولان ـ درجة الصفر للكتابة ـ ترجمة : محمد برادة ـ دار الطليعة ـ بيروت ـ الشركة المغربية للناشرين المتحدين ١٩٨١ ـ ط ١ ـ ص : ٧٧٠ •

٧٥ ـ الظهير البربري ـ صدر بتاريخ ١٦ ماي ١٩٣٠ وكان يرمي لا الى حماية القانون العرفي للبربر فحسب بل الى فصلهم عن حظيرة الشرع •
انظر : شارل أندري جوليان ـ افريقيا الشمالية تسير ـ ص : ١٦٩ •

٧٦ ـ ٧٧ ـ فرعون ، مولود ـ الدروب الوعرة (هكذا ترجمها د • حنفي بن عيسى) ـ الترجمة ـ ص : ٢١ وص : ٤٧ •

78 - Feraoun - Mouloud . Journal 1955 - 1962 - Seuil - P : 343 .

٧٩ ـ ٨٠ ـ ٨١ ـ ٨٢ ـ ٨٣ ـ ٨٤ : الدروب الوعرة (الترجمة) الصفحات • ص : ١٦٢ ـ ص : ١٦٣ ـ ص : ١٦٣ ـ ص ص : ١٧٥ + ١٧٦ ـ ص : ٢٢٨ ـ ص : ٢٢٨

٨٥ ـ يراجع الفصل الخاص بمحمد ديب قبل الاستقلال •

86 - DEJEUX, J: La litterature Magh... P : 141 .

مولود معمري : ايديولوجية جهوية أم صدق فني :

1 - MAMMERI , MOULOUD. La colline oubliée . Paris, PLON 1952

أما الطبعة التي اعتمدناها في هذا البحث فهي : SNED - 10/18 - 1978

2 - Le Jeune musulman Nº 12 2Janvier 1953

٣ ـ الخطيبي ، د • عبد الكبير ـ في الكتابة والتجربة ـ ص :

٤ ـ يراجع الفصل الخاص : بالمهنية الثقافية الكولونيالية وأجهزتها الايديولوجية •

٥ ـ بارت ، رولان ـ درجة الصفر للكتابة ، ترجمة محمد برادة ، دار الطليعة / الشركة المغربية للناشرين المتحدين ـ ص : ٤٠ •

٦ ـ بامية ، عايدة أديب ـ تطور الأدب القصصي الجزائري ١٩٢٥ ـ ١٩٦٧ ـ ديوان المطبوعات الجامعية ـ الجزائر ١٩٨٢ ـ ص : ٩٤ • من لقاء خاص أجرته معه الباحثة •

٧ ـ حسين ، طه ـ نقد واصلاح ـ دار العلم للملايين ـ الطبعة الثانية ـ بيروت ١٩٦٠ ـ ص : ٦٠ •

٨ ـ الشقيري ، احمد ـ قصة الثورة الجزائرية ـ دار المودة ـ بيروت ـ بدون تاريخ ص : ٢٧ •

9 - 10 : DEJEUX , Jean - Litterature Maghrebine P: 183 et P: 184

١١ ـ يراجع : a - Anthologe des ecrivauis Maghrebins d'expression Française édit : presence - Africaine 2ᵉᵐ édition 1965 . P : 209

b - litterature Maghrebine de langue Françäise ; Jean Dejeux P : 180 .

12 - MAMMERI , MOULOUD . L'opium et le bâton - édit : SNED/10/18 1978 . édit : SNED /10/18 . 1978 .

وقد حولت الرواية الى فيلم بعنوان " الافيون والعصا " أخرجه المخرج الجزائري : أحمد راشدي •

13 - Forster , EDWARD Morgan : Aspects of novel - HARMONDS worth, Middlesex - penguin Books . L.T.d , 1968 - P : 15 .

14 - GOLDMANN, Lucien - pour une sociologie du roman édit : idées / gallimard 1979 - P : 343 .

15 - GOLDMANN , Lucien - pour une sociologie du roman - P : 340 .

١٦ ـ سعد الله ، د • أبو القاسم ـ دراسات في الأدب الجزائري الحديث ـ دار الآداب ـ بيروت ـ ١٩٧٧ ـ ط : ٢ ـ ص : ١٠٤ •

١٧ ـ الخطيبي ، د • عبد الكريم ـ الرواية المغربية ـ ترجمة : محمد برادة ـ الموقف الأدبي (مجلة) سورية ـ دمشق ـ ع • رقم ٨٤ ـ السنة ١٩٧٨ •

ملاحظة : جاء المقال باسم " عبد الكريم الخطابي • والأصح : عبد الكريم الخطيبي •

١٨ ـ الكيلاني ، د • ابراهيم ـ أدباء من الجزائر ـ دار المعارف ـ ص : ١١٨ + ١١٩ •

١٩ ـ المرجع السابق ـ ص : ١١٩ + ١٢٠ •

20 - MAMMERI, Mouloud - La Colline oubliée - SNED - 10 / 18 - 1979 - P : 126 .

٢١ ــ نسبة الى الروائي الفرنسي غوستاف فلوبير •

22 - La Colline oubliée : P : 149 .

٢٣ ــ تطور الأدب القصصي الجزائري : عايدة أديب بامية ــ ص : ٢٢١ •

24 - La colline oubliée : P : 164 .

٢٥ ــ ٢٦ ــ أدباء من الجزائر : الدكتور ابراهيم الكيلاني ــ ص : ١٢٣ وص : ١٢٤ •

27 - BONN , Charles - la litterature Algerienne de langue Francaise et ses lectres imaginaises et discours didées. Bdit Naaman quebec - Canada. 1974 - P : 100 .

28 - 29 - 30 - 31 : La cilline oubliée P: 177 et P : 105 et P : 27 + 28 et P : 104 .

٣٢ ــ " امسيردة " : منطقة في أقصى الغرب الجزائري ، شكلت فيها نسبة اليد العاملة المهاجرة حصة كبيرة •

33 - 34 - 35 : La colline oubliée - P : 22 et P : 61 et P : 62 .

٣٦ ــ أدباء من الجزائر : ص : ١٢٠ •

37 - La colline oubliée : PP : 62 + 68 .

37 - 38 : La colline oubliée : P : 52 + 68 et P : 101 .

39 - Kaddache , Mahfoud : histoire du nationalisme Algerien question Nationale et politique Algerienne 1919 - 1951 SNED. 1980 Tome I P : 24 .

40 - 41 - 42 - 43 - 44 - 45 : ibid:P:25,et P:25 et P:25 et P:24

46 - MAMMERI, Moloud - Le sommeil du Juste - SNED / 10 / 18 - 1979 - P : 218 .

47 - La colline oubliée : P : 64 .

٤٨ ــ شكري ، محمد : مفهومي للسيرة الذاتية الشطارية " الآداب " المجلة اللبنانية ع • خاص بالرواية العربية الجديدة عدد مزدوج ــ رقم ٢ ، ٣ السنة ١٩٨٠ •

49 - 50:La colline oubliée P:187 et P:179 .

٥١ ــ الجماعة ، (تاجماعت) بالبربرية ــ ومعناها المجلس حيث يجتمع رجال القرية لتبادل الأخبار والمشورة ، وتكون في الساحة المركزية للقرية •

52 - MAMMER. M. le sommeil du Juste - Paris, Plon 1955
أما الطبعة التي اعتمدناها في هذا البحث فهي طبعة SNED-10/18 -1979-P:9

53 - 54 - 55 - 56 : ibid P: 125 et P : 128 et P : 143 + 144 et P : 143 + 145 + 146 .

57 - MACCIOCHI , MARIA-AN : Pour GRAMSCI - Le seuil Paris - 1974 - P : 213 .

58 - Le sammeil du Juste : P : 119 .

59 - MAMMERI.M.: L'opium et le bâton . سبقت الاشارة الى هذا المرجع .

60 - Le sommeil du Juste - P : 145 .

61 - 62 - 63 - 64 - 65 - 56 - 67 - ibid - P:71 , P ; 66 , P:65
P:71 , P:72 , P:29 , P: 220 .

68 - MAZOUNI - ABDELLAH : Culture et Enseignement en Algerie et au Maghreb. Paris , MASPERO 1969 - P : 159 .

69 - Le sommeil du Juste : P: 98 .

70 - 71 - 72 - 73 - 74 - 75 : ibid - PP : 104 + 105, P:106 ,
P:18 , P: 184, P:249, P:79 .

اقتباسات جمالية :

٧٦ ـ آ ـ الموقف الثوري في الرواية المغربية المعاصرة ، محسن جاسم الموسوى ، ص : ١٤٧ .
ب ـ أدباء من الجزائر : الدكتور ابراهيم الكيلاني ، ص : ١١١ .

77 - TODOROV, Tzevetan - poetique de la prose - le seuil -
Paris - 1969 - P : 122 .

78 - Goldmann, Lucien - Pour une sociologie du roman - P : 297 .

٧٩ ـ ٨٠ : تداور الأدب القصصي الجزائري ، عائدة باميا : ص : ٤٢ وص : ٢٦٨ .

٨١ ـ في الكتابة والتجربة : الدكتور عبد الكريم الخطيبي ـ ص : ٥٦ .

82 - Le sommeil du Juste : P : 152 وما بعدها

83 - Voir: a) ANTHOLOGIE des ecrivains Maghrebins .
b) Dejeux, Jean يراجع الهامش رقم ١١ من هذا الفصل

84 - Le sommeil du Juste : P : 57 .

85 - Feraoun - Mouloud. le fils du pauvre : le seuil - p: 25 .
وفي الترجمة : ابن الفقير : ص : ٣١ .

٨٦ ـ فرعون مولود : الدروب الوعرة ـ ترجمة : د . حنفي بن عيسى ـ ص ٧٦ .

٨٧ ـ تداور الأدب القصصي الجزائري : عائدة باميا ـ ص : ٢٢٩ .

88 - Le sommeil du Juste - P : 72 .

89 - 90: La colline oubliée : PP : 148 + 162 + 179 . et
P : 164 .

النزعة الرومانتية والبورجوازية الصغيرة — حالة مالك حداد :

آ — مؤلفات مالك حداد :

- le malheur en danger - Paris - la Nef de Paris 1956
  (Poèmes)
- La dernière impression - Paris Julliard 1958
- Je T'offrirai une gazelle : Paris Julliard 1959
- L'élève et la leçon . " " " 1960
- Le Quai aux fleurs ne repond plus " " 1961
- Ecoute et Je t'appelle - Paris - Maspero
  1961

(شعر ومحاولة نقدية)

1 - 2 : Haddad, Malek - les Zeros tournent en rond - édit.
Maspero 1961 - P : 21 - P : 19 .

٣ — د • الخطيبي — في الكتابة والتجربة — ترجمة : محمد برادة — (م • س) ص : ٩٢

4 - La revue - Alif - N° 1 - 1971 Tunis .

٥ — الابداع : فصل الشعر — وزارة الثقافة السورية ١٩٨٣ — (مترجم) •

6 - BAKRI, Tahar : Problematique de l'exil dans (L'élève et leçon), Memoire de Maîtrise de L. Française - Université de Paris3 - Sorbonne nouvelle Année 1980.

حوار مع محمد خير الدين داخل هذه الاطروحة •

٧ — المرجع السابق — حوار مع الشاعر التونسي — منصف غاشم •

٨ — المرجع السابق — حوار مع الروائي والباحث المغربي — الطاهر بن جلون •

٩ — من أمثلة هذا النقد ما جاء في المقدمة التي وضعها سامي الجندي للترجمة العربية التي أعدها لرواية مالك حداد : " التلميذ والدرس " يقول : — " لقد حرت من أي زاوية أنظر اليه ، من زاوية الشاعر أم الفنان أم المناضل أم الانسان " •
التلميذ والدرس : ترجمة د • سامي الجندي — دار الطليعة — ١٩٦٢ •

١٠ — المنفى عند مالك حداد : بكري — الحوار السابق مع الطاهر بن جلون •

١١ — المرجع السابق — الحوار مع محمد خير الدين •

١٢ — التلميذ والدرس — ترجمة سامي الجندي — ص : ٩٢ (م • س)

١٣ — غولدمان — لوسيان — المادية الديالكتيكية وتاريخ الأدب والفلسفة — ترجمة : نادر ذكري — دار الحداثة ١٩٨١ — ص ص : ٨ + ٩ •

14 - Rousset - Jean - Forme et signification - édit : Joce corti Paris 1962 - de L'introduction .

١٥ ـ ١٦ : التلميذ والدرس ـ سامي الجندي ـ ص : ١٩ ـ ص : ٣١ .

١٧ ـ باميا ، عايدة ـ تطور الأدب القصصي ـ ص : ١٢٧ .

١٨ ـ ١٩ ـ ٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٢ ـ ٢٣ : التلميذ والدرس (م) (م ، س) : ص : ٦٤
ص : ٢٧ ـ ص : ٩ ـ ص : ٨٠ ـ ص : ١١ ـ ص ص : ١٣ + ١٤ .

٢٤ ـ غالي شكري ـ أدب المقاومة ـ ص : ١٦٢ .

٢٥ ـ ٢٦ ـ ٢٧ ـ ٢٨ : التلميذ والدرس (م) : ص ص : ٨٩ + ١٠٧ ـ ص : ١٢٣ ـ
ص ص : ١١٤ + ١١٥ ـ ص : ١١٥ .

٢٩ ـ ٣٠ ـ ٣١ : التلميذ والدرس : ص : ١٢١ ـ ص : ١١٢ ـ ص : ٢٠ .

٣٢ ـ ثلاثية محمد ديب : الدار الكبيرة ـ الحريق ـ النول : ترجمة : د . سامي الدروبي
دار الطليعة .

٣٣ ـ كاتب ياسين ـ نجمة ـ ترجمة : ملك أبيض العيسى ـ المؤسسة العربية للنشر .

34 - Mammeri Mouloud - La colline oubliée + le sommeil du Juste .

٣٥ ـ ٣٦ ـ ٣٧ : التلميذ والدرس (م) ص : ٩٤ ـ ص : ٩٣ ـ ص : ٩٦ .

٣٨ ـ صادق هجرس ـ (منشور ...) ـ الثقافة ، الثورة ، والاستقلال .

39 - Malek , Ben - Nabi - Alger - ENNAHDA - 1948
لبيك ـ رواية دينية ـ مالك بن نبي .

٤٠ ـ ٤١ ـ ٤٢ ـ ٤٣ : التلميذ والدرس (م) ص : ٨٧ ـ ص : ٣٦ ـ ص ص : ٦٣ + ٦٤.
ص : ١٢٦ .

٤٤ ـ بتول ستوتي ، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية ١٩٤٥ ـ ١٩٦٢ (على الآلة) .

٤٥ ـ ٤٦ ـ ٤٧ : التلميذ والدرس (م) ص : ٤١ ـ ص : ١١٣ ـ ص : ٥١
(يراجع : الموقف الثوري في الرواية العربية ـ جاسم موسوى ـ ص : ٢١١) .

٤٨ ـ ٤٩ : التلميذ والدرس ـ ص : ٧١ ـ ص : ٢٥ .

50 - L'elève et la leçon P : 62 - (النص الأصلي)

51 - 52 : Ibid - P : 64 - P : 64 .

53 - Bakri, Tahar : Problematique de L'exil dans
" L'elève et la leçon ... " (سبق ذكره)

54 - Le Zeros tournent en rond - Malek Haddad - P : 22 .

٥٥ ـ ٥٦ : التلميذ والدرس (م) ـ ص : ١١٤ ـ ص : ١١٥ .

٥٧ ـ سأهبك غزالة ـ مالك حداد ـ ترجمة : صالح القرماوى ـ الدار التونسية للنشر ـ
ط : ٣ ـ ١٩٧٨ ـ ص : ١٢٦ .

Je T'offrirai une gazelle - Malek Haddad édit. 10 / 18 - SNED 1978 .

٥٨ ـ ٥٩ ـ ٦٠ : سأهبك غزالة (م) ـ ص : ٤٦ ـ ص ص : ٨٨ ـ ٨٩ ـ ص : ٤٢ .

٦١ — " ماسو " : جنرال فرنسي اشتهر بشدته في الدفاع عن الجزائر الفرنسية •
اعتقد أن العبارة فيها خطأ ، والصحيح " وكان مناصرو مندا سيضربون مناصري ماسو " •
والخطأ هذا ، ليس من المترجم بل من النص الأصلي نفسه • — تراجع الترجمة — ص : ٤٤
والنص الأصلي — ص : ٢٨ — الطبعة المشار اليها سابقا •

٦٢ — ٦٣ : سأهبك غزالة — (م) — ص : ٣٥ — ص ص : ١١٠ + ١١١ •

٦٤ — مقدمة " التلميذ والدرس " التي كتبها المترجم : سامي الجندي — الطبعة المشار اليها سابقـــا •

٦٥ — ٦٦ : سأهباء غزالة — (م) — ص : ٨٦ — ص : ٨٢ •

67 - MALEK OUARY : Le grain dans la meule - Paris - Buchet - chastel - Correa - 1956 .

حولت الرواية أخيرا الى فيلم سينمائي من انتاج مؤسسة السينما الجزائرية •

٦٨ — رصيف الأزهار — مالك حداد — ترجمة : أحمد نظير نشوقي : دار الاتحاد — بيروت دون تاريخ — ص : ٧٧ •

٦٩ — ٧٠ — ٧١ — ٧٢ — ٧٣ — ٧٤ : المرجع السابق — ص : ١٧ — ص : ١٢٦ — ص : ١٥ — ص : ٥٧ — ص : ١٢٧ — ص : ٣١ •

٧٥ — عايدة بامية — تطور الأدب القصصي الجزائري — ص : ١٨١ •

٧٦ — رصيف الأزهار •• (م) — ص : ١ •

٧٧ — تطور الأدب القصصي الجزائري — ص : ١٨١ •

٧٨ — رصيف الأزهار •• (م) — ص : ١

79 - GRAMSCI - dans le texte édit. Sociales Paris 1977 PP : 597 - 598 .

٨٠ — مذكرة عن غرامشي — جامعة وهران — لطلاب قسم علم الاجتماع •

81 - Maria . AN . Macciochi - Pour GRAMSCI - le seuil - Paris 1974 - P : 213 .

٨٢ — شرابي ، هشام — المثقفون العرب والغرب — دار النهار للنشر — ١٩٧١ — ص : ١٥ •

83 - Mostefa Lacheraf - L'Algerie Nation et société - SNED - 1976

٨٤ — ٨٥ — ٨٦ : رصيف الأزهار •• (م) — ص : ٩٥ — ص : ٩٢ — ص : ٥١ •

٨٧ — د • الشايبي في الكتابة والتجربة (م • س) — ص : ٩٢ •

٨٨ — ٨٩ : د • باميا — تطور الأدب القصصي الجزائري •• (م • س) — ص : ١٧٨ ص : ٢٨٤ •

٩٠ — ٩١ : د • الشايبي — في الكتابة والتجربة — ص : ٩٢ — ص : ٩٢ •

٩٢ — جاسم الموسوي — الموقف الثوري في الرواية العربية (م • س) — ص : ٢٠٥ •

٩٣ — التلميذ والدرس — ترجمة : د • سامي الجندي — من المقدمة — ص : ١٢ — ١٣ •

٩٤ — ٩٥ : د • غالي شكري — أدب المقاومة (م • س) ص : ١٦١ — ص ص : ١٥٤ + ١٦٣ •

٩٦ — ٩٧ — ٩٨ — ٩٩ — ١٠٠ — ١٠١ : التلميذ والدرس (م) — ص : ٥٩ — ص : ٦٢ ص : ٢٨ — ص : ١٢٤ — ص : ١٣٤ •

١٠٢ — ١٠٣ — ١٠٤ — ١٠٥ : سأهبك غزالة — ص : ١٣٢ — ص : ١٤٧ — ص : ١٠٤
ص : ٧٧ .

١٠٦ — ١٠٧ — ١٠٨ — ١٠٩ — ١١٠ — ١١١ : رصيف الأزهار ... ص : ٨٣ — ص : ٨٨
ص : ١٢ — ص : ٦١ — ص : ٤٧ — ص : ١٣٦ .

١١٢ — الصفحات : ٢٠ + ٢١ وما بعدها من رواية " التلميذ والدرس " هي عبارة عن مقاطعات شعرية (الترجمة المشار اليها سابقا) .

113 - L'elève et la leçon - M. Haddad - édit. Julliard - Paris - 1960 .

١١٤ — د . عايدة باميا — تطور الأدب القصصي ... (م . س) ص : ١٨٠ .

١١٥ — الفصل ٢٣ من رواية رصيف الأزهار ... الترجمة السابقة .

١١٦ — رصيف الأزهار ... الترجمة : ص : ١٣٤ .

١١٧ — د . غالي شكري — أدب المقاومة — ص : ١٥٣ .

119 - Ghani M'RAD - La litterature Algerienne d'exprexion F. édit. OSWALD 1976 - P : 71 .

الرواية والرؤية الماركسية لصراع القوى الاجتماعية في الجزائر المستعمرة : حالة محمد ديب

١ — " ذو الفقار " صحيفة جزائرية تأسست سنة ١٩١٣ .

٢ — ٣ — عن مجلة " الفاروق " عدد ماي ١٩١٤ .

٤ — الخطيبي ، د . عبد الكبير : في الكتابة والتجربة — ص ٥٨ + ٥٩ .

٥ — ظهرت بعض الدراسات الجامعية العامة عن الأدب الجزائري ،

١ — د . نور سلمان — الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير — أطروحة دكتوراه الدولة في الجامعة الاميركية — بيروت ١٩٨١ — دار العلم للملايين .

٢ — د . سعاد محمد خضر — الأدب الجزائري المعاصر ، المكتبة العصرية ، صيدا ١٩٦٧ .

٣ — عبد العزيز شرف ، المقاومة في الأدب الجزائري ، وزارة الثقافة السورية ، دمشق ١٩٧١ .

دراسة حول الثلاثية .

6 - a) I-S. RADJABOVA - MOSCOU 1966

b) Khadda, Belkaid Naget - structuration du discours dans l'oeuvre Romanesque de M. Dib: Analyse de deux exemples typiques (L'incendie) et (qui se souvient de la mer) Paris VIII

c) Deplanques , François - Desir, espace et parole . essaisur la poetique de Med. Dib (Aix. enprovence .

d) Bryson, Josette - la pierre et l'arabesque - les angeles U.C.L.A.

e) Mostefa - Kara, Fawzia (Mme Sari) De la paesie a L'humanisme dans l'oeuvre de M. Dib. Montpellier .

f) Siblot, Paul - les difficultés de la desolienation historique dans l'oeuvre de Dib - Montpellier .

g) Ali - Benali, Zineb - une lecture de Mohamed Dib . Qui se souvrent de la mer et la danse du roi Alger 1975 .

h) Bussienne, Elizabeth - le temps dans le recit et le vecu des personnages de l'oeuvre de Dib Paris VII 1975 .

i) Daubagna, Jean - la Femme Algerienne d'aprés Mohamed Dib (Aix en Provence) 1973 .

j) Belhadj kacem, Noureddine - le thème de la déposseession dans la trilogie de Dib - ORAN .

m) LAOUADI, Ahmed - Annalyse sociologique de la trilogie de M. Dib - le metier à tisser - ORAN - 1977 .

n) Mosefa - Kara, Fawzia - Fantastique, mythes et symboles dans "cours sur la rive sauvage de M. Dib (Montpellier1971)

o) Siblot, paul - la production du texte chez M. Dib - Corpus d'analyse " la danse du roi " Montpellier 1974 .

7 - ARAGON -Louis - les lettres Françaises- un roman qui commence - Du : 08 - 07 - 1954 .

8 - a) MEMMI,ALBERT - Anthologie des écrivains Maghrebins d'expression Française .

b) Dejeux, Jean-1:litterature Maghrebine de langue Française .
2 : la litterature algerienne contemporaine - collection : que sais-Je .

٩ — ديب ، محمد — الدار الكبيرة — الحريق — النول (رواية ثلاثية) — ترجمة د • سامي الدروبي — دار الطليعة — بيروت ١٩٦٨ — ط : ١ — ص : ١٦ + ١٧

10 - Dib, Mohammed - le Metier à tisser

ترجم عنوانها بـ " النول " د • سامي الدروبي - Paris - le seuil (مهنة الحياكة)

١١ — ١٢ — ديب ، محمد — الثلاثية — الترجمة — ص : ٣٦٣ و — ص : ٣٠٣ •

١٣ — " زوج بغال " • قرية صغيرة على الحدود الجزائرية المغربية ، تسمى الآن : " زوج فاقو " .

١٤ — الثلاثية • الترجمة — ص ٤٢٥ •

15 - Senac, Jean: — كان رئيسا لاتحاد الكتاب الجزائريين بعد الاستقلال ، اغتيل في ظروف غامضة ، وهو شاعر التزم بالثورة منذ البداية •

16 - 17 : temoignage - cheretien du - 7 - 02 . 1958 .

18 - Afrique - Action - 13 Mars 1961 .

19 - GOLDMANN - Lucien - Structuralisme , Génétique - édit - Mediations - 1977 - P : 48 .

٢٠ — الثلاثية : الترجمة — ص ١٤٥ •

٢١ — ٢٢ — ٢٣ — ٢٤ — ٢٥ : المرجع السابق : ص ١٥٥ — ص : ١٥ — ص : ١٥٧ ص : ٢٤ — ص : ٢٥ •

26 - Khatibi, Abdekebir - le roman Maghrebin - P : 98..

٢٧ — ٢٨ : الثلاثية : الترجمة : ص ١٤٢ — ص ٩٩ •

٢٩ — اطعم الامريكان : الطفل عمر — الشوكولا — كذلك : ص : ٥٥٠ (الثلاثية) •

٣٠ — الموقف الثوري في الرواية العربية المعاصرة — محسن جاسم الموسوي — ص : ٣٠

٣١ — عطية ، أحمد محمد : البطل الثوري في الرواية العربية الحديثة — وزارة الثقافة السورية ١٩٧٧ — ص ٤٩ •

٣٢ — ٣٣ — ٣٤ — ٣٥ — ٣٦ : الثلاثية (الترجمة) : ص : ٢٦ — ص : ٥٦ — ص : ٤٠ ص : ٥٦ — ص : ٤١ •

٣٨ — ادلى لي بهذه الشهادة ، اضافة الى بعض أفراد عائلة حميد سراج / (محمد باديس) الأديب الجزائري : السائح المحبوب الذي جمع حياة هذا المناضل من أفواه الأهالي ، في أشرطة تسجيل ، وهو يرغب في صياغتها على شكل رواية •

39 - L'Algerie Nation et société , M. LACHERAF .

40 - Nouschi, André - la naissance du nationalisme Algerien - 1914 - 1954 . Edit. Paris minuit 1962 - P : 130 .

٤١ — بوجدرة ، رشيد — التفكك : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع — الجزائر — ١٩٨٢ •
أو يراجع النص بالفرنسية Ráchid Boudjedra)
le demantèlement - édit. Denoël - Paris 1983)
نجد في القسم الخاص ببوجدرة دراسة مطولة عن هذه الرواية •

٤٢ — ٤٣ — ٤٤ — ٤٥ — ٤٦ — ٤٧ — ٤٨ — ٤٩ — ٥٠ — ٥١ : الثلاثية ، الترجمة : ص : ٣٠٧ ، ص ص : ١٠٢ + ١٠٣ ، ص : ٢٦٠ ، ص ص : ٢٤٩ + ٢٥٠ ، ص ص : ١٨٨ + ١٨٩ ، ص ص : ٢١٧ + ٢١٨ ، ص : ١٨٩ ، ص : ٢٢٠ ، ص : ١٩١ ، ص : ١٨٨ •

٥٢ ـ البطل الثورى في الرواية العربية الحديثة ، احمد محمد عطيه : ص : ٥٥

٥٣ ـ ٥٤ ـ ٥٥ : الثلاثية (الترجمة) : ص : ٣٠٤ ، ص : ١٩٥ ، ص : ١٩٦ •

56 - MAAMERI, MOULOUD : le sommeil du Jûste - P : 8 + 96 .

٥٧ ـ ديب ، محمد ـ صيف افريقي ـ ترجمة جورج سالم ـ عبد المسيح بربار ـ مراجعة : بدر الدين قاسم ـ وزارة الثقافة السورية ـ سلسلة الأدب الجزائرى (٤) ص : ١٨٩

٥٨ ـ بتول ، ستوتي ـ الرواية الجزائرية ذات التعبير الفرنسي : ١٩٤٥ ـ ١٩٦٢ ـ جامعة وهران ـ رسالة دبلوم الدراسة المعمقة (غير منشورة ـ مطبوعة على الآلة) •

٥٩ ـ ٦٠ : الثلاثية : (الترجمة) ص : ٢٢٦ ، ص : ٢٠٣ •

٦١ ـ ياسين بو علي ، وسليمان نبهان ـ الأدب والايديولوجيا في سوريا ١٩٦٧ ـ ١٩٧٣ ـ دار ابن خلدون ١٩٧٤ الطبعة الاولى ـ ص : ١٦٥ •

٦٢ ـ الثلاثية (الترجمة) ص : ٢٣٢ •

٦٣ ـ بتول ، ستوتي : الرواية الجزائرية •

٦٤ ـ ٦٥ ـ ٦٦ : الثلاثية (الترجمة) : ص : ٢٧٨ ، ص : ٢٣٤ ، ص : ٢٠٠ •

٦٧ ـ ٦٨ ـ ٦٩ : المرجع السابق : ص : ٢٠٢ ، ص : ٢٠٦ ، ص : ١٦٢ •

٧٠ ـ بلحسن ، عمار : الايديولوجيا الوطنية والرواية الوطنية ـ دراسة ثلاثية محمد ديب رسالة ماجستير ـ جامعة وهران ١٩٨٢ (مكتوبة على الآلة) •

٧١ ـ ٧٢ ـ ٧٣ ـ ٧٤ ـ ٧٥ ـ ٧٦ ـ ٧٧ : الثلاثية (الترجمة) : ص : ١٨٦ ، ص : ١٩٠ ، ص : ١٧٦ ، ص : ٢٢٥ ، ص : ١٨٥ ، ص : ١٨٩ •

٧٨ ـ خورى ، الياس ـ تجربة البحث عن أفق ـ مقدمة لدراسة الرواية العربية بعد الهزيمة ـ منظمة التحرير الفلسطينية ـ مركز الأبحاث ـ بيروت ـ سلسلة : " أبحاث فلسطينية " رقم ٤٤ ـ السنة ١٩٧٤ ـ الصفحة : ١٠٠ •

٧٩ ـ ٨٠ ـ ٨١ : المرجع السابق : ص : ٢٤٨ ، ص : ٢٥٦ ، ص : ٣١٨ •

٨٢ ـ بليخانوف ، جورج : الفن والتصور المادى للتاريخ ـ ترجمة : جورج طرابيشي ـ دار الطليعة ـ بيروت ١٩٧٧ ـ ط : ١ ـ ص : ٨٢ •

٨٣ ـ ٨٤ : المرجع السابق : الصفحة نفسها ـ ص : ٨٣ •

٨٥ ـ ٨٦ ـ ٨٧ ـ ٨٨ ـ ٨٩ ـ ٩٠ : الثلاثية (الترجمة) ص : ١٩٢ ، ص : ٢٠٤ ، ص : ٢٦٥ ، ص : ٢١١ ، ص : ٢٠٧ ، ص : ٢٦٩ •

٩١ ـ الموقف الثورى في الرواية العربية المعاصرة ـ محسن جاسم الموسوى ـ ص : ٤٦ •

٩٢ ـ ان ظاهرة نفي الوطنيين الثوريين والشيوعيين الى الصحراء من قبل الاستعمار • وجدناها كذلك عند مولود فرعون في " الدروب الوعرة " • (راجع القسم الخاص بفرعون في هـــذا البحث) •

٩٣ ـ الموقف الثورى في الرواية : ص : ٣٥ •

٩٤ ـ سعد الله • أبو القاسم ـ دراسات في الأدب الجزائرى الحديث : ص : ١٠٥ •

٩٥ ـ غوركي ، مكسيم : الأصدقاء الثلاثة : دار التقدم ـ موسكو •

٩٦ ـ تجربة البحث عن أفق : الياس خورى : ص : ٣١ (سبق ذكر المرجع) •

٩٧ ـ مركيس ، احسان ـ الأدب والدولة ـ دار الطليعة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٧٧ ـ ص : ٥٧ •

98 - Goldmann, Lucien - Pour une saiologie du roman - édit : idées / gallimanl 1979 - P : 340 .

99 - MAAMMERI , MOULOUD le sommeil du Juste P : 122 .

١٠٠ — ١٠١ — ١٠٢ — ١٠٣ — ١٠٤ — ١٠٥ — ١٠٦ : الثلاثية (الترجمة) :
ص : ٤١٠ ، ص : ٤٧٣ ، ص : ٤٧٧ ، ص : ٤٣٦ ، ص : ٤٤٣ ، ص : ٤٦٤ ،
ص : ٤٩٥ .

١٠٧ — ١٠٨ — ١٠٩ — ١١٠ — ١١١ — ١١٢ — ١١٣ : المرجع السابق : ص : ٤٣٠ .
ص : ٤٥٥ + ٤٥٦ ، ص : ٤٩١ ، ص : ٥٠٢ ، ص : ٥١٩ ، ص : ٤٥٧ ،

١١٤ — بارت ، رولان — درجة الصفر للكتابة — ص : ٤٦ .

١١٥ — الثلاثية (الترجمة) — ص : ٤٧٥ .

١١٦ — بتول ستوني : الرواية الجزائرية (على الآلة)

١١٧ — ١١٨ — ١١٩ : الثلاثية (الترجمة) : ص : ٤٢٩ ، ص : ٤٨٧ ، ص : ٥١٤ .

كاتب ياسين : تجربة في الرواية الجديدة :

وضم اليه مولود فرعون ، ومحمد ديب ، وجان عمروش .

٣ ـ ٤ : من محاضرة القاها في الجزائر العاصمة سنة ١٩٦٧ .

هي ثلاثية مسرحية قدم لها ادوارد غليسون (EDUARD GALISSONT)
مثلت : " مسحوق الذكاء " على مسرح Epée - de -Bois سنة ١٩٦٧ تضم الثلاثية
المسرحيات التالية :
الجثة المطوقة ـ a) le Cadavre encerclé
الأجداد يزدادون ضراوة ـ b) Les ancêtres redoublent de ferocité
مسحوق الذكاء ـ c) la poudre d'intelligence
ترجم الى العربية : " الجثة المطوقة " و " الأجداد يزدادون ضراوة " مع المقدمة التي
كتبها " غليسون " ، ترجمة : ملكة ، أبيض ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر .
ط : ٢ ـ نوفمبر ١٩٧٩ .

٧ ـ د . الخطيبي ـ في الكتابة والتجربة (م . س) ـ ص : ١٠٠ .

٨ ـ عمل كاتب ياسين مراسلا لجريدة : " Alger - republicain " اليسارية مابين
١٩٤٨ ـ ١٩٥٠ ـ وقد عمل في هذه الجريدة محمد ديب كذلك وفي هذه الفترة
بالذات .

١٠ ـ في حوار أجريته معه في شتاء ١٩٧٧ ، نشرت جزءا منه في صحيفة " الجمهورية " ـ وهران ،
٢٦ نوفمبر ١٩٧٨ ـ الزاوي أمين .

ترجمها الى العربية : رشيد بن حدو ـ دار ابن رشد للطباعة والنشر ـ الشركة المغربية
للناشرين المتحدين ـ ط : ١ ـ ١٩٨٢ .

ملاحظة : حصل كاتب ياسين على جائزة جان عمروش سنة ١٩٦٣ ، كما حصل على جائزة
" اللوتس " الخاصة باتحاد الكتاب الأفروآسيويين سنة ١٩٧٢ .

١٣ ـ كاتب ياسين ـ نجمة ـ ترجمة : ملكة أبيض العيسى ـ المؤسسة العربية للدراسات
والنشر ـ بيروت ـ ط : ٢ ـ ١٩٨٠ ـ ص : ٢٥ .

1 - Philippe van tieghem - Pierre Josserand . Dictionnaire des litteratures . P . U . F - 1968 .

2 - Rosselot - Jean - Dictionnaire de la Française Contenporaine Paris - Larousse - 1968 .

5 - Kateb Yacine : Soliloques - édit. reveil Bonois - 1946 .

6 - Kateb Yacine : Le cercle des repressailles - Paris - Le seuil - 1959 .

9 - Kateb Yacine - Nedjma ou le poème ou le couteau - édit. Mercure de France - 1948 .

11 - Ben Jelloun , Tahar - Harrouda . édit. Denoel (Les lettres nouvelles) Paris - 1973 .

12 - Khatibi - A. le livre du Sang - :

Kateb Yacine - NEDJMA - le seuil - 1956

14 - Djebar, Assia - les enfants du nouveau monde. édit. 10/18 - Avril - 1978.
Les Alouettes naïves-édit.10/18 et SNED - 2ème trimestre 1978

53 - Kateb. Y - NEDJMA - Seuil 1956 - 1ère édit .

٥٤ _ ٥٥ _ ٥٦ : بامية ، عايدة أديب _ تطور الأدب ... (م . س) _ ص : ٢٧١
ص : ٢٧٤ _ ص : ٢٧٠ .

٥٧ _ شكري ، د . غالي . أدب المقاومة _ دار الآفاق الجديدة _ بيروت _ ط : ٢ _
١٩٧٩ _ ص : ١٦٩ .

٥٨ _ بامية ، عايدة أديب ، تطور الأدب القصصي الجزائري _ ص : ٢٧٣ .

٥٩ _ شكري ، د . غالي _ أدب المقاومة _ ص : ١٦٥ .

60 - Jeune Afrique - N° 324 26 Mars 1967 حوار مع كاتب ياسين

٦١ _ الخطيبي ، د . عبد الكبير _ في الكتابة والتجربة _ ص : ١٠١ .

٦٢ _ صدرت " المضلع المرصع بالنجوم " سنة ١٩٦٦ أي بعد حوالي سنة من الانقلاب العسكري
الذي حدث في ١٩ جوان ١٩٦٥ ، وقد ضم اليها بعض المقاطع التي أسقطها من " نجمة "

٦٣ _ حوار مع جريدة " L'Action " التونسية : بتاريخ ١١ أوت ١٩٥٨ .

64 - 65 - 66: Dejeux - Jean - la litterature Magh. de L.
Française - P:218 - P : 220 (من الفصل الخاص بكاتب ياسين)

67 - EUROPE - Juillet - Août 1976 - N° Special - La litterature
Alg. N° 567 - 568

68 - MECHAKRA. Yamina -la grotte éclatée - SNED - 1979
(مقدمة بقلم كاتب ياسين بعنوان : أطفال الكاهنة)

٦٩ _ نجمة (النص المترجم) _ ص : ٢٥٠ .

٧٠ _ الخطيبي ، د . عبد الكبير _ في الكتابة والترجمة _ ص : ٩٩ .

٧١ _ قدمت الى كلية الآداب _ جامعة الجزائر _ قسم اللغة الانجليزية رسالة لنيل : (D.E.S)
(دبلوم الدراسات العليا) للطالب حسين مناصري عام ١٩٦٨
William Faulkner "the Souad and the fury" NEDJMA -

٧٢ _ تصريح أدلى به كاتب ياسين لعايدة أديب باميا _ يراجع تطور الأدب القصصي الجزائري
ص : ٧٩ .

٧٣ _ د . الخطيبي _ في الكتابة والتجربة _ ص : ١٠٤ .

74 - DEJEUX JEAN - La litterature - P : 220 .

٧٥ _ د . الخطيبي (م . س) _ ص : ٩٦ .

75 - Les lettre nouvelles : Juillet - Août - 1956 - P : 112

٧٧ _ بامية ، عايدة أديب _ تطور ... (م . س) _ ص : ١٣٨ .

78 - Les lettres. Françaises 11-17octobre (حوار مع كاتب ياسين)
1955 - P : 8

79 - DANINOS . Guy : Les nouvelles tendances du roman alg .
d'exp. F.édit. NAAMAN - Canada - 1978 .

80 - Dejeux - Jean - la litterature - Magh... P : 226 .

٨١ _ الخطيبي ، محمد كامل _ المغامرة المعقدة : مقدمة في تاريخ العلاقة بين المجتمع العربي
والغرب كما يظهرها الفن الروائي في نشوئه وتطوره _ وزارة الثقافة السورية _ ١٩٧٦ _
ص : ١٣٩ .

82 - Algerie - Actualité: 24 Octobre N° 314 (حوار مع كاتب ياسين)
1971 .